موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

ندوات تلفزيونية

الاسلام منهج حياة
موسوعة الاخلاق الاسلامية
الرد الجميل

www.nabulsi.com
info@nabulsi.com

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - الإسلام منهج حياة - الدرس (01-30) : علاقة الإنسان بمن حوله 1
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-08-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ جميل :

بداية البرنامج نسج حول الإنسان ، الذي تميز عن كل المخلوقات بالتكريم والاختيار ، ونود منكم فضيلة الدكتور إلقاء الضوء على هذا الكائن المتميز ، ودائرة سعادته ، ما هي الأساسيات التي يطلبها الإنسان العاقل ؟.

الأساسيات التي يطلبها الإنسان العاقل :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آل بيته الطاهرين ، وعلى صحابته الغر الميامين ، أمناء دعوته ، وقادة ألويته، وارضَ عنا وعنهم يا رب العالمين .

أستاذ جميل ، الإنسان هو المخلوق الأول ، والمخلوق المكرم ، والمخلوق المكلف، هو في حقيقته عقل يدرك ، وقلب يحب ، وجسم يتحرك ، وغذاء العقل العلم ، وغذاء القلب الحب ، وغذاء الجسم الطعام والشراب ، والإنسان جُبل أو فُطر على حبّ وجوده ، وعلى حبّ سلامة وجوده ، وعلى حبّ كمال وجوده ، وعلى حبّ استمرار وجوده ، أي إنسان كائن من كان من آدم إلى يوم القيامة ، جُبل على حبّ وجوده ، صرح بهذا أو لم يصرح ، وعلى حبّ سلامة وجوده ، وعلى حبّ كمال وجوده ، وعلى حبّ استمرار وجوده.

الاستقامة على منهج الله تحقق للإنسان سلامة وجوده :

النقطة الدقيقة أن الاستقامة على منهج الله تحقق له سلامة وجوده ، و النقطة الثانية أن الاستقامة لا تعني السعادة ، ولكنها تعني السلامة ، لأن الإنسان أعقد آلة في الكون، ولهذه الآلة بالغة التعقيد تعقيد إعجاز لا تعقيد عجز ، لهذه الآلة صانع حكيم ، ولهذا الصانع الحكيم تعليمات التشغيل والصيانة ،

فالجهة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع تعليماتها هي الجهة الصانعة ، والإنسان ولو بدافع من حبه لذاته ، أو حبه لسلامته ، ينبغي أن يطيع الله عز وجل، لأن العلاقة بين الطاعة وبين النتائج علاقة علمية أي علاقة سبب بنتيجة ، ولأن العلاقة بين المنهيات والنتائج علاقة علمية أيضاً ، فالإسلام منهج موضوعي، لو أن الطرف الآخر ، أو لو أن إنساناً لا يؤمن بالدين أصلاً أخذ بهذا المنهج لقطف كل ثماره في الدنيا ، بينما المؤمن يقطف ثماره في الدنيا والآخرة ، فقد جُبل الإنسان على حبّ وجوده ، وعلى سلامة وجوده ، أما كمال وجوده يحتاج إلى عمل صالح ، قال تعالى :

(فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

(سورة الكهف الآية : 110)

حينما يبذل الإنسان من ماله ، من وقته ، من علمه ، من خبرته ، من جاهه ، حينما يعيش للآخرين ، حينما يحمل همّ أمته ، حينما يسهم في حلّ مشكلاتها ، حينما يسهم في إسعادها ، حينما يقدم لربه الغالي والرخيص ، والنفس والنفيس ، عندئذٍ يسعد يسلم باستقامته على أمر الله ، ويسعد بالعمل الصالح ، قال تعالى :

(فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

أما استمرار وجوده ، الإنسان له عمر ، ويموت ، لكن حينما يربي أولاداً ليكونوا خلفاء من بعده ، يكون قد حقق استمرار وجوده ، فالله عز وجل يُطمئن هذا المؤمن ويقول له :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)

(سورة الطور)

أية سعادة تتحقق لهذا الإنسان حينما يضمن سلامة وجوده لاستقامته على أمر الله؟ وحينما يضمن سعادته الكبرى بالعمل الصالح ، وحينما يضمن استمراره بعد موته من خلال أولاده ، هذه جبلة الله عز وجل ، والفطرة التي فُطر الناس عليها كائناً من كان ، في كل زمان وفي كل مكان .

الجهل أعدى أعداء الإنسان والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به :

لذلك الإنسان حينما يجهلُ يجهل أسباب سلامته ، وسعادته ، قد يسأل سائل سؤالاً دقيقاً : ما دام الإنسان قد جُبل على حبّ وجوده ، وحبّ سلامة وجوده ، وعلى حبّ كمال وجوده ، وعلى حبّ استمرار وجوده ، لماذا يكون الشقاء في الأرض ؟ الشقاء سببه الجهل ، والجهل أعدى أعداء الإنسان ، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به .

لذلك إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم ، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم ، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم ، والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك ، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً ، ويظل المرء عالماً ما طلب العلم ، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل .

الأستاذ جميل :

دكتور أين هي السعادة في التكاليف ؟ افعل ولا تفعل ، ألا يعكر صفو السعادة الأمر والنهي ، الترغيب والترهيب ؟.

الدين جاء لإسعاد البشر وحلّ مشاكلهم :

الدكتور راتب :

والله الذي أراه أن الدين إنما جاء لإسعاد الناس ، وأنا أقول لك الآن بكل صراحة : أنا يعنيني من الدين أن تحل مشكلتي مع أسرتي ، ومع أولادي ، من خلال تطبيق منهج الله ، يعنيني من الدين أن أسعد مع ربي ، أن أعرفه ، أن أستقيم على أمره ، أن أقبل عليه ، يعنيني من الدين أن تكون علاقتي مع الخلق علاقة رائعة ، علاقة تفاهم وتعاون وعلاقات إيجابية ، يعنيني من الدين أن أنجح في عملي ، يعنيني من الدين أن أنجح مع صحتي ، فحينما يكون هذا الدين داعماً لهذه الكليات الكبيرة في حياة الإنسان ، الكلية الأولى: علاقته بربه ، والكلية الثانية : علاقته بأهله وأهله ، والكلية الثالثة : علاقته بمحيطه ، بمن حوله ، من جيران ، من أصدقاء ، من زملاء ، من أقرباء ، أو من عامة البشر ، أو من أعداء ، هناك علاقات نموذجية ، ويعنيني من الدين أن أنجح بعملي ، شرف الإنسان عمله منه يرتزق ، ويعنيني من الدين أن أعيش حياةً أتمتع بها بصحة طيبة .

لذلك عنوان هذا البرنامج "الإسلام منهج حياة" ، فهذا الإسلام تعليمات الصانع ، بنجاحك مع ربك ، ومع أسرتك ، ومع أقاربك ، ومن حولك ، ومع عملك ، ومع صحتك فهذا الدين الذي يسعد الإنسان ، هناك قضايا في الدين لا تعد ولا تحصى ، لا تعنيني لا من قريب ، ولا من بعيد ، أية قضية لا يبنى عليها حكم شرعي لا قيمة لها في البحث والدرس ، نريد ديناً هو دين الحياة ، نريد ديناً هو دين السلامة، دين السعادة ، دين التألق في العمل ، دين التألق في الصحة ، لعل الله سبحانه وتعالى يوفقنا في هذه الحلقات القادمة ببيان وجهة نظر الدين في هذه الكليات الخمس ، العلاقة مع الله ، والعلاقة مع الأهل والأولاد ، والعلاقة مع الأقارب وبقية الناس ، والعلاقة في العمل ، والعلاقة مع الصحة .

الأستاذ جميل :

دكتور ، ينظر الفقير إلى الغني نظرة يظنه أسعد الناس ، وكذلك ينظر الضعيف إلى القوي فيحسبه الأوفر حظاً ، والسؤال هنا أين مكان السعادة والحظوة ؟ وكيف السبيل إليها ؟.

سعادة الإنسان تأتي من استقامته على أمر الله عز وجل :

الدكتور راتب :

قيل : إن الله يعطي الصحة ، والذكاء ، والمال ، والجمال ، للكثيرين من خلقه ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين ، في النفس فراغ لا يملأه إلا الإيمان بالله ، في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ، في النفس حاجة إلى معرفة الله ، حاجة إلى أن يرى منظومة فكرية تقدم له تفسيراً صحيحاً ، واقعياً ، عملياً ، عميقاً ، متناسقاً ، للكون ، والحياة ، والإنسان ، تقدم له تفسير ظواهر كبرى للحياة ، ظاهرة المرض ، ظاهرة الفقر ، هذه ظواهر نعيشها جميعاً ما تفسيرها ؟ ما تعديلها ؟ ما حكمتها ؟ الدين قدم للإنسان أروع تفسير شمولي ، عميق ، دقيق ، متناسق لكليات الكون ، والحياة ، والإنسان .

فلذلك الإنسان أعقد آلة في الكون ، فحينما يكون الإنسان على منهج ربه فيسلم ويسعد ، وهذا هو الهدف من هذا البرنامج إن شاء الله ، أن نقدم للأخوة المشاهدين ما في الدين من توجيهات رائعة تحقق للإنسان نجاحاته كلها .

ذلك لأن الإنسان لا يسمى ناجحاً في الحياة إلا إذا نجح نجاحاً شمولياً ، فالذي ينجح في تحصيل مالٍ وفير ، ويهمل أهله وأولاده ، لا يعد ناجحاً ، والذي ينجح في بيته ولا ينجح في عمله لا يعد ناجحاً ، والذي ينجح في كليهما ولا ينجح في صحته لا يعد ناجحاً .

فأنا أنطلق في هذا البرنامج إن شاء الله من أن النجاح لا يعد نجاحاً إلا إذا كان شمولياً .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - الإسلام منهج حياة - الدرس (02-30) : علاقة الإنسان بمن حوله 2
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-08-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ جميل :

دكتور ، جاءت الأوامر الإلهية نظاماً متكاملاً حتى شبَّه النبي صلى الله عليه وسلم عمله وعمل الأنبياء من قبله كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وجملها ، ما هو خط السير الذي وضع للإنسان حتى يسير عليه في حياته فيسعد ويكون من الراضين المرضيين ؟.

معرفة الله أصل في نجاح الإنسان :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

أستاذ جميل كأنني أتمنى أن أوضح معالم هذا البرنامج ، وأبعاد هذا البرنامج فالذي انطلقنا منه أن هذا الإنسان أعقد آلة في الكون ، وتعقيده تعقيد إعجاز لا تعقيد عجز ، ولهذه الآلة بالغة التعقيد صانع حكيم، عليم ، عظيم ، ولهذا الصانع الحكيم العليم العظيم تعليمات التشغيل والصيانة ، فالإنسان انطلاقاً من حبه لذاته ، ومن حرصه على سلامته ، ومن رغبته في سعادته ، يطبق تعليمات هذا الصانع العظيم ، خالق السماوات والأرض رب العالمين .

لذلك انطلقنا في هذا البرنامج من أن علاقة الإنسان بربه تكون بمعرفته أولاً ، وبحمل نفسه على طاعته ثانياً ، وعبادته ثالثاً ، والتقرب إليه بالعمل الصالح رابعاً ، عندئذٍ تسلم هذه النفس وتسعد ، وتتصل نعم الدنيا بنعم الآخرة .

فلذلك أول فقرة ، أو لنسميها محطة ، أول محطة من محطات هذا البرنامج الذي أرجو الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لتوضيح معانيه الدقيقة ، وأبعاده الطليقة ، أننا جعلنا المحطة الأولى في هذا البرنامج علاقة الإنسان بربه ، معرفة ، وعبادة ، وطاعة في التفاصيل وتقرباً إليه ، من أجل أن نسلم ونسعد ، لأن كل إنسان جبل على حبّ وجوده ، وعلى حبّ سلامة وجوده ، وعلى حبّ كمال وجوده ، وعلى

حبّ استمرار وجوده ، نعرفه من آياته الكونية خلقه ، ومن آياته التكوينية أفعاله ، ومن آياته القرآنية كلامه ، أما المنهج فقد جاء في القرآن الكريم ، وبيّنه النبي المصطفى عليه أتم الصلاة والتسليم ، هذه المحطة الأولى .

فإنك إن عرفت الله عرفت كل شيء ، وإن غابت عنك معرفة الله غاب عنك كل شيء ، ولعل معرفة الله أصل في نجاح الإنسان ، إن كان هناك فصول في حياته فنجاحه في فصل معرفة الله أصل كل نجاح ، وسبب كل نجاح .

النجاح لا يكون نجاحاً إلا إذا كان شمولياً :

أما المحطة الثانية : أهله وأولاده أقرب الناس إليه .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ)

(سورة التحريم الآية : 6)

كيف تكون العلاقة بالزوجة علاقة ناجحة ؟ علاقة حب ؟ علاقة وئام ؟ علاقة نصح ؟ علاقة تعاون ؟ علاقة تفاهم ؟ علاقة سلامة ؟ علاقة سعادة ؟ هناك منهج ، منهج من عند خالقنا ، لأنه خبير .

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر)

وسوف نقف في محطة ثانية في العلاقة الزوجية متى تكون مسعدة ؟ متى تصحح؟ متى تعالج ؟ لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

(وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(سورة الروم الآية : 21)

فالمودة والرحمة من خلق الله عز وجل ، وهذا هو الأصل ، فهناك أسباب للسعادة الزوجية ، وهناك أسباب للشقاء الزوجي ، وسوف نقف في المحطة الثانية ملياً إن شاء الله نتحدث عن أسباب السعادة ، وعن أسباب الشقاء ، نأخذ بأسباب السعادة ونبتعد عن أسباب الشقاء ، هذه المحطة الثانية .

في هذا البرنامج ننطلق قبل أن أتابع من أن النجاح لا يكون نجاحاً إلا إذا كان شمولياً ، أنا لا أصدق أن ينجح الإنسان في كسب ماله ولا ينجح في بيته ، أو أن ينجح في بيته ولا ينجح في عمله ، أو أن ينجح في بيته وعمله ولا ينجح مع صحته .

فالآن المنطلق الجديد في النجاح ، النجاح لا يكون نجاحاً إلا إذا كان شمولياً .

المحطات الكبرى في النجاح :

1 ـ علاقة الإنسان بربه :

بدأنا في المحطة الأولى في معرفة الله ، وطاعته ، وعبادته ، والتقرب إليه .

2 ـ علاقة الإنسان بأهله و أولاده :

ثنينا في المحطة الثانية علاقته بأهله وأولاده ، فالإنسان حينما يربي أولاده تربية إسلامية يسعد بهم ، ويسعدون به ، بل إن الله عز وجل يقول :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة الطور الآية : 21)

قال علماء التفسير :

(أَلْحَقْنَا بِهِمْ)

أعمال ذريتهم ، كل أعمال ذراريهم إلى يوم القيامة في صحيفة الآباء والأمهات .

3 ـ علاقة الإنسان بعمله :

أما المحطة الثالثة : الإنسان له أهل ، له أقارب ، له جيران ، له أصدقاء ، له زملاء ، هناك عامة الناس كيف تكون العلاقة مع هؤلاء ناجحة ؟ كيف أسعد بمن حولي ؟ كيف يسعد بي من حولي ؟ هذه محطة ثالثة ، فضلاً عن محطته معرفته بالله وعنايته بأهله وأولاده ، الآن أن تكون علاقته طيبة مع من حوله .

((إياكم وفساد ذات البين فإنها الحالقة ، حالقة الدين لا حالقة الشعر))

[من الجامع الصغير عن الزبير بن العوام]

4 ـ علاقة الإنسان بمن حوله :

أما المحطة الرابعة : الحقيقة هذه المحطة قد تبدو بعيدة عن محور برنامجنا ولكنني أراها من أشد المحطات لصوقاً بالبرنامج .

مسلم يعيش العصر الحديث ، هناك حروب ، و اجتياحات ، و ظلم في العالم لا يعلمه إلا الله ، قال عليه الصلاة والسلام :

((تمتلئ الأرض ظلماً وعدواناً))

[ابن ماجه عن عبد الله بلفظ قريب منه]

يوم يذوب قلب المؤمن في جوفه مما يرى ، ولا يستطيع أن يغير ، دول تُحتل ، ثروات تُنهب ، شباب يقتلون ، الدماء تسفك كل يوم بالمئات ، بالألوف ، المسلم كيف يفسر هذا ؟ لا بد من التوحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد .

أنواع الجهاد :

ولا بد من أن يعلم علم اليقين ما الجهاد ؟ هناك جهاد نفسي ، جهاد النفس والهوى، وهناك جهاد دعوي:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

(سورة الفرقان)

وهناك جهاد بنائي :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

(سورة الأنفال الآية : 60)

وهناك جهاد قتالي ، إذاً في الموضوع الذي سميناه الشأن العام ، موضوع الجهاد، موضوع النصر ، موضوع التوحيد ، موضوع ـ قد يبدو العنوان غريباً ـ المستحيلات ، أي مستحيل وألف ألف مستحيل أن يسمح الله لأمة قوية ، جبارة ، طاغية ، أن تنجح خططها على المدى البعيد ، مستحيل وألف ألف مستحيل أن يتخلى الله عن عباده المؤمنين .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال الآية : 36)

هذه المحطة الرابعة .

5 ـ علاقة الإنسان بالشأن العام :

لكن المحطة الخامسة هذا الجهاد ، وذاك النصر ، يجب أن يتوج بالدعوة إلى الله، لأن الله عز وجل اختار هذه الأمة لتكون وسيطة بينه وبين عباده ، فكيف ندعو إلى الله ؟ ندعو بالقدوة قبل الدعوة ،

وبالإحسان قبل البيان ، وبالأصول قبل الفروع ، وبمخاطبة القلب والعقل معاً ، ندعو إلى الله بالمضامين لا بالعناوين ، بالمبادئ لا بالأشخاص ، هناك قواعد رائعة سوف نفصلها إن شاء الله في محطتها : محطة الدعوة إلى الله .

ولكن هذا الإنسان يكسب رزقه من عمله ، فكيف ينجح في عمله ؟ كيف يسلم في عمله ؟ كيف يكون عمله عبادة ؟ بالمنطلق الأساسي عمل الإنسان الذي يرتزق به إن كان في الأصل مشروعاً ، وسلك به الطرق المشروعة ، وابتغى به كفاية نفسه وأهله ، وخدمة الناس، ولم يشغله عن عبادة أو عن واجب ، أصبح عبادة لله عز وجل .

لذلك قالوا : عادات المؤمن عبادات ، وعبادات المنافق سيئات ، هذه محطة سادسة العمل الذي ترتزق منه .

6 ـ علاقة الإنسان بصحته :

وأما المحطة السادسة محطة الصحة ، هناك الطب النفسي ، هناك الطب الطبيعي، وهناك الطب الوقائي ، وهناك الطب العلاجي ، لأن الإنسان مرتكز لنفسه ، والوقت وعاء عمله ، أن يمضي العمر لا طريح الفراش ، بل قائماً على قدميه ، وسائل الرياضة ، وتنظيم الغذاء والمتابعة للأمور الصحية ، هذه لا تطيل العمر في عقيدة المسلمين ، ولكنك تعيش هذا العمر نشيطاً ، معطاءً ، تستطيع أن تحقق ذاتك في هذا العمر .

فلذلك يمكن في هذه المحطة الأخيرة أن نتحدث ملياً عن الطب الطبيعي ، وبذل الجهد مع راحة النفس، وكأن أجدادنا حياتهم كانت شاقة ، وكانوا يتمتعون بعلاقات إنسانية رائعة ، وهذا سبب صحتهم ، بينما أهل هذا الزمان راحة ما بعدها راحة ، كل شيء جاهز ، وشدة نفسية ما بعدها شدة .

ولعل مؤتمراً عقد في أوربا يؤكد أن الكسل العضلي ، والشدة النفسية ، وراء تفاقم أمراض العصر ، فنحن في محطة علاقتنا بالله جلّ جلاله ، ومحطة علاقتنا بأسرتنا وأولادنا ، ومحطة علاقتنا بمن حولنا، ومحطة علاقتنا بالشأن العام ، ومحطة علاقتنا بأعمالنا التي نرتزق منها ، ومحطة أخيرة علاقتنا بصحتنا .

وهذا البرنامج بهذه الأبعاد وتلك المحطات أسأل الله سبحانه وتعالى أن نوفق لتوضيح دقائقه ، وجزئياته ، وبيان أبعاده .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - الإسلام منهج حياة - الدرس (03-30) : علاقة الإنسان بالله 1 ، الأمانة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-08-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ جميل :
فضيلة الدكتور ، هناك مقولة : "من عرفه نفسه عرف ربه" ، من هو هذا الإنسان؟ نريد التعرف عليه لننطلق إلى معرفة الحق سبحانه وتعالى ؟.

الإنسان هو المخلوق الأول رتبة لأنه قبل حمل الأمانة :

الدكتور راتب :
أستاذ جميل الإنسان هو المخلوق الأول رتبة ، ذلك لأن الله سبحانه وتعالى حينما قال :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ)

(سورة الأحزاب الآية : 72)

أي على كل الخلائق .

(فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية : 72)

قال : أنا لها يا رب ، وقبل حمل الأمانة ، فلما قبل حمل الأمانة كرمه الله عز وجل أعظم تكريم ، قال تعالى :

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

(سورة الإسراء)

أنا أريد أن أبين لأخوتي المشاهدين أنه لأنك من بني البشر فقط ، لأنك من بني البشر ، ذكر كنت أو أنثى ، فأنت المخلوق الأول عند الله ، يؤكد هذا المعنى الإمام علي رضي الله عنه حيث يقول :

" ركب الملك من عقل بلا شهوة ، وركب الحيوان من شهوة بلا عقل ، وركب الإنسان من كليهما ـ الآن موطن الشاهد ـ فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة ، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان " .

الإنسان عندما قبل حمل الأمانة سخر الله له مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الْأَرْض :

الإنسان إما أن يكون خير البرية قاطبة ، أو أن يكون شر البرية قاطبة .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ * إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

(سورة البينة)

فالإنسان لأنه قبل حمل الأمانة في عالم الأزل يوم عرضت على الخلائق جميعاً **(فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا)** الإنسان قبل حملها ، وقال : أنا لها أهل يا رب ، ولما قبل حمل الأمانة سخر الله له : **(مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)**

(سورة الجاثية الآية : 13)

ولا شك أن المسخر له أكرم من المسخر ، فلذلك الإنسان هو المخلوق المكرم .

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

(سورة الجاثية)

تكريماً لهذا الإنسان ، هو الأول ، وهو المكرم .

الأستاذ جميل :

دكتور ، هو الأول رتبة إذاً تقدم على الملائكة ، هل لي بسؤال ؟ هذا الإنسان الذي قبل حمل الأمانة ، من المقصود بهذه الأمانة التي حملها بالقِدم ؟ آدم عليه السلام .

التزكية ثمن الجنة و الناس جميعاً قبلوا حمل الأمانة :

الدكتور راتب :

لا ، بنو البشر جميعاً ، نحن جميعاً خلقنا في عالم الأزل بنص الآية الكريمة :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ)

وهذه الكلمات الثلاث تعني الكون كله ، والكون كله ما سوى الله ،

(فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

مثلاً : لو أن أباً غنياً قال لأولاده جميعاً : من منكم يقبل أن يذهب ويدرس ويأتي بدكتوراه أما إن لم تذهبوا لكم عندي دخل محدود ، وبيت ، وزوجة ، أما الذي يذهب ويأتي بدكتوراه أعطيه نصف المعمل، هناك عرض .

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

أي قبل حمل الأمانة ، والأمانة نفسه التي بين جنبيه ، بعهدته ، بأمانته .

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

(سورة الشمس)

فالذي يزكي نفسه بتعريفها بربها ، والذي يزكي نفسه بحملها على طاعته ، والذي يزكي نفسه بالأعمال الصالحة ، والذي يزكي نفسه بالإقبال على الله ، هذه التزكية هي ثمن الجنة ، جاء الله بنا إلى الدنيا كي نعد ثمن الجنة ، وثمن الجنة التزكية .

الفلاح و النجاح :

لذلك كلمة

(أَفْلَحَ)

أتت مرات ثلاث فقط في القرآن ،

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

دنسها بالمعصية .

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)

(سورة المؤمنون)

فهذه كلمة الفلاح تعني النجاح مع الله ، أما النجاح تعني النجاح في الدنيا ، قد ينجح الإنسان في كسب المال ، قد ينجح في اعتلاء منصب رفيع ، هذا نجاح في الدنيا فيسمى تحقيق الأهداف في الدنيا نجاحاً ، أما تحقيق الأهداف الكبرى التي خلق الإنسان من أجلها تسمى فلاحاً ،



(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى)

(سورة الأعلى)

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

فالإنسان هو المخلوق الأول ، والمخلوق المكرم ، والمخلوق المكلف ، الله عز وجل كلف الإنسان أن يعبده ، وبخلاف مفهوم عامة المسلمين الضيق المحدود للعبادة ، العبادة أن ينصاع لمنهج الله بكل تفاصيله ، ومنهج الله عز وجل شمولي شمولية تفوق حدّ الخيال ، يبدأ هذا المنهج من فراش الزوجية ، وينتهي بالعلاقات الدولية .

من كان كاملاً في تطبيق تعليمات الصانع استحق جنة عرضها السماوات والأرض :

ما من حركة ، ولا سكنة ، ولا نشاط ، ولا وقت ، ولا حيز ، ولا مجال ، إلا وهناك حكم شرعي افعل ولا تفعل ، فكأن هذا الإنسان أراده الله أن يكون كاملاً عن طريق تطبيق تعليمات الصانع ، فإذا كان كاملاً من خلال تطبيق تعليمات الصانع استحق جنة عرضها السماوات والأرض ، فيها :

((ما لا عين رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

أستاذ جميل ، لو أن رقم واحد في الأرض ، وأصفار إلى الشمس ، وبين الأرض والشمس 156 مليون كم ، ولو أن كل ميليمتر يوجد صفر ، تصور رقم واحد بالأرض و156 مليون كم أصفار بواقع كل ميل صفر ، هذا الرقم الذي يصعب تصوره ، لو وضع صورة ، ووضع في المخرج إشارة اللانهاية فقيمته صفر ، أي رقم نسب إلى اللانهاية فهو صفر ، والدنيا بكل ما فيها من أموال ، من أعمار مديدة ، من ثروات طائلة ، من مناصب رفيعة ، من متع مبهجة ، من انغماس في الملذات ، ما دامت منسوبة إلى الدار الآخرة فهي صفر ، لذلك تعطى الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب ، لكن الآخرة لمن يحب حصراً.

تسخير الكون للإنسان تسخير تعريف و تكريم :

الإنسان هو المخلوق الأول لأنه قبل حمل الأمانة ، ولأنه قبل حمل الأمانة كرمه الله ، فسخر له

(مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

تسخير تعريف وتكريم ، تسخير التعريف من أجل أن يؤمن بالله ، هذا الكون ينطق بوجود الله ، وينطق بوحدانيته ، وينطق بكماله ، وفي كل دقيقة من دقائقه ، وفي كل جزئية من جزئياته ، دليل ساطع بيّن على عظمة الله ، فهذا الكون مظهر لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى ، هذا الكون هو منعكس لكمالات الله عز وجل ، فالإنسان خلقه الله ليسعده .

إذاً لا بد من أن يعبده ، والعبادة هي علة وجود الإنسان على وجه الأرض ، خلقنا من أجل أن نعبده ، لتكون العبادة ثمناً لما خلقنا من أجله ، في جنة ربنا التي وعدنا الله بها .

الأستاذ جميل :

دكتور ، هنالك قانون للأحوال الشخصية ، هنالك قانون للعقوبات ، قانون للسير ، ما هو قانون الحياة والوجود وكيف يمكن الرجوع إليه ؟.

عبادة الله عز وجل علة وجود الإنسان في الحياة الدنيا :



الدكتور راتب :

والله ! أنت حينما تذهب إلى باريس من أجل شيء واحد ، أن تنال الدكتوراه ، مدينة كبيرة، مترامية الأطراف ، فيها مسارح ، فيها معارض ، فيها أسواق ، فيها دور لهو، فيها حدائق ، فيها جامعات ، فيها معامل ، مدينة عملاقة كبيرة ، هذا الطالب علة وجوده في هذه المدينة شيء واحد أن ينال الدكتوراه.

وحينما نأتي إلى الدنيا علة وجودنا في الدنيا شيء واحد هو أن نعبد الله ، فأي مكان حال بينك وبين عبادته ينبغي أن تغادر هذا المكان ، لأنه علة وجودك ، لو أن هذا الطالب لم يبقَ في الجامعة ، هل يبقى في باريس ؟ انتهت مهمته .

فأنا علة وجودي في الدنيا أن أعبد الله ، والعبادة في أدق تعاريفها : طاعة طوعية ليست قسرية ، لأن الأقوياء يطاعون قسراً ، لكن الله ما أراد أن تكون علاقته بخلقه علاقة قهر ، أراد أن تكون العلاقة بخلقه علاقة حب فقال :

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

(سورة البقرة الآية : 256)

يريدنا أن نأتيه طائعين بمبادرة منا ، بدافع محبتنا له ، وقال :

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

(سورة المائدة الآية : 54)

وقال :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ)

(سورة البقرة الآية : 165)

والحب أحد أكبر كليات الدين .

الفرق بين العباد و العبيد :

الإله العظيم ما أراد أن تكون علاقتنا به علاقة قهر ، أراد أن تكون علاقتنا به علاقة حب ، لذلك نفرق بين العباد والعبيد ، العبيد جمع عبد القهر ، بينما العباد جمع عبد الشكر .

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً)

(سورة الفرقان الآية : 63)

أما العبيد :

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

(سورة فصلت)

عبد القهر يجمع على عبيد ، بينما عبد الشكر يجمع على عباد .

إذاً العبادة طاعة طوعية ، لكن ممزوجة بمحبة قلبية ، لا بد من أن تحب الله ، وما عبد الله من أحبه ولم يطعه ، كما أنه ما عبده من أطاعه ولم يحبه ، أساسها معرفة يقينية، لا بدّ من طلب العلم لتعرف الله ، من هذا الإله العظيم الذي ينبغي أن تعبده ؟ ماذا عنده لو أطعته ؟ ماذا ينتظر الإنسان لو عصاه ؟ من أجل أن نعرفه لابد من أن نبحث عن حقيقته و مناهجه العلية .

شيء آخر : مسبوقة بعلم يقيني تفضي إلى سعادة أبدية ، هي نتائج هذا الدين ، نتائج عبادة ، نتائج خلق الإنسان في الدنيا ، طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية .

العبادة تحقق وجودنا وسرّ وجودنا وغاية وجودنا :

إذاً نحن في العبادة نحقق وجودنا ، نحقق سرّ وجودنا ، نحقق غاية وجودنا ، في العبادة نسلم ونسعد ، في العبادة نكون على الطريق الذي رُسم لنا ، والعبادة ليست أن تؤدي العبادات الشكلية الشعائرية فقط ، خمسة بنود ، لأن النبي الكريم يقول :

((بُنِي الإسلامُ على خَمْسٍ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن عبد الله بن عمر]

بربك هل الإسلام هو الخمس ؟ هذه دعائم ، بناء أخلاقي ، الإسلام منهج تفصيلي دعائمه العبادات الخمس ، الصوم ، والصلاة ، والنطق بالشهادة ، أما حينما نفهم الإسلام دعائم فقط فقد ابتعدنا بعد الأرض عن السماء عن فهم جوهره .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - الإسلام منهج حياة - الدرس (04-30) : علاقة الإنسان بالله 2 ، مقومات حمل الأمانة - الكون والعقل والفطرة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-08-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

المذيع:

فضيلة الدكتور ، تقدم معنا في تعريف العبادة بأنها طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، مستندة إلى معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية .

وذكرتم أن الإنسان هو الوحيد من بين المخلوقات الذي حمل الأمانة ، فما هي مقومات حمل الأمانة ؟ وإلى ماذا يستند هذا الحمل الثقيل ؟.

مقومات حمل الأمانة :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .



أستاذ جميل ، الأمانة هي نفس الإنسان أوكله الله إياها ، وقد قال الله عز وجل :

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

(سورة الشمس)

والفلاح هو النجاح مع الله ، النجاح في الآخرة ،

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

ومعنى زكاها أنه عرفها بربها ، وحملها على طاعته ، ودفعها للترقب إليه بالأعمال الصالحة ، وهذا هو ثمن الجنة التي خلقنا من أجلها .

فالأمانة هي نفس الإنسان التي بين جنبيه ، جعلها الله أمانة عنده ، فسعادته بيده وشقاؤه بيده ، فإذا زكاها سعد في الدنيا والآخرة ، وإذا دساها جعلها بعيدة عن ربها .
إن لم تنضبط بمنهج الله عز وجل ، وأساءت إلى خلق الله ، شقيت في الدنيا والآخرة ، وحينما حمّل الله الإنسان هذه الأمانة أعطاه مقوماتها ، وهذه المقومات هي معرفة الله أولاً والتقرب إليه ثانياً ، يعرفه من خلال هذا الكون الذي ينطق بكل جزئية من جزئياته بوجود الله ، ووحدانيته ، وكماله ، وكل أسمائه الحسنى تراها في هذا الكون ، وكأن الكون مظهر لأسماء الله الحسنى .

كل ظاهرة في الكون تدل على عظمة الله ووجوده ووحدانيته :

إذاً الكون الثابت الأول ، لا يختلف عليه اثنان ، كل البشر على اختلاف مللهم ، ونحلهم ، وانتماءاتهم ، وأعراقهم ، وأنسابهم ، الكون أمامهم بين أيديهم ، الشمس ، القمر ، الليل ، النهار ، الأطيار ، الأسماك ، البحار ، الجبال ، كل هذه المظاهر تنطق بوجود الله ووحدانيته ، وكماله ، وأنا أسمي الكون الثابت الأول .

القرآن كون ناطق

بل إن بعض العلماء يقول : "الكون قرآن صامت ، والقرآن كون ناطق ، والنبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي " ، فنحن عندنا قرآن صامت هو الكون ، وكون ناطق هو القرآن ، وإنسان جعله الله قدوة لبني البشر ، إنسان أخلاقه هي القرآن ، قرآن يمشي .
إذاً هو الثابت الأول ، والحديث عن آيات الله في الكون لا تنتهي ، آيات الله في الكون الحديث عنها يحتاج إلى سنوات وسنوات ، كل ظاهرة في الكون تدل على عظمة الله ، على وجود الله ، على وحدانية الله ، على قدرة الله ، على علم الله ، على حكمة الله ، فهذا الكون مظهر ، أو إن صحّ التعبير تجسيد لأسماء الله الحسنى ، وصفاته الفضلى .

معرفة الله تكون عن طريق آياته الكونية خلقه وآياته التكوينية أفعاله وآياته القرآنية كلامه:

ذكر الله في القرآن الكريم ألف و ثلاثمئة آية عن الكون ، وكأنها منهج للتفكر، وعلاقتنا بالكون هذه الآية:

(إنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ)

من آيات الله اختلاف الليل والنهار

الشاهد :

(وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(سورة آل عمران)

هذه الآيات الكونية التي خلقه يقابلها آيات تكوينية هي أفعاله .

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا)

بمعنى آخر ،

(كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

فنحن ننظر في أفعال الله ، فنعرف الله من خلالها ، وننظر في خلق الله فنعرف الله من خلال هذه الآيات .

بقي الآيات القرآنية هي كلامه .

أصل الدين معرفة الله عز وجل :

إذاً أصل الدين معرفة الله عز وجل ، إن عرفت الآمر ثم عرفت الأمر تفانيت في طاعة الآمر ، أما إذا عرفت الأمر ولم تعرف الآمر تفننت في التفلت من الأمر ، وهذا حال بعض المسلمين ، ما عرفوا الآمر ، لكنهم عرفوا الأمر ، فتفننوا في فتاوى ضعيفة ، بلف ودوران حول قواعد الشرع ، وكأنهم تحللوا من هذا الشرع بفتاوى أو باجتهادات ما أنزل الله بها من سلطان .

فالشاهد أنك إن عرفت الآمر ثم عرفت الأمر تفانيت في طاعة الآمر ، أما إذا عرفت الأمر ولم تعرف الآمر تفننت في التفلت من هذا الأمر ، معرفة الله عن طريق آياته الكونية خلقه ، عن طريق آياته التكوينية أفعاله ، عن طريق آياته القرآنية كلامه .

الأستاذ جميل :

إذاً فضيلة الدكتور الكون هو المقوم الأول ، والثابت الأول .

المؤمن تجاوز الكون إلى المكون و النعمة إلى المنعم :

الدكتور راتب :

هو القاسم المشترك بين كل البشر ، أينما ذهبت في الأرض ، شرقاً وغرباً ، شمالاً وجنوباً ، دول قوية، ضعيفة ، الكون لا يختلف ، والإيمان به ثابت .

فالبطولة إذاً أن المؤمن تجاوز الكون إلى المكون ، بينما غير المؤمن بقي عند الكون ، المؤمن تجاوز النعمة إلى المنعم ، غير المؤمن بقي عند النعمة ، المؤمن تجاوز التسيير إلى المسير ، الخلق إلى الخالق ، الحكمة إلى الحكيم ، عملية تجاوز ، وكأن المؤمن جسر تنتقل به إلى معرفة الله عز وجل .

الأستاذ جميل :

الكون إذاً فضيلة الدكتور هو المقوم الأول لحمل الأمانة ، والكون ينظر بالعقل ، فمن كان له عقل استطاع أن يتفكر في هذا الكون ، فماذا عن العقل أيضاً ؟.

العقل أداة معرفة الله عز وجل بشرط أن يكون الوحي نوراً يهتدي به العقل :



الدكتور راتب :

العقل جهاز أعطانا الله إياه ، وهو من أثمن ما مكّن الله به الإنسان ، العقل له مبادئ ثلاثة ، مبدأ السببية ، والغائية ، وعدم التناقض ، ونظام الكون بني على نظام السببية ، ونظم الكون بني على نظام الغائية، والكون لا يقبل التناقض كما أن العقل لا يقبل التناقض .

فهذا العقل أداة معرفة الله عز وجل ، لكنه

قد يطغى .

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى)

(سورة العلق)

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ)

(سورة المدثر)

إذاً العقل مع أنه ميزان دقيق قد يطغى لماذا ؟ لأن العين لا قيمة لها من دون نور يتوسط بينها وبين المرئيات ، وكذلك العقل مع أنه أثمن آلة منحنا الله إياها ، لا يجدي نفعاً في معرفة الحقيقة ، إلا إذا كان الوحي وسيطاً بينه وبين القضايا الكبرى ، فكما أن النور ضرورة للعين ، كذلك الوحي ضرورة للعقل ، فالعقل يحتاج إلى وحي ليتكاملا ، والعين تحتاج إلى نور ليتكاملا ، فالعقل أداة معرفة الله بشرط أن يكون الوحي نوراً يهتدي به العقل ، أما العقل من دون وحي كما ترى في العالم ، كما ترى النزعة المادية ، وكما ترى أن الإنسان يشقي نفسه بذاته .

الأستاذ جميل :

إذاً الإنسان أوتي أولاً الكون ، ثم أوتي العقل ، وهو يحاسب ويحاكم بعقله ، وينظر في هذا الكون ، أيضاً من مقومات التكليف الفطرة .

الفطرة مقياس نفسي يكشف الإنسان بها أخطاءه :

الدكتور راتب :

الفطرة ، الفطرة مقياس نفسي ، الله عز وجل فطر الإنسان فطرة دقيقة جداً يكشف الإنسان بها أخطاءه، قال تعالى :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

(سورة الشمس)

بمعنى أنها حينما تتقي تعلم ذاتياً أنها اتقت ، وحينما تفجر تعلم ذاتياً أنها فجرت .

إذاً الإنسان :

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

(سورة القيامة)

هذه خصيصة في الإنسان أن فطرته متوافقة مع الشرع تماماً ، فأي خطأ في الشرع ينعكس ضيقاً في الفطرة ، وأي خطأ في تطبيق منهج الله عز وجل ينعكس إحساساً بالذنب ، أو تأنيباً للضمير إن صحّ التعبير .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - الإسلام منهج حياة - الدرس (05-30) : علاقة الإنسان بالله 3 ـ مقومات التكليف

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-08-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ جميل :

دكتور تحدثنا في الحلقة السابقة عن مقومات التكليف ، وذكرتم منها الكون الذي قلتم عنه إنه القرآن الناطق ، والعقل ، والفطرة ، هل هنالك بعد من مقومات ؟.

من مقومات التكليف :

1 ـ الشهوة :

الدكتور راتب :

في الحقيقة هناك الشهوة ، قال تعالى :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة آل عمران الآية : 14)

هذه الشهوة قوة محركة ، وكأنها المحرك في السيارة ، وكأن العقل هو المقود ، وكأن الشرع هو الطريق ، فمهمة العقل أن يحافظ على بقاء المركبة على الطريق وهي متحركة ، فالشهوات أودعها الله في الإنسان لنرقى بها شاكرين تارةً ، وصابرين تارةً أخرى إلى رب الأرض والسماوات ، بل ما أودع الله فينا الشهوات إلا لنرقى بها إلى رب الأرض والسماوات ، هي حيادية ، إما أن تكون سلماً نرقى به إلى أعلى عليين ، أو أن تكون دركات نهوي بها إلى أسفل سافلين ، هي حيادية ، يمكن أن يلتقي ذكر بأنثى من خلال الزواج ، فهو يرقى بهذا الزواج إلى أعلى عليين ، وقد يلتقي ذكر بأنثى من خلال الزنا فيهوي بالزنا إلى أسفل سافلين .

يمكن أن تكسب المال المشروع وتنتفع به فترقى إلى الله شاكراً ، ويمكن أن يكون الكسب حراماً فيهوي الإنسان بهذا الكسب إلى أسفل سافلين .

الشهوة تماماً كالبنزين في المركبة ، إذاً هذا البنزين سائل متفجر ، إذا وضع في مستودع محكم ، وسال في الأنبوب المحكم ، وانفجر في الوقت المناسب ، وفي المكان المناسب ، ولّد حركة نافعة تقلك أنت وأهلك إلى مكان جميل ، والذي يجري في المركبة انفجارات ، هذا البنزين نفسه إذا صُب على المركبة وأعطي شرارة أحرق المركبة ومن فيها .

الشهوات قوة دافعة تدفعنا إلى الله أو قوة مدمرة تدمر سعادتنا في الدنيا والآخرة :

إذاً الشهوة قوة ، إما أن تكون قوة دافعة ، أو أنها قوة مدمرة ، ولأن الإنسان مخير كل الشهوات التي أودعها الله فيه حيادية ، بمعنى أنها قد تكون طريقاً إلى الرقي ، وقد تكون طريقاً إلى الهلاك ، والشرع مهمته أن يبين ما المساحة المسموحة من كل شهوة ، هو الإيمان ، هو الضبط ، فهناك شهوات يمكن أن تتحرك من خلالها 180 درجة ، سمح لك الشرع بمئة درجة ، فالمؤمن يوقع حركته بدافع شهوته في هذه المساحة التي سمح الله بها ، وهذا معنى قول الله تعالى :

(بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ)

(سورة هود الآية : 86)

أي كل شهوة أودعها الله فينا أعطانا الله مجالاً مسموحاً به ، فإذا تجاوز الإنسان هذا المجال وقع في العدوان ، والعدوان يقتضي التأديب ، والعقاب ، فمادمت أنت وفق منهج الله فأنت في الخير ، فإذا خرجت عن منهج الله فأنت في الشر .

فلذلك هذه الشهوات دافع كبير إلى رب الأرض والسماوات ، تصور إنساناً لا يشتهي شيئاً كيف يتقرب إلى الله ؟ لا يوجد طريق ثانٍ ، فما أودع الله فينا الشهوات إلا لنرقى بها تارةً صابرين ، حينما نغض البصر عن امرأة لا تحل لنا ، وتارةً شاكرين حينما يهبنا الله زوجة صالحة تسرنا إن نظرنا إليها ، وتحفظنا إذا غبنا عنها ، وتطيعنا إن أمرناها ، هذه الشهوة .

المؤمن يستمتع بكل ما أتاه الله من شهوات ولكن وفق المنهج الإلهي :

لكن النقطة الدقيقة ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناةً نظيفة تسري خلالها ، أي لا يوجد في الإسلام حرمان أبداً ، لكن هناك تنظيماً ، فالمؤمن يستمتع بكل ما أتاه الله من شهوات ، ولكن وفق المنهج الإلهي ، بل إن الله سبحانه وتعالى قال :

(وَمَنْ أَضَلُّ)

(سورة القصص الآية : 50)

أي لن تجد على سطح الأرض إنساناً أضل منه :

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص الآية : 50)

المعنى المخالف عند علماء الأصول : الذي يتبع هواه وفق هدى الله عز وجل لا شيء عليه ، ليس هناك حرمان إطلاقاً ، لكن يوجد تنظيم ، هذا هو الدين ، الدين يعطيك كل شيء وأنت مرتاح ، وأنت معافى ، وأنت على ثقة أنك وفق الحق تتحرك .

الأستاذ جميل :

إذاً هذا المقوم الجديد من مقومات التكليف وهو الشهوة .

2 - الاختيار :

الدكتور راتب :

لكن هناك مقوماً آخر هو أن الحرية تثمن العمل ، لا قيمة لعمل الإنسان إلا إذا كان حراً ، فلذلك لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب ، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب ، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة ، إن الله أمر عباده تخييراً ، ونهاهم تحذيراً ، وكلّف يسيراً ، ولم يكلف عسيراً ، وأعطى على القليل كثيراً ، الله عز وجل يقول :

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف الآية : 29)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام)

فلذلك حينما يلغى الاختيار في عقيدة المسلم يلغى الثواب والعقاب ، وتلغى الجنة والنار ، ويلغى حمل الأمانة ، ويلغى التكليف ، فأنت حر ، لك أن تؤمن ولك ألا تؤمن ، لك أن تصلي ولك ألا تصلي ، هناك حرية تثمن عملك .

الأستاذ جميل :

دكتور قد يزيغ العقل عن النظر في آية الكون ، أو قد تزيغ الفطرة عن تحديد مرجعيتها ، فهل من الممكن أن يرجع الإنسان جمال الكون وسعته من خلال عقله إلى صانع غير الله ؟ ما الذي يحجزه عن ذلك ونحن نرى بعض العقلاء الذين يتكلمون في الكون من غير أن ينسبوه إلى رب العالمين ؟

تكامل العقل مع الوحي :

الدكتور راتب :

الحقيقة هو أن العقل مقياس دقيق ، والفطرة مقياس ، لكن من شأن العقل أن يضل ، والدليل :

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ)

(سورة المدثر)

العقل قد يضل لأنه ابتعد عن الوحي ، ما قيمة العين البشرية ـ ولو أنها تتمتع بأعلى درجات الدقة ـ من دون نور يتوسط بينها وبين المرئيات ؟ وما قيمة العقل ـ مع أنه أثمن جهاز أودعه الله فينا على الإطلاقـ من دون عقل يهتدي به ؟ فالعين والنور يتكاملان، والعقل والوحي يتكاملان ، فأية أمة استغنت عن وحي السماء طبعاً قد تشقى بعقلها .

الحكم بكل شيء في الغرب هو العقل ، العقل أوصلنا إلى هذه الحروب ، إلى إنسان دمرت فطرته ، دمرت سعادته ، لكن العناية فقط بجسمه ، العالم الغربي كله يعتني بأجسامنا لا بنفوسنا ، ولا بعقولنا .

3 ـ الشرع :

لذلك العقل من دون وحي يضل ، فإذا ضلّ فعندنا مرجعية هي الشرع ، العلماء قالوا : " الحسن ما حسنه الشرع ، والقبيح ما قبحه الشرع ".

أي أنت حينما تعطى مسألة رياضيات ، يعطيك المدرس الجواب الصحيح ، فإذا جاء حلك منتهياً إلى هذا الجواب فالطريقة صحيحة ، فإن جاء الحل بجواب آخر فالطريقة مغلوطة .

فأي فكر أوصلك إلى خلاف الشرع فهو مغلوط ، وأية فطرة أوصلتك لخلاف الشرع فهي مغلوطة ، أما حينما تهتدي بعقلك إلى وجود الله ، وإلى وحدانيته ، وإلى كماله ، وإلى أنك مخلوق للجنة ، هذا العقل توافق مع الفطرة ، وتوافق مع الواقع .

فالعقل يضل ، والمرجعية في ضلاله الشرع ، ما حسنه الشرع فهو الحسن ، وما قبحه الشرع فهو قبيح ، فكأن العقل ضمانة .

أحياناً يكون هناك موازين ـ مكاييل ـ بين أيدي الناس ، لو أن الواحد أساء استخدام هذا المكيال ، أي صغره أو كبره ، أو فعل شيئاً مزوراً إياه ، بمركز البلدية بأي مدينة هناك مكاييل نظامية هي المرجع ، فكأن العقل قد يضل ، وأن الفطرة قد تنطمس ، ما المرجع في تقويم العقل والفطرة ؟ الشرع .

من طبق سنة النبي الكريم في حياته فهو في مأمن من عذاب الله عز وجل :

لذلك الشرع هو المقياس الذي لا يختلف ، الشرع هو ما جيء به من السماء ، الشرع هو المنهج الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام ، لذلك قال تعالى :

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال الآية : 33)

ما معنى الآية بعد انتقال النبي إلى الرفيق الأعلى ؟ معنى الآية ما دامت سنتك مطبقة في حياتهم هم في مأمن من عذاب الله ، فإذا عادوا إلى عقولهم وحدها ، وابتعدوا عن منهج الله عز وجل ، وقادتهم عقولهم التي افتقدت إلى الوحي إلى عمل لا يرضي الله عز وجل ، استحقوا العقاب .

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

(سورة الأنفال)

الشرع هو المقياس الثابت لمقياسي العقل والفطرة :

إذاً الشرع هو المقياس الثابت لمقياسي العقل والفطرة ، قال تعالى :

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

(سورة الرحمن)

هذا الميزان الخطأ في الوزن لا يتكرر ، لكن الخطأ في الميزان لا يصحح ، لو أن هناك كفة أرجح من كفة ، لو استخدمت الميزان مليون مرة كل الأوزان غلط ، فهذا الغلط في الميزان لا يصحح ، بينما الخطأ في الوزن لا يتكرر .

فلذلك هذا العقل حينما يضل المرجعية الصحيحة هي الشرع .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - الإسلام منهج حياة - الدرس (06-30) : علاقة الإنسان بالله4 ، السبيل إلى تطبيق منهج الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-08-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ جميل :

دكتور ما هو السبيل إلى تطبيق المنهج الإلهي الذي نتحدث عنه ؟ نحن نتحدث عن الإسلام منهج حياة، ما هو السبيل إلى تطبيق هذا المنهج الذي نتحدث عنه وعن جودته وعن صلاحه ؟

علة خلق السماوات والأرض أن نعلم أن الله على كل شيء قدير :

الدكتور راتب :

الله عز وجل يقول :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ)

الآن الشاهد :

(لِتَعْلَمُوا)

(سورة الطلاق الآية : 12)

هذه اللام لام التعليل ، أي علة خلق السماوات والأرض أن نعرف الله من خلالهما ، والسماوات والأرض مصطلح يعني الكون ، والكون ما سوى الله ،

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا)

أي أن هذا الكون أحد أسباب مقومات التكليف ، هو الثابت الأول ، مظهر لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى ، في كل شيء له آية تدل على أنه واحد ، هذا الكون فيه حكمة الله ، ورحمة الله ، وعلم الله ، وقدرة الله ، والغنى الإلهي ، فلذلك

(لِتَعْلَمُوا)

علة خلق السماوات والأرض أن نعلم ، ماذا نعلم ؟ وقد سألتني ما السبيل إلى تطبيق هذا المنهج ؟

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

(سورة الطلاق)

الإنسان حينما يوقن أن علم الله يطوله ، وأن قدرته تطوله ، لا بد من أن يستقيم على أمره ، والأمثلة التي تؤكد هذا المعنى لا تعد ولا تحصى .

أنت مواطن وقفت على شارة المرور الحمراء ، والشرطي واقف ، وهناك سيارة شرطة فيها ضابط ، وأنت مواطن عادي ، فلن تستطيع تجاوز هذه الإشارة ، لأن واضع قانون السير علمه يطولك ، وقدرته بحجز المركبة وسحب الإجازة تطولك .

فلأنك بالبديهة توقن أن هذا الإنسان الذي هو من بني جنسك ، من جلدتك ، لكنه أقوى منك ، علمه يطولك ، وقدرته تطولك ، إذاً لا يمكن أن تعصيه ، وكأن الله اختار من بين كل أسمائه اسم العليم ، واسم القدير ، وهذان الاسمان يعنيان أن الله يعلم ، وسيحاسب ، وسيعاقب .

لن يستطيع تاجر مستورد أن يغفل صفقة في حساباته ، لأن هذه الصفقة سوف تأتي للدوائر المالية نسخة عنها من وراء ظهر هذا التاجر ، وهو يعلم ذلك ، فإذا أغفل صفقة في حسابه أهدرت حساباته ، وكُلف بضريبة كبيرة جداً .

آيات كثيرة تدعو الإنسان إلى النظر في خلق السماوات والأرض :

إذاً أنت حينما تعلم أن أية جهة أرضية علمها يطولك ، وقدرتها تطولك ، لا يمكن أن تعصيها ، فهذا مع بني البشر فكيف مع خالق البشر ؟

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا)

علة خلق السماوات والأرض أن نعلم ، لذلك قال تعالى :

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس الآية : 101)

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

(سورة عبس)

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

(سورة الطارق)

فآيات كثيرة تدعونا إلى النظر في خلق السماوات والأرض ، لأن هذا الكون مظهر لأسماء الله الحسنى، وصفاته الفضلى ،

(لِتَعْلَمُوا)

من خلال هذا الكون

(أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قدرته تطولك

(وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

علمه يطولك ، فلمجرد أن توقن أن علم الله يطولك ، وأن قدرته تطولك ، لابد من أن تطيعه . لذلك قال الإمام الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ: "يا نفس لو أن طبيباً منعك من أكلة تحبينها ، لا شك أنك تمتنعين ، أيكون الطبيب أصدق عندك من الله ؟ إذاً فما أجهلك ، أيكون وعيد الطبيب أشد عندك من وعيد الله ؟ إذاً فما أكفرك ".

لن نقطف من ثمار الدين شيئاً حتى نستقيم على أمر الله عز وجل :

فلذلك هذه الآية يمكن أن تكون منهجاً في الاستقامة ، والاستقامة عين الكرامة ، وما لم نستقم على أمر الله لن نستطيع أن نقطف من ثمار الدين شيئاً إطلاقاً ، هذا الدين مع الاستقامة تقطف كل ثماره ، من دون استقامة يغدو ثقافة ، ويغدو عادات وتقاليد ، ويغدو تراثاً، ويغدو خلفية إسلامية ، وأرضية إسلامية، ونزعة إسلامية ، واهتمامات إسلامية ، وحدث ولا حرج ، أما أن يكون منهجاً لسلامتك وسعادتك ، وآية الاستقامة :

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

والإنسان يجب أن يستحي من الله ، أنه يطيع مخلوقاً لأنه أقوى منه ، ولأن علمه يطوله ، وقدرته تطوله ، ولا يطيع خالقه ، الذي حياته بيده ، ورزقه بيده ، وأهله بيده ، ومن حوله بيده ، ومن فوقه بيده، ومن تحته بيده ، وكل شيء بيده ، وما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله عائد إليه ، قال:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود الآية : 123)

الأستاذ جميل :

دكتور الناس في الأمر أصناف ، منهم من يصغي السمع ، ومنهم من يعرض ، كيف وصف الله تعالى كلاً من الفريقين ؟ .

البشر عند الله لا يزيدون عن نموذجين :

1 ـ نموذج عرف الله فانضبط بمنهجه وأحسن إلى خلقه فسلم وسعد في الدنيا والآخرة:

الدكتور راتب :

أستاذ جميل آية دقيقة جداً ، كأن البشر على اختلاف مللهم ، ونحلهم ، وانتماءاتهم، وأعراقهم ، وأنسابهم ، ومذاهبهم ، وطوائفهم ، وأديانهم ، حدث ولا حرج ، هذه تقسيمات أهل الأرض ، مهما تنوعت ، ومهما كثرت ، ومهما كان الحديث عنها طويلاً ، البشر على اختلاف مللهم ، ونحلهم ، وانتماءاتهم ، وأعراقهم ، وأنسابهم ، وطوائفهم ، هم عند الله لا يزيدون عن نموذجين فقط ، البطولة أن تتخذ مقاييس خالق السماوات والأرض لك منهجاً ، الله عز وجل يقول :

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

(سورة الليل)

كل إنسان يتحرك صباحاً برأسه هدف ،

(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

لكن هذا السعي المتنوع تنوع البشر يمكن أن يوضع في خانتين ، الخانة الأولى :

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

(سورة الليل)

صدق أنه مخلوق للجنة لأن الحسنى هي الجنة ، فلما صدق أنه مخلوق للجنة اتقى أن يعصي الله ، وبنى حياته على العطاء ،

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

الرد الإلهي :

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

(سورة الليل)

2 ـ ونموذج غفل عن الله وتفلت من منهجه وأساء إلى خلقه فشقي في الدنيا والآخرة :

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

(سورة الليل)

لأنه كذب أنه مخلوق للجنة فاستغنى عن طاعة الله ، وبنى حياته على الأخذ ، لذلك يقع على رأس الهرم البشري زمرتان كبيرتان ، الأقوياء والأنبياء ، الأقوياء أخذوا ولم يعطوا ، الأنبياء على العكس

من ذلك أعطوا ولم يأخذوا ، الأقوياء ملكوا الرقاب ، الأنبياء ملكوا القلوب ، الأقوياء عاش الناس لهم ، والأنبياء عاشوا للناس ، الأقوياء يمدحون في حضرتهم ، الأنبياء يمدحون في غيبتهم ، والناس جميعاً تبع لقوي أو نبي ، لهذا خاف الناس من الأقوياء وأحبوا الأنبياء ، وبطولة الأقوياء أن يتخلقوا بأخلاق الأنبياء .

الناس زمرتان فقط :

النقطة الدقيقة في هذا اللقاء أن الناس زمرتان فقط ،

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

صدق أنه مخلوق للجنة فاتقى أن يعصي الله ، وبنى حياته على العطاء ، الرد الإلهي

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

سوف ييسر من قبل ربه الحكيم الرحيم لما أعدّ الله له من سعادة في الدنيا والآخرة ،

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

اليسرى السعادة ، الراحة النفسية ، الطمأنينة ، الثقة بالله ، الأمن ، كل هذه الصفات من نتائج التيسير الإلهي .

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

لأنه آمن بالدنيا وكفر بالآخر فاستغنى عن طاعة الله ، وبنى حياته على الأخذ ، يرى ذكاءه في الأخذ لا في العطاء ، أما المؤمن يرى ذكاءه في العطاء لا في الأخذ ، الرد الإلهي :

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

(سورة الليل)

سوف يمشي في طريق شقائه وهلاكه ، في طريق الضيق والإحباط ، في طريق اليأس ، في طريق أنه سوف يدفع الثمن باهظاً .

فهذه الآيات الكريمة :

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

هو أراد المال فاستغنى عن طاعة الله .

(وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

(سورة الليل)

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - الإسلام منهج حياة - الدرس (07-30) : علاقة الإنسان بأسرته 1 ، وصف الأسرة في القرآن الكريم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-08-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ جميل :

فضيلة الدكتور ، لعل الأسرة تكون من أهم المحطات في الحياة ، التي بنجاحها تثمر نجاح المجتمع ، وبفشلها تورث المجتمع طامة كبرى ، في القرآن الكريم وصف الله سبحانه وتعالى الأسرة بأنها آية :

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً)

(سورة الروم الآية : 21)

لماذا هذا التوصيف وما الذي يستفاد منه ؟.

النجاح لا يكون نجاحاً إلا إذا كان نجاحاً شمولياً :

الدكتور راتب :

أستاذ جميل ، بادئ ذي بدء نحن في هذا البرنامج اخترنا محطات خمس ، المحطة الأولى علاقة الإنسان بربه ، وما وسائل تمتين هذه العلاقة ؟

والمحطة الثانية علاقته بأسرته وأولاده ، وهي محطة مهمة جداً .

والمحطة الثالثة علاقته بمن حوله من أصدقاء ، من جيران ، من أقارب ، من زملاء ، من الناس عامة.

والمحطة الرابعة علاقته بعمله الذي يرتزق منه .

والمحطة الخامسة علاقته بصحته .

وننطلق في هذا البرنامج إن شاء الله من حقيقة أساسية وهي أن النجاح لا يكون نجاحاً إلا إذا كان نجاحاً شمولياً ، أما النجاح في حقل واحد من هذه الحقول ، أو في إحدى هذه المحطات لا يعد نجاحاً .

فبعد أن أمضينا حلقات عدة في الحديث عن علاقة الإنسان بربه ، اليوم ننتقل إلى علاقته بأهله ، بزوجته وأولاده .

الكون بكل عظمته اللامتناهية آية دالة على عظمة الله :

الحقيقة الدقيقة أن الله عزّ وجل حينما قال :

(وَمِنْ آيَاتِهِ)

الآية العلامة الدالة على عظمة الله ، كما أن الكون بسماواته وأرضه من آيات الله على عظمته .

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الشورى الآية : 29)

وهو الكون .

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

(سورة فصلت الآية : 37)

الآن لا بد من تعليق ، أن العطف في اللغة يقتضي التقارب ، أنت لا تقول: اشترت بيتاً وملعقة ، ينبغي أن تقول : اشتريت بيتاً ومركبة ، بيتاً وأرضاً ، مزرعة ومركبة، لابد في العطف من التناسق والتقارب، فإذا قال الله عز وجل :

(وَمِنْ آيَاتِهِ)

الدالة على عظمته الكون بأكمله ،

(خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ)

من آياته الشمس والقمر ، الآن ندقق ،

(وَمِنْ آيَاتِهِ)

العطف :

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(سورة الروم الآية : 21)

كما أن الكون بكل عظمته اللامتناهية يعد آية دالة على عظمة الله ، كذلك نظام الزوجية ، وما ركب الله الذكر والأنثى من خصائص متكاملة وليست متشابهة .

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)

(سورة آل عمران الآية : 36)

متكاملة .

التصميم الإلهي الرائع للذكر والأنثى :

كيف أن هذا التصميم الرائع الإلهي للذكر والأنثى ، فالذكر له خصائص جسمية ، ونفسية ، واجتماعية، وفكرية ، وقيادية ، والأنثى لها خصائص رائعة جداً جسمية ، ونفسية، واجتماعية ، وقيادية، هذه الخصائص تؤكد قوله تعالى :

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى)

إنهما متكاملان وليسا متشابهين ، فروق كبيرة جداً ، لأن صفات المرأة التي تتميز بها كمال مطلق للمهمة التي أنيطت بها ، وصفات الرجل التي يتميز بها كمال مطلق للمهمة التي أنيطت به .
فمن آيات الله الدالة على عظمته ، وعلى حكمته ، وعلى علمه ، وعلى قدرته الذكر والأنثى

(وَمِنْ آيَاتِهِ)

كما أن الكون من آياته ، كما أن الشمس من آياته ، والقمر من آياته ، كما أن النجوم من آياته ،

(أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

هذه الآية التي هي أصل في الزواج كلمات دقيقة تعد مراكز ثقل في الآية ،

(أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)

المرأة مساوية للرجل تماماً في التكليف ، مكلفة كما هو مكلف ، مشرفة كما هو مشرف ، مسؤولة كما هو مسؤول .

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)

مكلفة بأركان الإسلام ، مكلفة بأركان الإيمان ، مكلفة برعاية الزوج والأولاد ، مسؤولة عن كل ذلك ، كذلك الزوج .

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)

إنها ترقى كما ترقى ، وتسمو كما يسمو ، وتصيب كما تصيب ، وتخطئ كما تخطئ ، وتحب كما تحب ، وتكره كما تكره

(مِنْ أَنْفُسِكُمْ)

من جبلتكم ، من خصائصكم ، ولكن بخصائص تتميز بها عنك أيها الرجل كي تميل إليها ، وتتميز بخصائصك عنها كي تميل إليك .

المودة والرحمة بين الزوجين من خلق الله عزّ وجل :

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا)

ما السكنى ؟ الرجل له خصائص ، إنه يكمل نقصه الانفعالي والعاطفي بزوجته ، والزوجة لها خصائص لكنها تكمل نقصها القيادي بزوجها ، إذاً يسكن إليها ، وتسكن إليه ، يميل إليها ، وتميل إليه ، يحبها وتحبه ، هذه من تصميم الخالق العظيم .

(وَمِنْ آيَاتِهِ)

الدالة على عظمته ،

(أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ)

أي المودة والرحمة بين الزوجين من خلق الله عز وجل ، هكذا أراد الله .

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

ولكن في هذه الآية ملمح دقيق جداً ، فالزوج حينما يرى زوجته ملء عينه ، ملء سمعه ، ملء بصره، جمالاً ، وكمالاً ، ورقة ، ووفاء ، وطاعة يحبها ، والحب حالة داخلية ، شعور داخلي يعبر عنه بالمودة ، فابتسامته مودة ، وإحساسه حب ، هديته لها مودة ، عطفه عليها مودة ، معاونتها مودة .

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً)

والزوجة حينما ترى زوجها ملء سمعها وبصرها ، شاب رائع ، كريم ، ذو مبادئ ، يحبها ، يدافع عنها ، يحميها ، تحبه ، تحبه حباً جماً ، فهو ملء سمعها وبصرها ، لذلك تميل إليه وتسكن إليه ، وتكمل نقصها القيادي به .

إذاً هذا معنى قوله تعالى :

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً)

أعظم ما في الزواج الإسلامي أن الله بين الزوجين:

لكن الملمح الرائعة في كلمة

(وَرَحْمَةً)

أحياناً يفتقر الزوج ، أحياناً تمرض الزوجة ، هذه المؤسسة أقدس مؤسسة في حياة البشر ، دعمتها شرائع السماء ، هذه المؤسسة إذاً وجدت لتبقى ، فلذلك ينبغي أن تبقى بالمودة فإن لم تكن بالرحمة ، كم من رجل افتقر فعملت زوجته عملاً شاقاً لإطعامه ، وكم من زوجة مرضت فاعتنى بها زوجها حتى آخر لحظة ، هذا من عظمة الإسلام ، أعظم ما في الزواج الإسلامي أن الله بين الزوجين ، يتقرب إلى الله بخدمتها ، وتتقرب إلى الله بخدمته ، ويخاف الله أن يظلمها ، وتخاف الله أن تظلمه ، الكلمة الدقيقة الجامعة المانعة أن الله بين الزوجين .

هذا معنى قوله تعالى :

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً)

الأستاذ جميل :

إذاً فضيلة الدكتور ليس من الضروري أن يكون الحب من البداية حتى النهاية في هذه المؤسسة ، لأن الشائع بين الناس أن الحب متى غادر الأسرة فهي أسرة فاشلة .

الدكتور راتب :

ما كل علاقة تبنى على الحب أصلاً ، تبنى على المصلحة أحياناً .

الأستاذ جميل :

سبحان الله ! دكتور ما التوجيهات القرآنية التي تحافظ على المثالية الأسرية ولاسيما عندما يكون العهد بين زوجين ؟

التوجيهات القرآنية التي تحافظ على المثالية الأسرية :

الدكتور راتب :

الحقيقة أنا أنطلق من حديث رائع :

((ما تَوَادَّ اثْنَانِ فَفُرِّقَ بَيْنَهُمَا إِلَّا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا))

[أحمد عن ابن عمر]

أنا أنصح الزوج والزوجة أن يستقيما على أمر الله ، لقاءهما حتمي ، المحبة تتنامى ما دام في طاعة الله ، فإذا عصى أحدهما ربه فهناك مشكلة ، فلذلك قال تعالى :

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

(سورة النساء الآية : 19)

ومن أجمل ما قاله العلماء : " ليست المعاشرة بالمعروف أن تمتنع عن إيقاع الأذى بها بل أن تتحمل الأذى منها ".

فلذلك عندما يستقيم الزوج على أمر الله ، وتستقيم هي على أمر الله ، يكون الحب والمودة التي هي من خلق الله عز وجل بينهما ، هذه الحقيقة ، لكن إذا بني الزواج على طاعة الله تولى الله في عليائه التوفيق بين الزوجين ، أما إذا بني على معصية الله يتولى الشيطان التفريق بينهما .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - الإسلام منهج حياة - الدرس (08-30) : علاقة الإنسان بأسرته 2 ، توجيهات القرآن الكريم للزوجين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-08-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ جميل :

تحدثنا في حلقة سابقة عن آية من آيات الله ، وعن نموذج لعلاقة ناجحة بين الزوج وأهل بيته ، ما هي التوجيهات القرآنية للزوجين حتى يكون كل واحد منهما كما يريد الله عز وجل ؟.

التوجيهات القرآنية للزوجين حتى يكون كل واحد منهما كما يريد الله عز وجل :

الدكتور راتب :

من هذه التوجيهات :

1 ـ عدم إخراج الزوجة من البيت حينما ينشب خلاف بين الزوج و زوجته :

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ)

(سورة الطلاق الآية : 1)

حينما ينشب خلاف بين الزوجين ، ويطرد الزوج زوجته إلى بيت أهلها ، أصغر قضية بينهما قد تتفاقم إلى أن تنتهي إلى الطلاق ، بسبب تغذية أخرى من أطراف آخرين ، أما حينما تبقى في بيتها أكبر مشكلة تتقلص حتى تنتهي بعد أيام .

فلذلك هذا توجيه إلهي عظيم ،

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ)

ليس للزوج أن يخرج امرأته من بيتها ،

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ)

نُسب البيت إليها ، وإن كانت الملكية للزوج ، لكن نسبت هذه المؤسسة للزوجة ،

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ)

الإشارة تعني أن الزوج يؤكد ذاته خارج البيت ، في عمله ، في دراسته ، في إنجازاته الكبيرة ، أما الزوجة تؤكد ذاتها في هذا البيت الذي هو مملكتها .

فلذلك عزي في القرآن الكريم نسبة البيت إلى الزوجة ،

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ)

وأصغر قضية بين الزوجين إن أخرجها زوجها من بيتها إلى بيت أهلها ، أو إن هي خرجت من بيتها إلى بيت أهلها ، هذه القضية الصغيرة بسبب تغذيات عديدة من أقاربها ، ممن حولها ، هذه التغذية تنتهي بالطلاق ، أما حينما تبقى في بيت الزوجية أكبر مشكلة بين الزوجين تتقلص ، تصغر إلى أن تتلاشى بعد أيام ، فهذا توجيه قرآني كبير جداً ،

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ)

2 ـ الائتمار بينهما بالمعروف :

توجيه آخر :

(وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ)

(سورة الطلاق الآية : 6)

تأمرها وتأمرك ، وتنصحها وتنصحك ، هي شريكة حياتك ، الآية الدقيقة جداً :

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ)

(سورة البقرة الآية : 228)

مثلاً ربان الطائرة ، قائد الطائرة طيار ، ومساعده طيار أيضاً ، بإمكانه أن يقلع بها وأن يهبط بها ، ولكن الكلمة الفصل بالأزمات الخطيرة للطيار ، ففرق الطيار على مساعده فقط درجة واحدة .

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ)

بين لواء ولواء أركان حرب ، لا بين مجند ولواء ، الفرق ينبغي أن يكون صغيراً جداً .

فلذلك هذه الآية توجه الأزواج إلى عدم إخراج زوجاتهم ، وتوجه الزوجات إلى عدم خروجهن من بيت الزوجية ، من أجل أن تتقلص الأمور ، إنسان بساعة غضب ، انزعج، لكن بعد أيام يرى ميزات زوجته ، هو بحاجة إليها ، وهي في بيته تتزين له ، لذلك ممكن أن تتلاشى هذه المشكلة بعد أيام ، هذه واحدة .

التوجيه الآخر :

(وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ)

تنصحها ، وتنصحك ، تشير عليها وتشير عليك ، تأمرها وتأمرك ،

(وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ)

قرآن كريم ، والائتمار فعل مشاركة .

ينبغي على الزوج أن يعطي زوجته حقها كما ينبغي على الزوجة أن تعطي زوجها حقه :

لكن هذا الذي يتوهم أنه فوق سبع سماوات وزوجته في الأراضين هذا زوج جاهل لا يعرف قيمة الزوجية ، درجة واحدة ،

(وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ)

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ)

كما أنك تريد أن تتزين لك ينبغي أن تتزين لها ، كما تريد أن تحترم أهلك ينبغي أن تحترم أهلها ، وإلا صار الزوج عنصرياً ، العنصرية صفة في الإنسان خسيسة ، ما هي ؟ أن تتوهم أن على غيرك ما ليس عليك ، وأن لك ما ليس لغيرك ، هذه عنصرية ، قد تبدأ بعلاقة ما بين الزوجين وقد تنتهي بحق الفيتو في مجلس الأمن ، حينما تتوهم دولة أن لها ما ليس لغيرها ، وأن على غيرها ما ليس عليها ، هذه عنصرية ، وما دام هناك عنصرية في الحياة فهناك مشكلات لا تنتهي .

فلذلك بين الزوجين ينبغي أن يعطيها حقها كما ينبغي أن تعطيه حقه .

الأستاذ جميل :

دكتور ما هو الدور الذي يؤديه كل من هذين الزوجين ، وبالتالي ما هي مهامه المنوطة به ؟.

الدور الذي يؤديه كل من الزوجين و المهام المنوطة بهما :

الدكتور راتب :

والله هذا الدور وضحته امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات ، جاءت إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقالت :

" يا رسول الله ، إن زوجي تزوجني وأنا شابة ، ذات أهل ، ومال ، وجمال ، فلما كبر سني ، ونثر بطني ، وذهب مالي ، وتفرق أهلي ، قال : أنت عليّ كظهر أمي ، ولي منه أولاد ، إن تركتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم لي جاعوا ، أي أنا أربيهم وهو ينفق عليهم " .

فالمرأة دورها الأول التربية ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام في بعض الأحاديث :

((أول من يمسك بحلق الجنة أنا ، فإذا امرأة تنازعني ، تريد أن تدخل الجنة قبلي ، قلت : من هذه يا جبريل ؟))

[ورد في الأثر]

الحديث طويل ، هي امرأة ربت أولادها ، تربية الأولاد أعظم عمل عند الله لأن الأطفال أحباب الله ، ولأن الأم إذا ربت أولادها إلى المجتمع عناصر جيدة ، صادقة ، أمينة ، متقنة ، تحمل همّ الأمة ، عناصر خيرة ، معطاءة .

لذلك أعظم عمل تقوم به المرأة دون استثناء تربية الأولاد ، وقد أكرم الله الزوجين بهذه الآية :

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة الطور الآية : 21)

قالت : يا رسول الله إن ضممتهم إلي جاعوا ، إن تركتهم إليه ضاعوا ، هو ينفق عليهم ، وأنا أربيهم ، هذه الأدوار المتكاملة بين الزوجين .

حقيقة الزواج أن كل طرف له وظائف وله مهمات وله محاسبة عن أعماله :

لذلك حقيقة الزواج أن كل طرف له وظائف ، وله مهمات ، وله محاسبة عن أعماله ، من هنا قال عليه الصلاة والسلام :

((انصرفي أيتها المرأة وأعلمي من وراءك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله ـ يعدل الجهاد في سبيل الله ـ))

[عن أسماء بنت يزيد الأنصارية]

والجهاد كما تعلمون ذروة سنام الإسلام .

وقد رد في الأثر أن :

((أكرموا النساء ، فوالله ما أكرمهن إلا كريم ، ولا أهانهن إلا لئيم ، يغلبن كل كريم ، ويغلبهن لئيم ، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً))

الأستاذ جميل :

دكتور ، هذه منهجة للأسرة المسلمة على دين الله في حياتها كلها ، ونحن حديثنا كله في هذا البرنامج عن أن الإسلام منهج لحياة كريمة .

تكريم الإسلام للمرأة :

الدكتور راتب :

يمكن أن أضيف إضافة ، الحقيقة أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما فتح مكة المكرمة دعته سادتها وكبراؤها ليبيت عندهم ، ماذا قال ؟ قال : "انصبوا لي خيمة عند قبر خديجة " .

وركز لواء النصر أمام قبرها ، ليعلم العالم كله أن هذه المرأة التي في القبر شريكته في النصر ، هل هناك من تقدير وتوقير ووفاء كهذا الموقف من رسول الله ؟ هكذا المرأة في الإسلام هي مكرمة ، لكن سوء فهم بعض المسلمين وسوء تصرفاتهم أحياناً سببت مشكلات اجتماعية ، لذلك هناك من اتهم الإسلام ، والإسلام بريء من هذه التصرفات ، هذه واحدة .

هناك شيء آخر ، كما قلت قبل قليل إذا توهم الزوج أن له ما ليس لزوجته ، وأن عليها ما ليس عليه ، هنا تبدأ العلاقة بالسوء بينهما ، فنحن نحافظ على علاقة طيبة ، نامية ، إيجابية بين الزوجين ، لا تكون إلا بطاعة الله أولاً ، وبالحياة المشتركة ثانياً ، وكلما تقدم فهم الإنسان وارتقى في سلم الإيمان ، ونضج عقله ، يعامل زوجته كشريكة حياة ليس غير ، لا يعاملها أقل منه .

الأستاذ جميل :

ذكرتم فضيلة الدكتور عن العنصرية ، العنصرية بين الزوجين ، نريد منكم توضيح حول هذه العنصرية .

العنصرية بين الزوجين :

الدكتور راتب :

هناك بعض الأمثلة ، مثلاً : لو أنه نقد أمها نقداً لاذعاً فإذا أرادت أن تنتقد أمه نقداً أقل منه أقام الدنيا ولم يقعدها ، هذه عنصرية ، كما أنها أمك هي أمها ، حينما يكلفها بشيء فوق طاقتها هذه عنصرية ، أما إذا طالبته بشيء ينفجر عليها ، حينما يعامل الناس برقة ولطف فإذا دخل إلى البيت عاملها بقسوة هذه ازدواجية في الشخصية .

فلذلك النبي الكريم قال :

((خيرُكُم خيرُكُم لأهْلِهِ ، وأنا خيرُكُم لأهْلِي))

[أخرجه الترمذي عن عائشة أم المؤمنين]

ماذا أراد النبي الكريم ؟ أراد أن الإنسان خارج البيت يتأنق ، ويتلطف ، ويعتذر، ويبتسم ، ويصافح ، وينحني ، هذا جزء من عمله ، جزء من أنه أراد كسب شعبية بين الناس، لكنه إذا دخل إلى بيته هو طليق لا أحد يحاسبه ، فكمال الإنسان يظهر في بيته ، أخلاقه الحقيقية تظهر في بيته ، فالإنسان إذا دخل إلى البيت كما كان عليه الصلاة والسلام واحداً من أفراد البيت ، كان بساماً ، ضحاكاً ، كان يقول عن النساء :

((إنهن المؤنسات الغاليات))

[الحاكم والطبراني عن عقبة بن عامر بسند ضعيف]

فأنا أجتهد اجتهاداً خاصاً وأرى أن قيمة الزوج بعلاقته بأهله قبل كل شيء ، وتأتي علاقته مع الآخرين في الدرجة الثانية .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - الإسلام منهج حياة - الدرس (09-30) : علاقة الإنسان بأسرته 3 ، معالجة إشكالية الشقاق الزوجي

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 31-08-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ جميل :

ما زلنا نتناول حديث الأسرة ودورها الريادي ، إلا أن في هذه الحلقة نود معالجة إشكالية الشقاق الزوجي ، متى يحصل الشقاق والجفاء بين الزوجين ؟.

الأصل في العلاقة الزوجية المودة والرحمة :

الدكتور راتب :

الأصل في الزواج المودة والرحمة ، وإن صحّ التعبير هذا في أصل التصميم .

(وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(سورة الروم الآية :21)

إذا كان هناك عداوة ، وبغضاء ، وشقاق إن صحّ التعبير هذه حالة مرضية ، ينبغي أن تعالج ، وأنا لا أرضى لأخ كريم بينه وبين أهله شيء من الشقاق أن يبقي هذا دون أن يعالجه ، وقد قال الله عز وجل :

(وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ)

(سورة الأنبياء الآية : 90)

فما دام هناك عودة إلى الله ، ما دام هناك استلهام لحل هذه المشكلة ، المشكلة تحل ، فالأصل في العلاقة الزوجية المودة والرحمة ، وإلا هناك حالة مرضية ينبغي أن تعالج .

أسباب الشقاق الزوجي في العالم الإسلامي :

1 - الجهل و التقصير :

ولكن عندما كانت بيوتات المسلمين فيها معاناة كثيرة ، وفيها أحياناً شقاق بين الزوجين ، فهذه ظاهرة

سببها الجهل ، والجهل أعدى أعداء الإنسان ، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به ، الجهل شيء مخيف ، كل مشكلات الإنسان تأتي من الجهل لأن الإنسان جبل على حبّ وجوده ، وعلى حبّ سلامة وجوده ، وكمال وجوده ، وعلى استمرار وجوده ، لماذا يشقى ؟ من الجهل ، بل إن أزمة أهل النار في النار من الجهل .

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

(سورة الملك)

فحينما يجهل الزوج حقوق الزوجة ، وحينما تجهل الزوجة حقوق زوجها ، وحينما يجهل الزوج واجباته تجاه زوجته ، وحينما تجهل الزوجة واجباتها تجاه زوجها ، وحينما يجهلان معاً طبيعة العلاقة بينهما ، يكون هذا البيت شقياً ، والشقاق الزوجي مشكلة متفاقمة في العالم الإسلامي بسبب الجهل ، وبسبب التقصير .

فذلك حينما يتحرك الإنسان إلى حقوقه وإلى واجباته قد تقل هذه المشكلة في حدها الأدنى .

بلغني في ماليزيا ارتفعت نسب الطلاق ، فأسسوا مدرسة لا بدّ من أن ينجح فيها أحد الخاطبين ، مدرسة للذكور وأخرى للإناث ، ولا يعقد عقد في ماليزيا إلا إذا توافر في الزوجين القادمين النجاح بهذه الدورة ، بلغني بعد حين أن نسب الطلاق تدنت إلى العشر .

أكبر مشكلة هو الجهل ، مرة ثانية ، يفعل الجاهل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به ، إذاً يعد الجهل أحد أسباب الشقاق الزوجي ، علاجه بالعلم .

الأستاذ جميل :

أي هو المتهم الأول ، الجهل هو المتهم الأول .

2 ـ ضعف الإرادة :

الدكتور راتب :

السبب الثاني هو ضعف الإرادة ، قد يعلم الزوج حقوق زوجته ، ويعلم واجباته ، لكن لضعف إرادته يقصر في أداء الواجبات ، ويبالغ في مطالبته بالحقوق ، فهذا فرع منه جهل ، ثم عدم القدرة على تطبيق ما يعلم الإنسان .

الأستاذ جميل :

دكتور ، هنالك مخالفات ، هنالك معاصٍ، لا يقبل بها في شرع الله عز وجل ، أي المعصية تورث شقاقاً بين الزوجين .

المعصية تورث شقاقاً بين الزوجين وغضّ البصر يعد أكبر أسباب الوفاق بين الزوجين :

الدكتور راتب :

والله لأن في القرآن الكريم ، وهو الكتاب الأول في حياة المسلمين ، وهو وحي السماء آية دقيقة عن غض البصر .

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ)

(سورة النور الآية : 30)

أنا أتصور أن الزوج إذا أطلق بصره في النساء الأخريات ، ما الذي يحصل ؟ يأخذ من هذه طولها ، ومن هذه لونها ، ومن هذه شعرها ، فيشكل في ذهنه نموذجاً غير موجود إطلاقاً ، فإذا وازن زوجته مع هذا النموذج المتخيل لا يحبها عندئذٍ ، فإطلاق البصر له منعكس بين الزوجين ، ولهذا جاء في القرآن الكريم هذه الآية ،

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

فغض البصر أنا في تصوري ، ولأنه آية قرآنية ، ولأنه توجيه واضح وضوح الشمس ، يسهم غضّ البصر في حسن العلاقة بين الزوجين ، عندئذٍ يخلق الله وداً من فعله جلّ جلاله بين الزوجين .

فغض البصر يعد أكبر أسباب الوفاق بين الزوجين ، ينبغي هو أن يقصر طرفة على زوجته ، وهذا ورد في كتاب الإنسان ذلك المجهول لـ((ألكسي كاريل)) ، أنه أفضل نظام للزواج أن يقصر الرجل طرفه على زوجته ، مع أن الإنسان اهتدى إلى هذه الحقيقة بفكره وذكائه ، هي في كتاب الله .

الأستاذ جميل :

سبحان الله ! دكتور هنالك أمور في الشقاق الزوجي هذا عدم إطلاق البصر وغض النظر ،

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

في ما بين الإنسان وبين نفسه يتعبد الله بها ، هنالك أمور بين الزوجين ، أخطاء بين الزوجين .

سوء التصرف من ضعف الاتصال بالله عز وجل :

الدكتور راتب :

أحياناً هناك سوء تصرف ، أنا أؤمن ، حينما قال الله عز وجل :

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

(سورة العنكبوت الآية : 45)

قال بعض العلماء : ذكر الله لك أيها المصلي وأنت في الصلاة أكبر من ذكرك له، إنك إن ذكرته أديت واجب العبودية ، لكنه إذا ذكرك منحك الحكمة .

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

(سورة البقرة الآية : 269)

أنت بالحكمة تسعد بزوجة من الدرجة الخامسة ، ومن دون حكمة تشقى بزوجة من الدرجة الأولى ، فأحياناً هناك سوء تصرف ، موقف أحمق ، موقف غبي ، موقف أرعن، موقف قاس جداً ، هذا جاء من سوء التصرف ، وسوء التصرف من ضعف الاتصال بالله عز وجل ، فحينما قال الله عز وجل :

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

لأن ذكر الله لك أيها المؤمن وأنت تصلي أكبر من ذكرك له ، إنه إن ذكرك منحك الحكمة ، منحك الأمن ، منحك السعادة ، منحك السكينة ، منحك التوفيق ، فالتوفيق في الزواج مكافأة إلهية على طاعة الزوجين .

الأستاذ جميل :

دكتور أحياناً يكون هنالك فارق بين الزوجين ، قد يكون الزوج غنياً ، أو الزوجة غنية ، الزوج جميلاً، أو الزوجة جميلة .

مراعاة الكفاءة بين الزوجين والابتعاد عن التعالي :

الدكتور راتب :

هنا المشكلة التعالي ، أحياناً تتعالى المرأة التي يعد أهلها أغنياء على زوجها من أسرة فقيرة ، من هنا اجتهد الفقهاء في أن تكون الكفاءة بين الزوجين ، الكفاءة : التقارب في المستوى الاجتماعي ، والاقتصادي ، والثقافي ، والعلمي ، فكلما كان المستويان متقاربين كان الزواج موفقاً أكثر ، وفي كتب الفقه بحث قائم بذاته اسمه الكفاءة الزوجية ، فلو أن غنية تزوجت بفقير وتعالت عليه لا يحتملها ، ولو أن مثقفاً بثقافة عالية تزوج بامرأة جاهلة لا يحتملها ، فكلما كانت الفروق كبيرة بين الزوجين طبعاً ثقافياً ، أو دينياً ، أو أخلاقياً ، أو اجتماعياً ، أو اقتصادياً ، كان هناك سبب لبعض المشكلات ، لكن لو فرضنا كان أغنى من زوجته لكنه مؤمن ، إذاً هو متواضع .

لذلك قال العلماء : " طالب العلم كفء لأية زوجة " لأنه مؤمن ، منضبط ، متواضع ، لكن بشكل أو بآخر التعالي ، تعالي الزوج على زوجته ، أو على أهل زوجته ، أو تعالي الزوجة على زوجها ، أو على أهل زوجها أحد أسباب الشقاق الزوجي .

الأستاذ جميل :

هي من الأدبيات فضيلة الدكتور ، هذه الكفاءة بين الزوجين هي من الأدبيات ؟.

الدكتور راتب :

والله من الموضوعات التي يجب أن تراعى قبل عقد القران الكفاءة بين الزوجين أما العلماء حينما قالوا: طالب العلم كفء لأية زوجة ، لأنه انضبط بمنهج الله عز وجل .

الأستاذ جميل :

يحصل خلاف أحياناً بين الزوجين في من الذي يبت بأمر معين ؟

عدم وجود قيادة في البيت يسبب متاعب كثيرة للزوجين :

الدكتور راتب :

بيت بلا قيادة مشكلة كبيرة جداً ، هناك بيوت كثيرة بلا قيادة ، لا يوجد قائد واضح ، لا يوجد قائد معه صلاحية ، بينما أي مؤسسة ، أي طائرة فيها طيار ومعاون ، إذا تصورنا الطيار هو الزوج ، والمعاون هي الزوجة ، الزوجة على مستوى عال جداً لكن له درجة القيادة ، في الأزمات الرأي لواحد ، فقال تعالى :

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ)

(سورة النساء الآية : 34)

هناك قيادة ، الرجل لأهليته ، ولما أنفق من ماله ، وبعلمه ، ينبغي أن يكون هو القائد إلا في الحالات النادرة ، أما في الأصل يأخذ بيدها ، وتأخذ بيده ، وينصحها وتنصحه.

(وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ)

(سورة الطلاق الآية : 6)

لكن في حالات نادرة ينبغي أن يكون القرار لواحد عند الطوارئ ، هذا الذي أتمناه أن يكون واضحاً .

فلذلك عدم وجود قيادة في البيت هذا يسبب متاعب كثيرة للزوجين .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - الإسلام منهج حياة - الدرس (10-30) : علاقة الإنسان بأسرته 4 ، المنهج الإسلامي في حلّ المشكلات الأسرية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-09-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ جميل :

المفترض في الأسرة أن تكون عش سكن ، ومنبع المودة والرحمة ، إلا أن الأعم الأغلب غير ذلك ، فالخلافات منتشرة وهي على أشدها ، ونسب الطلاق في تزايد ينذر بالخطر ، ما هو المنهج الإسلامي في حل هذه المشكلات الأسرية ؟.

من بنود الوفاق بين الزوجين :

1 ـ البعد عن التقليد الأعمى :

الدكتور راتب :

المنهج الإسلامي واسع جداً في هذا الموضوع ، ولكن من بنود الوفاق بين الزوجين البعد عن التقليد الأعمى ، هناك أسر ذات دخل معتدل ، هناك أسر ذات دخل كبير ، فلو أن الأسر التي دخلها معتدل تطلعت إلى أسرة دخلها كبير ، وطلبت الزوجة من زوجها طلبات فوق طاقته بغية التقليد الأعمى ، بغية المنافسة في بعض مظاهر الحياة ، فهذا خطأ كبير ، فالتقليد الأعمى قد ذكره النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال :

((يا عائشة إياكِ ومجالسة الأغنياء))

[الترمذي عن عائشة]

المقصود هنا الأغنياء غير المؤمنين ، الغني المؤمن تشتهي الغنى من تواضعه ، ومن سخائه ، أما إنسان بعيد عن الله وهو يتمتع بأموال كبيرة جداً ، هذا يستعلي على من حوله ، فالاستعلاء يظهر أثره جلياً في النساء ، فلذلك التقليد الأعمى أحد أكبر الشقاق الزوجي .

ويقال : من دخل على الأغنياء ـ طبعاً غير المؤمنين ـ خرج من عندهم وهو على الله ساخط ، ويقال : لا تصاحب من لا يرى لك من الفضل مثلما ترى له .

فلمجرد أن أقلد الغني في إنفاقه ، في بذخه ، في مصروفه ، في أثاث بيته، والزوج دخله محدود ، زوج رائع ، مؤمن ، مستقيم ، بيته كأنه عش ، بيته قطعة من الجنة ، أما حينما تريد الزوجة أن تقلد أسرة غنية مترفة ، وتضغط على زوجها ينشأ الشقاق الزوجي بينهما .

الأستاذ جميل :

غياب الرجل عن البيت هل يعتبر سبباً من أسباب الشقاق ؟ إن كان الجواب نعم فماذا يفعل الزوج ؟ هل يقعد في البيت ؟.

2 ـ أن يكون لك وقت معقول وكافٍ للجلوس مع الزوجة :

الدكتور راتب :

لا ، لكن لا بد أن يخص بيته بوقت ، أما حينما أغيب عن البيت ساعات طويلة جداً ، أخرج قبل الفجر، أو بعد الشمس وأعود بعد منتصف البيت هذه الزوجة من لها ؟ هي تزوجت كي تأنس بك أيها الزوج ، فإذا غبت عنها طويلاً فلابد من وجبة أو وجبتين تأكلها مع زوجتك ، لابد من وقت تجلس معها ، تأنس بك ، وتأنس بها ، فالعمل الذي يأخذ كل وقتك هو خسارة كبيرة .

الحقيقة الإنسان ما لم يكن عنده وقت فراغ يمليه بحسب رغبته ، ما لم يكن لديك وقت فراغ تعيش به مع زوجتك ، تزور بعض أصدقائك ، تحضر درس علم ، فالإنسان الذي لا يملك وقت فراغ إطلاقاً عمله مهما كان دخله كبيراً يعد خسارة كبيرة ، لأنه أفقد الأب أبوته ، و أفقد حقيقة الزواج .

أنا أقول : ينبغي أن يكون لك وقت معقول وكافٍ للجلوس مع الزوجة ، إن في الصباح ، أو في الظهيرة مع الطعام ، أو في المساء ، أما انشغال إلى درجة مذهلة ، وإهمال الزوجة ، أحد أكبر مشكلات الخيانة الزوجية ، تتأتى من غياب مديد جداً عن البيت .

الأستاذ جميل :

دكتور ، هل للزوج أن ينظر إلى مال زوجته ؟ أو أن مالها لها ؟.

3 ـ عدم طمع الزوج بمال زوجته أو العكس :

الدكتور راتب :

أحياناً ترث الزوجة مبلغاً كبيراً عن أهلها ، فيطمع الزوج به ، ويضايقها كي تعطيه من هذا المال ،

هذا الطمع من الزوج بمال زوجته ، أو طمع الزوجة بمال زوجها ، أو محاولة أخذ قسط كبير من المال بأسماء متعددة ، هذا التصرف أحد أسباب الشقاق الزوجي حينما يطمع الزوج بمال زوجته ، أو حينما تطمع الزوجة بمال زوجها ، أو حينما يطمعان بشيء ليس لهما ، هذا من شأنه أن يسبب ضعفاً في العلاقة الزوجية .

الأستاذ جميل :

إذاً لا يطمع بمالها ، ولا تطمع بماله ، وهذا يقودنا إذاً إلى الإنفاق ، إنفاق الرجل على أهل بيته .

ينبغي على الزوج أن ينفق على أهله لكن بالمقياس الشرعي :

الدكتور راتب :

من واجباته ، ينبغي أن ينفق على أهله لكن بالمقياس الشرعي ، أن يطعمهم مما يأكل ، أن يلبسهم مما يلبس .

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة الآية : 286)

الصحابية الجليلة كانت تقول لزوجها :" نحن بك ، إن استقمت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا ، نطلب الحلال ، لا نطلب غير ذلك ، اتق الله بنا ".

ورد في بعض الآثار أن : " أعظم النساء بركة أقلهن مهراً ، أعظم النساء بركة أقلهن مؤونة "

فالزوجة الطاهرة هي الزوجة التي لا ترهق زوجها ولا تكلفه ما لا يطيق .

هناك صحابي طالبته زوجته بأشياء كثيرة ، فقال : " اعلمي أيتها المرأة أن في الجنة من الحور العين ما لا لو أطلت إحداهن على الأرض لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر ، فلأن أضحي بك من أجلهن ، أهون من أن أضحي بهن من أجلك ".

الأستاذ جميل :

دكتور سوء الظن ، وحسن الظن أيهما المحكم في العلاقة الزوجية ؟.

سوء الظن عصمة والحزم سوء الظن :

الدكتور راتب :

الحقيقة سوء الظن كما ورد أنه عصمة .

((احترسوا من الناس بسوء الظن))

[أخرجه الطبراني عن أنس بن مالك]

والحزم سوء الظن ، لذلك قال تعالى :

(إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)

(سورة الحجرات الآية : 12)

ما كل الظن إثم إلا إذا كان هناك دليل ، دخلت إلى البيت ، الزوجة تتكلم في الهاتف، حينما رأتك وضعت السماعة ، هناك مشكلة ، معنى ذلك أنها تكلم إنساناً ينبغي ألا أعلم من هو ، إذا كان هناك بوادر ، إذا كان هناك مؤشرات ، إذا كان هناك أسباب فسوء الظن عصمة، والحزم سوء الظن .

((احترسوا من الناس بسوء الظن))

أما من دون أي دليل فسوء الظن إثم كبير ،

(إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)

لا يوجد أي دليل ، هناك سوء ظن يعد مرضاً نفسياً ، تسيء الظن بزوجها ، زوجها طالب علم ، إنسان منضبط ، له أخلاق عالية ، عفيف ، ومع ذلك تسيء الظن به ، هذه حالة مرضية ، أو أن الزوجة طاهرة ، عفيفة ، مؤمنة ، رائعة ، لا تفكر أن يكون لها علاقة مع رجل آخر يسيء الظن بها ، فسوء الظن من دون دليل ذنب كبير ، وإثم كبير ، أما بدليل فهو حزم ، و كياسة ، وحسن إدارة .

الأستاذ جميل :

هل يمكن أن يكون فضيلة الدكتور الأولاد سبباً من أسباب الخلاف ؟.

الإيمان يدعو الإنسان إلى العدل و حسن التصرف :

الدكتور راتب :

والله ! حينما تنحاز المرأة إلى أحد الأولاد ، وتؤثره على غيره ، أو حينما تنحاز المرأة لأولاد زوجها وتؤثرهم على أولاد ضرتها أحياناً ، عندئذٍ تنشأ المشكلة ، العدل أصل في العلاقات .

أنا أذكر أن بعض النساء تسقي أولادها حليباً كامل الدسم ، أما أولاد زوجها تعطي نصف الكأس حليباً، ونصفه ماء ، هذا الانحياز يسبب علاقات سيئة جداً ، والأصل أستاذ جميل هو الإيمان ، فالإيمان يدعوك إلى العدل و إلى حسن التصرف.

فحينما تكون هناك مؤاثرة ، أحياناً زوجة حديثة تطالب أن يكتب بيتاً لأولادها ، بينما لا يكتب بيوتاً لزوجته السابقة ، هذا انحياز ، والعدل في العلاقات الزوجية أصل لذلك :

((يا رسول الله ، إني أريد أن أنحل ابني هذا حديقة ، وأريدك أن تشهد على ذلك ، فقال له صلوات الله وسلامه عليه : (أكل أولادك أعطيت ؟)ـ أي أعطيت بقية أولادك أو أعطيت هذا فقط ؟ ـ قال : لا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (اذهب فإني لا أشهد على جور))

[مسلم عن النعمان بن بشير]

الأستاذ جميل :

صلى الله عليه وسلم ، دكتور ما رأيكم في تداخل القريب أو الغريب في العلاقات السرية حتى لو كان أباً أو أماً ؟.

المشكلات بين الأزواج تنشأ غالباً من تدخل طرف آخر :

الدكتور راتب :

والله أنا في حكم عملي في الدعوة هناك مشكلات كثيرة جداً ، سببها تدخل الآباء والأمهات في الشؤون الخاصة بين الزوجين ، الأب العاقل ، والأم العاقلة ، هذا الزوج ، أو هذا الابن اختار هذه الزوجة تحبها وتحبه ، متفاهمان معاً ، لماذا أتدخل في شؤونهما الخاصة ؟ هذه سيطرة لا مبرر لها ، فكلما كان الأب مترفعاً والأم كذلك عن التدخل في تفاصيل حياة أولادهما فالعلاقة تبدو أفضل بكثير .

فلذلك أحياناً الزواج ينجح بعيداً عن الأهل ، أحياناً الإنسان يتزوج ويسافر ، يقيم مع زوجته سنوات في مكان بعيد عن الأقارب ، تجد العلاقة طيبة ، وهناك مودة ، و محبة و تفاهم ، فإذا عادا إلى بلديهما ، تدخل الأم ، تدخل الأب ، تدخل أم الزوجة ، هكذا .

الأستاذ جميل :

خروج المرأة من بيتها ما الذي يحكمه ؟.

البيان يطرد الشيطان :

الدكتور راتب :

النبي عليه الصلاة والسلام كان مع زوجته صفية ، مرّ صحابيان ، قال : " على رسليكما هذه زوجتي صفية ، قالوا : يا رسول الله ! قال : لئلا يدخل الشيطان بينكما ".

فالبيان يطرد الشيطان ، فحينما تخرج من دون إذن زوجها ، وحينما تستقبل رجلاً من أقاربها من دون علم زوجها ، هذا يسبب سوء ظن .

الأستاذ جميل :

دكتور ، هذا يقودنا إلى خلو الزوجة بأحد الأقارب ، أو الزوج بأحد الأقارب وهي مسألة الحمو .

نهي النبي الكريم عن الخلوة المحرمة لأنها تثير الشك :

الدكتور راتب :

والله :

((ما خلا رجل بامرأة إلا دخل الشيطان بينهما))

[أخرجه الطبراني عن أبي أمامة الباهلي]

هذا منهج ، وتقريباً معظم المشكلات الكبيرة في الزواج ، والتي أدت إلى الطلاق بخلوة غير مشروعة، الخلوة تثير الشك ، فلذلك النبي الكريم نهى عن الخلوة ، بل قال :

((ما خلا ـ ما قال عاصٍ ، ما قال فاسق ـ قال : ما خلا رجل ـ أي رجل ـ بامرأة ـ أي امرأة ـ إلا دخل الشيطان بينهما))

وأكثر الأعمال القبيحة المنحرفة تبدأ بالخلوة ، فلذلك المرأة المؤمنة لا تسمح بغياب زوجها أن يكون هناك رجل ليس من الممكن إلا أن يكون أحد أقاربها الأرحام ، كأخيها وأبيها ، ... إلخ .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - الإسلام منهج حياة - الدرس (11-30) : علاقة الإنسان بعامة الناس 1 ، المجتمع مبني على الأفراد

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 02-09-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ جميل :

المجتمع مبني على الأفراد ، فكل فرد من أفراد المجتمع يشكل عاملاً من عوامل بنائه ، فلو أن الإنسان وضع في أفخم الأمكنة وقدم إليه أفخم الطعام والشراب ، هل يغنيه ذلك عن الاندماج في المجتمع ؟.

الله عز وجل جعل الإنسان كائناً متحركاً وأودع فيه حاجات عدة :

الدكتور راتب :

لا طبعاً ، بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أستاذ جميل الحقيقة دخلنا في محطة ثالثة ، هي علاقة الإنسان بمن حوله ، من أقارب ، من زملاء ، من أصدقاء ، من جيران ، من عامة الناس ، هذه محطة من محطاته ، ومحطة أساسية أيضاً ، لأن الإنسان في الأصل اجتماعي ، كيف ؟ الله عز وجل جعل الإنسان كائناً متحركاً وليس سكونياً ، ما الذي حركه ؟ أنه أودع فيه حاجات ، الحاجة الأولى إلى الطعام والشراب ، حفاظاً على وجوده كفرد ، والحاجة الثانية أودع فيه حاجة إلى الطرف الآخر ، الشاب بحاجة إلى شابة يتزوجها ، والشابة بحاجة إلى زوج تتزوجه ، إذاً هذه حاجة ثانية ، أما الثانية حفاظاً على بقاء النوع .

وأودع فيه حاجة ثالثة سماها علماء النفس تأكيد الذات ، بعد أن يأكل ، ويشرب ، ويتزوج ، وينجب ، هناك حاجة إلى أن يكون شيئاً مهماً ، يشار إليه بالبنان هذه الحاجة نسميها تأكيد للذات ، إلا أن هذه الحاجات الثلاثة حيادية ، والإنسان بإمكانه أن يلبيها وفق منهج الله ، فيسمو عند الله ، ويمكن أن تلبى بخلاف منهج الله فيسقط ، فهذه الحاجات ترقى بالإنسان إلى أعلى عليين ، وتهوي به إلى أسفل سافلين، لأنها حيادية ، ولأن الإنسان مخير، فإن كان وفق منهج الله يلبي هذه الحاجات وفق منهج الله ، وإن كان معرضاً عن الدين يلبيها بخلاف منهج الله .

إذاً قد تكون سلماً يرقى به أو دركات يهوي بها ، هذه حاجات كبرى إلى الطعام والشراب ، ولولا هذه الحاجة لما رأيت شيئاً على وجه الأرض ، وحاجة الزواج ، الحالة الثالثة الحاجة لتأكيد الذات .

المؤمن أراده الله أن يكون في خدمة الجماعة ليرقى إلى أعلى عليين :

إلا أن هناك حاجات فرعية كثيرة ، من هذه الحاجات حاجة الإنسان إلى أن يُحِب أو إلى أن يُحَب ، وأي إنسان لا يشعر بحاجة إلى أن يُحِب ، ولا إلى أن يُحَب ليس من بني البشر ، حاجته إلى الأمن ، حاجته إلى أن يتقوى بجماعة ، حاجته إلى النصرة ، حاجات كثيرة، هذه الحاجات تجعله كائناً اجتماعياً. فهناك حاجات أساسية في الإنسان ، حاجته إلى الحب ، حاجته إلى التقوى ، حاجاته إلى التقدير ، حاجته إلى الأمن ، هذه الحاجات تجعله كائناً اجتماعياً ، أي أراده الله أن يكون كائناً اجتماعياً . وهناك حاجات فردية ، المصالح الشخصية ، الأهواء الشخصية ، فالإنسان بين نوازع فردية ، ونوازع اجتماعية ، فالإنسان قبل أن يعرف الله إذا تصادمت حاجاته الفردية مع حاجاته الاجتماعية في الأعم الأغلب يؤثر حاجاته الفردية ، أما الإسلام أكّد في الإنسان الجانب الاجتماعي ، وسما في هذا الجانب ، فجعل الاندماج في الجماعة ، وخدمة الجماعة ، وإصلاح الجماعة طريقاً إلى الله ، جعل من عبادة الإنسان أن يصلح من حوله ، أن يأخذ بيدهم إلى سبل سلامتهم وسعادتهم ، فصار في الإنسان حاجات اجتماعية ، وحاجات فردية ، فالإنسان الذي شرد عن الله يؤثر مصالحة الشخصية على حاجاته الاجتماعية ، لكن المؤمن أراده الله أن يكون في خدمة الجماعة ليرقى عند الله ، وكأن خدمة الجماعة طريق إلى الله عز وجل ، أو أحد أثمان الجنة .

قوة المسلمين في اجتماعهم على فكر و قيم و مبادئ واحدة :

إذاً نحن في هذا اللقاء ـ إن شاء الله ـ سيكون في الحديث عن الجانب الاجتماعي ، إلا أن الله سبحانه وتعالى يقول :

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً)

(سورة آل عمران الآية : 103)

في الآية ملمح دقيق جداً وهو أنه لابدّ من حبل نعتصم به ، الاجتماع يحتاج إلى فكر ، إلى قيم ، إلى مبادئ ، إلى منهج حياة ، قال :

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً)

بوحي السماء ، بمنهج خالق السماوات والأرض ، التفوا حول هذا المنهج ، تلتقون ، وتجتمعون ، و تتناصرون ، وقد ورد في بعض الأحاديث القدسية :

((وَجَبَتْ محبَّتي للمُتَحَابِّين فيَّ ، والمُتجالِسينَ فيَّ ، والمُتزاورينَ فيَّ والمتباذلين فيَّ ، والمتحابون في جلالي على منابر من نور يغبطهم عليها النبييون يوم القيامة))

[أخرجه مالك عن معاذ بن جبل]

هذه الآية الكريمة :

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً)

لابدّ من شيء يجمعنا ، لابدّ من فكر يجمعنا ، لابدّ من قيم تجمعنا ، لابدّ من مبادئ تجمعنا ، هذه إذا جمعتنا فنحن كالبنيان المرصوص لا تُخترق .

الانسحاب من المجتمع والتقوقع حول الذات ليس من منهج المؤمنين :

شيء آخر : يقول عليه الصلاة والسلام

((عليكم بالجماعةِ ، وإيَّاكُم والفُرْقة ، فإنَّ الشيطانَ مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعدُ))

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمر]

((فإنما يأكلُ الذِّئبُ من الغنم القاصية))

[أخرجه أبو داود والنسائي عن أبي الدرداء]

فأرادنا الله أن نندمج في الجماعة ، في جماعة المسلمين ، وحول منهجه ، وحول قرآنه ، وحول الطريق إلى سلامة المجتمع وسعادته ، فنحن معنا في القرآن الكريم آيات كثيرة ، وأحاديث كثيرة ، تدعونا إلى أن نكون اجتماعيين ولسنا فرديين ، الانسحاب من المجتمع والتقوقع حول الذات ليس من منهج المؤمنين .

الأستاذ جميل :

إذاً فضيلة الدكتور من رأى في نفسه الاستغناء عن الناس ، الاستغناء عن المجتمع ، لا يقبل منه ذلك ، هذه حالة مرضية تستوجب علاجاً .

نحن مكلفون أن نكون إيجابيين وأن نكون مع مجتمعنا لنأخذ بيده :

الدكتور راتب :

لكن لابدّ من تنويه ، أنا أستخدم لعبة شدّ الحبل ، فإذا فسد المجتمع ، وهذا المؤمن إذا كان بإمكانه أن يشد هؤلاء إليه يجب أن يكون معهم ، أما إذا خاف على دينه ، وعلى مبادئه ، وعلى قيمه ، فلما التقى

معهم واستطاعوا أن يشدوه إليهم فلينجُ بنفسه ، هذا الضابط.

(وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ)

(سورة الكهف الآية : 16)

إذا ما عبدوا الله عز وجل ينبغي أن تعتزلهم لتنجو بنفسك ، أما إذا استطعت أن تأخذ بيدهم ، وأن تقنعهم ، وأن تعينهم على أمر دينهم ينبغي أن تكون معهم ، من هذا كله عليك أن تكون أيها المؤمن في برج عاجي أخلاقي لا في برج عاجي فكري ، لا ينبغي أن تنأى عنهم ، هم أهلك ، أبناء جلدتك ، أنت مكلف بنصحهم ، بالأخذ بيدهم ، لكن إياك أن تقع في سقطاتهم ، وفي وحلهم ، وفي انحرافاتهم ، كن في برج عاجي أخلاقي ، ولا تكن في برج عاجي فكري .

إذاً نحن مكلفون أن نكون إيجابيين ، وأن نكون مع مجتمعنا لنأخذ بيده ، ونعين ضعيفهم ، ونعلم جاهلهم ، ونقوي من كان بحاجة إلى مساعدة ، أما المجتمع إذا جذبنا إليه ووقعنا في سقطاته ووحله هذه مشكلة كبيرة ، فالقضية تحتاج إلى توازن دقيق ، ما دمت مستطيعاً أن تأخذ بيدهم إلى الصواب فكن معهم ، فإذا شعرت أنهم يمكن أن يأخذوك إلى سقطاتهم ، وإلى وحولهم ، فابتعد عنهم .

الأستاذ جميل :

إذاً هذا الإنسان الاجتماعي إما أن يفيد ، وإما أن يستفيد .

الناحية الاجتماعية أصل في حياة الإنسان :

الدكتور راتب :

هذا منطلق لهذا اللقاء الطيب ، الناحية الاجتماعية أصل في حياة الإنسان ، لكن قد ينحرف ، قد يندمج مع المجتمع فيسقط معهم ، قد ينعزل عنهم فيلغي وظيفته ، إذاً لابد من أن نواصل الاندماج معه بقصد الأخذ بيده ، ينبغي أن تندمج اندماجاً إيجابياً ، أي ليس أن تنهار مع انهيار المجتمع ، وينبغي أن تحافظ على هويتك الإيمانية .

الأستاذ جميل :

فضيلة الدكتور ، إن كان هو مندمجاً مع هذا المجتمع فهو واحد منهم ، ما هو معيار التفاضل بين الناس ؟ وهل الناس على صعيد واحد ؟.

طاعة الله عز وجل معيار التفاضل بين الناس :

الدكتور راتب :

في الإسلام نصوص قرآنية ، ونبوية مذهلة ، من هذه النصوص قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات الآية : 13)

سيدنا سعد بن أبي وقاص إذا دخل على النبي يقول النبي عليه الصلاة والسلام : " هذا خالي أروني خالاً مثل خالي " .

ما فدى أحداً من صحابته إلا سعداً ، قال :

((ارْمِ سَعدُ ، فداك أبي وأمِّي))

[أخرجه البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص]

ومع ذلك قال له سيدنا عمر : " يا سعد لا يغرنك أنه قد قيل خال رسول الله ، فالخلق كلهم عند الله سواسية ، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له " .

الأستاذ جميل :

دكتور ، هل نعني بهذه الأخوة المساواة التامة بحيث لا يعرف لصاحب الفضل فضله ويكون الفضل بينهم على الشيوع ؟.

التفاوت بين الناس بالتقوى لا بالانتماء :

الدكتور راتب :

لا أبداً .

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام الآية : 132)

لكن نحن ننطلق من أن مكانة الإنسان عند الله واحدة ، إن كان ذكراً أو أنثى ، إن كان أبيضاً أو أسوداً، إن كان عربياً أو أعجمياً .

((فلا فضل لعربي على أعجمي ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى))

[أخرجه الطبراني عن أبي سعيد الخدري]

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

النبي الكريم قال :

((يا عباس عم رسول الله ، يا فاطمة بنت محمد ، أنقذا نفسيكما من النار ، أنا لا أغني عنكما من الله شيئاً))

[مسلم عن أبي هريرة]

((من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه))

[أحمد عن أبي هريرة]

((لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم))

[أحمد عن أبي هريرة]

دائماً وأبداً أراد الله أن يكون الناس عنده سواسية ، يتفاوتون بالتقوى ، التفاوت بالتقوى لا بالانتماء ، دائماً وأبداً هناك مقاييس انتمائية ، هذه باطلة ، ودائماً المجتمعات المتخلفة تعتمد مقاييس انتمائية ، وهناك مقاييس موضوعية ، المجتمعات الراقية أخلاقياً ومبدئياً تعتمد المقاييس الموضوعية ، فالخلق كلهم عند الله سواسية ، ليس بينهم وبينه قرابة إلا طاعتهم له .

هذه معانٍ مريحة ، وكأننا نبين أن البشر عند الله صنفان ، صنف عرف الله فانضبط بمنهجه ، وأحسن إلى خلقه فسلم وسعد في الدنيا والآخرة ، وصنف غفل عن الله وتفلت من منهجه ، وأساء إلى حلقه ، فشقي وهلك في الدنيا والآخرة ، ولن تجد صنفاً ثالثاً .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - الإسلام منهج حياة - الدرس (12-30) : علاقة الإنسان بعامة الناس 2 الأخوة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 03-09-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ جميل :

فضيلة الدكتور حديثنا عن الأخوة ، فهل من تقسيمات لهذه الأخوة ؟ أي هل نحن نخص الكلام عن الأخ النسبي ، الشقيق ، أو الأخ في الله ، أم غير ذلك ؟

أنواع الأخوة :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

أستاذ جميل ، الأخوة أنواع أعلاها الأخوة الإنسانية ، لأن الإنسان أخ للإنسان ، والله عز وجل خلق البشر من نفس واحدة ، من خصائص واحدة ، فلذلك حينما قال عليه الصلاة والسلام :

((لا يُؤمِنُ أحدُكُمْ حتَّى يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسه))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أنس بن مالك]

فهناك أخوة راقية جداً هي الأخوة الإنسانية ، وهناك شعوب قوية جداً ، قادتها يهتمون بشعبهم فقط ، يهيئون لشعوبهم أعلى مستوى من الحياة ، لكن شعوباً أخرى يدمرونها، يقصفونها ، يحرمونها من وسائل الحياة ، فأنا لا أحترم إلا الاتجاه الإنساني ، لأن الإنسان حينما يهتم بمن حوله ، ويبني مجده على أنقاض الآخرين ، على أنقاض الشعوب ، وأي أمة قوية تبني قوتها على إضعاف الآخرين ، تبني مجدها على أنقاض الآخرين ، وتبني أمنها على إخافة الآخرين هذه أمة لا تنتزع إعجابنا ، ليست إنسانية ، الإسلام إنساني .

((لا يُؤمِنُ أحدُكُمْ - كأن هذا ارتبط بالإيمان - حتَّى يُحِبَّ لأخيه - في الإنسانية - ما يُحِبُّ لنفسه))

هذا ملمح واضح من هذا الحديث الشريف ، يؤكد هذا المعنى حديث آخر :

((الخلق عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله))

[أخرجه أبو يعلى عن أنس بن مالك]

حديث ثالث :

((كبُرتْ خيَانة تحدِّثَ أخاكَ حديثاً هوَ لك بُه مُصدِّق ، وأنتَ له به كاذبُ))

[أخرجه أبو داود عن سفيان بن أسيد الحضرمي]

((كبُرتْ خيَانة تحدِّثَ أخاكَ))

أخاك : يجب أن نأخذ معناها المطلق ، المطلق على إطلاقه ، أخوك في الإنسانية حين تحدثه حديثاً هو لك به مصدق ، وأنت له به كاذب .

يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب :

بالمناسبة : هناك حديث يقصم الظهر ، يقول عليه الصلاة والسلام :

((يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب))

[أخرجه الإمام أحمد عن أبي أمامة الباهلي]

فإذا خان أو كذب ليس مؤمناً ، ليس مؤمناً أصلاً .

((يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب))

لأن المؤمن لا يكذب ، قد تغلبه شهوته ، لكنه لا يكذب ، قد يقع تحت ضعف نفسي ، لكنه لا يكذب .

إذاً هذه الأحاديث مطلقة ، حينما يقول النبي الكريم :

((كبُرتْ خيَانة تحدِّثَ أخاكَ حديثاً هوَ لك بُه مُصدِّق ، وأنتَ له به كاذبُ))

الإسلام إنساني لا عنصري :

شيء آخر :

((يا بنَ آدمَ مَرِضْتُ فلم تَعُدْني ، قال : يارب كَيْفَ أعُودُكَ وأنتَ ربُّ العالمين ؟ قال : أمَا علمتَ أنَّ عبدي فلاناً مَرِضَ فلم تَعُدْهُ ؟ أما علمتَ أنَّكَ لو عُدْتَهُ لوجَدتني عنده ؟))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

أي أنت حينما ترعى أخاك كائناً من كان ، تخفف عنه ، تعينه ، تطعمه ، تعالجه، ترشده ، تحتويه ، تلبي رغبته ، تغيث لهفته ، أنت إنسان عند الله عظيم ، لأن :

((الخلق عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله))

[أخرجه أبو يعلى عن أنس بن مالك]

هناك أحاديث كثيرة ، ومطلقها على إطلاقه وأوضح حديث :

((لا يُؤمِنُ أحدُكُمْ حتَّى يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسه))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أنس بن مالك]

فالإسلام إنساني ، ويقابل الإنسانية العنصرية ، العنصرية أمة ، أو دولة ، أو جهة ، أو قبيلة ، أو عشيرة ، أو فرد ، حينما يرى له ما ليس لغيره ، وحينما يرى على غيره ما ليس عليه ، هذا عنصري .

العالم لا يمكن أن ينجح إلا إذا أعاد المشكلات إلى أسبابها :

أقول لك كلمة وهذه قناعتي : ما دام هناك عنصرية في الأرض ، ما دام هناك شعوب قوية ترى لها ما ليس لغيرها ، وترى على غيرها ما ليس عليها ، لأن العنف لا يقف، هذه حقيقة ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام حينما ساق له بعض الأنصار رجلاً دخل بستانه وأكل من دون إذنه وعده سارقاً ، ماذا قال له النبي ؟ هلا أطعمته إن كان جائعاً ؟ وهلا علمته إن كان جاهلاً ؟.

في هذا النص توجيه رائع ، النبي الكريم عالج المشكلة من أسبابها ، هل هناك في العالم معالج يعالج مشكلة العنف من أسبابها ، هذا الذي هدمت بيته ، وجرفت حقله ، وردمت بئره ، وقتلت أباه وأمه ، أيعقل أن يبقى هكذا ساكناً وديعاً لك ؟! قبل أن تقول : هذا الإرهابي هل بحثت لماذا كان كما تصفه أنت؟ يدافع عن أرضه ، يدافع عن عرضه ، يدافع عن مقومات حياته .

فالعالم لا يمكن أن ينجح إلا إذا أعاد المشكلات إلى أسبابها .

الأستاذ جميل :

فضيلة الدكتور ، نحن لا نتكلم في الأخوة في الله ، لا نتكلم في العنصرية ، هذا الإيثار ، هذا النفع ، هذا الصدق ، عيادة المريض ، إطعام الجائع ، كل ذلك من حقوق الإنسان على الإنسان ، فما بال حقوق المسلم على المسلم ؟.

حقوق المسلم على المسلم :

الدكتور راتب :

من باب أولى ، أقول لك هذه الكلمة : لك جار ، أي إنسان له عليك حق الجار ، فإذا كان مسلماً له عليك حقان ، فإذا كان قريباً له عليك ثلاثة حقوق ، حق الجوار ، وحق الإسلام ، وحق القرابة ، إذاً أنا أقول : هناك حق لكل إنسان كائناً من كان ، فكيف إذا كان هذا الإنسان مؤمناً ؟ له عليك حقان ، فكيف إذا كان قريباً ؟ له عليك ثلاثة حقوق ، حق الإنسانية ، وحق الإيمان ، وحق القرابة .

إذاً هناك أخوة إيمانية .

الأستاذ جميل :

هل لنا أن نتحدث في هذه الأخوة الإيمانية بعد أن أثبتنا تلك الأخوة الإنسانية بيني وبين أخي الإنسان كان دينه ما كان .

الأخوة الإيمانية :

الدكتور راتب :

الحقيقة الآية الأصل في هذا :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

(سورة الحجرات الآية : 10)

وهناك ملمح دقيق جداً ، ما لم يكن انتماؤك إلى مجموع المؤمنين فلست مؤمناً ، الإيمان ليس فقاعة صغيرة ، الفقاعات الصغيرة لا ينتمي إليها ، يجب أن تنتمي لمجموع المؤمنين ، والإسلام ليس خطاً رفيعاً إذا خرجت ميلي متر عنه خرجت عن الدين ، الإسلام شريط عريض جداً ، هناك يمين ، وهناك يسار ، كلهم على العين والرأس ، ما دامت عقيدتهم سليمة ، والسلوك مستقيم ، لا يحق لأحد أن يقول : أنا الإسلام ، لا ، الإسلام شأنه عظيم ، أنت تنتمي إليه فقط .

إذاً الأخوة الإيمانية كبيرة جداً ، ومرة ثانية وثالثة أؤكد أن الانتماء لا إلى فقاعات صغيرة ، يقول لك : هذا ليس من جماعتنا ، من أنت ؟ أنت ينبغي أن تنتمي إلى جماعة المؤمنين عامة .

الأخوة الإنسانية أصل في إسلامنا :

لذلك الأخوة الإنسانية أصل في إسلامنا ، وبعدها الأخوة الإيمانية ، وآيتها الأساسية :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

(سورة الحجرات)

الآية الثانية :

(لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ)

(سورة الأنفال الآية : 63)

شيء دقيق جداً ، أن المودة والرحمة بين المؤمنين هي من خلق الله عز وجل

(لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ)

إذاً نحن مع أخوة إيمانية لها شأن كبير .

الأستاذ جميل :

دكتور ، إن ثبت أن المسلم أخو المسلم ، فلابد من خصائص لهذه الأخوة ، ولا بد من حقوق على الأخوين ، فما هي هذه الخصائص ؟.

من خصائص الأخوة الإسلامية :

1 ـ التناصح :

الدكتور راتب :

الحقيقة أن هناك خصائص متميزة ، تخص مجتمع المؤمنين ، من أولى هذه الخصائص التناصح .

((المؤمنون بعضهم لبعض نصحة متوادون ، لو ابتعدت منازلهم ، والمنافقون بعضهم لبعض غششة متحاسدون ولو اقتربت منازلهم))

المؤمنون :

(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

(سورة الحشر الآية : 9)

قضية الإيثار أحد أكبر خصوصيات المؤمن يؤثر أخاه في كل شيء .

2 ـ المؤمنون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً :

شيء آخر :

((المؤمن للمؤمن كالبنيان ـ المرصوص ـ))

[أخرجه الطبراني عن أبي هريرة وأبي سعيد]

لا يخترقون ، حينما ينصر الضعيف يتماسك المجتمع .

((فإنما تُرزقونَ وتُنصرون بضعفائكم))

[أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي عن أبي الدرداء]

المؤمنون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، ويصعب أن يخترقوا .

3 ـ التواصل :

شيء آخر :

((مَثلُ المؤمنين في تَوَادِّهم وتراحُمهم وتعاطُفهم : مثلُ الجسد ، إذا اشتكى منه عضو : تَدَاعَى له سائرُ الجسد بالسَّهَر والحُمَّى))

[أخرجه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير]

أي هناك تواصل ، هناك تواصل عضوي بينهم .

4 ـ الألفة :

شيء آخر ، من خصائص مجتمع المؤمنين الألفة بينهم ، فالمؤمن يألف ويؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف ، الله عز وجل يقول :

(إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

(سورة مريم)

قال بعض علماء التفسير : يجعل الله وداً فيما بينهم ، فالمودة والرحمة بين المؤمنين من خلق الله عز وجل ، وهذا شيء واضح جداً ، لا ترى في الأرض من هو أقرب إليك من المؤمن ، لأن نقاط اللقاء كثيرة جداً .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - الإسلام منهج حياة - الدرس (13-30) : علاقة الإنسان بعامة الناس 3 ، سلوكيات تضعف العلاقة بين المسلمين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-09-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ جميل :

هنالك سلوكيات تضعف العلاقة بين المسلمين ، وتبعد الأخ عن أخيه ، هل لنا بتسليط الضوء على السلبيات حتى نجتنبها ؟.

العداوة بين المؤمنين والتحريش بينهم من عمل الشيطان :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين .

أستاذ جميل ، إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرض العرب ، ولكنه رضي فيما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم ، ورضي بالتحريش بين المؤمنين ، أحد مداخل الشيطان أن يوقع العداوة والبغضاء .

فلذلك هناك من يرى أن الشيطان يبدأ بوسوسة تعني الكفر بالله ، فإذا كان العبد على إيمان وسوس له بالشرك ، فإذا كان على توحيد وسوس له بالكبائر ، فإذا كان على طاعة وسوس له بالصغائر ، فإذا كان على ورع بقي معه ورقتان رابحتان ، إحداهما التحريش بين المؤمنين ، أن يوقع بينهما العداوة والبغضاء ، والثانية المباحات ، أن يغرق الإنسان في المباحات ، حتى ينسى المهمة التي جاء بها إلى الدنيا .

فهناك وساوس كبيرة إحداها التحريش بين المؤمنين ، لذلك حينما يستجيب المؤمن، ويسلك سلوكاً مضاداً تجاه أخيه ، فكأنه استجاب للشيطان ، وكأنه أعطى الورقة الرابحة للشيطان ، وكأنه أعان الشيطان على أخيه ، لكن التوجيه النبوي : " كونوا عوناً لأخيكم على الشيطان ، ولا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم " .

هذه قضية دقيقة جداً ، لذلك قالوا : لا بدّ للمؤمن من كافر يقاتله ، ومن منافق يبغضه ، ومن مؤمن يحسده ، ومن شيطان يغويه ، ومن نفس ترديه ، هذه الأخطار تهدد المؤمن ، فالبطولة أن يستجيب لأمر الله عز وجل فينجو من كيد الشيطان ، العداوة بين المؤمنين والتحريش بينهم هذا من عمل الشيطان .

الأستاذ جميل :

دكتور ، هل تبين لنا الفارق بين وسوسة الشيطان وبين وسوسة النفس ؟

وسوسة الشيطان و وسوسة النفس :

الدكتور راتب :

الحقيقة الفارق دقيق جداً ، وساوس الشيطان تبهم المؤمن ، لا يرضى بها ، ينزعج منها ، هي ليست منه ، وهذا تطمين ، لكن وساوس النفس يرتاح لها ، فالفارق الدقيق بين وساوس الشيطان ، وبين وساوس النفس ، وساوس النفس يرتاح لها ، هنا الخطورة ، أما الشيطان يقول لك : من خلق الله مثلاً ؟ تتألم أشد الألم ، تبحث عن جواب ، تسأل بعض العلماء ، فالذي يؤلمك من الشيطان ، أما الذي يريحك من نفسك .

الأستاذ جميل :

دكتور ، من لقي إذاً من أخيه المسلم مسوغاً ، له أن ينقلب على هذا المبدأ ، مبدأ الأخوة ، أم ماذا يفعل؟.

المؤمن يجمع ولا يفرق ويقرب ولا يباعد :

الدكتور راتب : والله الآية الكريمة دقيقة جداً ، قال تعالى :

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

(سورة الأنفال الآية : 1)

أصلح أية علاقة بينك وبين أخيك ، بينك وبين أهلك ، بين أولادك ، أخوتك ، أخواتك ، جيرانك ، أصدقائك ، زملائك ،

(وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

الأصل أصلحوا العلاقة مع ربكم ، هذه الآية فسرها بعض العلماء على مستويات ثلاثة ، أصلحوا أولاً العلاقة مع الله ، فإذا صلحت العلاقة مع الله صلحت مع الخلق ، هذه الحقيقة دقيقة جداً ، والمستوى

الثاني : أصلح علاقتك مع من حولك ، مع أهلك ، مع أولادك ، مع إخوتك ، مع أخواتك ، مع أقاربك ، مع جيرانك ، مع أصدقائك ، مع زملائك ، بالكلمة الطيبة ، والاعتذار عند الخطأ، والهدية عند الترميم، هذا أصل العلاقة ، لكن الآية تحتمل معنىً ثالثاً ، أصلح بين أخوين ساءت العلاقة بينهما ، أنت أصبحت وسيطاً ، أول حالة والثانية أنت طرف ، أصلح علاقتك مع الله ، والحالة الثانية أصلح علاقتك مع أخيك، أما الثالثة أصلح أية علاقة بين أخوين ، فالمؤمن يجمع ولا يفرق ، يقرب ولا يباعد ، هذه من صفات المؤمن .

الدنيا تفرق ولا تجمع و تستدعي السيطرة والكِبر والاستعلاء :

لذلك النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ حَالِقَةُ الدِّينِ لَا حَالِقَةُ الشَّعْرِ))

[البيهقي عن الزبير بن العوام]

من أخطر الأحاديث هذا الحديث ، إياكم وفساد ذات البين ، تجد في عصر التخلف الدين الإيماني عداوات في البيت الواحد ، بين الأقارب ، بين أهل القرية ، بين أهل المدينة ، بين الدول ، بين الشعوب، حياة قائمة على العِداء ، والعداوة لها قانون .

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

(سورة المائدة الآية : 14)

حينما ندع منهج الله جميعاً ، الدنيا محدودة ، والدنيا تفرق ولا تجمع ، والدنيا تستدعي القتال ، وتستدعي سفك الدماء ، تستدعي السيطرة ، والعنجهية ، والكبر ، والاستعلاء ، لذلك الحديث الشريف :

((الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ حَالِقَةُ الدِّينِ لَا حَالِقَةُ الشَّعْرِ))

[البيهقي عن الزبير بن العوام]

أسباب العداوة والبغضاء التي تضعف العلاقة بين المؤمنين :

1 ـ السخرية :

أستاذ جميل ، هناك آية أصل في هذا الموضوع ، هي قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ)

(سورة الحجرات الآية : 11)

السخرية تضعف العلاقة بين المؤمنين ، المؤمن لا يسخر أبداً ، يحترم الآخر ، السخرية أحد أسباب العداوة والبغضاء ، ولو أن الذي سخرت منه كان قوياً وذكياً فضحك وجاملك ، لكنه يحقد عليك ، البطولة ألا تسخر .

(لَا يَسْخَرْ قومٌ مِنْ قوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ)

(سورة الحجرات الآية : 11)

كل واحد منا له مقام عند الله ، قد يكون في مقاييس أهل الأرض في مستوى متدنٍ ، وقد يكون عند الله في مستوى راقٍ جداً .

فالنبي الكريم مرةً هش وبش لأحد الصحابة وكان فقيراً ، قال : أهلاً بمن خبرني جبريل بقدومه ، هذا الصحابي دُهش ، قال : أو مثلي ؟! قال : نعم يا أخي ، أنت خامل في الأرض علم في السماء ،

(لَا يَسْخَرْ قومٌ مِنْ قوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ)

(وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

(سورة الحجرات الآية : 11)

2 - التنابز بالألقاب القبيحة :

(تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

أي أن يعير بعضكم بعضاً ، أن يقيّم بعضكم بعضاً ، أن يفضح بعضكم بعضاً ، أن يزري بعضكم ببعض ،

(وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

هذا أخوك إن حقرته حقرت نفسك ، إن سخرت منه سخرت من نفسك ،

(وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ)

(وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ)

(سورة الحجرات الآية : 11)

الألقاب القبيحة التي يتداولها العامة من الناس هذه محرمة بين الإسلام ،

(وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ)

(بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

(سورة الحجرات)

3 ـ الغيبة و تتبع الأخبار السيئة :

الآية الكريمة :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا)

(سورة الحجرات الآية : 12)

التجسس تتبع الأخبار السيئة .

(وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً)

(سورة الحجرات الآية : 12)

والغيبة من الكبائر .

4 ـ الحسد :

هذه الآيات من سورة الحجرات أصل في هذا اللقاء ، أي مجموعة أخطاء كبيرة جداً ، إذا ارتكبها الناس نشبت بينهم العداوة والبغضاء ، بل إنه في بعض الأحاديث الصحيحة يقول عليه الصلاة والسلام:

((ولا تحاسَدُوا))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي ومالك عن أبي هريرة]

أي لا تعمل عملاً يسبب لك أن تُحسد ، أن تظهر ما عندك ، أن تفتخر بمالك ، ببيتك ، بمركبتك ، أن تقول : سافرت إلى المكان الفلاني ، أنفقت الآلاف المؤلفة ، الإنسان إذا تكلم عن إنفاقه ، وعن حجمه المالي ، وعن مكانته ، وعن استمتاعه بالحياة ، كأنه يقول للناس : احسدوني ، الحسد هنا يعني ألا تفعل شيئاً ينتهي بأن تُحسد .

5 ـ بيع النجش و التباغض :

((ولا تحاسَدُوا ـ ولا تناجَشُوا))

بيع النجش ، أن إنساناً يدخل ليشتري بضاعة بشكل تمثيلي ، ليقنع الشاري الأول بالسعر المرتفع ، هذه مخالفة شرعية وآثمة طبعاً .

((ولا تناجَشُوا ـ ولا تَباغضُوا))

لا تفعلوا أسباب البغضاء .

((ولا تناجَشُوا ـ ولا تَباغضُوا))

(وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً)

(سورة الحجرات الآية : 12)

((ولا تَدَابَرُوا ، ولا تَحَسَّسوا ، ولا يَبِعْ بعضُكم على بَيْع بعض وكونوا عبادَ الله إخوانا ، المسلم أخو المسلم ، لا يخونُه ، ولا يكذِبُهُ ، ولا يَخْذُله ، كلُّ المسلم على المسلم حرام : عِرْضُهُ ، ومالُه ، ودمُه ، التقوى هاهنا))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي ومالك عن أبي هريرة]

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

(سورة الشعراء)

6 ـ التقليل من شأن الناس :

ثم يقول النبي الكريم :

((بِحَسْبِ امرئ من الشَّرِّ أن يَحْقِرَ أخاه المسلمَ))

أكبر شر أن تزدري لأخاك .

((بِحَسْبِ امرئ من الشَّرِّ أن يَحْقِرَ أخاه المسلمَ ، كلُّ المسلم على المسلم حَرَام : دمُهُ ، وعِرْضُهُ))

((لا يحلُّ لمسلم أن يُرَوِّعَ مُسلما))

[أخرجه أبو داود عن بعض الصحابة]

ومن دعي فلم يجب فقد عصا الله ورسوله .

((الكبرْ : بطرُ الحقِّ ، وغمطُ الناس))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي عن عبد الله بن مسعود]

أن تزدري الناس ، أو تقلل من شأنهم ، أن تزدري اختصاصهم ، أن تزدري علمهم .

المجتمع المتماسك قوام علاقاته المحبة والمودة والتناصر والتعاون :

هذه كلها من المنهيات التي نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي منهج لنا ، والمجتمع إذا خلا من هذه المنهيات مجتمع متماسك ، قوام علاقاته المحبة ، والمودة ، والتناصر ، والتعاون .

فلذلك التعاون أصل في هذا الدين ، والتحابب ، كما قلت قبل قليل :

((وجبت محبتي للمتحابين فيَّ والمتجالسين فيَّ والمتباذلين فيَّ والمتزاورين فيَّ يغبطهم النبيُّون والشهداءُ يوم القيامة))

[أخرجه ابن حبان عن معاذ بن جبل]

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - الإسلام منهج حياة - الدرس (14-30) : علاقة الإنسان بعامة الناس 4 ، كيف علم النبي الصحابة الأخوة ؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-09-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ جميل :

ما زال الحديث عن الأخوة والجماعة ودائرة النفع العام ، لعموم الناس وخصوصية المسلمين ، كيف علم النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه هذه الأخوة ، وكيف كانت قدوة لهم في أن الناس سواسية ؟.

للنبي الكريم مهمتان كبيرتان ؛ التبليغ و القدوة :

الدكتور راتب :

أستاذ جميل ، في الحقيقة أن النبي صلى الله عليه وسلم له مهمتان كبيرتان الأولى هي التبليغ ، والثانية هي القدوة ، التوجيه الأول يقول الله عز وجل :

(وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ)

(سورة الحشر الآية : 7)

توجيهاته النصية ، أحاديثه ، هذه منهج لنا .

(وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر الآية : 7)

التوجيه الثاني متعلق بمهمته الثانية أنه قدوة ، قال تعالى :

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً)

(سورة الأحزاب)

أنا أتصور أن التبليغ سهل ، أما البطولة في التطبيق ، والآن الدعاة كُثر ، من هم الذين وفقهم الله ؟ الذين طبقوا في حياتهم ما قالوه للناس .

مرة زرت الشيخ الشعرواي ـ رحمه الله تعالى ـ سألته أن يقدم نصيحة للدعاة ، توقعت أن يتحدث طويلاً ، فإذا به يتكلم جملة واحدة ، قال : "ليحذر الداعية أن يراه المدعو على خلاف ما يدعو " ، تكفي هذه .

القدوة هي المهمة التي كانت أكبر سبب لانتشار هذا الدين العظيم :

مهمة النبي الثانية هي المهمة البطولية ، هي المهمة التي كانت أكبر سبب لانتشار هذا الدين ، كان قدوة ، ما قال شيئاً ما فعله ، ولا نهى عن شيء وفعله .

فلذلك كان مع أصحابه في سفر ، أرادوا أن يعالجوا شاةً ، فقال أحد أصحابه : يا رسول الله عليّ ذبحها، وقال الثاني : عليّ سلخها ، وقال الثالث : وعليّ طبخها ، وقال عليه الصلاة والسلام : وعليّ جمع الحطب ، معقول ؟! سيد الأمة ، زعيم الأمة ، نبي الأمة ، رسول الله ، وقائد الجيش يساوي نفسه مع أخوانه تماماً ؟ .

بالمناسبة : دخل أعرابي على النبي صلى الله عليه وسلم ، وتأمل بهم جميعاً وقال : أيكم محمد ؟ ولا ميزة إطلاقاً ، واحد من أصحابه ، يوجد روايتان ؛ الأولى تقول : قال له : أنا ، وفي رواية يقول أحد الصحابة : ذاك الوضيء .

فكان عليه الصلاة والسلام مع أصحابه ، قال : وأنا عليّ جمع الحطب ، هم لم يحتملوا ذلك ، هو سيدهم، ونبيهم ، قال : يا رسول الله نكفيك ذلك ، قال : أعلم أنكم تكفونني ، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه ، هذا موقف .

ما الذي جعل الصحابة يلتفون حوله ؟ ما الذي جعلهم يفدونهم بأرواحهم ؟ ما الذي جعلهم يؤثرونه على كل شيء ؟ هذا الصحابي الذي أراد القرشيون قتله ، قال أبو سفيان : أتحب أن يكون محمد مكانك ؟ قال: والله ما أحب أن أكون في أهلي وولدي وعندي عافية الدنيا ونعيمها ، ويصاب رسول الله بشوكة .

وهذا درس للدعاة ، ولكل منصب قيادي للأب ، والأم ، والمعلم ، و مدير المستشفى ، ومدير المؤسسة، أنت حينما تكون مع من حولك متواضعاً لهم يلتفون حولك .

فلذلك النبي عليه الصلاة والسلام قال : "أعلم أنكم تكفونني ، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه" .

مهمة القدوة أعظم بكثير من مهمة التبليغ :

هناك ومضة أخرى : في بعض المعارك الصحابة كانوا ألفاً ، والرواحل ثلاثمئة، أعطى رسول الله أمراً لقائد الجيش ، قال : كل واحد على راحلة ، وأنا وعلي وأبو لبابة على راحلة ، سوى نفسه مع أقل جندي ، فركب الناقة في نوبته ، فلما جاء دوره في المشي توسلا صاحباه أن يبقى راكباً ، فقال عليه الصلاة والسلام ، والله هذه المقولة لا أرتوي من ترددها فقال عليه الصلاة والسلام : "ما أنتم بأقوى مني على السير ، ولا أنا بأغنى منكم عن الأجر".

حينما سوى نفسه مع أصحابه كواحد منهم فدوه بأرواحهم ، وهذا مذهب في القيادة ، إن أردت أن تكون قائداً ناجحاً سوي نفسك مع من حولك ، أما إذا أخذت ميزات كثيرة ولم تقدم للآخرين شيئاً فلن تنجح في القيادة .

لذلك النبي الكريم قال :

((من لم يجب الدعوة فقد عصى أبا القاسم))

[مسند أبي يعلى عن أبي هريرة]

وفي رواية :

((مَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّعْوَةَ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ))

[مسلم عن أبي هريرة]

أما هو ماذا قال عن نفسه ؟ قال :

((لو دعيت إلى كراع بالغميم لأجبت))

[أخرجه الطبراني عن عبد الله بن عباس]

في الغميم مكان بعيد في المدينة ، يمكن أبعد مكان في المدينة ، قال :

((لو دعيت إلى كراع بالغميم لأجبت))

هو حينما يأمرنا بمكارم الأخلاق ، بكل ما من شأنه أن يمتن العلاقة بين المؤمنين كان قدوة لنا ، لذلك أنا أرى أن مهمة القدوة أعظم بكثير من مهمة التبليغ .

الأستاذ جميل :

دكتور ، هنالك أسس كيف لنا أن ننمي هذه الأخوة ؟ وكيف نحافظ عليها إن وجدت ؟.

أكبر مفتاح لقلب الأخ أن تحسن إليه و تنصحه و تعينه على حلّ مشاكله :

الدكتور راتب :

أستاذ جميل ، كما أن النبي صلى الله عليه وسلم نهانا عن بنود كثيرة جداً من شأنها أن تبعد العلاقة بين الأخوين ، أن تسيء العلاقة بينها ، بالمقابل أمرنا بأشياء كثيرة تنمي هذه العلاقة ، من هذه الأشياء ، ورد في الأثر :

((يا داود ذكر عبادي بإحساني إليهم ، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها))

[ورد في الأثر]

فأنت حينما تحسن لأخيك ليحبك ، وتفتح قلبه بإحسانك ، يفتح لك عقله لبيانك ، والإحسان قبل البيان ، والقدوة قبل الدعوة .

فهذا توجيه نبوي :

((يا داود ذكر عبادي بإحساني إليهم ، فإن النفوس جبلت على حبّ من أحسن إليها))

[ورد في الأثر]

أكبر مفتاح لقلب الأخ أن تحسن إليه ، أن تنصحه ، أن تقدم له هدية ، أن تعينه على حلّ مشكلة ، أن تقف معه في أزمته ، هذا الذي ينمي العلاقات ، هذا الذي ينشئ الحب بين المؤمنين ، الخدمة ، الإحسان، الاهتمام .

إفشاء السلام وإطعام الطعام يقوي العلاقة بين المسلمين :

شيء آخر ، يقول النبي الكريم :

((أفْشُوا السلامَ))

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن سلام]

اجعل السلام شيئاً اعتيادياً ، لا تسلم على من تعرف ، سلم على من تعرف وعلى من لم تعرف .

((أفْشُوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصَلُّوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام))

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن سلام]

فإفشاء السلام ، وإطعام الطعام ، يقوي العلاقة ، أنا حتى أقول أحياناً إطعام الطعام ينمي العلاقة بين المؤمنين ، أنت حينما تجلب لهم الطعام ، ويأكلون ، تنشأ مودة زائدة عن المودة الطبيعية من خلال هذا الطعام .

شيء آخر :

(وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ)

(سورة النساء الآية : 86)

فردوا السلام ، إذا كان إلقاء السلام سنة مؤكدة فرد السلام فرض ، فقال الله تعالى :

(وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا)

(سورة النساء الآية : 86)

موضوع الإحسان ، موضوع الإكرام ، موضوع تلبية الدعوة ، موضوع أن تنصح أخوانك ، أن تكون معهم ، هذا كله موضوع أن ينمي العلاقة المؤمنين .

المؤمن الصادق لا يكره الآخر بل يكره عمله :

ورد في بعض الأحاديث : أن بعض الصحابة سأل النبي الكريم ، أي الإسلام خير ؟ فقال عليه الصلاة والسلام :

((تُطعِمُ الطعامَ ، وتَقْرَأُ السلامَ على مَنْ عَرَفْتَ ومَنْ لم تَعرف))

[أخرجه البخاري ومسلم والنسائي عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

نحن ألفنا أن نسلم على من نعرف ، أما هنا التوجيه على من عرفت ومن لم تعرف ، السلام يحمل معه المودة والطمأنينة ، تمشي في الطريق قل للذي تراه : السلام عليكم، وهذا السلام تحية الإسلام .

مرة عمير أراد أن يقتل محمداً عليه الصلاة والسلام ، فقال لصفوان : والله يا صفوان لولا ديون ركبتني ما أطيق سدادها ، ولولا أولاد أخشى عليهم العنت من بعدي ، لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه ، فقال صفوان : ديونك عليّ بلغت ما بلغت ، وأولادك أولادي ما امتد بهم العمر ، فاذهب وافعل ما تريد ، فسقى سيفه سماً ، وانطلق على راحلته إلى المدينة ، رآه عمر رضي الله عنه ، قال : هذا عدو الله جاء يريد شراً ، فأخذه إلى النبي وكتفه بحمالة سيفه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا عمر فك أسره ، أطلقه ، وابتعد عنه ، ادنُ مني يا عمير ، قال : سلم علينا ، قال : عمت صباحاً يا محمد ، قال : قل السلام عليكم ، قال : هذا سلامنا ، بمنتهى الغلظة ، فسأله النبي الكريم : ما الذي جاء بك إلينا ؟ قال له : والله جئت أفدي ابني ، قال له : وهذه السيف التي على عاتقك ؟ قال له : قاتلها الله من سيوف ، وهل نفعتنا يوم بدر ؟ قال له : ألم تقل لصفوان بن أمية كذا ، وكذا ، وكذا ، فوقف ، و قال : أشهد أنك رسول الله ، لأن هذا الذي بيني وبين صفوان لا يعلمه أحد إلا الله ، وأنت رسول الله ، وأسلم .

البطولة ، يقول سيدنا عمر : دخل عمير على رسول والخنزير أحبّ إليّ منه ، وخرج من عنده وهو أحبّ إليّ من بعض أخواني .

هذا ملمح دقيق جداً ، هذا المؤمن الصادق لا يكره الآخر ، يكره عمله فقط ، فإذا عاد إلى الله فهو أخي في الله .

الأستاذ جميل :

دخل في قوله :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

(سورة الحجرات الآية : 12)

دكتور هل هنالك من حقوق واجبة للمسلم على المسلم ؟ .

حقوق واجبة للمسلم على المسلم :

الدكتور راتب :

طبعاً ، الحقوق كثيرة جداً .

((حقُّ المسلمِ على المسلم خمس : ردُّ السلام ، وعِيادةُ المريض ، واتِّباعُ الجنازة ، وإجابةُ الدَّعْوَةِ ، وتشميتُ العاطس))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة]

وفي رواية :

((وإذا استنصحك تنصحه))

هناك حقوق ، فأنا حينما أعرف حقوق الأخوة عليّ ، وحقوقي عليهم ، هذا مجتمع متماسك ، الحقيقة هذه التوجيهات والله كل ما أتمناه أن تنقلب إلى واقع نعيشه نحن ، أي المجتمع الإسلامي ما شاء الله في تقدم علمي ، وحضاري ، ومساجد رائعة ، ومؤتمرات دقيقة، وكتب مؤلفة ، ومحاضرات ، وفضائيات، نحتاج إلى الحب ، نحتاج إلى المودة التي كانت بين الصحابة ، أصحاب النبي الكريم كان بينهم من الحب ما لا يوصف ، كان أحدهم إذا افترق مع أخيه عقب صلاة العشاء يلتقي به مع صلاة الفجر ، يعانقه ، ويقول له : واشوقاه يا أخي ثلاث ساعات غاب عنه .

هذا كان الحب ، نحن بحاجة إلى حب ، والحب هو علامة الإيمان .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - الإسلام منهج حياة - الدرس (15-30) : علاقة الإنسان بالشأن العام 1 ، ما هو المبدأ الأساس الذي ينطلق منه الإنسان في حياته ؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 06-09-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ جميل:

دكتور ما هو المبدأ الأساس الذي ينطلق منه الإنسان في حياته بحيث يكون المرجع والمعتمد عليه وإن صحّ أن نسميه الثابت المطلق؟

التوحيد هو المبدأ الأساس الذي ينطلق منه الإنسان في حياته :

الدكتور راتب:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحقيقة سأجيب على هذا السؤال، ولكن لا بدّ من أن أنوه إلى أننا دخلنا إلى محطة رابعة، المحطة الأولى: علاقة الإنسان بربه، والمحطة الثانية: علاقته بأسرته وبأولاده، والمحطة الثالثة: علاقته بمن حوله.

لكن هذه المحطة الرابعة: تتعلق بالشأن العام، المؤمن لا ترتاح نفسه إلا إذا وصل إلى تفسير دقيق، عميق، متناسق، قادر على تفسير كل ما يجري، لأنه في توازن، كيف أتوازن مع وعود الله للمؤمنين بالنصر ومع ما يعانيه العالم الإسلامي؟ بعد أن أكل وشرب وتزوج، وكانت علاقات رائعة جداً مع من حوله، هناك حاجة إلى أن ينسجم مع عقيدته، الذي يجري في الكون، هناك حروب، هناك اجتياحات، هناك قتل، هناك قصف، كيف يفسر هذه الأحداث الكبرى؟ يمكن أن نسمي هذه المحطة الرابعة الشأن العام، أولاً: إجابة عن سؤالك الدقيق هو التوحيد، فما تعلم العبيد أفضل من التوحيد.

التوحيد يعطي النفس راحة لا حدود لها :

التوحيد: أن ترى أن الله:

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ)

[سورة هود]

أن ترى أن يد الله تعمل في الخفاء، أن ترى:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود الآية: 123]

أن ترى أنه:

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

[سورة الكهف الآية:26]

أن ترى:

(فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

[سورة الزخرف الآية: 84]

أن ترى أنه وحده هو الرافع، وهو الخافض، وهو المعطي، وهو المانع، وهو المعز، وهو المذل، أن ترى أن الله تعالى لا يتخلى عن عباده المؤمنين، أن ترى أن هؤلاء الطغاة بعلم الله:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم]

هذه المعاني التوحيدية تعطي النفس راحة لا حدود لها.

الله عز وجل لم يكلف الإنسان أن يعبده إلا بعد أن طمأنه أن كل شيء يرجع إليه :

حينما تطمئن أن الأمور بيد الله، وأن الله سبحانه وتعالى كامل كمالاً مطلقاً، وأن الأمر يرجع إليه، بل إن الله عز وجل ما كلفك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن كل شيء يرجع إليه، قال:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود 123]

فهذا التوحيد أن ترى أن علاقتك مع جهة واحده وليست مع جهتين، مع الله، كل شيء بأمره، كل شيء بيده.

(كُنْ فَيَكُونُ)

[سورة يس]

هذا المعنى الدقيق للتوحيد يعطي النفس راحة لا حدود لها.

كل شيء وقع أراده الله وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة :

لذلك قال تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

[سورة الشعراء]

أي أحد أكبر عذابات النفس أن ترى مع الله إلهاً آخر، لذلك أن تؤمن بالله خالقاً شيء، وأن توحد شيء آخر، أن توحد أن ترى أن الله موجود، وواحد، وكامل، وأن الأمور كلها بيده، فلذلك قيل: ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، لكن التوحيد يمكن أن يلخص بهذه المقولة: كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق، لأنه لا يليق بألوهية الإله أن يقع في ملكه ما لا يريد، لكن الذي وقع لم يأمر به ولم يرضَ عنه، عند علماء العقيدة عبارة أراد: أي سمح ولم يأمر، أراد ولم يرضَ.

فالأب حينما يأخذ ابنه إلى المستشفى هل هو راض أن يكون على طاولة الجراحة؟ لا، يتمنى ألا يكون هذا، لكن تقضي الحكمة والمصلحة أن تجري له العملية.

لذلك حينما نقول أراد بمعنى سمح، وقد يسمح بشيء هو الحكمة المطلقة، لكن هذا الشيء سببه أن هناك تقصيراً عند الإنسان، لذلك: كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

الأستاذ جميل:

دكتور في حديثنا عن الخير، هذا ضمن فلسفة الخير والشر، ما هو الخير؟ هل الخير أن يكون غنياً أو أن يكون صحيح الجسم؟ والشر هل هو الفقر أم أن يكون مريضاً؟

تناقض الشر المطلق مع وجود الله عز وجل :

الدكتور راتب:

والله ليس هناك شر مطلق، أن أعتقد أن الشر المطلق يتناقض مع وجود الله، هناك شر نسبي موظف للخير المطلق:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة]

الشر النسبي بالضبط كمركبة، كسيارة صنعت لتسير، علة صنعها أن تسير، لكن فيها مكبحاً، والمكبح أيديولوجياً يتناقض مع علة صنعها، المكبح يوقفها، لكن لا بدّ من المكبح لضمان سلامتنا، بل إن الآية الكريمة يقول الله عز وجل:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة القصص]

حينما يكشف الغطاء لولا هذه الشدائد لم تكن لكان الله ملوماً، أو لكان هذا نقصاً في حكمة الله.

فلسفة المصيبة :

إذاً ننتقل الآن إلى فلسفة المصيبة، المصيبة من أجل السلامة، كالمكبح في السيارة يتناقض مع علة صنعها لكن هو ضمان لسلامتها، فالمصائب أنواع، مصائب الأنبياء مصائب كشف، أي هناك كمال لامتناه عند النبي، لا يظهر إلا في الشدة كحالة الطائف، ذهب مشياً إلى هناك، كذبوه، وسخروا منه، وأغروا صبيانهم أن يضربوه، وقف الموقف الكامل، مكنه الله أن ينتقم، فقال: لا يا أخي اللهم اهدِ قومي إنهم لا يعلمون، إذاً هذه المصيبة تكشف هذا الكمال اللامتناهي عند النبي، مصائب المؤمنين مصائب دفع ورفع، يدفعه إلى مزيد من الطاعة، إلى مزيد من الإقبال، إلى مزيد من العمل الصالح، يدفعه بمصيبة أو يرفع مكانه عنده، قال تعالى:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)

[سورة البقرة]

إذاً مصائب المؤمن دفع ورفع، مصائب الأنبياء كشف، مصائب والطغاة والكفار والمنحرفين مصائب ردع أو قصم.

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

[سورة الأنعام]

الأستاذ جميل:

دكتور، إلى من تضاف المصائب حال حصولها؟ هل يعكف الإنسان على لوم نفسه أم أنه يفوضها إلى أمر ربه؟

توظيف المصائب لخدمة الإنسان :

الدكتور راتب:

الذي عليه المؤمنون ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا يرفع إلا بتوبة، والآيات كثيرة جداً:

(أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)

[سورة آل عمران الآية:165]

وهناك آية أخرى:

(قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)

[سورة آل عمران الآية: 165]

من عند الله فعلاً، ومن عند النفس سبباً، أي الفعل من خلق الله، أما السبب فمن عند الإنسان، فالإنسان حينما يتجاوز حدوده، عندما يغفل عن سرّ وجوده، حينما يشرد عن ربه، يسوق الله له شدةً، حتى إن بعض العلماء قالوا: ما من شِدة إلا وراءها شَدة إلى الله، وما من محنة إلا وراءها منحة من الله عز وجل، فالمصائب موظفة لخير الإنسان:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

[سورة آل عمران الآية:26]

لم يقل والشر، أي إيتاء الملك خير، ونزعه خير، الإعزاز خير، والإذلال خير.

الأستاذ جميل:

معنى الأمر فضيلة الدكتور أن المصائب والبلاءات تصيب الجميع، هي تصيب الطائع والعاصي، المسلم والكافر، واستوائهما في البلاء لا يدل على استوائهما في الحال والمكان عند الله عز وجل؟

المصائب ترقى بالمؤمن وتردع المنحرف وتكون رفعة لمن صبر عليها :

الدكتور راتب:

الحقيقة الدقيقة: أن الإنسان مسير في أمه وأبيه، وفي جنسه ذكر أو أنثى، وفي مكان ولادته، وفي زمان ولادته، الإنسان بهذا مسير، وهذا لصالحه، وليس في الإمكان أبدع مما كان، أما مخير فيما كلف، الآن ربنا رب العالمين يربينا، لو الإنسان استخدم اختياره للشر مع الله عز وجل يسلب منه هذا الاختيار مؤقتاً ليؤدبه، فإذا أراد ربك إنفاذ أمر أخذ من كل ذي لبٍّ لبه، أي إنسان اختار أن يغش الناس ليحقق أرباحاً طائلة، فهذا يرتكب حماقةً توقعه في مصيبة كبيرة هي نتيجة هذا الغش الذي اقترفه، إذاً الإنسان مخير ولكن أحياناً يؤخذ اختياره ليؤدبه على نوع اختيار أخذ فيه قراراً، فالحقيقة أن المصائب لها حكمة بالغة، وأنا أقول: لا يستقيم إيمان العبد إلا إذا عرف سرّ المصائب، المصائب ترقى بالمؤمن، وتردع المنحرف، وتكون رفعة لمن صبر عليها.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - الإسلام منهج حياة - الدرس (16-30) : علاقة الإنسان بالشأن العام 2 ، ما هو معنى الجهاد ؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 07-09-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ جميل :

دكتور ، ما هو معنى الجهاد ؟ وما هو دوره في حياة الإنسان ؟ لاسيما أن ذروة هذا الدين هو الجهاد .

الجهاد حجر الزاوية في الدين :

الدكتور راتب :

أحب أن أذكر أخوتي المشاهدين أننا في محطة رابعة ، الإنسان محطته الأولى أن يعرف الله ، وأن يستقيم على أمره ، وأن يسعد بقربه ، والمحطة الثانية أهله وأولاده ، والثالثة من حوله ، الرابعة علاقته بما يجري في الأرض ، كيف يفهم هذه الأحداث ؟ قد تُفهم فهماً شركياً ، وقد تُفهم فهماً توحيدياً ، الفهم التوحيدي مريح للنفس وواقعي ، والفهم الشركي متعب ومقلق ، يؤدي إلى الإحباط ، يؤدي إلى الطريق المسدود ، يؤدي إلى اليأس ، فما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد .

نحن لا زلنا في المحطة الرابعة ، محطة الشأن العام ، كيف أفهم ما يجري ؟ الحقيقة كأن الجهاد حجر الزاوية في الدين ، لكن فهم الناس للجهاد ليس كما ينبغي ، الحقيقة الجهاد أن تبذل غاية الجهد لتحقيق هدف ما .

أنواع الجهاد و معاني كل نوع :

1 - جهاد النفس و الهوى :

الجهاد كما تعلمون ذروة سنام الإسلام ، بل إن الجهاد أعلى مرتبة في الإسلام ، ولكن العوام يفهمونه فهماً آخر ، إذا ذُكر الجهاد ما فهموه إلا جهاداً قتالياً ، مع أن هناك أنوعاً منوعة من الجهاد ، هناك جهاد النفس والهوى ، وهناك الجهاد الدعوي ، وهناك الجهاد البنائي ، وهناك الجهاد القتالي ، فلابد أن

نوضح معاني هذه الأنواع ، لأنه الأولى أن نبدأ بالمراحل الأولى ، لأنها كالتعليم الأساسي لا يبني شيئاً متقدماً على لا شيء .

فأولاً جهاد النفس والهوى .

أستاذ جميل ، المهزوم أمام نفسه ، أمام شهوته ، أمام مصلحته ، لا يمكن أن يقاتل نملة ، الإنسان حينما يهزم ، والغرب حينما يسعى كي نهزم من الداخل لكي نريد ما يريدون ، لكي ننغمس في الشهوات المحرمة ، الغرب حينما يخطط لنا ذلك ، يكون قد ألغى هذه الفضيلة ، أو هذه الفريضة التي هي ذروة سنام الإسلام .

فلابد من جهاد نفسي ، جهاد النفس والهوى ، إذاً الجهاد الأكبر جهاد النفس والهوى ، وكأنه يشبه التعليم الأساسي ، فالذي لم ينجح مع نفسه في الجهاد لا يستطيع أن يفعل شيئاً ، والدليل على هذا الجهاد الآية الكريمة :

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت)

إذاً الجهاد الأكبر أن أحمل نفسي على طاعة الله ، أن أمنعها أن تعصي الله ، أن أحملها على الاتصال بالله ، أن أحمسها على أن تبذل الغالي والرخيص ، والنفس والنفيس في سبيل الله ، أن أضبطها وفق منهج الله ، أن يراني الله عز وجل عند الحلال والحرام ، أن يراني حيث أمرني ، وأن يفتقدني حيث نهاني ، أن أكون ملتزماً ، أن أكون طائعاً ، هذا جهاد النفس والهوى ، وقد قال العلماء الكبار : "جاهد تشاهد " ، إن جاهدت نفسك وهواك كشف الله لك طرفاً من كمالاته ، عندئذٍ تكون أسعد الناس ، فلابد من جهاد النفس والهوى ، لابد من طاعة الله ، لابد من حملها على البذل والعطاء ، والتضحية والفداء ، لابد من دفعها إلى الأعمال الصالحة البطولية ، هذا جهاد النفس والهوى ، هو الأساسي في الجهاد ، وهذا الجهاد لا أحد يمنعه ، ولا أحد يحاسبك عليه ، فيما بينك وبين نفسك ، حينما تؤدي الصلوات بإتقان ، حينما تبذل من مالك للفقراء والمساكين ، حينما تربي أولادك ، حينما تقيم الإسلام في بيتك ، وفي عملك ، فأنت في جهاد ، وهذا الجهاد الأساسي الذي أراد الله أن نبدأ به ، فإذا بدأنا به انتقلنا إلى جهاد آخر ، هو الجهاد الدعوي .

2 ـ الجهاد الدعوي :

أيضاً الجهاد الدعوي من ضروريات الأمة .

((خيرُكمْ ـ بشكل مطلق ـ من تعلّمَ القُرآنَ وعَلَّمَهُ))

[أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي عن عثمان بن عفان]

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة فصلت)

هذا الجهاد الدعوي سماه الله في قرآنه الكريم جهاداً كبيراً ، فقال تعالى :

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ)

أي بالقرآن :

(جِهَاداً كَبِيراً)

(سورة الفرقان)

فنحن ينبغي أن نبدأ بجهاد النفس والهوى ، أن نضبط أمورنا ، أن نكون مؤهلين لتلقي نوع آخر من الجهاد ، فجهاد النفس والهوى كالتعليم الأساسي ، والجهاد الدعوي كالتعليم الثانوي ، فنحن ندعو إلى الله .

((بلِّغُوا عني ولو آية))

[أخرجه البخاري والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

والدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم ، في حدود ما تعلم ومع من تعرف ، وكما قال عليه الصلاة والسلام :

((خيرُكمْ من تعلّمَ القُرآنَ وعَلَّمَهُ))

[البخاري عن عثمان بن عفان]

وقال :

((بلِّغُوا عني ولو آية))

[أخرجه البخاري والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

هذا الجهاد الدعوي سماه الله جهاداً كبيراً ، لأن الجهاد القتالي من أجل الجهاد الدعوي ، فإذا أتيح لك الجهاد الدعوي فهذا شيء رائع جداً ، إذا سُمح لك أن تنقل هذا الدين للآخرين ، أن تبين معالمه ، أن تبين عقائده ، أن تبين فضائله ، أن تبين خصائصه ، هذا جهاد كبير ، وهو في أعلى عليين ، فالآية الكريم تؤكد ذلك :

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

3 ـ الجهاد البنائي :

إذا انتهينا من الجهاد الدعوي ، فهناك جهاد خطير جداً ، الجهاد البنائي ، الأمة لابدّ من أن تستعد للطرف الآخر ، لابدّ من أن تستعد عسكرياً ، واقتصادياً ، واجتماعياً ، وعلمياً ، واجتماعياً ، وإنسانياً ، هذا معنى قوله تعالى :

(وَأَعِدُّوا لَهُم)

(سورة الأنفال الآية : 60)

لأن الله عز وجل لا ينصرنا إلا بشرطين ، كل شرط منهما شرط لازم غير كافٍ، الأول : الإيمان .

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم)

الذي يحمل على طاعة الله ، وثانياً : الإعداد :

(وَأَعِدُّوا لَهُم)

لكن فضل الله عز وجل ما كلفنا أن نعد الإعداد المكافئ لأعدائنا الأقوياء ، لا ، كلفنا أن نعد الإعداد المتاح وعلى الله الباقي ، هذا رحمة بنا .

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

(سورة الأنفال الآية : 60)

القوة المطلقة ، في وقت السيف قوة ، والفرس قوة ، وفي وقت المنجنيق قوة ، وفي وقت آخر المدرعة قوة ، وفي وقت الطائرة قوة ، وفي وقت الأقمار الصناعية قوة ، وفي وقت الإعلام قوة ، وفي وقت التوجيه المعنوي قوة ، فالقوة مطلقة جاء المطلق على إطلاقه ، لكن ليفهم الصحابة ما القوة قال :

(مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

(سورة الأنفال الآية : 60)

هذا عند علماء البلاغة عطف الخاص على العام .

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

(سورة الأنفال الآية : 60)

يجب أن يكون عدوكم عدواً لله ، لا أن يكون العدو مؤمناً ، هذه مشكلة كبيرة ، ملمح دقيق في هذه الآية ، إذاً :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

وقد لا تحتاجون إلى للسلاح ، السلاح أحد أكبر وظائفه قوة رادعة، الآن القوة النووية مرهوبة الجانب، وقد لا تستخدم هذا السلاح إطلاقاً ، لكنه :

(تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

فإذا تجاوزت الإعداد ، الآن التعليم إعداد ، الاقتصاد إعداد ، الصحة إعداد ، الآن النصر يحتاج إلى أشياء كثيرة جداً ، شعب صحيح ، شعب مثقف ، شعب علاقاته الاجتماعية رائعة ، فالإعداد شامل ، كل مسلم إذا أدار وقته فهو مجاهد ، حينما تساهم في بناء الأمة اقتصادياً ، اجتماعياً ، علمياً ، ثقافياً ، عسكرياً ، فأنت في جهاد ، فهذا أوسع معنى من معاني الجهاد الجهاد البنائي .

4 ـ الجهاد القتالي :

إذا نجح الإنسان النفسي ، ونجح في الجهاد الدعوي ، ونجح في الجهاد البنائي ينتظر أن ينجح في الجهاد القتالي ، أما هذه القفزة الطائشة من لا شيء إلى الجهاد القتالي لا ينجح ، الجهاد القتالي كالدكتوراه ، يحتاج إلى تعليم أساسي ، تعليم ثانوي ، تعليم جامعي ، ثلاثة أنواع من التعليم تفضي للدكتوراه ، فالجهاد يعين إنساناً سيقدم نفسه في سبيل الله .

لذلك الإنسان حينما يسلك المراحل الثلاث في الأعم الأغلب ينتظر أن ينجح في الجهاد القتالي .

الجهاد القتالي تاج على أنواع الجهاد الثلاثة :

لكن الحقيقة الدقيقة : أن الحرب بين حقين لا تكون لأن الحق لا يتعدد ، الحق يشبه خطاً مستقيماً بين نقطتين ، وبين نقطتين لا يمر إلا مستقيم واحد ، لو رسمت خطاً ثانياً يأتي فوقه تماماً ، الحق لا يتعدد ، لذلك الحرب بين حقين لا تكون ، والآن المعركة بين الحق والباطل لا تطول لأن الله مع الحق ، وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ والحرب بين باطلين لا تنتهي ، قد تستمر الحرب بين باطلين عقوداً ، مرة هذا يفوز و مرة هذا يفوز ، لكن لا يوجد حسم ، وأصعب شيء بالحرب عدم الحسم ، لا يموت فيها ولا يحيا ، لا يوجد حرب ولا يوجد سلم ، هذه حالة صعبة جداً تمر بها الأمة ، لا حرب ولا سلم، هناك أخطار تهددنا ولا يوجد حرب .

إذاً نحن أمام الجهاد القتالي ، وهو الجهاد الذي يأتي تاجاً على أنواع الجهاد الثلاثة .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - الإسلام منهج حياة - الدرس (17-30) : علاقة الإنسان بالشأن العام 3 ، من هو الذي يحظى بنصر الله؟
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2009-09-08

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ جميل :

تقدم الحديث معنا فضيلة الدكتور في الحلقة الماضية عن الجهاد ، وما بعد الجهاد نصر أو هزيمة ، فما هو النصر ؟ وما هو مبدأ النصر ؟ من هو ذلك المحظوظ الذي يحظى بنصر الله عز وجل ؟.

النصر محبب للإنسان و هو من عند الله وحده :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

الحقيقة أن النصر محبب للإنسان .

(وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ)

(سورة الروم)

فالنصر مسعد ، والنصر نجاح ، والنصر في معركة متعلقة بالقيم والمبادئ فلاح، والفلاح أبلغ من النجاح ، النجاح نجاح في الدنيا ، والفلاح فلاح في الآخرة ، فالنصر شيء محبب ، لكن ما حقيقته ؟ الحقيقة الأولى والخطيرة أن النصر من عند الله وحده .

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ)

(سورة آل عمران الآية : 160)

فحينما نؤمن أن النصر بتحالف مع دولة قوية ، أو بتنازلات لدولة أخرى ، هذا لا يصنع نصراً ، النصر من عند الله وحده .

فحينما ننطلق من التوحيد أن الناصر هو الله ، حينما ننطلق من التوحيد نكون قد مشينا في الطريق الصحيح .

النصر له أسباب ما لم نأخذ بها لن نحوزها إطلاقاً :

بادئ ذي بدء : النصر من عند الله وحده ، هو الذي يهب النصر ، أو يمنع النصر عن الإنسان ، لكن الشيء الدقيق جداً أن أفعال الله لها قواعد ثابتة ، مهما دعونا إن لم ندفع ثمن النصر لا ننتصر ، لذلك أنا درجت على دعاء أقول : يا رب اللهم ارزقنا أسباب النصر حتى نستحق أن ننتصر ، فالنصر له أسباب.

عفواً ، دولة محترمة رسمت لحرفة الطب طريقاً ، فالطريق يبدأ بعلامات معينة في الشهادة الثانوية ، ثم الدخول في كلية الطب ، أول سنة علوم عامة ، ثانية سنة تشريح ، الثالثة فيزيولوجيا ، الرابعة علم الأمراض ، الخامسة علم الأدوية ، فالإنسان إذا قرأ مجلات طبية لن يكون طبيباً ، و إذا صاحب أطباء لن يكون طبيباً ، إذا تمنى أن يكون طبيباً لن يكون طبيباً .

فالنصر له أسباب ما لم نأخذ بها لن نحوزها إطلاقاً ، فأنا أرى النصر ، أولاً : الله عز وجل هو الناصر وحده ، لأن سيدنا عمر عزل سيدنا خالد ، قال له : لِمَ عزلتني يا أمير المؤمنين ؟ قال له : والله إني أحبك ، قال له : لِمَ عزلتني مرة ثانية ؟ قال له : والله إني أحبك ، قال : لِمَ عزلتني مرة ثالثة ؟ قال له : والله ما عزلتك يا بن الوليد إلا مخافة أن يفتتن الناس بك ، لكثرة ما أبليت في سبيل الله ، كأن هذا الإمام الكبير ، الخليفة الراشد ، أراد أن ينقذ التوحيد ، كاد الناس يتوهمون أن خالداً هو الناصر ، هو عبد الناصر وليس هو الناصر ، الناصر هو الله ،

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ)

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران الآية : 126)

من ينصر دين الله عز وجل يستحق أن ينصره الله :

أول حقيقة : الله هو الناصر ، ثاني حقيقة : من ينصر ؟

(وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ)

(سورة الحج الآية : 40)

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

(سورة محمد الآية : 7)

أنت حينما تنصر دين الله تستحق نصر الله ، حينما تقيم شرع الله تستحق نصر الله ، حينما ننصر الضعفاء نستحق النصر ، لقول النبي الكريم :

((فإنما تُرزقونَ وتُنصرون بضعفائكم))

<[أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي عن أبي الدرداء]

أي هذا الضعيف حينما تطعمه إن كان جائعاً ، تكسوه إن كان عارياً ، تعالجه إن كان مريضاً ، تعلمه إن كان جاهلاً ، تؤويه إن كان مشرداً ، تنصفه إن كان مظلوماً ، هذا الضعيف حقيقة الله سبحانه وتعالى يكافئنا على خدمته بأن ينصرنا على أعدائنا .

شروط النصر :

1 - الإيمان :

إذاً الله عز وجل ينصر من ينصره ، لكن لو سألتني هل للنصر شروط دقيقة جداً ؟ الجواب : النصر له شرطان ، كل واحد منهم شرط لازم غير كافٍ ، أول شرط الإيمان ، لقول الله عز وجل :

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِين)

(سورة الروم)

أي أنشأ الله حقاً عليه ، أن ينصرنا إن كنا مؤمنين ، لكن كلٌ يدعي وصلاً بليلى ، كلٌ يدعي الإيمان ، الحقيقة الإيمان الذي أراده الله بهذه الآية الإيمان الذي يحمل على طاعة الله ، فما دام الإيمان لا يحمل على طاعة الله أنا أسميه إيماناً إبليسياً ، لأن إبليس قال ربي :

(فَبِعِزَّتِكَ)

(سورة ص الآية : 82)

إبليس قال :

(خَلَقْتَنِي)

(سورة الأعراف الآية : 12)

آمن به خالقاً ، قال :

(أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة الأعراف)

فالإيمان الذي لا يترجم إلى التزام وإلى سلوك لا قيمة له إطلاقاً ، فالإيمان شرط لازم غير كافٍ ، المشكلة الكبرى أن المسلمين يتوهمون بأنهم مؤمنون و ينبغي أن ينتصروا ، لا ، الإيمان شرط لازم غير كاف ، طبعاً للتوضيح :

رأس الغاز لا قيمة له من دون أسطوانة غاز ، وهذه الأسطوانة لا قيمة لها أيضاً من دون رأس ، هما متكاملان ، نقول : كل من الأسطوانة والرأس شرط لازم غير كافٍ .

أول شرط الإيمان الذي يحمل على طاعة الله .

2 ـ الإعداد :

الشرط الثاني : الإعداد ، قال تعالى :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ)

(سورة الأنفال الآية : 70)

سمعت بعض قادة المقاومة في حرب غزة أنهم قالوا : يا رب أعددنا ما نستطيع ، هذه الكلمة تأثرت بها كثيراً ، أعددنا ما نستطيع .

يجب أن تؤمن الإيمان الذي يحملك على طاعة الله ، ويجب أن تعد العدة المتاحة لك ، عندئذٍ تكون قد قدمت شرطي النصر ، هذه شروط النصر .

أنواع النصر :

1 ـ النصر الاستحقاقي :

ولكن للنصر أنواع كثيرة ، من هذه الأنواع النصر الاستحقاقي ، أنت حينما تؤمن الإيمان الذي يحملك على طاعة الله ، وحينما تعد للعدو ما تستطيع ، عندئذٍ تنتصر استحقاقاً ، أنت مفتقر ، أنت موحد ، أنت أعددت العدة واستعنت بالله .

أستاذ جميل الموقف الدقيق جداً ، والرائع ، والإيماني الصحيح أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ، ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء ، طبعاً سهل جداً أن تأخذ بالأسباب وأن تعتمد عليها ، وأن تؤلهها فتقع في وادي الشرك كما هم الغربيون ، والأسهل من ذلك ألا تأخذ بها أصلاً ، وتعتمد على توفيق الله الساذج ، تعتمد على التواكل لا التوكل ، ألا تأخذ بها، لكن البطولة أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ، ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء .

هذا النصر الأول استحقاقي ، قال تعالى :

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران الآية : 123)

2 ـ النصر التفضلي :

أما النصر الثاني هو النصر التفضلي ، أحياناً لحكمة بالغةٍ بالغة ينصر الله من لا يستحق النصر ، لكن الله عز وجل يكشف لنا بعد حين هذه الحكمة ، قال تعالى :

(غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ)

(سورة الروم)

والحقيقة الدقيقة أن هذه الآية فيها إعجاز إخباري مستقبلي ، فالله عز وجل أخبرنا أن الروم سينتصرون بعد أن انهزموا مع الفرس .

(غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

(سورة الروم)

والملمح الدقيق بالآية أن الله أثبت لصحابته الكرام فرحهم بانتصار الروم ، لأن بينهم قواسم مشتركة ، القواسم المشتركة الإيمان بالله واليوم الآخر ، هناك فوارق لكن هناك قواسم مشتركة .

فالمؤمن ينبغي أن يقف الموقف المناسب في هذه الآية ، هذا نصر تفضلي .

3 ـ النصر الكوني :

وهناك نصر آخر هو النصر الكوني ، كلا الفريقين المتحاربين شارد عن الله الأقوى ينتصر ، الذي يملك سلاحاً إصابته أقوى ينتصر ، الذي يملك سلاحاً مداه المجدي أكبر ينتصر ، الذي يملك الأقمار الصناعية ينتصر ، الذي معه ثلاثين دولة حلفاء ينتصر ، الذي معه أموالاً طائلة ينتصر ، هذا نصر كوني ، الطرفان شردا عن الله عز وجل ، الأقوى ينتصر ، الأقوى عسكرياً ، والأقوى إعداداً ، والأقوى عدة ، وعتاداً ...إلخ .

4 ـ النصر المبدئي :

لكنني أريد أن أبشر هؤلاء الذين ماتوا واستشهدوا في حرب ولم يحققوا النصر ، هؤلاء انتصروا نصراً مبدئياً ، لأن المنية وافتهم وهم موحدون ، مؤمنون ، مستقيمون ، هذا النصر يسمى النصر المبدئي ، وهو ثمين جداً ، والدليل :

(قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ)

(سورة البروج)

أصحاب الأخدود لم ينتصروا بل أحرقوا ، لكنهم ماتوا موحدين ، ماتوا مؤمنين ، وماتوا طائعين .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - الإسلام منهج حياة - الدرس (18-30) : علاقة الإنسان بالشأن العام 4 ، هل حالة الذل مستمرة وهل مد الطغاة إلى ما لا نهاية ؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2009-09-09

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ جميل :

تحدثنا عن الجهاد بأنواعه ، وتحدثنا عن النصر ، وأن عوامل النصر إيمان وإعداد ، انطلاقاً من الواقع الذي نعيش فيه ، وما فيه من إشكاليات ، فهل حالة الذل مستمرة وهل مد الطغاة إلى ما لا نهاية ؟.

لا يمكن لطاغية على وجه الأرض أن يكون طاغية إلا ويوظف الله طغيانه لخدمة دينه :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

أستاذ جميل بادئ ذي بدء : لئلا يصاب المسلمون وقد أصيبوا بحالة اسمها اليأس أو الإحباط ، أو ثقافة الطريق المسدود ، اليأس والإحباط ، وثقافة الطريق المسدود قد تجعلهم لا يصدقون أي نصر ، هذه حالة خطيرة جداً ، وأنا أقول دائماً : أخطر حالة أن يهزم الإنسان من داخله .

لذلك لئلا يصاب المسلمون بالإحباط ، واليأس ، والسوداوية ، ولئلا يقولوا قد انتهينا ، ولئلا يقع المسلمون في حالة من الطريق المسدود ، هناك حقائق لابد من سردها :

أولاً : لا يمكن لطاغية على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة أن يسمح الله له أن يكون طاغية إلا ويوظف الله طغيانه لخدمة دينه والمؤمنين من دون أن يشعر ، ومن دون أن يريد ، وبلا أجر ، وبلا ثواب ، طالبني بالدليل ، لأنه لولا الدليل لقال من شاء ما شاء ، وأنا أتمنى من كل أخ كريم مشاهد أن يتسلح بالمعرفة ، ألا يرفض شيئاً إلا بالدليل ، وألا يقبل شيئاً إلا بالدليل ، لأن " هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذون دينكم " .

((ابن عمر دينك دينك ، إنما هو لحمك ودمك ، فانظر عمن تأخذ ، خذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا .))

[ابن عدي عن ابن عمر]

الدليل : أنه ما من طاغية إلا ويوظف الله طغيانه لخدمة دينه والمؤمنين ، لقول الله عز وجل :

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً)

(سورة القصص الآية : 4)

أي استخدم ورقة الفتن الطائفية ، وهذا شأن كل الطغاة ، وهي الورقة الرابحة بأيديهم ، والمؤمنون لوعيهم ، وفهمهم الدقيق والعميق ، وإخلاصهم ، يستطيعون إسقاط هذه الورقة .

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)

الفتن الطائفية ورقة رابحة بأيدي الطغاة فعلينا إسقاطها و القضاء عليها :

الآن :

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

(سورة القصص)

إذاً الطاغية من دون أن يشعر ، ومن دون أن يريد ، طغيانه يدفع الناس إلى باب الله ، طغيانه يعمق فهم الناس لحق الله عليهم ، لأنها شَدِةٌ وراءها شَدة إلى الله ، لأنها محنة وراءها منحة من الله ، فالطغيان له وظيفة قد لا ننتبه إليها .

مثلاً : حرب غزة وحدتنا كمسلمين ، أثارت أعماق أعماقنا النبيلة ، ظهرت تضحيات تفوق حدّ الخيال، حرب غزة محنة كبيرة ، لكن لها إيجابيات قد لا نعلمها إلا بعد حين ، هذه الحقيقة الأولى أن الطغيان يوظف .

الله عز وجل لا يسمح لجهة أن تتأله :

الشيء الثاني : لا شيء يستمر ، كيف أن كل إنسان له أجل ينتهي ، وسبحان من قهر عباده بالموت ، وأيضاً :

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ)

(سورة الأعراف الآية : 34)

لا يوجد أمة تستطيع أن تستمر ، لأنه حينما تستمر في طغيانها كأن الله ألهها ، لذلك الله عز وجل لا يسمح لجهة أن تتأله ، لذلك :

((الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني في شيء منه أدخلته النار))

[أخرجه ابن ماجه وابن حبان عن عبد الله بن عباس]

إذاً :

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ)

الشيء الآخر الدعوة مستمرة ، شيء لا يصدق .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ)

(سورة الأنفال الآية : 36)

الطائلة ، المليارات ، يخططون ، يسهرون ، يخططون لإلغاء الإسلام ، والإسلام يزداد قوة ، الشيء العجيب أن الذي أراد إلغاء الدين هو غبي جداً ، وساذج جداً ، وما علم أن الطرف الآخر هو الله ، خالق السماوات والأرض ، لذلك قال تعالى :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال الآية : 36)

الله جلّ جلاله ألزم ذاته العلية بهداية الخلق والهداية الإلهية لا يمكن أن تقف :

إذاً الدعوة مستمرة ، بل إنني أرى لو أن أهل الأرض اجتمعوا على أن يفسدوا على الله هدايته لخلقه لا يستطيعون ، لقوله تعالى :

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(سورة الليل)

وكلمة على إذا جاءت مع لفظ الجلالة يقول عنها العلماء : إن الله جلّ جلاله ألزم ذاته العلية بهداية الخلق ، فالهداية الإلهية لا يمكن أن تقف ، ولا يمكن أن يوقفها إنسان ، ولا يمكن أن يمنعها إنسان ، لأنه عندئذٍ يريد أن يطفئ نور الله بفمه .

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ)

(سورة التوبة الآية : 32)

وهذا شيء مستحيل ، تصور إنساناً توجه إلى الشمس ونفخ عليها من أجل إطفائها، يكون أغبى الأغبياء ، والحق كالشمس ، فلذلك لا يستطيع إنسان أن يلغي هداية الله عز وجل ، لكنهم يهددون ، يتوعدون ، يخططون ، لكن بالنهاية لا ينتصرون ، هذا الدين له خاصة عجيبة ، أنه إذا دعمته يزداد قوة ، وإذا حاربته يزداد قوة ، يزداد قوة شئت أم أبيت ، يزداد قوة بدعمك له ، أو بمحاربتك إياه ، بل إن الذي يحارب الدين كأنه يحاول إطفاء النار بالزيت ، شيء عجيب ! لأن الدين هواء ، هذا الهواء لا

يحتكر ، والدين عظمته أنه دين جماعي ، ودين فردي ، لو أن الجماعة أعرضت عنه كان ديناً فردياً ، بإمكانك أن تستقيم على أمر الله ، وأن تنتفع من كل خصائص الدين وحدك .

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

(سورة العنكبوت الآية : 69)

لا تستطيع جهة في الأرض مهما قويت أن تفسد على الله هدايته لخلقه :

إذاً هذا الدين لا يمكن أن يلغى ، والأقوياء فهموا هذه الحقيقة فماذا فعلوا ؟ أراده تفجيره من الداخل ، إلغاء الدين مستحيل ، بقي أن يفجروه من الداخل عن طريق التشويه ، تشويه رجال الدين ، الصناع أشخاص كرجال دين ، يرتكبون الأخطاء الفادحة من أجل تشويه سمعة الدين ، فهذه العملية اسمها التفجير من الداخل ، أو عن طريق الفتاوى التي تحل كل المعاصي ، أو عن التأويل السيئ للقرآن والسنة ، أو عن طريق إلغاء السنة أصلاً ، هناك دعوات هدفها تفريغ الدين من مضمونه ، فالدين دين الله لا يمكن أن يوقفه أحد ، لكنهم يحاولون .

بالمناسبة محاولات أعداء الدين لإلغاء الدين تجري لكنها لا تنجح ، أنا حينما أقول: إن الله حفظ كتابه من أن يزور ليس معنى هذا أنه لا تجري محاولة ، لكن المعنى الدقيق أن هذه المحاولات لا تنجح . فلذلك لا تستطيع جهة في الأرض مهما قويت أن تفسد على الله هدايته لخلقه

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

(سورة النحل الآية : 9)

من خطط ليبني مجده على أنقاض الشعوب فنجاح خططه يتناقض مع عدل الله ووجوده :

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال الآية : 23)

هذه نقطة دقيقة في الموضوع ، مثلاً ، هذه العصا الغليظة ، الغليظة جداً في المنطقة ، التي وضعت لتأديب أي دولة في الشرق الوسط هذه العصا الغليظة كُسرت مرتين إسرائيل كُسرت في عام 2006 ، ومرة في عام 2008 ، إذاً :

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف)

الشيء الآخر : هو أن جهة قوية جداً أرادت أو خططت لبناء مجدها على أنقاض الشعوب ، وبناء قوتها على إضعاف الشعوب ، وبناء غناهم على إفقار الشعوب ، وبناء عزها على إذلال الشعوب ، هذه الجهة القوية جداً العملاقة التي ليس فوقها إلا الله ، لا يمكن أن تنجح خططها على المدى البعيد ، الكلمة الدقيقة التي أؤمن بها بكل خلية في جسمي ، وبكل قطرة في دمي ، أن هذه الجهة القوية جداً ، العملاقة، المتفوقة ، حينما تخطط أن تبني مجدها على أنقاض الشعوب نجاح خططها على المدى البعيد لا يتناقض مع عدل الله فحسب بل مع وجوده ، أنا أطمئن أي إنسان الحال لا يستمر ، بل إن الخط البياني في طريقه إلى الهبوط ، والشيء ملاحظ ،

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ)

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

ولكن البطولة الكبرى ألا ينفرد الباطل بالساحة ، ولا نقلق على هذا الدين إنه دين الله ، بل ينبغي أن نقلق ما إذا سمح الله لنا أو لم يسمح أن نكون جنوداً له .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - الإسلام منهج حياة - الدرس (19-30) : علاقة الإنسان بالشأن العام 5 ، من هو المسؤول عن الدعوة إلى الله ؟
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 10-09-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ جميل :

سبق الحديث عن الجهاد ومكانته ، والنصر وأسبابه ، وبشرى إحقاق الحق وإبطال الباطل ، ماذا عن جهاد الدعوة خصوصاً ؟ ومن هو المسؤول عن الدعوة إلى الله عز وجل ؟.

الدعوة إلى الله أعلى مقام يناله الإنسان :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أستاذ جميل النبي عليه الصلاة والسلام قال الله عنه :

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً)

(سورة الأحزاب)

الدعوة إلى الله أعلى مقام يناله الإنسان ، والله عز وجل يقول :

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ)

(سورة فصلت الآية : 33)

أي لن تجد على وجه الأرض إنساناً أفضل عند الله :

(مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة فصلت)

الدعوة إلى الله فرض عين في حدود ما تعلم ومع من تعرف :

إلا أن الدعوة إلى الله يتوهمها الناس فرض كفاية ، إذا قام بها البعض سقطت عن الكل ، وهذا الكلام بعضه صحيح ، لقول الله عز وجل :

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ)

(سورة آل عمران الآية : 104)

والمن للتبعيض ، طبعاً الدعوة إلى الله كفرض كفاية تحتاج إلى تفرغ ، وإلى تبحر، وإلى تعمق ، وإلى قدرة فائقة على رد كل الشبهات حول الدين ، هو اختصاص ، والاختصاص فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الكل ، لكن الذي قد لا يصدقه معظم الناس أن الدعوة إلى الله فرض عين ، كيف فرض عين ؟ لماذا يصلي المسلم ؟ لأن الصلاة فرض ، فإذا ثبت بالدليل القطعي أن الدعوة إلى الله فرض فلابد من أن يكون كل مسلم داعية إلى الله بطريقة أو أخرى ، فالدليل قول النبي عليه الصلاة والسلام :

((بلِّغوا عني ولو آية))

[أخرجه البخاري والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

مثلاً : إنسان حضر خطبة جمعة تأثر بها تأثراً بالغاً ، ينبغي أن يجعلها محور حديثه في هذا الأسبوع ، لأقربائه ، لجيرانه ، لشركائه في المحل ، لأصدقائه ، لزملائه ، إذاً جعل من هذه الخطبة أداة دعوية طوال الأسبوع ، والشيء الدقيق جداً أن الدعوة إلى الله كفرض عين في حدود ما تعلم ومع من تعرف فقط .

التواصي بالحق أحد أركان النجاة :

أنا حينما أؤكد بالدليل القطعي أن الدعوة إلى الله فرض عين ، قد يقول أحدهم أين الدليل ؟ قال تعالى :

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا)

(سورة العصر)

فالإنسان بنص هذه الآية خاسر لا محالة ، إلا أن الله استثنى من الخسارة :

(إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

(سورة العصر)

فالتواصي بالحق هو الدعوة إلى الله وهو فرض عين ، بل إن التواصي بالحق أحد أركان النجاة ، بل إن المؤمن لا يستقر في قلبه الإيمان إلا ويعبر عن ذاته بحركة دعوية نحو الآخرين ، هذه حقيقة .

من يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله على بصيرة :

أما الدليل الثاني أوضح ، قال تعالى :

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف الآية : 108)

فالذي يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله على بصيرة ، ومعنى بصيرة أي بالدليل المؤصل والتعليل ، إذاً الذي لا يدعو إلى الله لا يتبع رسول الله ، والذي لا يتبع رسول الله لا يحب الله ، والدليل :

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي)

(سورة آل عمران الآية : 31)

صار معنا دليلان قويان على أن الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم في حدود ما تعلم ومع من تعرف .

الأستاذ جميل :

إذاً الدعوة قسمين ، القسم الأول فرض عين وضمن حدود الإمكان ، والقسم الثاني الخاص فرض كفاية.

ما من شيء يتذبذب بين أن يكون أرقى عمل وبين أن يكون أتفه عمل كالدعوة إلى الله :

الدكتور راتب :

إلا أن هناك مفارقة حادة أستاذ جميل ، أنا أرى أنه ما من شيء يتذبذب بين أن يكون أرقى عمل على الإطلاق يرقى إلى صنعة الأنبياء ، وبين أن يكون أتفه عمل على الإطلاق لا يستهل إلا ابتسامة ساخرة كالدعوة إلى الله ، ترقى ، وترقى ، وترقى حتى تقترب من صنعة الأنبياء ، وتسقط ، وتسقط ، وتسقط حتى تغدو عملاً سخيفاً لا تثير أي اهتمام ، متى ترقى ؟ ومتى تسقط ؟ حينما تطبق ما تقول ، وحينما تخلص فيما تقول ، وحينما تبذل من أجل الدعوة الغالي والرخيص ، والنفس والنفيس ، يمكن أن ترقى عندئذٍ بدعوتك ، أما حينما يتاجر الإنسان بالدعوة ويستخدم الدين كورقة رابحة من أجل الدنيا ، كقوله تعالى :

(اشْتَرَوْا بِآَيَاتِ اللَّهِ ثَمَنَاً قَلِيلاً)

(سورة التوبة الآية : 9)

هنا المشكلة ، مرة في بلد إسلامي في إفريقيا هناك وضع صعب شرحه بالتفصيل ، صدر قرار بإعدام عالم كبير ، فجاؤوا لهذا العالم بشيخ ليلقنه الشهادة ، عالم كبير ترك تفسيراً كبيراً ، فجاؤوا له بشيخ ليلقنه الشهادة ، فقال هذا العالم الجليل لهذا الشيخ : أنا أموت من أجل لا إله إلا الله ، أما أنت فترتزق بها .

فالفرق بين الدعوة إلى نهج الأنبياء وبين الدعوة الساقطة ، بين أن تموت من أجلها ، وبين أن ترتزق بها ، هذا هو الفرق .

لذلك النقطة الدقيقة جداً أن الدعوة تتذبذب بين أن تكون أرقى عمل على الإطلاق يرقى إلى صنعة الأنبياء ، وبين أن يكون أتفه عمل على الإطلاق لا يستأهل إلا ابتسامة ساخرة .

الدعوة إلى الله دعوتان ؛ دعوة إلى الله خالصة ودعوة إلى الذات مغلفة بدعوة إلى الله :

إلا أنني أريد أن أضيف أن الدعوة إلى الله دعوتان ، دعوة إلى الله خالصة ، ودعوة إلى الذات مغلفة بدعوة إلى الله ، الدعوة الخالصة من خصائصها الاتباع ، قل : إنما أنا متبع ولست بمبتدع ، من خصائص الدعوة إلى الله الخالصة الاتباع ، ومن خصائص الدعوة إلى الذات الابتداع ، ينبغي أن تبتدع حتى توهم الناس أنك جئت بجديد ، والحقيقة لا جديد في الدين ، الدين توقيفي ، وإذا تجاوزنا وسمحنا لأنفسنا أن نسمي التجديد في الدين فلا يعني إلا أن تنزع عن الدين كل ما علق به مما ليس منه ، فالدعوة الخالصة إلى الله من خصائصها الاتباع ، أما الدعوة إلى الذات من خصائصها الابتداع ، الدعوة إلى الله الخالصة من خصائصها التعاون ، والدعوة إلى الذات المغلفة بدعوة إلى الله من خصائصها التنافس ، علامة إخلاصك أن تتعاون ، وعلامة انتفاعك في الدعوة أن تتنافس ، الآخرة توحدنا ، والدنيا تفرقنا ، من خصائص الدعوة إلى الله الاعتراف بالآخر ، وتقدير الآخر ، ومن خصائص الدعوة إلى الذات إلغاء الآخر ، وجحد مكانة الآخر ، وتسفيه الآخر ، من خصائص الدعوة الخالصة إلى الله قبول النصيحة ، ومن خصائص المنتفع بالدعوة ألا يقبلها ، فصار عندنا دعوة خالصة متألقة ، ودعوة إلى الذات مغلفة بدعوة إلى الله أساسها المكاسب الدنيوية .

الدعوة إلى الله أعظم عمل على الإطلاق :

أستاذ جميل ، حينما قال الله عز وجل لسيدنا موسى :

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)

(سورة طه)

لا يوجد عمل أعظم من الدعوة ، هذه خصوصية لهذا النبي الكريم :

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)

كطرفة ، سأل إنسان كم الزكاة ؟ قال له : عندنا أم عندكم ؟ قال له : عجيب ! كما دين يوجد ؟ قال له : عندكم اثنان ونصف بالمئة ، أما عندنا العبد وماله لسيده هذا معنى

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الأنعام)

فالدعوة إلى الذات هكذا ، والدعوة إلى الله هكذا ، فلذلك الدعوة إلى الذات لا تنجح ، بينما الدعوة إلى الله الخالصة هي التي تستقطب .

لذلك قالوا : حال واحد في ألف أبلغ من قول ألف في واحد .

الانتماء الحقيقي هو الانتماء إلى مجموع المؤمنين :

النقطة الدقيقة التي أريد أن تكون واضحة هي قوله تعالى :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

(سورة الحجرات الآية : 10)

وما لم يكن انتماؤك لمجموع المؤمنين فلست مؤمناً ، الانتماء إلى فقاعات صغيرة تسبب متاعب ، وخصومات ، وتنافس ، وهذا بعض حالات الجماعات الدينية المتنافسة ، التي تتراشق التهم ، أما الانتماء الحقيقي انتماء إلى مجموع المؤمنين ، لقوله تعالى :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ)

(سورة الحجرات الآية : 10)

أخوة الإيمان أرقى أخوة ، فقد ورد في الحديث القدسي :

((وجبت محبتي للمتحابين فيَّ ، والمتجالسين فيَّ ، والمتباذلين فيَّ ، والمتزاورين فيَّ ، والمتحابون في جلالي على منابر من نور يغبطهم عليها النبييون يوم القيامة))

[أخرجه ابن حبان عن معاذ بن جبل]

الذي أتمنى أن يكون واضحاً إن لم يكن انتماء الإنسان إلى مجموع المؤمنين فهناك مكاسب يحققها ، فلذلك لا يريد أن يوزعها على الآخرين ، أما حينما يكون العمل خالصاً لوجه الله هذا طالب علم .

أنا أذكر كلمة قالها بعض الشيوخ أعجبتني ، قال له : يا بني ائتِ لي بإنسان من الملهى إلى المسجد ، لا من مسجد إلى مسجد .

الدعوة إلى الله عمل عظيم لأنها تدعو الناس إلى الله والسعادة والسكينة والاستقرار :

بطولتك أن تستطيع إقناع الطرف الآخر ، أن تأخذ بيد الشاردين إلى الله عز وجل، والدعوة عمل عظيم لأنها تدعو الناس إلى الله ، تدعوهم إلى السعادة ، تدعوهم إلى السكينة ، إلى الاستقرار ، إلى جنة عرضها السماوات والأرض ، والآية التي بدأت بها هذا اللقاء الطيب قال تعالى :

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

أي لن تجد على وجه الأرض إنساناً أفضل

(مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

ومرة قابلت الشيخ الشعراوي ـ رحمه الله تعالى ـ وسألته سؤالاً متعلقاً بنصيحة أقدمها إلى الدعاة ، فقال لي كلاماً مختصراً جامعاً مانعاً : ليحذر الداعية أن يراه المدعو على خلاف ما يدعوه .

أي الدعوة إلى الله الخالصة تؤتي ثمارها كل حين بإذن ربها ، وأرجو من الله سبحانه وتعالى أن ينصرف الأخوة المؤمنون إلى دعوة إلى الله كفرض عين في حدود ما يعلمون ، ومع من يعرفون .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - الإسلام منهج حياة - الدرس (20-30) : علاقة الإنسان بالشأن العام 6 ، دور الأمر بالمعروف والالتزام بما ندعو إليه
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 11-09-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ جميل :
دكتور ، متابعة لحديث الدعوة إلى الله ما هو دور الائتمار بالمعروف والالتزام بما ندعو الناس إليه أولاً ؟.

من قواعد الدعوة إلى الله :

1 ـ القدوة قبل الدعوة :

الدكتور راتب :
بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .
أستاذ جميل ، هناك قواعد في الدعوة ، قواعد ذهبية ينبغي أن يأخذ بها الدعاة ، بل إنني أرى أن للنبي عليه الصلاة والسلام سنة خاصة هي سنة دعوية ، كيف دعا إلى الله ؟ كيف ألقى خطبه ؟ كيف عامل أصحابه ؟ ماذا فعل معهم ؟ كيف كان يمضي وقته معهم ؟ كيف كانت أحواله معهم ؟ مجموع هذه التساؤلات تشكل ما يسمى بالسنة الدعوية ، والدعاة إلى الله إن أخذوا بهذه السنة تألقوا ، وإن لم يأخذوا بها تطرفوا .
فلذلك لو بحثنا في السنة النبوية عن مضامين هذه الدعوة بل عن قواعدها الذهبية لوجدنا أحد أكبر هذه القواعد ، القدوة قبل الدعوة ، لماذا ؟ لأن النبي عليه الصلاة والسلام أرسله الله مبلغاً ، وأرسله قدوة ، وأنا أرى أن مهمة القدوة أكبر بكثير ، وأخطر بكثير من مهمة التبليغ ، لأن القدوة تحتاج إلى سلوك ، فالله عز وجل قال :

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر الآية : 7)

هذه مهمة التبليغ ،

(وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

لكن مهمة القدوة ، قال تعالى :

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً)

(سورة الأحزاب)

فلذلك النبي الكريم كان قدوة في بيته ، مع زوجاته ، مع أولاده ، مع جيرانه ، مع أصحابه ، في سلمه، في حربه ، في فقره ، في غناه ، كان قدوة ، من هنا تعد القدوة قبل الدعوة .

الداعية ما لم يكن مطبقاً لكل ما يقول فدعوته لن تنجح :

مرة ثانية ، قدوة النبي أبلغ في فهمه لكتاب الله من دعوته ، لأن دعوته تؤول تأويلاً ما أراده النبي ، أما السلوك حدي ، السلوك لا يحتمل التأويل بالضبط .

لذلك أنا أقول : القدوة قبل الدعوة ، الداعية ما لم يكن مطبقاً لكل ما يقول ، ما لم يكن مثلاً أعلى ، ما لم يكن قدوة ، أسوة ، دعوته لا تنجح ، قولاً واحداً .

سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ كان إذا أراد إنفاذ أمرٍ جمع أهله وخاصته وقال: " إني قد أمرت الناس بكذا ، ونهيتهم عن كذا ، والناس كالطير إن رأوكم وقعتم وقعوا ، وايم الله لا أوتين بواحد وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العقوبة لمكانته مني " .

فأصبحت القرابة من عمر مصيبة ، كان قدوة .

مرة رأى إبلاً سمينة ، قال : لمن هذه الإبل ؟ قالوا : هي لابنك عبد الله ، غضب أشد الغضب ، واستدعى ابنه وقال : لمن هذه الإبل ؟ قال : هي لي يا أبتِ ، اشتريتها بمالي وبعثت بها إلى المرعى لتسمن فماذا فعلت ؟! فقال له سيدنا عمر : ويقول الناس : ارعوا هذه الإبل فهي لابن أمير المؤمنين ، اسقوا هذه الإبل فهي لابن أمير المؤمنين ، وهكذا تسمن إبلك يا بن أمير المؤمنين ، قال له : بع هذه الإبل وخذ رأسمالك ، ورد الباقي إلى بيت مال المسلمين .

فهذه القاعدة الأولى القدوة قبل الدعوة ، الناس لا يتعلمون بآذانهم ، بل إنهم يتعلمون بعيونهم ، لو سمع الابن مئة محاضرة عن الصدق ورأى أباه يكذب على أمه وكان معه في الطريق ، هذا الابن تعلم من موقف الأب أضعاف ما يتعلم من أقواله .

فلذلك إذا كان الكون قرآناً صامتاً ، و كان القرآن كوناً ناطقاً ، فالنبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي.

لذلك الناس لا ينتفعون من رجل الدين إلا إذا كان مستقيماً ، ينتفعون من طبيب يحمل بورد ، ولا يعنيهم استقامته إطلاقاً ، يعنيهم علمه فقط ، ينتفعون من مهندس ، من طبيب ، من معلوماتي ، لكن لا يمكن أن ينتفعوا من إنسان مُدرس يُدَرّس خلاف ما يفعل ، هذه النقطة الدقيقة .

من طبق منهج الله عز وجل ولو بقي ساكتاً سيحقق آثاراً مذهلة :

لذلك أقول : الطريقة الفعالة الوحيدة المتألقة التي تثمر ثماراً يانعة أن تكون أنت القدوة ، فلذلك أنا وجدت مصطلحاً جديداً أعجبني هو الدعوة الصامتة ، قد تكون أكبر داعية وأنت صامت ، لماذا ؟ لأن الناس يتعلمون من استقامتك ، وقد ورد :

((واستقيموا يستقم بكم))

[أخرجه الطبراني عن سمرة بن جندب]

فالقدوة قبل الدعوة ، قبل أن تدعو كن قدوة .

فلذلك الإنسان إذا طبق منهج الله عز وجل ولو بقي ساكتاً سيحقق آثاراً مذهلة ، وأنا أتمنى أن يكون من بين الدعاة دعاة صامتون ، استقامتهم دعوة ، وتواضعهم دعوة ، ورحمتهم دعوة ، وأمانتهم دعوة ، وفضائلهم دعوة ، الناس يرون بأعينهم ، فالإسلام لا ينتشر بإلقاء الخطب الرنانة ، بل ينتشر بالمثل العليا .

فلذلك أنا أريد الآن مسلماً يتحرك ، لا أريد مسلماً أقرأه بالتاريخ ، طبعاً نحن نسعد كثيراً بأقوال سيدنا عمر والصحابة الكرام ، نريد مسلماً يعيش معنا ، صادقاً ، أميناً ، المسلم الصادق إن حدثك فهو صادق، وإن عاملك فهو أمين ، وإن استثيرت شهوته فهو عفيف ، هذه أركان الأخلاق ؛ الصدق ، والأمانة ، والعفة .

الأستاذ جميل :

إذاً فضيلة الدكتور هذه هي المهنة الأشق وهي الدعوة إلى الله ، لأنها دعوة بحال ليست مجرد دعوة لسان ولا مقال ، وإنما حاله يدل على صدق مقاله .

2 ـ الإحسان قبل البيان :

الدكتور راتب :

لكن يمكن أن نضيف قاعدة ثانية مهمة جداً ، الإحسان قبل البيان ، أنت بإحسانك تفتح قلب الآخر ، فيفتح عقله لبيانك ، أنا أرجح أن يكون الداعية مربياً ، يهتم بهذا الإنسان ، بعمله ، بزواجه ، برزقه ،

بتأمين حاجاته ، هذه العلاقة الإيجابية بين المدعو والداعية لها أثر كبير جداً في نجاح الدعوة ، فلذلك كان عليه الصلاة والسلام كأنه أب ، وضع نفسه مع أقل أصحابه ، كل ثلاثة على راحلة وأنا وعلي وأبو لبابة على راحلة .

من اجتمع الإحسان فيه مع القدوة وهبه الله عز وجل قوة تأثير بالآخر :

لذلك أن تكون أنت محسناً هذا يفتح قلوب الآخرين لك فتنجح دعوتك .

((يا داود ذكر عبادي بإحساني إليهم فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها))

[حديث قدسي رواه البيهقي عن عمير بن وهب]

أنا والله لا أرى وسيلة فعالة للتأثير في الناس كالإحسان .

مرة سمعت قصة ، أن إنساناً باليونان جاء إلى تركيا سائحاً ، يبدو أنه وصل إلى مدينة جميلة جداً ، في أيام الصيف ، وهناك ازدحام شديد ، لم يتمكن من أن يجد مكاناً لينام ، لا بفندق خمسة نجوم ، ولا أربعة ، ولا ثلاثة ، ولا بمكان ، و بقي حتى الساعة الثانية عشرة ليلاً وهو يبحث عن مكان لينام فيه ، طرق باباً لا على التعيين ، طبعاً صاحب البيت تركي مسلم ، رحب به أشد الترحيب ، وقال له : أنا عندي بيت آخر تفضل نمّ في هذا البيت ، هيأ له طعاماً ، وأعطاه غرف النوم ، و قد كان بيته جيداً جداً، فهذا اليوناني طرب أشد الطرب لهذا الكرم ، ولهذه المبادرة الطيبة ، وأقنعه أن عنده بيتاً آخر ، فلما استيقظ صبيحة اليوم الأول وجد هذا التركي ينام مع أهله تحت الشجرة ، أقسم لي أحد الأخوة الكرام ـ وهو الذي روى لي هذه القصة ـ أنه بعد حين أسلم هذا اليوناني .

((يا داود ذكر عبادي بإحساني إليهم ، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها ، وبغض من أساء إليها))

[حديث قدسي رواه البيهقي عن عمير بن وهب]

أنت حينما تحسن تفتح قلب الآخر ، فيفتح لك عقله لكلامك .

مرة ثانية وثالثة : القدوة قبل الدعوة ، والإحسان قبل البيان ، وهاتان قاعدتان ذهبيتان رائعتان للدعاة ، والداعية حينما يكون قدوة ، وحينما يكون مخلصاً ، وحينما يحسن للآخر ، يتولى الله جلّ جلاله أن يهبه قوة تأثير يفتقر إليها معظم الدعاة .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - الإسلام منهج حياة - الدرس (21-30) : علاقة الإنسان بالشأن العام 7 ، قواعد وأسس الدعوة إلى الله 1

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-09-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ جميل :

دكتور في معرض حديثنا عن الدعوة إلى الله عز وجل ، ثاني نوع من أنواع الجهاد ، وبعد أن ذكرنا أن الدعوة هي صنعة الأنبياء ، ووجوب صيانتها عن النزاعات الشخصية ، وأن تكون القدوة قبل الدعوة ، كلها محاور تناولناها لابدّ من قواعد وأسس لهذه الدعوة ، فعلى ماذا تقوم الدعوة إلى الله ؟.

من قواعد الدعوة إلى الله :

1 ـ معرفة الآمر قبل الأمر :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

أستاذ جميل ، لا بدّ من التذكير أننا في محطات عدة ، محطة العلاقة بالله ، والعلاقة بالأهل والأولاد ، والعلاقة بمن حولنا ، والعلاقة بالشأن العام ، والعلاقة بالدعوة إلى الله عز وجل .

وبدأنا في لقاء سابق بقواعد الدعوة إلى الله ، القاعدة اليوم الأساسية : الآمر قبل الأمر ، إذا عرفنا الآمر ثم عرفنا الأمر تفانينا في طاعة الآمر ، أما إذا عرفنا الأمر ولم نعرف الآمر تفننا في التفلت من الأمر كحال المسلمين اليوم .

المرحلة المكية في تاريخ الإسلام مرحلة تعريف بالآمر ، فالآيات المكية تتحدث عن الكون ، وعن اليوم الآخر ، وفي مرحلة التشريع جاء الأمر والنهي ، فأي دعوة إلى الله تغفل المعرفة بالآمر دعوة عرجاء لا تنجح ، وأي دعوة إلى الله تغفل التعريف بالأمر دعوة عرجاء لا تنجح ، فلابدّ من أن نعود إلى منهج النبي الكريم لأنه سيد الدعاة ، عرف بالآمر ثم عرف بالأمر .

التفكر بالكون يقودنا إلى معرفة الله و يضعنا وجهاً لوجه أمام عظمة الله :

لذلك الله عز وجل جعل الكون مظهراً لأسمائه الحسنى ، وجعل التفكر في الكون أحد أكبر العبادات ، والتفكر بالكون تتعرف من خلاله إلى الله ، وقد تقف وجهاً لوجه أمام عظمة الله ، والتفكر بالكون أوسع باب ندخل منه على الله ، وأقصر طريق إلى الله .

غدة إلى جانب القلب كُتب الطب من مئة عام إلى عقدين من الزمن تقول : لا وظيفة لها إطلاقاً ، غدة "التايموس" صغيرة جداً إلى جانب القلب ، توهم الأطباء أنه لا وظيفة لها ، لأنها تضمر كلياً بعد عامين، ثم اكتشف أنها أخطر غدة في جسم الإنسان ، لأن كريات الدم البيضاء المقاتلة عناصر قوية معها سلاح فتاك ، لكنها لا تعرف الصديق من العدو ، تدخل هذه الكريات البيضاء التي سماها العلماء الخلايا التائية الهمجية ، إلى هذه الكلية الحربية تتعلم خلال سنتين من هو الصديق ، ومن هو العدو ، كُبّر هذا المدرج فإذا الخلايا التائية التي كانت همجية قبل التعلم ، والتي تخرجت فأصبحت مثقفة ، عرفت الصديق من العدو ، وهناك مخرجان امتحانيان ، الأول تعطى الخلية صديقاً فإن قتلته تُقتل وترسب ، وتعطى عدواً فإن لم تقتله تُقتل وترسب ، هذا الجيل المتخرج يتولى بنفسه تعليم الأجيال اللاحقة ، عندئذٍ تنتهي مهمة هذه الكلية وتضمر ، في الستين أو السبعين يضعف التعليم ، ينشأ من ضعف التعليم ما يسمى بالخرف المناعي ، هذا الخرف المناعي سبب لبعض الأمراض منها التهاب المفاصل ، وهو من أوسع الأمراض انتشاراً في العالم .

التفكر يقود إلى معرفة الله و معرفة الله تقود إلى طاعته :

لذلك في جسم الإنسان دقائق مذهلة ، فنحن كيف نعرف الله ؟ من صنعته الدقيقة، من حكمته البالغة ، من دقة المخلوقات التي خلقها ، فالبعوضة تزن واحد على ألف من الغرام، وفي رأسها مئة عين ، وفي فمها ثمانية وأربعون سناً ، وفي صدرها ثلاثة قلوب ، قلب مركزي ، وقلب لكل جناح ، وفي كل قلب أذينان ، وبطينان ، ودسامان ، ومعها جهاز استقبال حراري ـ رادار ـ حساسية هذا الجهاز واحد على ألف من الدرجة المئوية ، ومعها جهاز تحليل للدم ، ما كل دم يناسبها ، ومعها جهاز تمييع للدم ، ومعها جهاز تخدير ، في خرطومها ست سكاكين ، في أرجلها مخالب ومحاجم ، هذه صنعة الله عز وجل ، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

(سورة البقرة الآية : 26)

فالصنعة تدل على الصانع ، والحكمة تدل على الحكيم ، والتسيير يدل على المسير ، والخلق يدل على الخالق ، فنحن إذا تفكرنا في السماوات والأرض عرفنا الله ، فإذا عرفنا الله تفانينا في طاعته ، أما إذا عرفنا الأمر ولم نعرف الآمر تفننا في التفلت من الأمر ، لذلك نقول : الآمر قبل الأمر ، هذه قاعدة من قواعد الله ، ينبغي أن نُعرّف الناس بالخالق ، بأسمائه الحسنى ، بصفاته الفضلى ، بقوته ، بغناه ، بفضله ، برحمته ، بحكمته ، برأفته ، عندئذ ننصع لأمره ، هذه قاعدة من أهم قواعد الدعوة إلى الله .

الأستاذ جميل :

إذاً القاعدة الأولى هي : معرفة الآمر قبل الأمر حتى نتفنن في طاعته .

2 ـ الأصول قبل الفروع :

الدكتور راتب :

أما القاعدة الثانية : الأصول قبل الفروع ، أي وحدة المسلمين أصل ، فإذا اختلف المسلمون على عدد ركعات التراويح هذا الاختلاف يتناقض مع الأصل ، التراويح سنة ووحدتنا فرض ، فالمسلمون حينما يبتعدون عن مقاصد الشريعة الكبرى ، عن فرائض هذا الدين ، ويختلفون في الجزئيات ، وقعوا في متاهة كبيرة ، ينبغي أن ننتبه إلى الأصول والفروع معاً ، أن ننتبه إلى مقاصد الشريعة وتفاصيلها ، أما إذا أغلفنا مقاصدها وأغفلنا الأصول سنقع في متاهات الفروع ، وأحد أكبر أمراض المسلمين أنهم غرقوا في الجزئيات ، وغفلوا عن الكليات ، وغفلوا عن المقاصد ، وغفلوا عن الكبرى ، فلذلك مزقت وحدتهم ، هذه قاعدة ثانية ومن أهم القواعد .

3 ـ المبادئ لا الأشخاص :

وهناك قاعدة ثالثة ، هناك المبادئ لا الأشخاص ، المبدأ أولاً ، ولعل البشرية تمر أو مرت بمراحل ثلاث ، مرحلة المبادئ هذه أرقى المراحل ، المبادئ فوق الأشخاص ، والمبادئ فوق الأشياء ، في مرحلة كان الشخص هو المقدم ، نحن في مرحلة الشيء مقدم ، أي قيمة المرء من مساحة بيته ، من مركبته ، من رقم كتب على مركبته ، فقيمته من مركبته، أو من رقم أضيف إلى مركبته .

لذلك ورد في بعض الأحاديث : أنه في آخر الزمان قيمة المرء متاعه .

كلما تقدمت الأمة عظمت المبادئ وصغر الأشخاص :

في عهد سيدنا عمر في عصر المبادئ أسلم جبلة بن الأيهم ، هذا ملك الغساسنة وسيدنا عمر رحب به، لأن النبي طلب النخبة ، ملك ، لكنه بعقلية ملك ، متكبر ، أثناء طوافه حول الكعبة ، بدوي داس طرف إزاره فانخلع رداؤه عن كتفه ، فالتفت نحو هذا البدوي ، وضربه ضربة هشمت أنفه ، فهذا البدوي ليس له إلا عمر ، شكاه إلى عمر ، فسيدنا عمر استدعى جبلة ، دار حوار بينهما ، صاغه شاعر معاصر صياغة رائعة ، فقال سيدنا عمر لجبلة : أصحيح ما ادعى هذا الفزاري الجريح ؟ فقال جبلة : لست ممن ينكر شيا ، أنا أدبت الفتى أدركت حقي بيديا ، قال : ارض الفتى لا بد من إرضائه ، ما زال ظفرك عالقاً بدمائه ، أو يهشمن الآن أنفك ، وتنال ما فعلته كفك ، قال : كيف ذاك يا أمير ؟ هو سوقة وأنا عرش وتاج ! كيف ترضى أن يخر النجم أرضاً ؟ قال له عمر : نزوات الجاهلية ورياح العنجهية قد دفناها ، أقمنا فوقها صرحاً جديداً ، وتساوى الناس أحراراً لدينا وعبيداً ، فقال جبلة : كان وهماً ما كان في خلدي أنني عندك أقوى وأعز ، أنا مرتد إذا أكرهتني ، فقال عمر : عالم نبنيه كل صدع فيه يداوى، وأعز الناس بالعبد بالصعلوك تساوى .

هذا عصر مبادئ ، والمبادئ لا الأشخاص ، والمبادئ فوق الأشخاص ، وكلما تقدمت الأمة عظمت المبادئ وصغر الأشخاص ، وكلما تخلفت الأمة كبر الشخص وصغر المبدأ ، هذه أيضاً قاعدة ذهبية من قواعد الدعوة إلى الله .

الأستاذ جميل :

التبعية للمبدأ وليس للشخص .

4 ـ المضامين لا العناوين :

الدكتور راتب :

هناك شيء آخر : هو المضامين لا العناوين ، نحن ألفنا أن نقسم الأشخاص إلى جماعات إسلامية ، فلابدّ أن نعرف فلاناً ينتمي إلى من ؟ هذه العقلية المتخلفة ، أنا يهمني من هذا الذي أمامي عقيدته السليمة ، سلوكه المستقيم ، ولا يعنيني إلى أية جماعة ينضم ، هذا التقسيم على أساس جماعات إسلامية، والانتماء إلى الجماعات الإسلامية دون الانتماء إلى مجموع المؤمنين يعد خطأ فادحاً ، بل إنني أقول : ما لم يكن انتماؤك إلى مجموع المؤمنين فلست مؤمناً ، لقوله تعالى :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

(سورة الحجرات الآية : 10)

فنحن نريد المضامين ، فأنت أيها الإنسان ما مضمونك ؟ هل صحت عقيدتك ؟ أنت على العين والرأس، إلى أي جماعة تنتمي ؟ أنا أنتمي إلى مجموع المؤمنين ، أنا لا أنتمي إلى فقاعة صغيرة تقيم عداوة مع فقاعة أخرى ، أنا أنتمي إلى مجموع المؤمنين ، إلى مجموع المسلمين ، هذا الانتماء الذي يرضي الله عز وجل ، بل إن انتماء آخر يشرفنا جميعاً أن ننتمي إلى البشرية جمعاء ، فالإنسان أخو الإنسان ، وكلما ارتقى الإنسان اتسعت دائرة اهتمامه ، وكلما ارتقى الإنسان تعامل مع الآخر كأخيه ، والذي لا يغيب عن الذهن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

((لا يُؤمِنُ أحدُكُمْ حتَّى يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنفسه))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أنس بن مالك]

طبعاً هذا الحديث فسره العلماء بأوسع معانيه : الأخوة الإنسانية .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - الإسلام منهج حياة - الدرس (22-30) : علاقة الإنسان بالشأن العام 8 ، قواعد وأسس الدعوة إلى الله 2

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-09-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ جميل :

مازال الحديث عن قواعد وأسس الدعوة إلى الله عز وجل متابعة لهذا العنوان الكبير ، هل لكم أن تحدثونا عن هذه القواعد والأسس ؟.

أية دعوة إلى الله ينبغي أن تتجه إلى عقل الإنسان بالعلم وإلى قلبه بالحب :

الدكتور راتب :

إن شاء الله تعالى ، أولاً : بما أن الإنسان عقل يدرك ، وقلب يحب ، وجسم يتحرك ، وغذاء العقل العلم، وغذاء القلب الحب ، وغذاء الجسم الطعام والشراب ، والإنسان حينما يلبي هذه الحاجات الثلاث معاً يتفوق ، أما إذا لبى حاجة واحدة يتطرف ، وفرق كبير بين التطرف وبين التفوق ، الآن ما دام الإنسان بعيداً عن جسمه ، عقل يدرك ، وقلب يحب ، أية دعوة إلى الله ناجحة ينبغي أن تتجه إلى عقل الإنسان بالعلم ، وإلى قلبه بالحب ، وأية دعوة تكتفي بالعقل دعوة عرجاء ، وأية دعوة تكتفي بالقلب دعوة عرجاء ، لأن الله سبحانه وتعالى خاطب القلب والعقل معاً ، خاطب العقل في آيات كثيرة ، وخاطب القلب في آيات كثيرة ، وفي آية خاطب العقل والقلب معاً قال :

(أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)

(سورة الانفطار الآية : 6)

يخاطب القلب يستثيره .

(الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ)

(سورة الانفطار)

يخاطب العقل .

العلم العميق المؤصل والحب الصادق أصل كبير من أصول الدين :

أنا أرى أن الداعية ينبغي أن يتجه إلى عقول الناس بالعلم العميق المؤصل ، وإلى قلوب أخوته الكرام بالحب الصادق ، الذي هو أصل كبير من أصول الدين ، ذلك أن في الإنسان خطوطاً أربعة ، وكأن الحق دائرة تجمع تلك الخطوط ، خط النقل الصحيح ، وخط العقل الصريح ، وخط الفطرة السليمة ، وخط الواقع الموضوعي ، فأي شيء جاء به وحي السماء ؟ طبعاً الصحيح ، بتأويل صحيح وحي السماء ، فالحق ما قبله العقل الصريح غير التبريري ، وارتاحت إليه الفطرة السليمة غير المنطمسة ، وأكده الواقع الموضوعي غير المزور ، أي خط النقل الصحيح ، مع خط العقل الصريح ، مع خط الفطرة السليمة ، مع خط الواقع الموضوعي ، هذه أربعة خطوط تجتمع في دائرة الحق ، فإذا بحثث عن الحقيقة شيء يتوافق مع العقل ، والنقل ، والعاطفة ، والواقع ، لأن العقل مقياس أودعه الله فينا ، ولأن الفطرة مقياس أخلاقي أودعه الله فينا ، ولأن الوحي كلامه وشرحه المعصوم ، ولأن الواقع خلقه، فإذا عادت الفروع الأربعة إلى أصل واحد فهي فيما بينها متساوية .

لذلك لا يعقل ولا يقبل أن يتناقض النقل مع العقل ، مستحيل ! .

الدعوة الناجحة إلى الله تخاطب القلب و العقل معاً :

هناك شيء آخر ، أنت حينما تدعو إلى الله على بصيرة أي بالدليل والتعليل ، ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء ، لولا الدليل لفقد الدين ، نحن عندنا أدلة ، ديننا دين أدلة حتى لو أن إنساناً رأى النبي عليه الصلاة والسلام ، وقال له كلاماً يختلف عن حديثه الشريف تُرد الرؤيا ويثبت الحديث ، لأن هذا الدين دين مؤصل ، دين مبادئ ، دين قيم ، دين أدلة ، دين نصوص لا دين أمزجة ، ودين أهواء .

فلذلك لا بد من أن نخاطب العقل بالعلم ، وأن نخاطب القلب بالحب ، أما إذا خاطبنا العقل وحده لم تنجح الدعوة ، أما إذا خاطبنا القلب وحده لم تنجح الدعوة ، ينبغي أن نخاطب العقل والقلب معاً ، لأن الله جلّ جلاله خاطب العقل القلب معاً ، والدعوة إلى الله يجب أن تهتم بهذه القاعدة الثمينة جداً .

العالِم الحق يتسع قلبه للشباب و أسئلتهم :

هناك شيء آخر : إنسان شاب سأل النبي أن يسمح له بالزنا ، طبعاً الصحابة قاموا إليه بهذا التجاوز غير المعقول مع سيد الخلق ، فالنبي الكريم قال : دعوه ، تعال يا عبد الله ، الآن دعونا ندقق كيف خاطبه النبي ؟ قال : له يا هذا أترضاها لأمك ؟ قال : لا ، قال : ولا الناس يرضونه لأمهاتهم ،

أترضاها لأختك ؟ لابنتك ؟ لعمتك ؟ لخالتك ؟ فهذا الشاب خاطبه النبي عليه الصلاة والسلام بلغة المنطق ، وفي الوقت نفسه خاطبه بلغة القلب ، أترضاه لأمك ؟ يخاطب قلبه ، مبادئه ، قيمه ، قال : لا، فهذا الشاب قال : والله دخلت على رسول الله وما شيء أحب إليّ من الزنا ، وخرجت من عنده وما شيء أبغض إليّ من الزنا .

معنى ذلك أنه على الداعية أن يخاطب الشباب ، أي يقبل أسئلتهم غير المعقولة ، أن يتسع صدرهم لهم، أن يحملهم على ما يحبون .

أبو حنيفة النعمان له جار مغنٍّ أقلقه لسنوات طويلة ، يغني في الليل ، وله أغنية يحبها كثيراً ، أضاعوني وأي فتىً أضاعوا ، فمرة افتقد صوته قال : لعل مكروهاً أصابه ، سأل عنه فإذا هو في السجن ، فذهب أبو حنيفة النعمان بكيانه الكبير ، ومكانته العلية إلى مدير السجن يشفع له ، فمدير السجن أعطاه هذا المغني ، ثم أركبه خلف دابته ، و قال : يا فتى هل أضعناك ؟ فقال : عهداً لله لن أعود إلى الغناء .

أنا تأثرت من هذه القصة ، أبو حنيفة النعمان قلبه الكبير اتسع لهذا الشاب الذي أقلقه بالغناء ، لو أن الدعاة إلى الله توسعوا بقلوبهم لهؤلاء الشباب ، لهم أسئلة كثيرة ، لهم أسئلة محرجة ، لهم أسئلة تنم عن جهل فاضح ، فالعالم الحق ينبغي أن يتسع لهؤلاء الشباب ولأسئلتهم ، فقال له : ائذن لي بالزنا ، كما يقول إنسان لوزير داخلية مع الفارق الكبير : ائذن لي بقتل إنسان ، مستحيل ! مهمته ضبط الأمن ، قال: ائذن لي بالزنا ، فحاوره النبي حواراً لطيفاً ، علمياً ، وقلبياً .

الأستاذ جميل :

دكتور ، لعل تربية النبي صلى الله عليه وسلم لصحابته الكرام من أكبر قواعد الدعوة إلى الله عز وجل، حيث كان يُعنى بتربيتهم ، وليس التعنيف أو النهر ، هل هي رحمة منه صلى الله عليه وسلم ؟ أو أنه أسلوب يجب أتباعه ؟.

التربية لا التعرية من مبادئ التربية الدعوية :

الدكتور راتب :

رحمة ، وحكمة ، ومنهج ، لأنه الإنسان له كرامته ، أنا أقول دائماً : إن أردت أن تنصح فلتكن نصيحتك بينك وبين المنصوح ، لا أمام ملأ ، لأن هذه ليست نصيحة أمام الملأ ، إنها فضيحة ، فالبطولة أن أنقل له وجهة نظري في هذا الموضوع بيني وبينه .

لذلك من مبادئ التربية الدعوية : التربية لا التعرية ، أحد أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم اسمه حاطب بن بلتعة ، اجتهد اجتهاداً خاطئاً ، أرسل كتاباً لقريش إن محمداً سوف يغزوكم فخذوا حذركم ، جاء الوحي للنبي وأخبره بما فعل حاطب ، فأرسل النبي من يأخذ هذا الكتاب من المرأة التي تحمله ، واستدعى حاطباً ، قال : ما هذا يا حاطب ؟ سيدنا عمر يغلي كالمرجل قال له : ائذن لي يا رسول الله أن أضرب عنق هذا المنافق ، قال له : لا يا عمر إنه شهد بدراً ، انظر إلى وفائه صلى الله عليه وسلم ، قال : تعال يا حاطب لمَ فعلت هذا ؟ قال له : والله يا رسول الله ما كفرت ولا ارتددت ، ولكن لي مال وأهل في مكة ، أردت أن أحفظ مالي وأهلي بهذه الطريقة ، وأنا موقن بنصرك ، فقال النبي الكريم ببساطة ما بعدها بساطة : إني صدقته فصدقوه ، ولا تقولوا فيه إلا خيراً .

الأستاذ جميل :

مع أنها في كل القوانين خيانة.

الدكتور راتب :

طبعا لكن هذه نبوة ، هو صدقه لأنه كان صادقاً ، هذا الذي حصل ، قال : ما كفرت ولا ارتددت لكن اجتهدت ولعلي أخطأت ، فاغفر لي ذلك يا رسول الله .

فلذلك نحن نريد أن نربي لا أن نعري .

الداعية الناجح يوازن بين الترغيب و الترهيب في دعوته إلى الله عز وجل :

مثلاً ينبغي أن تزاوج بين الترغيب والترهيب ، مثلاً عندنا بسورة مقطعين :

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ)

(سورة الحاقة)

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ)

(سورة الحاقة الآية : 25)

القرآن ذكر نموذجين ، فما بال بعض الدعاة يتحدثون عن النار فقط ؟ حدثهم عن الجنة والنار ، رغبهم ورهبهم ، أما تكتفي بالترهيب هذا خطأ كبير ، وأن تكتفي في الترغيب هذا خطأ كبير ، لا بد من التوازن بين الترغيب وبين الترهيب .

شيء آخر : التيسير لا التعسير ، مرة رجل دخل الإسلام و هو فرنسي الأصل وتتلمذ على يد شيخ أزهري أبقاه ستة أشهر في أحكام المياه حتى خرج من جلده ، فترك الإسلام ، التقى بالإمام محمد عبدو فقال له : كلمة واحدة ، قال له : الماء الذي تشربه توضأ منه ، فأنا من أنصار التسهيل .

التيسير لا التعسير :

لذلك الإسلام الآن يحتاج إلى أشياء ثلاثة ، يحتاج إلى عقلنة ، لأن العقل أصل في الدين ، ويحتاج إلى تطبيق ، ويحتاج إلى تبسيط ، المسائل العويصة التي لا تقع في مليون عام لا داعي للبحث فيها ، أرأيت إن كنت كذا وكذا ، الفقهاء كانوا في فراغ كبير ، وكانوا على ثقافة عالية جداً ، فأمضوا أوقات مديدة فيما يسمى أرأيتيات ، هذه القضايا لا تقع ولا في مليون عام مرة ، فلو حذفنا هذه القضايا الشائكة المعقدة التي لا تقع ، وأبقينا على الأمور الواضحة الميسرة ، أنا من أنصار تبسيط الدين لأنه كالهواء ، هواء يحتاجه الناس جميعاً ، ينبغي أن يكون مبسطاً ، وواضحاً ، ومدللاً عليه بالأدلة الصحيحة .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - الإسلام منهج حياة - الدرس (23-30) : علاقة الإنسان بعمله 1 ، خصائص الاقتصاد الإسلامي

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-09-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ جميل :

دكتور تدخل الشرع الحنيف في العمل وآلياته ، وحدد له طرقاً سليمة ، وأمره بها، وسنتكلم لاحقاً في هذه العناوين ، ولكن بداية ما هي خصائص الاقتصاد الإسلامي ؟.

المحطات الأساسية في حياة الإنسان :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

قبل أن أجيب عن هذا السؤال ، أريد أن أذكر الأخوة المشاهدين بأننا دخلنا في المحطة السادسة ، ذلك أن هذا البرنامج ينطلق من محطات أساسية في حياة الإنسان ، محطة علاقته مع الله ، ومحطة علاقته مع أهل بيته وأولاده ، ومحطة علاقته مع من حوله من الناس ، ومحطة علاقته بالشأن العام الدولي ، ومحطة الدعوة إلى الله ، لأن الدعوة إلى الله كما بينا فرض عين على كل مسلم ، والآن دخلنا في محطة العمل ، الإنسان له عمل يرتزق منه ، وسوف تلي محطة سابعة هي محطة العناية بالصحة ، فنحن في المحطة السادسة محطة العمل الذي يرتزق الإنسان منه .

من خصائص الاقتصاد الإسلامي أن المال مال الله و الإنسان مستخلف فيه :

الآن الإجابة عن سؤالك اللطيف : الاقتصاد الإسلامي له خصائص ، أولى خصائصه أن المال مال الله، وأن الإنسان مستخلف فيه ، أي يده عليه يد الأمانة ، ومحاسب عن طريقة كسبه ، وعن طريقة إنفاقه ، والاقتصاد الإسلامي يؤكد أن المال مهمته تقييم السلع وأداة للتبادل التجاري ، ممنوع أن نتاجر بالمال ، المال قيمة وليس سلعة .

الاقتصاد الإسلامي قائم على الرقابة الذاتية :

الشيء الآخر أن الاقتصاد الإسلامي جزء من الإسلام ، أي العمل الصالح جزء من حياة المؤمن ، والعمل الصالح جزء من الاقتصاد الإسلامي ، مبادئ الإسلام ، قيم الإسلام، مطبقة في هذا الاقتصاد ، والاقتصاد الإسلامي تعبدي بمعنى أن الحرفة الذي يحترفها الإنسان والتي يرتزق منها إذا كانت في الأصل مشروعة ، وسلك بها الطرق المشروعة ، وابتغى منها كفاية نفسه، وأهله ، وخدمة الناس ، ولم تشغله عن فريضة أو واجب ديني ، انقلبت إلى عبادة ، فالإنسان وهو في متجره ، وهو يستورد البضاعة للمؤمنين، وهو يبحث في حقله عن وسائل تنمية مزروعاته ، هو في عبادة ، لأن العمل الذي يحترفه الإنسان ما دام في الأصل مشروعاً وسلك به الطرق المشروعة ، وابتغى منه كفاية أهله ، ونفسه ، وخدمة الناس ، ولم يشغله عن واجب ديني أو فرض ، انقلب إلى عبادة ، لذلك قالوا: عادات المؤمن عبادات ، وعبادات المنافق سيئات ، والاقتصاد الإسلامي قائم على الرقابة الذاتية ، لأنه مهما كان الإنسان قوياً لا يستطيع أن يراقب كل شيء .

التوازن بين المصلحة الفردية والجماعية في النظام الاقتصادي الإسلامي :

الإسلام عظمته أنه مبني على الوازع الداخلي :

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد الآية 4)

لا تخفى عليه خافية ، وفي النظام الاقتصادي أيضاً توازن بين المصلحة الفردية والجماعية ، فهناك مذاهب في الأرض اعتقدت أن الفرد هو كل شيء وسحقت المجموع ، وهناك مذاهب أخرى اقتصادية اعتقدت أن المجموع هي كل شيء وسحقت الفرد ، أما هذا الإسلام المتوازن الوسطي انسجمت فيه المصلحة الفردية مع المصلحة الجماعية .

الاقتصاد الإسلامي وازن بين الروح و المادة :

شيء آخر : هذا الاقتصاد وازن بين الروح والمادة ، أنت حينما تقرض قرضاً حسناً ، أنت ابتغيت وجه الله ، هذا عمل من أعمالك الصالحة ، ففي الاقتصاد الإسلامي عمل صالح ، كأن هذا الاقتصاد عدّ المال مال الله والإنسان مستخلف فيه ، والمال ليست سلعة يتاجر بها ، وهذا الاقتصاد مرتبط بمبادئ الدين وقيمه أشد الارتباط ، وهذا اقتصاد تعبدي ، حرفتك أحد أنواع عبادتك ، وهذا الاقتصاد رقابته ذاتية ، وأعظم ما فيه أنه يعامل الله عز وجل ، ولا يمنع أن يكون هناك رقابة من الدولة ، وهذا

الاقتصاد وازن بين المصلحة الفردية والمصلحة الجماعية ، ووازن بين المادة والروح ، وهذا الاقتصاد أخلاقي بمعنى أن التاجر المسلم عنده سماحة ، وعنده رحمة ، وعنده لطف ، هذه القيم الأخلاقية هي التي نشرت الإسلام في إندونيسيا ، وهي الآن أكبر دولة إسلامية ، فهذه خصائص الاقتصاد الإسلامي .

الأستاذ جميل :

نعم ، دكتور ، إذاً ما هي القواعد الاقتصادية والضوابط الشرعية التي تحكم الاقتصاد بشكل عام والتجارة بشكل خاص ؟.

القواعد الاقتصادية والضوابط الشرعية التي تحكم الاقتصاد الإسلامي :

1 ـ النظام الإسلامي يؤمن بالمشاركة في المخاطر والمكاسب :

الدكتور راتب :

الحقيقة هذه القواعد دقيقة جداً ، الآن الحديث عن الاقتصاد الإسلامي حديث العالم كله ، بعد انهيار النظام المالي الغربي ، وجدوا أن النظام الإسلامي منيع عن أن ينهار ، السبب بحثوا في خصائصه وفي قواعده ، القاعدة الأولى هذا النظام يؤمن بالمشاركة في المخاطر والمكاسب ، لا يوجد إنسان يعمل قرضاً ربوياً ، فماله محفوظ مع الفوائد ، والثاني تدمر ، هناك مشاركة ، القرض الربوي ممنوع ، لأن أصل هذا النظام مشاركة في المكاسب والمخاطر .

2 ـ النظام الإسلامي يؤمن بالملكية الخاصة مع احترام الملكية الجماعية :

هناك شيء ثان : يؤمن بالملكية الخاصة هذا النظام ، الملكية الخاصة عنده محترمة ، تقف عندها ، فإذا تحولت هذه الملكية إلى إيذاء للآخرين تتوقف ، أي ملكية خاصة مع الحرية لكن ممنوع أن تحتكر ، ممنوع أن تسلك سلوكاً فيه عدوان على الآخرين ، بأن الغش حرام ، تلقي الركبان حرام .

3 ـ النظام الإسلامي يقوم على عدم تجمع المال بأيد قليلة :

هذا النظام معه نظام المواريث ، والمواريث توزع الثروة بين أكبر شريحة من الورثة ، فكلما تجمعت الأموال في أيد قليلة وزعت عن طريق المواريث إلى كثرةٍ كثيرة ، وهذا يمنع تجمع المال بأيد قليلة .

4 ـ النظام الإسلامي مبني على الصدقات والأوقاف :

هذا النظام مبني على الصدقات والأوقاف ، وهذا نوع من التكافل الاجتماعي فالصدقات والأوقاف تحقق التكافل الاجتماعي ، ونظام المواريث يجمع الأموال في أيد كثيرة بعد أن كان في أيد قليلة ، والنظام الاقتصادي دقيق جداً أنه يؤمن في الملكية الخاصة والجماعية ويوازن بينهما ، لكن أهم شيء في هذا الاقتصاد المشاركة في المكاسب وفي المخاطر ، أما النظام الربوي طرف آمن ، وطرف خاسر.

الأستاذ جميل :

دكتور ، ما هي المحرمات و ما هي الممنوعات في الاقتصاد بشكل عام والتعامل مع الناس من أصغر الأسواق إلى أسواق المال و الأعمال ؟.

المحظورات في الاقتصاد الإسلامي :

الدكتور راتب :

الحقيقة هذا النظام الآن موضع دراسة عميقة وجادة من مجلس الشيوخ الفرنسي والفاتيكان ، وهو يرى أنه على الرغم من تحريم الربا كلياً ، وتحريم الاحتكار ، وتحريم الاتجار بالقروض ، أكبر بنك ، عمره مئة و خمسة و خمسون عاماً أفلس على سبعمئة مليار، هذا البنك اختصاصه بالمتاجرة بالقروض ، وعندنا بالإسلام ممنوع أن تتاجر بالقرض ، أي تحريم بيع ما لا يملكه الإنسان .

((لا تَبعْ ما لَيْسَ عندك))

[أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي عن حكيم بن حزام]

البورصة تتناقض مع هذا .

شيء آخر : تحريم بيع الغرر ، أي إذا كانت البضاعة غير واضحة فممنوع المتاجرة بها .

شيء أخير : تحريم الاتجار بالمحرمات ، كل ما يتعلق بالخمر والزنا ، هناك تحريم قطعي في الاتجار به ، فمن تحريم الربا ، إلى تحريم الاحتكار ، إلى تحريم الاتجار بالقروض ، إلى تحريم بيع ما لا يملكه الفرد ، إلى تحريم بيع الغرر ، إلى تحريم الاتجار في المحرمات ، هذه المحظورات في الاقتصاد الإسلامي .

الأستاذ جميل :

دكتور في الفقه الإسلامي باب المعاملات ، هناك أنواع كثيرة في عمليات التبادل، والبيع ، والشراء ، قد تكون عناوينها تراثية قديمة ، ولكنها معاملة ومضمونها يتعامل به التبادلات التجارية ، ما هي

الأدوات الاستثمارية ؟.

أهم وسائل الاستثمار في النظام الإسلامي المضاربة والمرابحة والمشاركة والإجارة :

الدكتور راتب :

أنا لا أصدق أن حاجة ملحة يحتاجها الإنسان يغفلها الشرع ، فهناك حاجة أساسية جداً من الاستثمار ، أي رجل متقاعد معه مبلغ من المال ، إنسان لا يحسن التجارة ، طفل ورث عن أبيه مالاً ، فهناك حاجة أساسية في العالم كله إلى الاستثمار ، لأن الإسلام حرم الربا ، حرم الاستثمار عن طريق الفائدة الثابتة، ما البديل ؟ المضاربة ، النبي الكريم تاجر بمال السيدة خديجة ، هو مضارب وهي ممولة ، فالمضاربة من أحل طرق الاستثمار ، أي العبء مشترك ، والأرباح مشتركة ، فالذي قدم المال له نصف الأرباح تقريباً ، والذي قدم الجهد له نصف الأرباح ، فهناك مشاركة بالأعباء ، وبالمكاسب ، والمضاربة هي الطريق الرائع لاستثمار المال ، لكن بعض المسلمين حينما أساؤوا ، حينما جمعوا الأموال ، ولم يؤدوها إلى أصحابها ، هم ارتكبوا جريمة بحق هذا الدين العظيم ، لأنهم عطلوا القناة النظيفة الرائعة للاستثمار، وجاء البديل هو الاستثمار الربوي .

فالمضاربة أحد أهم وسائل الاستثمار في النظام الإسلامي ، والمرابحة أيضاً والآن تعتمدها البنوك الإسلامية ، والمشاركة ، الشركات ، ثم الإجارة ، ثم بيع السهم ، فهذه كلها وسائل الاستثمار ، وأنا أقول دائماً : لا يعقل أن يكون منهج الله إلا ويلبي حاجات كل البشر إلى نهاية الحياة ، أما الوهم الفاضح أن الإسلام ليس فيه نظام اقتصادي ، بالعكس ، هو قدم دقائق في نظام الاقتصاد مذهلة ، والآن هو صامد أمام كل الأزمات المالية ، لأنه من عند خالق الكون ، من عند الخبير ، من عند العليم .

فنحن إلى الآن هذه الأزمة الطاحنة تأثر بها المسلمون تأثراً طفيفاً ، بسبب علاقتهم بالمصارف الأجنبية، فهذا كله من فضائل هذا الدين العظيم ، وهذا المنهج الإسلامي منهج كامل ، الإسلام قدم تصوراً صحيحاً للكون والحياة والإنسان ، قدم لك منهجاً تفصيلياً لكل شؤون حياتك .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - الإسلام منهج حياة - الدرس (24-30) : علاقة الإنسان بعمله 2 ، لماذا صنف الفقهاء بحث الزكاة وعدوه في العبادات وليس المعاملات ؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-09-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ جميل :

دكتور كان للزكاة الدور الأكبر في النظام المالي الإسلامي ولا يزال ، والزكاة هي قدر من المال يخرجه الغني من مصارفه ، سؤالي : لماذا صنف الفقهاء بحث الزكاة وعدوه في العبادات وليس في المعاملات ؟.

الزكاة أحد أكبر أسس النظام المالي الإسلامي :

الدكتور راتب :

الزكاة عبادة مالية ، لأن الله عز وجل جعل الزكاة أحد أكبر أسس النظام المالي الإسلامي ، والزكاة تنطلق من الضمان الاجتماعي ، لأنه حينما توزع الأموال بأيدٍ قليلة وتحرم منها الكثرة الكثيرة ، تنشأ مشكلات لا تنتهي في المجتمع ، فمن أجل ضمانة سلامة كل شرائح المجتمع فرض الله في الأغنياء ما يسع الفقراء ، فلذلك هي عبادة كالصلاة ، والصيام ، والحج ، لكن الصلاة عبادة بدنية ، والحج عبادة بدنية مالية ، والزكاة عبادة مالية ، فالزكاة عبادة مالية وهي أصل للاقتصاد الإسلامي .

لذلك نحن في المحطة السادسة ، محطة العمل الذي نرتزق منه ، والزكاة جزء أساسي من نظام الإسلام في العمل .

الأستاذ جميل :

دكتور ، هل هناك آية في كتاب الله عز وجل تعد أصلاً في الزكاة ؟.

الآية التالية تعد أصلاً في الزكاة :

الدكتور راتب :

الآيات كثيرة جداً ، إلا أن هناك آية تعد كما تفضلت أصلاً في هذا الموضوع ، والآية هي قوله تعالى :

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)

(سورة التوبة الآية : 103)

الحقيقة وقف العلماء عند هذه الآية تفصيلاً عند كلماتها كلمةً كلمة ، فكلمة

(خُذْ)

هذا أمر موجه إلى رسول الله ، إلا أن الملمح الدقيق أن هذا الأمر وجه إلى النبي الكريم لا على أنه نبي الأمة ولكن على أنه ولي الأمر ، فهذه الزكاة يجب أن تؤخذ لا أن تؤدى طواعية ، تؤخذ من كل مؤمن على أنها فريضة واجبة من أجل أن نقدم للفقراء ما يحتاجونه ، إذاً هي فريضة على الإنسان أن يدفعها شاء أم أبى ، أحب أم كره ، ليست عملاً تطوعياً اختيارياً ، كلمة فريضة فيها إلزام .

الله عز وجل جعل الزكاة فرضاً عينياً على كل إنسان مسلم ملك النصاب :

بالمناسبة : نحن عندنا في الإسلام فرائض ، وعندنا محرمات ، وعندنا سنن ، و عندنا مستحبات ، وعندنا مباحات ، وعندنا مكروهات كراهة تنزيهية ، وعندنا مكروهات كراهة تحريمية ، فما من حركة ولا سكنة في حياتنا إلا وهناك حكم شرعي يغطيها ، فكلمة فرض أصل في سعادتنا ، أنت حينما تنفق من مالك الحلال الذي كسبته بجهدك وبعرق جبينك، وحينما ترى أن هذا المال حلّ مشكلات من حولك، تسعد بهذا العمل .

فجزء من طاعتك لله ، وجزء من أسباب إقبالك عليه ، أن تنفق من مالك ، لكن الله عز وجل لئلا يكون الفقراء تحت رحمة الأغنياء ، يعطون أو لا يعطون ، فجعل الزكاة فرضاً عينياً على كل إنسان مسلم ملك النصاب .

الزكاة تجب في كل الأموال من دون استثناء :

كلمة

(خُذْ)

لا بد من أن تؤخذ الزكاة من المؤمنين بحسب أنصبة أموالهم ، لكن الله عز وجل حينما قال :

(خُذْ مِنْ)

ماذا تعني كلمة

(مِنْ)

؟ تعني كلمة من أنها للتبعيض ، أي خذ بعض أموالهم ، الشرع الحنيف حكيم ورحيم ، لم يصادر المال كله ، لم يأخذ المال كله ، لم يأخذ نصف المال ، لم يأخذ ربع المال ، أخذ نسبة ضئيلة جداً من المال ، فهذا ما تعنيه كلمة

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

أما كلمة أموال جاءت جمعاً ، لأن الزكاة تجب في كل الأموال من دون استثناء ، أي هناك زكاة للإنتاج الزراعي ، وهناك زكاة للبضاعة والتجارة ، وهناك زكاة للصناعة ، وهناك زكاة للركاز ، بحوث الفقه ممتلئة بتفاصيل أنواع الأموال التي تجب بها الزكاة ، لكن الآية الكريمة لخصتها بصيغة الجمع ،

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

فأي مال لا بد من أن تكون فيه أي زكاة .

مرة سألني إنسان : هل على العسل زكاة ؟ قلت : نعم ، قال لي : وماذا نفعل إن لم ندفع ؟ ما الذي يحصل ؟ القضية سهلة جداً ، عندنا حشرة اسمها قراض النحل ، تسلط على هذه الخلايا فتتلفها ، فإما أن تدفع ، وإما قراض النحل جاهز .

الله عز وجل أرادنا أن نكون كرماء ، وأسخياء ، إلا أن الزكاة فرض ، لا يوجد خيار ، لابدّ من أن تدفع زكاة مالك .

المحروم صاحب الكرامة والعزة يسكت ولا يسأل فيحرم فالبطولة أن تبحث أنت عنه :

لذلك قال تعالى :

(وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ)

(سورة المعارج)

لابدّ من جرد البضاعة ، لابدّ من حساب ثمن هذه البضاعة ، لابدّ من دفع الزكاة بحساب دقيق .

(وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

(سورة الذاريات)

من هو السائل ؟ الذي يلح ، والمحروم صاحب الكرامة والعزة يسكت ولا يسأل فيحرم .

لذلك أستاذ جميل ، لي رأي دقيق جداً ، حينما أخبرنا الله عز وجل أن الذي يستحق الزكاة هو الذي لا يسأل ، نشأ من هذا التوضيح واجب على كل مؤمن ، أن يبحث عن المستحق حقيقة ، يوجد بحث ، فالذي يسألك يكون كاذباً ، الذي يسألك قد يكون ملحاً ، أما الذي يستحق الزكاة حقيقة لا يسألك ، وقد يبدو كريماً ، يبدو أنيقاً ، قد يكون محتاجاً إلى المال فالبطولة أن تبحث أنت عنه .

الزكاة تؤكد صدق إيمانك بالله عز وجل وصدق طاعتك له و صدق محبتك له :

لذلك

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

الآن هم ، هذا ضمير الجمع ، أي لا يعفى أحد من الزكاة ، لا يعفى مال من أداء الزكاة ، لا يعفى أحد من دفع الزكاة ، أحياناً بالأنظمة الراهنة تطوى الضريبة عن زيد ، تطوى عن عبيد ، نحن بالإسلام الناس جميع سواسية كأسنان المشط ، لا تطوى الزكاة عن إنسان ، والدليل :

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

جمع المال كي تغطي كل الأموال ، زراعة ، صناعة ، تجارة ، ركاز ، ثروات ، أما هم تشمل كل الناس من دون استثناء ،

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ)

لكن

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً)

كأن الآية عن الزكاة ، فلماذا وصفت هنا بالصدقة ؟ قال : الصدقة برهان ، هناك عبادات لا تكلفنا شيئاً، تتوضأ وتصلي ، أما هناك عبادة مالية تكلفك مالاً جنيته بتعبك وعرقك ، وها أنت تنفقه في سبيل الله، فهذه العبادة تؤكد صدق إيمانك بالله عز وجل ، تؤكد صدق طاعتك لله ، تؤكد صدق محبتك لله ، فالصدقة برهان ، فجاءت هنا كلمة الصدقة مكان الزكاة كي تبين أن الذي يدفع زكاة ماله يحب الله ، ويحب طاعته ، ويتمنى رضاه .

لذلك النبي الكريم أعطانا مقاييس ، قال :

((برئ من الشح من أدى زكاة ماله))

[أخرجه الطبراني عن جابر بن عبد الله]

ممنوع أن تصف إنساناً أنه شحيح وقد أدى زكاة ماله .

((برئ من الشح من أدى زكاة ماله))

وبرئ من الكبر من حمل حاجته بيده ، وصاحب الحاجة أولى بحملها ، وبرئ من النفاق من أكثر من ذكر الله .

الزكاة تطهر الغني من الشح والفقير من الحقد :

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً)

خذ لها معنى ، من لها معنى ، جمع مال لها معنى ، صدقة لها معنى ،

(تُطَهِّرُهُمْ)

هذا المال الذي ينفقه الإنسان يطهر نفسه من الشح ، الشح مرض خطير ، نحن كيف نقول الورم الخبيث مميت ؟ والله لا أبالغ إذا كان هناك مرض خبيث يصيب النفس فهو الشح ، فالذي دفع زكاة ماله طهر نفسه من مرض الشح

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ)

أي تطهر نفوسهم من مرض الشح .

الآن تطهر الغني من الشح ، تطهر الفقير من الحقد ، الفقير المحروم يرى الأغنياء يركبون مركبات فارهة ، يلبسون ثياباً فاخرة جداً ، بيوتهم عامرة ، يدعون إلى ولائم غالية جداً ، فيحقد ، أما حينما تأتيه الزكاة يرى نفسه مهماً في المجتمع ، أن نظام المجتمع يرعى مصالحه ، ويوفر له حاجاته الأساسية ، فهذا الفقير بدل أن يحقد يحب الغني ، بل لن يحدث نفسه بأخذ بعض الأموال ، بل يكون حارساً لها ،

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ)

تطهر نفس الغني من الشح ، ونفس الفقير من الحقد ، وتطهر المال من حق تعلق الغير به ، الحجر المغصوب في بناء رهن في خرابه ، فإذا كان هذا المال فيه مال حرام ، أي هناك مال لم تؤدَ زكاته قد يتلف المال كله ، إذاً تطهرهم من الشح للأغنياء والحقد للفقراء ، وتعلق حق الغير به .

الزكاة تزكي نفس الغني و الفقير :

الآن :

(وَتُزَكِّيهِمْ)

تزكي نفس الغني ، يرى ماله أصبح ابتسامة على وجوه الصغار ، يرى ماله جعل من هؤلاء الفقراء حراساً له ، يرى أن هؤلاء الفقراء دانوا له بالولاء ، فزكت نفس الغني ، وزكت نفس الفقير ، شعر بقيمته في المجتمع ، والمال يزداد ، يزداد بطرائق عديدة ، يزداد بنظام الزكاة نفسه ، أنت حينما تقدم هذا المال للفقراء جعلته قوة شرائية ، اشتروا منك فازدادت أرباحك ، ومبيعاتك ، فهذا المال ينمو بآلية محضة ، وينمو بعناية الله ، ينمو بإحدى طريقتين ؛ بآلية مالية محضة ، وينمو بعناية الله :

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)

الأستاذ جميل :

دكتور ، في عجالة ما هي الثمار التي يجنيها دافع الزكاة ؟ بمعنى هو يدفع والمال ينقص بنظرة

الحرص ماذا يستفيد من ذلك ؟ .

الثمار التي يجنيها دافع الزكاة :

الدكتور راتب :

هناك بعض الأحاديث :

((ما تلف مال في بر ولا بحر إلا بحبس الزكاة))

[أخرجه الطبراني عن أبي هريرة]

وفي حديث آخر :

((حصنوا أموالكم بالزكاة))

[أخرجه الطبراني عن عبد الله بن مسعود]

فالثمرة دنيوية ، وأن المال محصن ، ولا يتلف .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - الإسلام منهج حياة - الدرس (25-30) : علاقة الإنسان بعمله 3، لماذا الوقت هو أهم عامل من عوامل إثراء الاقتصاد ؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-09-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ جميل :

دكتور ، الوقت هو وعاء العمل ، ومحطتنا التي نتحدث فيها هي الاقتصاد ، العمل ، الزكاة ، والوقت هو أهم عامل من عوامل الاقتصاد ، لماذا ؟.

الوقت أثمن شيء يملكه الإنسان :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

أستاذ جميل ، هل تصدق أن خالق السماوات والأرض أقسم بعمر النبي ؟ والعمر زمن ، هذا الإنسان الذي استفاد من حياته دقيقة دقيقة ، وجعلها في خدمة الخلق ، وفي إسعادهم ، وفي حثهم على طرق سلامتهم ، فلذلك قال تعالى :

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

(سورة الحجر)

أقسم الله بعمر هذا الإنسان ، فالعمر له خطورة كبيرة في حياة الإنسان ، فالإنسان وقت .

ما من تعريف جامع مانع للإنسان كتعريف الإمام الجليل الحسن البصري قال : " الإنسان بضعة أيام ، كلما انقضى يوم انقضى بضع منه ، وما من يوم ينشق فجره إلا وينادي : يا بن آدم أنا يوم جديد ، وعلى عملك شهيد ، فتزود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة ".

فالوقت أثمن ما يملكه الإنسان ، أو رأسمال الإنسان ، أو هو الإنسان ، فلذلك الوقت وإدارته في الحقيقة إدارة للإنسان ، إدارة لذاته ، إدارة لدينه ، إدارة لعلمه ، من هنا تأتي خطورة الوقت في حياة الإنسان .

لكن سيدنا علي رضي الله عنه يقول : " الله لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً " ، أنا يقيني قبل كشف الغطاء كيقيني بعد كشف الغطاء .

وله قول آخر : " والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي "، فالوقت هو الإنسان أو هو رأسماله ، أو هو أثمن شيء يملكه .

الأستاذ جميل :

دكتور ، هل هناك نص قرآني صريح لحديثنا عن الوقت ؟.

سورة العصر نص قرآني صريح عن الوقت وأهميته :

الدكتور راتب :

والله سورة العصر هي النص الأول في القرآن الكريم ، فالله جلّ جلاله يقسم بمطلق الزمن ، بالعصر فيقول :

(وَالْعَصْرِ)

جواب القسم :

(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ)

(سورة العصر)

الإنسان بجواب القسم خاسر لا محال ، لماذا يا رب ؟ قال : لأن مضي الزمن يستهلكه ، مضي الزمن وحده يستهلكنا .

ما لم يصبر الإنسان في البحث عن الحقيقة والعمل وفقها والدعوة إليها فهو خاسر لا محالة :

لذلك الإنسان خاسر لأنه بضعة أيام ، كلما انقضى يوم انقضى بضع منه ، ولكن الله جلّ جلاله كانت رحمته في كلمة إلا ، هناك استثناء :

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا)

ما بعد إلا أركان النجاة من الخسارة .

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

(سورة العصر)

هؤلاء أنفقوا وقتهم إنفاقاً استثمارياً ، ولم ينفقوا وقتهم إنفاقاً استهلاكياً ، معظم الناس اليوم ينفقون أوقاتهم إنفاقاً استهلاكياً ، يأكلون ، ويشربون ، ويتمتعون ، ثم يفاجؤون بالموت وزادهم في الآخرة قليل، أما المؤمن عمل في الوقت الذي سينقضي عملاً ينفعه بعد انقضاء الوقت ، هذه نقطة دقيقة :

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

أي الذين يبحثون عن الحقيقة ، وعملوا وفقها ، وعملوا الصالحات ، ودعوا إليها، وهذا فرض عين على كل مسلم في الدعوة إلى الله ، في حدود ما يعلم ومع من يعرف

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

صبروا على البحث عنها ، والعمل وفقها ، والدعوة إليها .

هذه السورة ، كان الصحابة الكرام لا يتفرقون إلا على هذه السورة ، وقال عنها الإمام الشافعي : "لو أن الناس استوعبوا هذه السورة لكفتهم "، فلذلك تعد أصلاً من أصول إدارة الوقت .

الأستاذ جميل :

دكتور ذكرتم الإدارة ، ماذا نعني بإدارة الوقت ؟ وكيف الإفادة منها ؟.

إدارة الوقت :

الدكتور راتب :

والله إدارة الوقت تعني فعل الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي ، مرة التقيت مع أحد الأخوة الكرام يحمل دكتوراه في إدارة الأعمال في أمريكا ، حدثته عن هذه الآية :

(أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة الملك)

أقسم لي بالله أن هذه الآية جمعت كل اختصاصه ، المؤمن له هدف واضح يسعى نحوه ، أما غير المؤمن

(يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ)

نسي الآخرة ، نسي ما بعد الموت ، نسي الحساب ، نسي العذاب ، نسي الجنة ، نسي النار ،

(يَمْشِي مُكِبّاً)

فلذلك إدارة الوقت بتعريف آخر تعني : تحديد هدف ، ثم تحقيقه ، أنت تدير وقتك أي عندك أهداف واضحة ، ولها وسائل واضحة ، فتتحرك نحو هذه الأهداف .

لذلك الإنسان حينما يدير وقته بشكل فعال هو في الحقيقة يدير نفسه ، وعبادته ، وعمله ، ودنياه ، إدارة فعالة .

الوقت من أكثر الأشياء هدراً في حياة الدول النامية :

شيء آخر : مع الأسف الشديد الشديد أكثر الأشياء هدراً في حياة الدول النامية الوقت ، الوقت قيمة كبيرة جداً ، لكن هذه القيمة أقل القيم استثماراً ، وأكثرها هدراً ، الحقيقة أن علماء الاقتصاد جمعوا الموارد الاقتصادية فكانت من هذه الموارد المواد الأولية ، والمعلومات ، والأفراد ، والوقت ، عندنا إنسان ، و عندنا وقت ، وعندنا موارد ، وعندنا أعمال ، هذه أربعة موارد للاقتصاد ، الوقت أهمها ، والإنسان ثاني أكبر مورد اقتصادي ، الإنسان نفسه .

فلذلك الوقت مورد نادر لا يمكن استرجاعه ، فما مضى فات ، والمؤمل غيب ، ولك الساعة التي أنت فيها .

الأستاذ جميل :

دكتور ، هل هذه المعاني عالجتها نصوص السنة النبوية أم أنها مصطلحات ومعان محدثة ليس لها تأصيل شرعي ؟.

أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم عن الوقت و أهميته :

الدكتور راتب :

والله هناك أحاديث كثيرة للنبي عليه الصلاة والسلام ، إدارة الوقت تشغل حيزاً كبيراً في ديننا ، مثلاً يقول عليه الصلاة والسلام :

((نعمتان مَغْبُون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ))

[أخرجه البخاري والترمذي عن عبد الله بن عباس]

الذي عنده وقت فراغ ، عنده مشاريع كبيرة جداً ، ويرقى بهذه المشاريع ، بل هناك مقولة معاكسة : الذي ليس عنده وقت فراغ لا يعيش إنسانيته ، فلابدّ من وقت فراغ تمارس به هواياتك .

شيء آخر ، يقول عليه الصلاة والسلام :

((لا تزولُ قدَمَا عبد يومَ القيامة ، حتى يُسألَ عن أربع : عن عُمُره فيما أفناه ؟ وعن عِلْمِهِ ما عمِل به))

[أخرجه الترمذي عن أبي برزة الأسلمي]

لِمَ فعلت كذا ؟ لِمَ طلقت امرأتك طلاقاً تعسفياً ؟ لَمَ أكلت هذا المال ؟ لِمَ أغفلت الحسابات عن شريكك ؟ سوف يحاسب الإنسان حساباً دقيقاً عن المال ، وعن الوقت .

((وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ؟ وعن جسمه فيمَ أبلاه ؟))

[أخرجه الترمذي عن أبي برزة الأسلمي]

السبعون عاماً كيف أمضيتها ؟ في طاعة أم في معصية ؟ هذا حديث أصل في موضوع الوقت ، لكن الحديث الرائع الذي ينبغي أن يكون واضحاً يقول عليه الصلاة والسلام :

((اغتنم خمساً قبل خمس ؛ شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك))

[أخرجه الحاكم عن عبد الله بن عباس]

نحن في إدارة الوقت هذا موضوع يعني كل مسلم ، يعني كل مؤمن ، لأن الوقت هو الإنسان ، هو رأسمال الإنسان ، هو أثمن شيء يملكه الإنسان ، الوقت غلاف العمل ، وهناك أناس كثيرون يمضون أوقاتهم بلا جدوى ، وبلا عمل ناجح ، في كلام فارغ ، في غيبة ، في نميمة ، في لعب نرد . مرّ أحد العلماء على مقهى رأى من في المقهى يلعبون النرد ، فقال : يا سبحان الله ! لو أن الوقت يُشترى من هؤلاء لاشتريناه منهم .

الحرص على الوقت شيء مهم جداً :

النقطة الدقيقة أن الإنسان خُلق لهدف كبير ، فإذا اختار هدفاً محدوداً وحققه شعر بفراغ ، وشعر بالسأم، والضجر ، فأنت مخلوق لمعرفة الله ، فلابدّ من أن تستفيد من وقتك دقيقة دقيقة ، وبطولة المؤمن أن إدارة الوقت عنده دقيقة ، وأحاديث كثيرة تتحدث عن قيمة الوقت ، وعن قيمة هذا المورد الاقتصادي الكبير ، العالم الغربي قال : الوقت مال .

وقال بعض علماء المسلمين : الناس حريصون على أوقاتهم كحرصهم على حياتهم ، فالحرص على الوقت شيء مهم جداً .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - الإسلام منهج حياة - الدرس (26-30) : علاقة الإنسان بعمله4 ، ما هو دور التعاون في حياة المسلم وما هي النصوص الداعمة لذلك ؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-09-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ جميل :

لا شك أن التعاون ، والتكاتف ، والتعاضد ، كلها ألفاظ تنبئ عن النجاح ، وسعة الأفق ، ما هو دور التعاون في حياة المسلم ؟ وما هي النصوص الداعمة لذلك ؟

دور التعاون في حياة المسلم :

الدكتور راتب :

نحن في المحطة السادسة محطة العمل التي بدأناها بالاقتصاد الإسلامي وخصائصه ، ثم ثنينا بالزكاة ، ثم ثلثنا إن صحّ العبير بإدارة الوقت ، وها نحن ننهي هذه المحطة بالتعاون ، فنحن عندنا قاعدة أصولية أن : كل أمر في القرآن الكريم وفي السنة الصحيحة يقتضي الوجوب ، وعلة أي أمر أنه أمر ، فإذا قال الله عز وجل في قرآنه الكريم :

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

(سورة المائدة الآية : 2)

هذا أمر يقتضي الوجوب ، ومعه نهي آخر ، قال علماء التفسير : التعاون على البر ، أي التعاون على صلاح الدنيا ، وتأمين حاجات الناس ، وتأمين سكن للشباب ، وتزويج الشباب ، واستخراج الثروات ، وتطوير الصناعة ، وإصلاح الأراضي ، وإنشاء السدود ،

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ)

على صلاح الدنيا

(وَالتَّقْوَى)

صلاح الآخرة ، ترسيخ معالم الحق، ردّ الشبهات ، تدعيم الحق ، مناهضة خصومه ،

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

فالتعاون أمر إلهي يقضي الوجوب ، ولأن التعاون حيادي يمكن أن يكون في الخير كما يمكن أن يكون في الشر ، قال تعالى :

(وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ)

لا أن تغري الناس بمعصية ، لا أن تحدث في الدين شيئاً يبعدهم عن ربهم ،

(وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

أن تعتدي على أموال الناس أو أعراضهم ، وأن تأخذ ما ليس لك ، أو أن تبتزهم ، أو أن توقع بينهم العداوة والبغضاء ،

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

التعاون حيادي يمكن أن يكون في الخير كما يمكن أن يكون في الشر ، فالبطولة أن تتعاون التعاون الإيجابي وأن نبتعد عن أي تعاون يؤدي إلى شقاء الإنسان .

الأستاذ جميل :

هل عمل الشرع على روادع تصد الناس عن هذه الأناة ، عن هذه الأثرة ؟.

وقوف الإسلام موقفاً شديداً تجاه كل نزعة تناقض التعاون والمساواة بين البشر :

الدكتور راتب :

الحقيقة هناك نهي شديد عن استغلال الناس ، عن ابتزاز أموالهم ، عن أن يبني الإنسان مجده على أنقاض الآخرين ، أن يبني حياته على موتهم ، أن يبني عزه على ذلهم ، أن ينبني غناه على فقرهم ، هناك نهي شديد عن استغلالهم ، عن إلقاء الرعب في قلوبهم ، عن أخذ ما ليس لهم ، هناك نزعة فردية أنانية ، هناك نزعة تريد أن تسلب جهد الآخرين ، أن تبتز أموالهم ، هذه أشياء تتناقض مع التعاون ، بل تتناقض مع المساواة بين البشر ، كل إنسان له حق الحياة ، وحق العمل ، وحق الكرامة ، وحق العزة ، هذه حقوق شرعها الله للمسلمين ، ولكل الناس قاطبة .

فالإسلام وقف موقفاً شديداً تجاه كل نزعة تناقض التعاون ، والتي تناقض التعاون تناقض المساواة بين البشر ، لكن الذي أتمناه أن واضحاً أن الله سبحانه وتعالى :

(وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ)

(سورة الأنفال الآية : 63)

فكأن هذا الحب الناتج عن التعاون ثمرة من ثمار الإيمان ، هو من خلق الله عز وجل

(وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ)

فمع التعاون هناك الحب .

((وَجَبَتْ محبَّتي للمُتَحَابِّينَ فيَّ ، والمُتجالِسين فيَّ ، والمُتزاورينَ فيَّ ، والمتباذلينَ فيَّ على منابر من نور يغبطهم عليها النبييون يوم القيامة))

[أخرجه مالك عن معاذ بن جبل]

الحب الناتج عن التعاون ثمرة من ثمار الإيمان :

إذاً التعاون له ثمار يانعة جداً ، و من ثماره المحبة ، والله عز وجل وصف مجتمع المؤمنين فقال :

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

(سورة التوبة)

وصف مجتمع المؤمنين أن بعضهم أولياء بعض ، يتعاونون ، يتناصحون ، يتبادلون ، يتزاورون ، يدعو بعضهم بعضاً ، كلهم كلٌ واحد ، كلهم ينتمي إلى المجموع ، فلذلك التعاون فريضة ، وتكاد أن تكون الفريضة السادسة .

الأستاذ جميل :

ما هي العواقب والنتائج السلبية التي قد يحصدها المسلم من مجتمع لا يتخذ من التعاون سبيلاً ؟.

المؤمنون بعضهم أولياء بعض :

الدكتور راتب :

أستاذ جميل ، آية في الأنفال تلفت النظر ، هذه الآية تقول :

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آَوَوْا وَنَصَرُوا)

(سورة الأنفال الآية : 72)

المحصلة :

(بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

(سورة الأنفال الآية : 72)

المؤمن يؤمن الإيمان الذي أراده الله ، الإيمان الذي يحمل على طاعة الله ، ويهاجر في سبيل الله ، لأنه جاء إلى الدنيا ليعبد الله ، فالمكان الذي كان يحول بينه وبين عبادة الله يهجره إلى بلد آخر يعبد الله فيه ،

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

أي بذل أقصى جهده من أجل دعم الحق ، أنا أقول دائماً : لا تقلق على هذا الدين إنه دين الله ، ولكن اقلق ما إذا سمح الله لك أو لم يسمح أن تكون جندياً له ،

(وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آَوَوْا وَنَصَرُوا)

آوى بعضهم بعضاً ، نصر بعضهم بعضاً ، الآن التاج لهذه النشاطات ، وهذه الجهود :

(بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

العواقب والنتائج السلبية التي يحصدها المسلم من مجتمع لا يتخذ من التعاون سبيلاً :

قد يتوهم المتوهم أن المؤمنين وحدهم أولياء بعضهم بعضاً ؟ لا ، ثم يقول الله عز وجل :

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

(سورة الأنفال الآية : 73)

يتعاونون على إطفاء نور الله ، يتعاونون على دحض الحق ، يتعاونون على تعرية الطرف الآخر ،

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

أما الملمح الدقيق الخطير :

(إِلَّا تَفْعَلُوهُ)

(سورة الأنفال الآية : 73)

الهاء على من تعود ؟ قال علماء التفسير : تعود على الآية السابقة ،

(إِلَّا تَفْعَلُوهُ)

إن لم تؤمنوا الإيمان الصحيح ، إن لم تهاجروا ، إن لم تجاهدوا بأموالكم وأنفسكم، إن لم تؤووا ، إن لم تنصروا :

(إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

(سورة الأنفال)

وهذا واقع العالم اليوم ، حينما ضعف المسلمون ، حينما كان بأس المسلمين بينهم، حينما ابتعدوا عن التعاون ، حينما لم يجاهدوا الجهاد الذي أرداه الله عز وجل ، حينما هان أمر الله عليهم فهانوا على الله ،

(إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

لأن الطرف الآخر يسعى جاهداً لإطفاء نور الله ، وتقويض دعائم الدين ، فهذه الآية من أخطر الآيات في القرآن الكريم ،

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آَوَوْا وَنَصَرُوا * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

انتبهوا هم يسهرون ، ويخططون ، ويسعون جاهدين لإطفاء نور الله ،

(إِلَّا تَفْعَلُوهُ)

إن لم تؤمنوا ، وتجاهدوا بأموالكم وأنفسكم ، وتهاجروا ، وتؤووا ، وتنصروا

(تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

الأستاذ جميل :

إذاً دكتور ما هي الثمار التي نسعى لتحصيلها من خلال هذا التعاون ؟.

ثمار التعاون :

الدكتور راتب :

هناك ثمار يانعة جداً ، أنا أستخدم المصطلحات الحديثة ، من ثمار التعاون نظام فريق العمل ، فريق العمل أحد أسباب قوة الآخرين ، فريق العمل تعاون ، فريق العمل تناصح ، فريق العمل تنازل ، أنا أتنازل لأخي للمصلحة العامة ، نظام فريق العمل أحد ثمار التعاون ، العمل المؤسساتي المبني على نظام دقيق جداً لا يتأثر كثيراً بالأشخاص أحد ثمار التعاون ، الانتماء للمجموع أحد ثمار التعاون ، ترشيد الاستهلاك أحد ثمار التعاون .

أنا أضرب مثالاً بسيطاً ، إنسان مضطجع تحت شجرة تفاح قد قطفت ، وبقيت تفاحة كبيرةٌ صفراء ولها خد أحمر ، فاشتهاها ، ومعه منشار شجرة ، فقطع الشجرة ، وقعت الشجرة فأكل التفاحة ، هذا مثل صارخ للانتماء الفردي ، والدول النامية انتماءاتها فردية ، والدول القوية انتماءاتها جماعية ، فالانتماء إلى المجموع من ثمار التعاون ، فضيلة التنازل ، إذا عزّ أخوك فهن أنت ، أنا أتنازل لأخي من أجل المصلحة العامة ، الآن الغرب قوته في نظام فريق العمل ، قوته في التعاون ، قوته في العمل المؤسساتي ، قوته في الانتماء للمجموع، قوته في ترشيد الاستهلاك ، ونحن ضعفنا في الانتماء الفردي، في العمل الشخصي لا المؤسساتي ، في التنافس لا في التعاون .

فلذلك نحن بالإمكان أن ننهض من كبوتنا لو عدنا إلى ديننا ، كل هذه المصطلحات الحديثة أنا آثرت أن آتي بها لأؤكد أنها أصل في ديننا ، بل إنها ثمرة يانعة من ثمار التعاون .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - الإسلام منهج حياة - الدرس (27-30) : علاقة الإنسان بصحته 1 ، كيف عني الإسلام بالحياة من جانب الصحة ؟
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-09-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ جميل :

في معرض الحديث عن الحياة لا بدّ أن يتمتع الإنسان بقدرة على معالجة شؤونه ، وتمام الصحة ، وموفور العافية ، له هو الدور الأكبر للحياة الغير منقوصة ، كيف عُني الإسلام بالحياة من جانب الصحة ؟

القوة تعطي المؤمن خيارات لا تنتهي في العمل الصالح :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أستاذ جميل أنت بهذا السؤال أدخلتنا في المحطة الأخيرة ، المحطة السابعة ، محطة الصحة ، فالله عز وجل حينما حدثنا عن طالوت قال :

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ)

(سورة البقرة الآية : 247)

هذه إشارة قرآنية إلى الصحة .

شيء آخر :

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)

(سورة القصص)

بل إن النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((المؤمن القويُّ خيْر وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

والقوة على إطلاقها تعني قوة الجسم ، النقطة الدقيقة في الموضوع : أن الدنيا من أجل العمل الصالح ، والقوة تعطي المؤمن خيارات لا تنتهي في العمل الصالح ، فإذا كان طريق القوة سالكاً بكل أنواعها وفق منهج الله ينبغي أن تكون قوياً ، أما إذا كان طريق القوة على حساب مبادئك ، وقيمك ، فالضعف

وسام شرف للإنسان ، هذا في المعنى العام للقوة ، لكن أحد أنواع القوة قوة الجسد ، فلما أمر النبي في بعض المعارك أن يكون كل ثلاثة على راحلة ، قال : وأنا وعلي وأبو لبابة ، نبي الأمة ، رسول الله ، قائد الجيش ، زعيم الأمة ، يقول : وأنا وعلي وأبو لبابة على راحلة ، فلما جاءت نوبته في المشي توسل صاحباه أن يبقى راكباً ، فقال : ما أنتما بأقوى مني على السير ـ كان قوي البنية ـ ولا أنا بأغنى منكما عن الأجر .

الصحة أحد أركان الأمن و قوة الجسد مرتكز لقوة النفس :

إذاً قوة الجسد مرتكز لقوة النفس ، ولا أتصور عقلاً سليماً في جسم عليل ، فالعقل السليم في الجسم السليم ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

((مَنْ أصبَحَ منكم آمِنا في سِرْبه ـ في بيته ـ مُعافى في جَسَدِهِ ، عندهُ قوتُ يومِه ، فكأنَّما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها))

[أخرجه الترمذي عن عبيد الله بن محصن]

فكأن الذي كان يعنيه عليه الصلاة والسلام جعل الصحة أحد أركان الأمن .

لذلك الإنسان حينما يقرأ أدعية النبي العدنان يفاجأ أن من أكثر الأدعية التي كان يدعو بها :

((اللهم ارزقنا العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة))

نحن دخلنا في المحطة السابعة محطة الصحة ، ويمكن أن توزع هذه المحطة على حلقات أربع ، الطب الطبيعي ، والطب النفسي ، والطب الوقائي ، والطب العلاجي .

الأستاذ جميل :

دكتور ، إن كان حديثنا عن الصحة بداية ما المقصود من الطب الطبيعي ؟.

الطب الطبيعي :

الدكتور راتب :

الطب الطبيعي أساسه بذل الجهد ، والإنسان أحياناً يتوهم أن مكانته في استهلاك جهد الآخرين ، من بعض توجيهات النبي :

((لا تسألوا الناس شيئاً))

[مُسْلِم عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ]

ما دمت قادراً على أن أخدم نفسي ينبغي أن أخدم نفسي ، لذلك برئ من الكبر من حمل حاجته بيده ، وبرئ من الشح من أدى زكاة ماله ، وبرئ من النفاق من أكثر من ذكر الله .

حتى إن بعض الأطباء قال : الحد الأدنى الأدنىَ الأدنى للرياضة أن تخدم نفسك في البيت ، فأساس الصحة بذل الجهد ، لا أن تستهلك جهد الآخرين .

هناك بناء من عشرة طوابق ، فيه موظف ، أنا أظن أنه لو فُحص أبناء هذا البناء بأكملهم لكان هذا الموظف أكثرهم صحة ، من كثرة الجهد الذي يبذله .

فالإنسان صمم ليبذل الجهد ، فإذا أخذ جهد الآخرين ، وخلد إلى الراحة ، تأتي الأمراض والمتاعب ، فأنا أقول : إن صحّ أن هناك طباً طبيعياً هو أن تبذل جهداً ، لا أن تستهلك جهد الآخرين ، ولعل في هذا التوجه معنى اجتماعي ، يصبح الإنسان متواضعاً ، و هناك معنى صحي ، فالإنسان حينما يكون ذكياً يقول بالتعبير الدارج : ضربت عصفورين بحجر ، أما الأمر الإلهي يحقق آلاف الأهداف معاً ، فأنت حينما تكون متواضعاً تبذل جهداً ، هذا البذل هو صحة و تواضع و تعاون ومحبة ، فإذا أمكن أن نلخص الطب الطبيعي بكلام بسيط أن تبذل جهداً ، أن تخدم نفسك ، كان الصحابي ينزل من على ناقته ليلتقط زمام الناقة ، ولا يسأل أحداً أن يناوله إياها ، لا يسأل الناس شيئاً ، فهذا البذل للجهد هو الطب الطبيعي .

الأستاذ جميل :

دكتور ، ما هي الأسباب البعيدة للمرض وما هي الأسباب البعيدة للصحة ؟

الأسباب البعيدة للمرض :

الدكتور راتب :

والله ، عقد مؤتمر أعتقد في لندن قبل سنوات عديدة ، ملخص هذا المؤتمر أو توصيات هذا المؤتمر أن: طبيعة العصر الحديث كسل عضلي ، كل شيء من الأدوات على أفضل ما يرام ، أي أصبح الإنسان لا يرفع بلور السيارة ، هناك زر يكبسه فيغلق البلور ، الصعود للبيت بالمصعد ، كل شيء آلي، الغسيل آلي ، هذا يسمونه حضارة ، لكن صار مع الحضارة كسل عضلي ، ترهل ، و أصبحت الصحة تتراجع .

أجدادنا كان عندهم جهد عضلي عال جداً ، فأسباب المرض الأولى كسل عضلي، مع شدة نفسية ، قلق، خوف ، حسد ، مطالب كثيرة ، دخول قليلة ، سيوف مسلطة فوق الإنسان في مجتمع الغاب ، في مجتمع التخلف ، في مجتمع القهر ، هناك مخاوف ، ومقلقات، وهناك أشياء تسبب القلق الشديد ، كسل عضلي ، مع شدة نفسية وراء الأمراض وتفاقمها .

أنا باعتقادي أن الأمراض التي تعد ناتجة عن أسباب نفسية سببها شدة نفسية لا تعد ولا تحصى ، أمراض آلام العضلات ، القرحة ، لو ذهبت لأعدد لك الأمراض التي لها منشأ نفسي لا تعد ولا تحصى.

فلذلك الأسباب البعيدة للأمراض كسل عضلي ، راحة تامة ، استهلاك جهد الآخرين ، وشدة نفسية ، قلق ، خوف ، بل أنت من خوف الفقر في فقر ، وأنت من خوف المرض في مرض ، وتوقع المصيبة مصيبة أكبر منها .

فمجتمع فيه قلق ، و فيه شرك ، وفيه بعد عن الله عز وجل ، لا يوجد به راحة نفسية ، هناك مقلقات ، أحياناً مقلقات عامة ، ساعة حصار ، وساعة عدوان ، وساعة اجتياح، وساعة احتلال أرض ، وساعة نهب ثروات ، هذه المقلقات العامة مع الكسل العضلي وراء الأمراض الكثيرة .

الأستاذ جميل :

دكتور ، في قول الله تعالى :

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

(سورة الشعراء)

إشارة إلى أن الشفاء من عند الله عز وجل ، سؤال لماذا عُزي المرض إلى النفس ؟

(وَإِذَا مَرِضْتُ)

الأسباب البعيدة للصحة :

الدكتور راتب :

سأجيب عن هذا السؤال ، لكن فاتني أن أذكر للأخوة المشاهدين أن أحد أسباب الصحة التي يتمتع بها أجدادنا الجهد العضلي العالي ، حياتهم خشنة ، بيوتهم واسعة ، ليس هناك أشياء كلها جاهزة ، أوتوماتيك ، كلها يدوية ، الغسيل يدوي ، الحركة مجهدة ، فيبدو أن الجهد العضلي العالي الذي تمتع به أجدادنا ، مع الحب الذي كان بينهم ، والراحة النفسية ، والحياة البسيطة ، والتكاليف غير عالية جداً ، والمكاسب ميسرة ، والوئام والحب ، فالحالة النفسية الرائعة التي عاشها أجدادنا بسبب الدين ، بسبب الحب ، المحبة ، التواصل ، التراحم، وبسبب الحياة البسيطة الغير معقدة ، فهناك من يعزو أن أصحاب الصحة التي تمتع بها الأجداد لجهد عضلي عالٍ جداً ، وراحة نفسية رائعة جداً .

أصل المرض من الإنسان :

أما سؤالك :

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ)

(سورة الشعراء)

الملمح الدقيق أنت لفت النظر إليه :

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

هناك من يرى أن هذا الإنسان قال الله عز وجل :

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

(سورة التين)

هو مصمم ألا يمرض ، لو طبق الإنسان تعليمات الخالق في طعامه ، وفي شرابه، وفي كل حاجياته ، لنجا من المرض ، لكن هناك أخطاء في العصر ، مثلاً الطعام المعد سابقاً فيه مواد حافظة ، هذه مواد مسرطنة ، نحن حياتنا غير طبيعية ، طعامنا غير طبيعي ، المواد الدسمة غير طبيعية ، مهدرجة ، مهدرجة أي ذرات الدهون عالقة فيها ، وتترسب على جدران الشرايين ، فنحن عندنا خطأ في طعامنا ، خطأ في شرابنا ، فأكثر المشروبات كيماوية ، ونحن حينما نتقصى الشيء الطبيعي ، نتقصى ما هو فطري ، ننجو بصحتنا ، فالآية تشير إلى أن أصل المرض من الإنسان ،

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ)

أصل المرض ، وقد يكون الأصل في العصر ، عصر الازدحام ، التلوث العام ، استخدام البلاستيك بشكل غير معقول ، مع المواد الحارة ، والمواد الحامضية ، ربما كان الخطأ في العصر ، بالأسمدة الكيماوية أيضاً ، بالهرمونات المسرطنة ، فكان تبديل خلق الله ، إعطاء النبات هرمونات مسرطنة ، المواد الحافظة مسرطنة ، فلذلك كلمة

(وَإِذَا مَرِضْتُ)

إشارة قرآنية دقيقة جداً إلى أن أصل المرض هو خطأ من الإنسان ، والآية الأخرى تغطي هذا الخطأ ، يغيرون خلق الله .

الفروج أربعون يوماً لا ينام الليل ، لينمو سريعاً ، هو متوتر جداً ، فإذا أكله الإنسان أصبح متوتراً .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - الإسلام منهج حياة - الدرس (28-30) : علاقة الإنسان بصحته 2 ، جانب الطب النفسي وعلاج الشرع لهذا الأمر
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-09-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ جميل :
دكتور ، هنالك من الأمراض والأوجاع ما يعزى سببه إلى النفس ، ومن الأمراض ما يكون أشد فتكاً وإيلاماً من الأمراض العضوية ، فهل لنا أن نتناول جانب الطب النفسي وعلاج الشرع لهذا الأمر ؟.

الإنسان عقل وقلب وجسم والقلب هو مركز النفس :

الدكتور راتب :
بسم الله الرحمن الرحيم ، أستاذ جميل ، كلما تقدم الطب اكتشف أن هناك أمراضاً يزداد عددها يوماً بعد يوم ، تعزى أسبابها إلى حالة نفسية متردية ، فالإنسان عقل وقلب وجسم ، فالقلب مركز النفس ، فإذا كان هناك انهيار نفسي ، قلق مزمن ، خوف ، حقد ، هذه كلها لها منعكسات عضوية ، لأن الإنسان كلٌّ لا يتجزأ ، فإذا تراجعت نفسه وانهارت وعانت ما عانت فلا بدّ أن ينعكس هذا على الجسم .
أذكر أن مريضاً ذهب إلى بريطانيا لإجراء عملية قلب ، دخلت ممرضة لتنسيق الأزهار ، سألته دون أن تهتم بالإجابة : من طبيبك ؟ فقال لها : فلان ، قالت له : هذا الطبيب مستحيل أن يقبل ليس لديه وقت، قال لها : لقد اتفق معي اتفاقاً قطعياً ، قالت له : هذا الطبيب أجرى عشرة آلاف عملية لم يخطئ في واحدة ، رأى في الفاتورة مبلغاً لرفع المعنويات قامت به هذه الممرضة ، فمعنى ذلك أن معنويات المريض تعينه على الشفاء ، والمعنويات المنهارة تعينه على المرض .

الأسباب النفسية وراء معظم الأمراض العضوية :

إذاً : يمكن أن يكون هناك طب نفسي ، فالخوف ، والقلق ، والحقد ، واليأس ، والإحباط ، هذه حالات نفسية صعبة جداً ، لها منعكسات جسمية ، فكلما تقدم الطب اكتشف أن هناك أسباباً نفسية تكون وراء معظم هذه الأمراض ، لذلك .

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

(سورة آل عمران الآية : 151)

فالرعب أحد أسباب الأمراض .

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

الأستاذ جميل :

إذاً هي أخلاق مذمومة شرعاً تورث أمراضاً نفسية ؟.

المؤمن حينما يوحد الله ويستقيم على أمره يعيش حياة نفسية رائعة جداً تنعكس صحة :

الدكتور راتب :

طبعاً ، بالمناسبة حيث ما جاءت كلمة إنسان معرفة بأل في القرآن الكريم تعني الإنسان قبل .

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

(سورة المعارج)

معنى هذا أن هناك أزمات نفسية طاحنة ، هناك حالات نفسية متردية جداً ، بسبب القلق ، والخوف ، والرعب ، واليأس ، والإحباط .

فالمؤمن حينما يوحد الله عز وجل ، ويستقيم على أمره ، ويصطلح معه ،عاش حياة نفسية رائعة جداً ، هذه تنعكس صحة ، تنعكس انخفاض ضغط ، تنعكس انتظام في ضربات القلب ، هناك حالات نفسية لها منعكسات عضوية .

الأستاذ جميل :

إذاً علامَ يرتكز الطب النفسي في الإسلام ؟ .

ارتكاز الطب النفسي في الإسلام على التوحيد :

الدكتور راتب :

والله أنا أرى ـ وهذا اجتهاد شخصي مني ـ أن الطب النفسي يرتكز على التوحيد ، فما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، أنت إذا أمنت بالله خالقاً ، ومربياً ، ومسيراً آمنت :

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف الآية : 84)

آمنت أنه :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود الآية : 123)

آمنت أنه :

(خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

حقائق في التوحيد تعين على الصحة النفسية التي هي وراء صحة الجسد :

إذا آمنت أنه يحكم وحده :

(لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)

(سورة الرعد الآية : 41)

وأنه :

(وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

إذا أمنت أنه :

(يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ)

(سورة غافر الآية : 20)

أمنت أنه :

(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

أنك إذا أمنت :

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر الآية : 2)

إذا أمنت أن :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد الآية : 11)

إذا أمنت أنه :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل الآية : 97)

إذا أمنت :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية)

هذه كلها حقائق في التوحيد يمكن أن تعين على الصحة النفسية التي هي وراء صحة الجسد .

من لا يندم على ما فات ولا يخشى مما هو آت يحقق السلامة والسعادة لنفسه :

الله عز وجل يقول :

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت الآية : 30)

أستاذ جميل ،

(أَلَّا تَخَافُوا)

متعلقة بالمستقبل ،

(وَلَا تَحْزَنُوا)

متعلقة بالماضي ، فأنت حينما تصطلح مع الله وتستقيم على أمره ضمنت المستقبل .

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة الآية : 51)

من عطاء وخير ، وضمنت الماضي أنك لن تندم على شيء فاتك ، يروى أن سيدنا الصديق ما ندم على شيء فاته من الدنيا قط ، لذلك هذا الذي لا يندم على ما فات ، ولا يخشى مما هو آت ، حقق سلامة وسعادة كبيرة جداً .

الأحوال النفسية الراقية كلها تنعكس صحة على الجسم :

الحقيقة :

((مَن شَغَلَهُ قراءةُ القرآن عن مسألتي أعطيتُهُ أفضلَ مَا أعْطِي السائلين))

[أخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري]

هذا الإيمان يملأ النفس شعوراً بالأمن ، قال تعالى :

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ)

(سورة الأنعام)

لم يقل أولئك الأمن لهم ، إن قال الأمن لهم ولغيرهم ، أما :

(أولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ)

لهم وحدهم :

(وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام)

فلذلك قصية التوحيد ، قضية الصلح مع الله ، قضية الاستقامة على أمر الله ، قضية الإقبال على الله صحة ، الصحة بمعنى أنها تحقق سعادة نفسية ، وتوازناً ، وتماسكاً ، وصموداً ، وثقة ، وتفاؤلاً ، الأحوال النفسية الراقية كلها تنعكس صحة على الجسم .

الأستاذ جميل :

إذاً المرتكز الأقوى هو العلاج النفسي ، الطب النفسي ، والمرتكز الأقوى هو الإيمان بالله عز وجل .

الإيمان بالله وطاعته المرتكز الأول في الطب النفسي :

الدكتور راتب :

نعم ، المرتكز الأول في الطب النفسي الإيمان بالله وطاعته ، فالإنسان حينما يصلح من الداخل ، تصلح أعضاؤه من الخارج ، قالوا : إن ضغط الدم هو ضغط الهم ، المشكلة أن هناك ما يسمى بالسلامة ، وهناك ما يسمى بالأمن ، السلامة عدم وقوع مصيبة ، لكن لا يعني عدم وقوع مصيبة أن الإنسان آمن ، لأنه توقع المصيبة مصيبة أكبر منها ، وكما قلت سابقاً : أنت من خوف المرض في مرض ، أنت من خوف الفقر في فقر ، فلذلك الأمن غير السلامة ، الأمن عدم توقع المصيبة ، ما الذي يدعوك ألا تتوقع المصيبة ؟ قول الله عز وجل :

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا)

الله عز وجل طمأنك ، قال :

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه)

لا يضل عقله ولا تشقى نفسه .

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة)

لا يندمون على ما مضى ، ولا يحزنون لما سيأتي ، فالحالة النفسية الناتجة عن الإيمان ، والطاعة ، والصلح مع الله ، والإقبال على الله ، ومحبة الله عز وجل ، هذه حالة مسعدة وراء الصحة الجيدة ،

فلذلك الجسم كله يأتمر بخارج الجسم ، جهاز المناعة المكتسب تسيطر عليه القيادة ، و لكن القيادة لا تزال مجهولة ، هذه القيادة تقوي هذا الجهاز بالحب ، والود ، والرحمة ، وتضعف هذا الجهاز بالحقد ، والكراهية ، فالحقد والكراهية مرض ، أمراض الجسم الناتجة عن حالات النفس الصعبة لا تعد ولا تحصى ، أنا أقول دائماً : الإيمان صحة بالمعنى المادي ، والتوحيد صحة ، وأن ترى أن الأمور كلها بيد الله ، وأن علاقتك مع جهة واحدة .

ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد :

النقطة الدقيقة جداً في الموضوع قال تعالى :

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً)

على لسان سيدنا هود :

(ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

الموضوع أن هناك وحوشاً مخيفة ، لكنها مربوطة بأزمة محكمة ، بيد جهة قوية رحيمة ، عادلة ، محبة ، أنا علاقتي ليست مع الوحوش ، علاقتي مع من يملك أزمتها ، فإذا كنت على علاقة طيبة معه أبعدها عني ، فإذا ساءت علاقتي معه يسمح لهذه الوحوش أن تصل إليّ .

هذا ملخص الملخص ، لذلك قالوا : ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، الحديث عن الصحة المتعلقة بالصحة النفسية حديث ذو شجون ، الآن هناك من يقول : الذين يرتادون العيادات النفسية 150% بمعنى أن 100% يرتادون ، ونصفهم يرتاده مرة ثانية ، بسبب وضع العالم المتفجر ، العالم متقدم تقدماً مذهلاً تقنياً ، لكنه متخلف تخلفاً مذهلاً أخلاقياً واجتماعياً .

فالإنسان كان عنده رحمة وعطف ووفاء وحب ، الآن عنده مصالح ، كان يوجد قيم الآن مصالح ، كان هناك مبادئ الآن حاجات ، فلذلك حينما يسقط الإنسان يسقط مع سقوطه فتضعف نفسه ، ومع ضعف نفسه يضعف جسمه .

الشرك الناتج عن ضعف الإيمان وراء تفاقم الأمراض النفسية :

لذلك قالوا : إن الله يعطي الصحة ، والذكاء ، والمال ، والجمال ، للكثيرين من خلقه ، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين ، أنا متأكد من أن صحة المؤمن تتميز عن صحة العاصي ،

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

أستاذ جميل دقق ،

(سَوَاءً مَحْيَاهُمْ)

في حياتهم الدنيا ، حتى في صحتهم ، حتى في علاقاتهم ، مستحيل وألف ألف مستحيل أن تعصيه وتربح ، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تطيعه وتخسر ، وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟.

والله الذي قال : لو يعلم الملوك ما نحن عليه من السعادة لقاتلونا عليها بالسيوف .

الشرك الناتج عن ضعف الإيمان ، الشرك الخفي .

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

الشرك الناتج عن ضعف الإيمان وراء تفاقم الأمراض النفسية ، والتي بدورها تعين على تفاقم الأمراض العضوية .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - الإسلام منهج حياة - الدرس (29-30) : علاقة الإنسان بصحته 3 ، فوائد الطب الوقائي

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-09-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ جميل :

دكتور الوقاية من المرض خير ألف مرة من علاج هذا المرض، لذا شرعنا بالحديث عن الطب الوقائي ما هو وما فائدته؟

الطب الوقائي سيد الطب لأن قوة الأمة بقوة أبنائها :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، أستاذ جميل أحب أن أذكر الأخوة المشاهدين أنا في المحطة السابعة؛ محطة الصحة، وقد تحدثنا عن الطب الطبيعي، والطب النفسي، والطب الوقائي، موضوع هذه الحلقة، الحقيقة الطب الوقائي سيد الطب كله، لأنه كما يقول العوام: درهم وقاية خير من قنطار علاج، فلذلك الطب الوقائي سيد الطب كله، في الحقيقة أن تتلافى المشكلة أفضل بكثير من أن تحلها، يروى أن أحد الخلفاء سأل رجلاً من دهاة العرب قال له: ما بلغ من دهائك ؟ قال : والله ما دخلت مدخلاً إلا أحسنت الخروج منه، فقال له: يا عمرو لست بداهية ، أما أنا والله ما دخلت مدخلاً أحتاج أن أخرج منه.

إذاً الطب الوقائي سيد الطب كله، فالأمة قوتها بقوة أبنائها، قوتها بدخلهم، فإذا كان معظم الناس في أمراض كثيرة هم عاطلون عن العمل، هم عالة على غيرهم، وأن الأموال الطائلة التي يمكن أن تنفق بالمعالجة قد تعيق تقدم الأمة، عرفنا ما دور الطب الوقائي في نهضة الأمة.

الأستاذ جميل :

دكتور صور الطب الوقائي كثيرة، لعل منها عناية الشرع بالطهارة، أي النظافة بمفهومها العام، فكيف هو النظر في الطب الوقائي لهذه العبادة؟

العالم الإسلامي بسبب الأوامر الشرعية التي تحض على النظافة معافى من الأمراض :

الدكتور راتب :

أنا مرة قرأت: إن هناك ثلاثمئة مليون مريض في العالم بسبب القذارة، وإن العالم الإسلامي بسبب الأوامر الشرعية الكثيرة التي تحض على النظافة معافى من هذه الأمراض في مجملها، يسمى العالم الإسلامي في هذه الموضوعات الشريط الأخضر، لأن هناك وضوء، وطهارة، وإلحاح على النظافة، ويكفي أن الله عز وجل يقول:

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

[سورة البقرة الآية : 222]

الحقيقة لبعض العلماء الكبار فهم دقيق لهذه الآية، هذا الفهم الدقيق أربعة أنواع، أول فهم: تطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث، أي النظافة المادية، جسم نظيف، اغتسال، وضوء، طهارة.

المعنى الثاني: تطهير الجوارح عن المعاصي والآثام، أيضاً هذه طهارة.

والمعنى الثالث: تطهير النفس عن الأخلاق المذمومة، والرذائل الممقوتة.

والمعنى الرابع: تطهير القلب عما سوى الله، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، لكن من بعض التوجيهات الخاصة توجيه:

((بركة الطعام الوُضُوء قبلَه ، والوضوء بعدَه))

[أبو داود و الترمذي عن سلمان الفارسي]

أي غسل اليدين هو وضوء الطعام، هذه اليد قد أمسكت بحذاء، قد أمسكت بمسكة ملوثة، قبل أن تأكل اغسل يديك:

((بركة الطعام الوُضُوء قبلَه ، والوضوء بعدَه))

[أبو داود و الترمذي عن سلمان الفارسي]

النظافة فرض لأول عبادة في الإسلام :

الآن حق الله على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام يوماً، هذا في شح المياه، الأولى أن يغتسل كل يوم، حقّ الله على كل مسلم كحد أدنى أن يغتسل في كل سبعة أيام يوماً يغسل فيه رأسه وجسمه، لذلك جعلت النظافة فرضاً لأول عبادة في الإسلام:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ)

[سور المائدة الآية : 6]

الحقيقة هذا الدين العظيم الذي يحض على النظافة، والمقولة الشهيرة: "النظافة من الإيمان"، والمطلق على إطلاقه نظافة الجسم، نظافة الجوارح، نظافة النفس، نظافة القلب.

الأستاذ جميل :

أستاذنا الكريم إذا ذكرنا الطهارة يتطهر المسلم لأداء عبادة مثلاً الصلاة، هل شعيرة الصلاة أيضاً من ملامح وقائية علاوة على كونها عبادة خالصة لله؟

الأوامر الإلهية لها أهداف لا تعد ولا تحصى :

الدكتور راتب :

كلنا يعلم أن هناك ما يسمى بالرياضة السويدية، تمرينات رياضية تحرك كل العضلات، الشيء الذي يلفت النظر أن هناك تدريبات من اختراع السويديين تصلح لكل الناس صغاراً وكباراً، شيوخاً وأطفالاً، نساءً ورجالاً، مقيمين ومسافرين، هذه التمرينات الرياضية حينما درست دراسة موضوعية فوجئ الدارس أنها مطابقة لحركات الصلاة تماماً، وكأن الصلاة رياضة يومية، يقوم بها المسلم في اليوم خمس مرات، يقف، يركع، يسجد، لو أحصينا العضلات التي تتحرك من خلال حركات الصلاة لوجدنا أن هذه الحركات تطابق التدريبات الرياضية التي وضعها الخبراء، وقد قلت في لقاء سابق: إن الأوامر الإلهية لها أهداف لا تعد ولا تحصى.

بالمناسبة الصلاة عبادة، والذي يصلي من أجل صحة جسمه لا يصلي، لا تسمى هذه صلاة إطلاقاً، نقول: أنت حينما تؤدي فريضة وتصلي هناك نتائج جانبية تنتفع بها، فهي رياضة متوازنة معتدلة، صالحة لكل الأعمار والأجناس، والأقاليم والبيئات، وما شاكل ذلك، لذلك هناك نقطة دقيقة؛ انخفاض الرأس في السجود والركوع يؤدي إلى هجوم الدم إلى أوعية الدماغ، ومع رفع الرأس يعود إلى ما كان عليه، من ازدياد ضغط الدم في الأوعية ونقص هذا الضغط عند الرفع ينشأ من هذا ما يسمى بمرونة أوعية الدماغ، وهذه الأوعية حينما تكون مرنة قد تتحمل الضغط المرتفع، بينما الذي لا يصلي الأوعية غير مرنة، فلو ارتفع الضغط فجأة ربما كان هناك انفجاراً في بعض الأوعية يسبب خثرة في الدماغ، هذا بحث طبي قرأته أن حركة الصلاة؛ ركوع سجود رفع، أي من ازدياد الضغط ونقص الضغط بشكل مستمر هذا يحقق مرونة بالوعاء، هذه المرونة تقي انفجار الأوعية عند ارتفاع الضغط أو تقي من خثرات الدماغ.

الأستاذ جميل :

أستاذنا الكريم الإسراف وأثره السلبي على الصحة.

الإسراف وأثره السلبي على الصحة :

الدكتور راتب :

الحقيقة الآية الكريمة:

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا)

[سورة الأعراف الآية : 31]

قد يقول قائل: لمَ لم تكن لا تسرفوا في الطعام والشراب؟ أراد الله أن ينهانا عن أن نسرف في الطعام والشراب، لكن نهانا عن كل أنواع الإسراف في كل المباحات، أقول: المباحات، المؤمن مستقيم حتى في المباحات ينبغي ألا يسرف، لأن هناك مقولة لطيفة: إن عشر ما نأكله يكفي لبقائنا أحياء، وتسعة أعشار ما نأكله يكفي لبقاء الأطباء أحياء، الاعتدال في الطعام والشراب صحة، لكن طبيعة الحياة، الضغوط الشديدة، ضعف الرياضة، عدم المشي، يؤدي إلى أمراض كثيرة، فلابدّ من حركة يومية، لابدّ من تدريبات رياضية، هذا كله له آثار إيجابية في صحة الجسم، على كلٍّ قال تعالى :

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا)

[سورة الأعراف الآية : 31]

في الحديث الصحيح:

((ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه ، حسب ابن آدم ثلاث أكلات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث طعام، وثلث شراب، وثلث لنفسه))

[أخرجه الحاكم عن المقدام بن معد يكرب]

لذلك طبيب في دمشق من ثلاثين عاماً يؤمن أنه: اشرب متى تشاء، واشرب بالقدر الذي تشاء، ولو مع الطعام، وكان يخالف كل زملائه في كلية الطب، اعتماداً على هذا الحديث قبل سنتين أو ثلاثة ظهرت دراسة عميقة جداً تبيح للإنسان أن يشرب ما يشاء، ثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه.

الاعتدال في الطعام والشراب أحد أكبر أسباب نجاح الطب الوقائي :

إذاً: أيضاً موضوع الاعتدال في الطعام والشراب أحد أكبر أسباب نجاح الطب الوقائي، هناك كلام دقيق، نعم الإدام الجوع، إذا سمعت كلمة نعم الإدام فتظن أن نعم الإدام اللحم ، الخضار، الفواكه، نعم الإدام الجوع، حالة الآكل إذا كان جائعاً ينتفع بالطعام، أما حينما يأكل يدخل الطعام على الطعام، عندئذ ليس هناك جوع، إذاً الهضم غير كامل، أي عدم تناول الطعام بين الوجبات، هذا من أنواع الاعتدال في تناول الطعام والشراب، نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع.

الحقيقة موضوع التوجيهات الصحية دقيق جداً، وما دمنا في الطب الوقائي هناك ملاحظة دقيقة، في بعض المدن الإسلامية خمسمئة ألف مريض سكري، وهذه الأمراض تتطور إلى فشل كلوي، وإلى فقد بصر، وإلى شلل، أما في البلاد التي فيها وعي طبي، وعي وقائي، أربعة بالمئة تتطور هذه الأمراض عندهم إلى فشل كلوي، وإلى شلل، وإلى فقد بصر، وفي بعض البلاد النامية أربعة وخمسون بالمئة تتطور هذه الأمراض عندهم إلى فشل كلوي، وإلى شلل، وإلى فقد بصر، فلذلك الوعي مهم جداً جداً جداً في الوقاية من الأمراض، وعلى ذلك فقس، هناك بحث طويل جداً عن الأمراض التي يمكن أن يتلافاها الإنسان لو كان واعياً لشؤون صحته.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - الإسلام منهج حياة - الدرس (30-30) : علاقة الإنسان بصحة 4 الطبي العلاجي

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-09-2009

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ جميل :

تحدثنا عن الطب الطبيعي، والطب النفسي، والطب الوقائي، فإذا وقع المرض العضوي فهل من عناية للشرع به أيضاً، وعلى ماذا يبنى الطب العلاجي؟ على أي كلية من كليات الدين؟

انطلاق الطب العلاجي من أن الله عز وجل خلق لكل داء دواء :

الدكتور راتب :

الحقيقة أن الطب العلاجي ينطلق أن الله عز وجل خلق لكل داء دواء، علمه من علمه وجهله من جهله، وأن الله عز وجل ما أنزل داء إلا وأنزل له شفاء، من هذا المنطلق ومن منطلق عقدي هو أن المؤمن عليه أن يأخذ بالأسباب، عليه أن يأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، ثم يتوكل على الله وكأنها ليست بشيء، فكأن المؤمن الصادق، المستقيم، الواعي، يمشي بطريق عن يمينه واد سحيق، وعن يساره واد سحيق، إن أخذ بالأسباب، وألهها، واعتمد عليها، ونسي الله، وقع في وادي الشرك، وإن لم يأخذ بها، وتواكل على الله تواكلاً ساذجاً، وقع في وادي المعصية، وكأني بالعالم الغربي أخذ بالأسباب بأعلى مستوى، واعتمد عليها، وألهها، ونسي الله، وكأني بالعالم الشرقي لم يأخذ بها أصلاً، فالأول وقع في الشرك، والثاني وقع في المعصية، والبطولة والكمال والمنهج القويم أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء وأن تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء، دائماً التطرف سهل، أن تأخذ بالأسباب وحدها القضية سهلة جداً، أو ألا تأخذ بها أسهل، أما حينما تأخذ بها تأدباً مع الله، وطاعة له، حينما تتوكل على الله ثقةً به، مثلاً في سفر راجعت المركبة مراجعة تامة، ومن أعماق أعماق أعماقك تقول: يا رب أنت الحافظ، أنا أخذت بالأسباب بقي أن تحفظني، فهذا الموقف التي تنطلق منه المعالجة، ما دام الله عز وجل لم ينزل داءً إلا وأنزل له شفاء، علمه من علمه وجهله من جهله.

((تداووا عباد الله))

[أخرجه الحاكم عن أسامة بن شريك مرداس الأسلمي]

التداوي يرقى إلى مستوى الواجب إلا في حالات نادرة :

التداوي يرقى إلى مستوى الواجب، لكن لئلا نقع في مبالغة لو أن الإنسان توقف دماغه، وصار التخطيط خطاً مستقيماً، لكن يمكن أن يعمل قلبه بآلة، هناك فتوى بإيقاف الآلة أحياناً هناك نفقات فوق طاقة كل من حول المريض، ولا جدوى من حياته، وقد انتهت حياته بموت الدماغ، لكن المرأة التي كانت تصاب بالصرع، وسألت النبي عليه الصلاة والسلام أن يدعو لها فقال لها عليه الصلاة والسلام: "إما أن تصبري وإما أن أدعو لك"، فاستنبط العلماء من هذا أن هناك حالات معينة قد يكون ثمن الدواء فوق طاقة كل من حول المريض، أحياناً زراعة كبد تحتاج إلى ملايين مملينة، إلى عشرة ملايين والأب فقير، في هذه الحالة ليس مكلفاً أن يعطل دخول كل من حوله، هذه حالات أفتى بها العلماء، أما التهاب الزائدة، المعالجة واجبة، السبب أن العملية سهلة، والنفقات مقدور عليها، وأنت ملك أولادك، وملك أهلك، وملك أمتك، إذاً هناك حالات كثيرة جداً بل في معظم الحالات ترقى المعالجة إلى مستوى الواجب، وقد ترقى إلى مستوى الفرض حفاظاً على حياتك، وعلى نشاطك، وعلى أداء عباداتك، وعلى خدمة أمتك.

موضوع التداوي يغلب على الظن أنه واجب، وهناك حالات نادرة جداً قد تكون واحدة بالمليار وهي حالات استثنائية يعفى الإنسان من هذا، أما العلاج يرقى إلى مستوى الواجب لأن الله عز وجل ما أنزل داءً إلا وأنزل له شفاء.

الحديث التالي يحث الأطباء على متابعة البحث ويطمئن المرضى :

النقطة الدقيقة جداً أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال:

((إنَّ لكلِّ دَاء دَوَاءً))

[أخرجه مسلم عن جابر بن عبد الله]

إذا سمع هذا الحديث طبيب و كان عنده إنسان مصاب بمرض ليس له دواء يشعر بالتقصير، وكأن هذا الحديث يدفعه للبحث عن دواء، لأن النبي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى،

((لكلِّ دَاء دَوَاءً))

أما إذا سمع هذا المريض هذا الحديث يمتلئ ثقة بالله عز وجل، معنى هذا مرضه له دواء، هذا الحديث يحث الأطباء على متابعة البحث، ويطمئن المرضى، إلا أن هناك استثناء واحداً أن مرض الموت لا شفاء له، يتفاقم، هو بوابة خروج، الإنسان كيف يغادر الدنيا؟ بأحد الأمراض،

((لكلِّ دَاء دَوَاءً))

إلا مرض الموت، على كلٍّ:

إن الـطبيب له علم يدل به إن كان للناس في الآجال تأخير
حتى إذا ما انتهت أيام رحلته حار الطبيب وخانته الـعقاقير

* * *

الشفاء يحتاج إلى الأخذ بالأسباب وإلى الاعتماد على ربّ الأرباب :

((إنَّ لكلِّ دَاء دَوَاءً، فإذا أُصِيبَ دواءُ الدَّاءِ بَرَأَ بإذن الله))

[أخرجه مسلم عن جابر بن عبد الله]

ماذا يعني؟ لا سمح الله ولا قدر مرض الابن تأخذه إلى أفضل طبيب أخذاً بالأسباب، وتشتري له الدواء الجيد، تشرف بنفسك على إعطاء الدواء، أخذت بالأسباب، الآن:

((بَرَأَ بإذن الله))

توجه بالدعاء إلى الله عز وجل، هذا الكلام دقيق، الشفاء يحتاج إلى الأخذ بالأسباب وإلى الاعتماد على رب الأرباب، فهناك جانب دعائي.

الأستاذ جميل :

دكتور الإيمان بالقضاء والقدر هو تسليم بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، هل من تعارض بين هذا الإيمان والتسليم وبين البحث عن علاج والسعي إلى الأطباء؟

عدم التعارض بين الإيمان بالله والتسليم بقضائه و قدره :

الدكتور راتب :

بالعكس، حينما تأخذ بالأسباب من قضاء الله وقدره، إنسان عنده غنم، وهناك أرض مجدبة إن رعى الأغنام في هذه الأرض لا شيء عليه، هذا من قضاء الله وقدره، وإن رعاها في الأرض الخصبة أيضاً هذا من قضاء الله وقدره، فنحن إذا قصرنا أو إذا فعلنا كله من قضاء الله وقدره، فليس هناك داع أن نقول: هناك تناقض بين أخذ الدواء والإيمان بالقضاء والقدر، الإيمان بالقضاء والقدر كما قيل يذهب الهم والحزن، أنت حينما تأخذ بكل الأسباب وعندئذ لا تجد النتائج فمعنى هذا قضاء وقدر، آخذ بالأسباب وكأنها كل شيء وأتوكل على الله وكأنها ليست بشيء، سيدنا عمر حينما كان على مشارف الشام، وسمع أن فيها طاعوناً فلم يدخل، فقال له بعضهم من قضاء الله؟ قال: نعم، أفر من قضاء الله إلى قضاء الله.

الإنسان حينما يزداد وعيه يتحسن الوضع العام للأمة :

هناك نقطة مهمة جداً أن النبي عليه الصلاة والسلام لأنه لا ينطق عن الهوى أول من ذكر أن هناك من يحمل المرض، فإذا كنتم في بلد فيها طاعون فلا تخرجوا منها، هناك من يحمل هذا المرض وليس مريضاً، وهذا إذا انتقل إلى بلد آخر ينقل المرض، أما حينما قال النبي عليه الصلاة والسلام: "لا عدوى" ، لا عدوى حينما يتفهم الجاهل أن هذا الإنسان أصابه المرض، لا هو مرض بقضاء الله وقدره، حتى لا تنشأ أحقاد، لا عدوى من حيث أن الله سمح لهذا الجرثوم أن ينتقل من فلان إلى فلان، لكن في النهاية هو الذي أشار إلى أن هناك إنسان يحمل هذا المرض ولا يمرض.

نحن عندنا مثل بسيط، مرض اسمه التليسيميا، فإذا كان الإنسان يحمل هذا المرض وتزوج امرأة لا تحمل هذا المرض، يعيش حياة سليمة رائعة لا شيء فيها، أما إذا كان إنساناً يحمل هذا المرض، وتزوج امرأة تحمل هذا المرض حتماً عنده ابن مصاب بهذا المرض، أضرب لك مثلاً بسيطاً، بلد يقدر عدد سكانه بعشرين مليوناً، هناك ألفا حالة، هذه الحالات تقتضي تبديل دم كل أسبوعين، كلفة معالجة الابن المصاب بهذا المرض قريباً من مئة وستين مليارا ًوينتهي بالموت، في بلد سبعون مليوناً هناك أربع حالات فقط، قضية وعي، نحن بحاجة إلى وعي، لو أن الإنسان قبل أن يزوج ابنته طلب تقريراً طبياً، كأن الناس يستحون بهذا التقرير، فإذا كانت البنت مصابة كزوجها هناك مشكلة كبيرة، لذلك الإنسان حينما يزداد وعيه يتحسن الوضع العام للأمة، أنا أرى أن الدول النامية فوق أنها نامية وفوق أنها فقيرة عندها ضعف بالوعي كبير جداً، هذا الذي يسبب أن معظم الأمراض تتفاقم عندهم.

مرة كنت في أمريكا زرت طبيباً فوجدت أن العيادة ممتلئة، توهمت أنهم مرضى، لا، إنهم يجرون تحليلات دورية، الإنسان مع ازدياد الوعي يعمل تحليلات مستمرة، لأن أي مرض حينما يظهر في وقت مبكر جداً يسهل علاجه.

على الإنسان أن يأخذ بالأسباب و يهيئ الظروف :

أنا أقول: الطب العلاجي أساسه الأخذ بالأسباب،والتوكل على رب الأرباب، عليكم بالكيس، خذ بالأسباب، وهيئ الظروف.

((عليكم بالكيس، فإذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل))

[أبو داود وأحمد عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ]

لأن الإنسان حينما يأخذ بالأسباب قد تحقق هذه الأسباب النتائج، أما إذا كان لله مشيئة خاصة مع أنه أخذ بها النتائج لم تحقق، هذا قضاء وقدر، عندئذ هو يرضى بالقضاء والقدر.

الأستاذ جميل :

دكتور في عجالة من الذي يتصدى لعلاج الناس؟ وهل يقبل شرعاً أن يتقول أحد في الطب من غير علم ودراية؟

من طبب من غير علم و دراية فهو ضامن وسيدفع الثمن باهظاً :

الدكتور راتب :

والله حديث مذهل:

((مَنْ تَطبَّبَ ولا يُعْلَمُ منه طِبٌّ، فهو ضامِن))

[أخرجه أبو داود والنسائي عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

مسؤول وسيدفع الثمن باهظاً، وسيدفع التعويض.

في انتهاء هذه الحلقة الأخيرة من المحطة السابعة محطة الصحة، نكون قد أنهينا هذا البرنامج الذي انطلق من أن الإسلام منهج حياة، انطلق من محطات كثيرة وانتهينا بمحطة الصحة، وأرجو الله عز وجل للأخوة المشاهدين تمام الصحة والعافية.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - موسوعة الأخلاق الإسلامية - الدرس (01-28) : الخلق أن تتحرك وفق منهج الله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 02-01-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

فضيلة الدكتور ، يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : الإيمان هو الخلق ، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان ، ومن ها هنا نسمع منكم شرحاً عن مفهوم الإيمان وما هو تعريف الأخلاق ، وهل للأخلاق علاقة بالإيمان ؟ فتفضلوا مشكورين غير مأمورين .

الدكتور :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

الحقيقة أن الإنسان هو المخلوق الأول رتبة ، لقوله تعالى :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية : 72)

والإنسان هو المخلوق المكرم ، لقوله تعالى :

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

(سورة الإسراء)

والإنسان هو المخلوق المكلف ، مكلف أن يعبد الله ، لقوله تعالى :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

لكن الإنسان أودع الله فيه حاجات كثيرة ، من هذه الحاجات : أودع فيه حاجة إلى الطعام والشراب حفاظاً على الفرد ، وأودع فيه حاجة إلى الطرف الآخر المرأة ، حفاظا على النوع ، وأودع فيه حاجة إلى التفوق حفاظاً على الذكر ، هذه الحاجات الثلاث الأساسية تدفعه إلى الحركة ، إذاً هو كائن متحرك.

الحقيقة : أن هذه الحركة يجب أن تنضبط بمنهج الله عز وجل ، كيف ؟ لا بد من طرح بعض الأمثلة :

إنسان سافر إلى بلاد الغرب ، نزل في فندق ، استيقظ في صبيحة اليوم الأول وسأل إلى أين أذهب ؟ نقول له : ما هذا السؤال الغريب ! نحن نسألك لماذا جئت إلى هنا ؟ إن جئت طالب علم ؟ اذهب إلى المعاهد والجامعات ، وإن جئت سائحاً ؟ اذهب إلى المقاصف والمتنزهات ، وإن جئت تاجراً ؟ اذهب

إلى المعامل والمؤسسات ، معنى هذا المثل أن حركة الإنسان في الدنيا لا تصح إلا إذا عرف سر وجوده .

قبل قليل قلت : الإنسان كائن متحرك ، حركته بسبب أن الله أودع فيه حاجات كثيرة من أبرزها الحاجة إلى الطعام والشراب ، والحاجة إلى الجنس ، والحاجة إلى تأكيد الذات ، الأولى حفاظاً على الفرد ، والثانية حفاظاً على النوع ، والثالثة حفاظاً على الذكر ، إذاً هو كائن متحرك ، هذه الحركة يجب أن تنضبط بمنهج الله ، متى تنضبط ؟ حينما يعرف الإنسان سر وجوده .

هذا الذي ذهب إلى بلد غربي إن كان قد جاءه سائحاً له حركة ، وإن جاءه تاجراً له حركة ، وإن جاءه طالب علم له حركة ، فلماذا خلقنا في الدنيا ؟ ما لم يعرف الإنسان علة وجوده في الدنيا لن تصح حركته ، مثلاً :

هذا الطالب الذي ذهب إلى بلد غربي لينال الدكتوراه ، ما دام الهدف واضحاً جداً وضوح الشمس ، يسلك إليه آلاف الوسائل ، وكل هذه الوسائل مرتبطة بالهدف كيف ؟ يستأجر بيتاً قريباً من الجامعة ، توفيراً للوقت والجهد والمال ، يصاحب طالباً يتقن اللغة الفرنسية ، يشتري مجلة تتصل باختصاصه ، يأكل طعاماً يعينه على الدراسة ، ما دام الهدف واضحاً فهذا الإنسان يختار من الوسائل التي لا تعد ولا تحصى الوسائل التي توصله إلى هدفه ، لكن بن قوسين أجري استبيان في بلد عربي حول ما إذا كان الإنسان مدركاً لهدف ما ، فالنتيجة الصاعقة أن 93 % من الناس لا يعرفون أهدافهم إطلاقاً .

لذلك نقول : إما أن يكون لك هدف ، وتخطط له ، وإما أن تكون أنت رقماً لا معنى له في خطط الآخرين ، إما أن تخطط ، وإما أن يخطط لك ، لذلك قال تعالى :

(أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة الملك)

إذاً لا تصح حركة الإنسان في الحياة لأنه كائن متحرك إلا إذا عرف سر وجده وقد يعرف سر وجوده بالتأمل ، والبحث ، والدرس ، ولكن وحي السماء ، الحق المطلق يخبره أن الإنسان خُلق للعبادة ، والعبادة في أدق تعاريفها طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية ، في هذا التعريف جانب معرفي وجانب سلوكي ، وجانب جمالي ، الجانب السلوكي هو الأصل ، والجانب المعرفي هو السبب والجانب الجمالي هو النتيجة .

لذلك نعرفه فنعبده فنسعد بقربه في الدنيا والآخرة ، نعرفه فنطيعه ، فنسعد بقربه يعني إن أردت أن تضغط الدين لكله في كلمات ثلاث معرفة الله أولاً ، وطاعته ثالثاً والسعادة بقربه في الدنيا والآخرة ثالثاً.

إذاً اتفقنا أن الإنسان لا تصح حركته إلا إذا عرف سر وجوده ، والإنسان كائن متحرك .

مرة ثانية : لو أن طالباً على مشارف امتحان مصيري ، يبنى على الامتحان مستقبله ، وظيفته ، زواجه ، استقراره ، وجاء أصدقاءه الذين يحبهم ويحبونه ، أخذوه إلى مكان جميل ، قبل الامتحان بأيام معدودة ، أطعموه أطيب الطعام ، تمتع بأجمل المناظر لماذا يشعر بكآبة كبيرة ؟ لأن هذه الحركة قبل الامتحان لا تتناسب مع هدفه ، لو أنه جلس في غرفة قميئة ، وقرأ الكتاب المقرر ، يشعر بلذة وسعادة ما بعدها سعادة ، سماها علماء النفس الشعور بالإنجاز .

إذاً متى يشعر الإنسان ؟ أول مثل لا تصح حركته إلا إذا عرف سر وجوده متى يسعد ؟ إذا جاءت حركته مطابقة لهدفه .

لذلك التاجر عند كساد الأسواق مع أنه مرتاح ، ويجلس على أريكة مريحة ويشرب ما طاب له أن يشرب من القهوة والشاي ، ومن المجلات والصحف لكنه متألم أشد الألم ، أما حينما يبيع ويشتري وينسى أن يأكل ويبقى واقفاً طوال النهار هو في قمة السعادة .

فالإنسان يسعد إذا جاءت حركته في الحياة موافقة لهدفه ، ويشقى إذا جاءت معاكسة .

إذاً الإنسان كائن متحرك يسعد إذا جاءت حركته مطابقة لهدفه ، بل تصح حركته إذا رف سر وجوده ، الإنسان هو المخلوق الأول لقوله تعالى :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية : 72)

هذا الإنسان كما قال الإمام علي كرم الله وجهه و رضي عنه قال : ركب الملك من عقل بلا شهوة ، وركب الحيوان من شهوة بلا عقل ، وركب الإنسان من كليهما ، فإن سمى عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة ، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان .

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)

(سورة البينة)

ركب الملك من عقل بلا شهوة ، ركب الحيوان من شهوة بلا عقل ، ركب الإنسان من كليهما ، فإن سمى عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة ، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان .

الإنسان تحرك ، ما الأخلاق ؟ الله عز وجل أودع فيه الشهوات ، وبإمكان الإنسان أن يتحرك منطلقاً من هذه الشهوات بزاوية 180 درجة ، لكن الشرع سمح له بسبعين مثلاً ، ما الخلق ؟ أن تضبط شهواتك في هذه الزاوية التي سمح الله لك بها ، الخلق ضبط يعني من السهل جداً أن تأكل ما تشاء ،

وبكمية تشاء ، ومع من تشاء ، إما حينما تأكل وفق القواعد الصحيحة تكون قد استمتعت بالطعام ، ولكن وفق منهج .

بالمناسبة : ليس في الإسلام حرمان ، في الإسلام تنظيم ، أقول كلمة دقيقة : ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسر خلالها ، ليس في الإسلام حرمان إطلاقاً ، ولكن في الإسلام تنظيم .

لذلك : يقول الله عز وجل :

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ)

(سورة القصص الآية : 50)

عند علماء الأصول هناك المعنى المخالف ، المعنى المخالف في هذه الآية : الذي يتبع هواه وفق هدى الله لا شيء عليه ، الخلق أن تتحرك وفق منهج الله ، الخلق في أدق تعاريفه انضباط ، الجانب السلبي ، وعطاء ، الجانب الإيجابي ، انضباط .

((إن عمل النار سهل بسهوة ، وإن عمل الجنة حزن بربوة))

أنت حينما تتحرك وفق منهج الله فأنت أخلاقي ، وأنت مؤمن .

بالمناسبة : الإيمان مرتبة عالية جداً ، كيف إذا قلنا فلان دكتور ، يعني حتماً معه تحصيل ابتدائي ، وإعدادي ، وثانوي ، وجامعي ، ودراسات عليا ، ودكتوراه ، وكتاب ألفه وفي تقييم دقيق جداً لهذا الكتاب ، كيف إذا قلنا مؤمن ، مؤمن مرتبة علمية ، مرتبة أخلاقية مرتبة جمالية .

فلذلك الإنسان حينما يتحرك وفق منهج الله يكون مؤمناً ، ويكون أخلاقياً ، وهذا الذي دعا ابن القيم هذا العالم الجليل إلى أن يقول : الإيمان هو الخلق ، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان .

الحقيقة في نقطة دقيقة جداً : أن الصحابي الجليل جعفر بن أبي طالب ، من كبار الصحابة وقف أمام النجاشي ، وسأله النجاشي عن الإسلام ، الآن نصغي مع إخوتنا المشاهدين إلى تعريف الإسلام من أحد الصحابة الكبار ، قال :

أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، هذه الجاهلية ، وفي ملمح لطيف حينما قال الله عز وجل :

(وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)

(سورة الأحزاب الآية : 33)

إشارة إلى أن هناك في آخر الزمان جاهلية ثانية .

فلذلك قال : " كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته وصدقه ونسبه وعفافه " ، الشيء اللطيف جداً :

أن الصدق والأمانة والعفة أركان الأخلاق ، وفي هذه اللقاءات الخيرة إن شاء الله سيكون الحديث عن الأخلاق ، لكن إذا كان للأخلاق أركان أساسية الصدق والأمانة والعفة ، يعني إن حدثك فهو صادق ، وإن عاملك فهو أمين ، وإن استثيرت شهوته فهو عفيف .

يعني بشكل أو بآخر أنت حينما ترى إنسان وهو صامت تقيمه من هيأته ، من ثيابه ، من أناقته ، من انسجام ألوانه ، من جلسته ، أما إذا تكلم قد تنسى هيأته ، أما إذا عاملك قد تنسى كلامه .

" حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف صدقه و أمانته وعفافه ونسبه " ، لكن لي مع النسب كلمة ، النسب تاج ، يتوج به المؤمن ، أما إذا كان غير مؤمن فلا قيمة له طلاقاً والدليل :

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)

(سورة المسد)

وهو عم النبي عليه الصلاة والسلام ، " حتى بعث الله فينا رجلاً منا نعرف صدقه و أمانته وعفافه ونسبه ، فدعانا إلى الله لنعبده ونوحده ، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان ـ الآن دقق ـ وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء "، هذا تعريف الصحابي الجليل للإسلام ، مكارم أخلاقية ، إن مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى ، فإذا أحب الله عبداً منحه خلقاً حسناً .

لذلك لعل الله سبحانه وتعالى يوفقنا في هذه اللقاءات المتكررة حول مفهوم الأخلاق لأن الخلق القويم هو الذي نبحث عنه ، والذي نتمنى أن يكون متمثلاً في المؤمنين المعاصرين كما كان متمثلاً في الصحابة الكرام .

لكني أنوه هذا التنويه : والله لو أن الصحابة الكرام فهموا هذا الدين كما نفهمه نحن ، يعني مظاهر ، واحتفالات ، مراتب علمية ، ومؤتمرات ، ومؤلفات ، لما خرج من مكة المكرمة ، الدين أخلاق .

مرة بعث النبي عليه الصلاة والسلام عبد الله بن رواحة ليقيم تمر خيبر ، فأهل خيبر أغروا هذا الصحابي الجليل بحلي نساءهم كي يقلل من قيمة التمر ، وكأنهم أرادوا أن يرشوه ، فقال : جئتكم من عند أحب الخلق إلي ، من عند رسول الله ، ولأنتم أبغض إلي من القردة والخنازير ، ومع ذلك لن أحيف عليكم ، فقال أهل خيبر : بهذا قامت السماوات والأرض ، وبهذا غلبتمونا .

ولن يستطيع المسلمون أن يحققوا أهدافهم ، كانوا رعاة للغنم ، فحينما اتبعوا النبي الأمي صاروا قادة للأمم ، لن يستطيعوا أن يحققوا أهدافهم ثانية ، وأن يستعيدوا دورهم القيادي إلا إذا تخلقوا بأخلاق النبي عليه الصلاة والسلام .

لكن المشكلة أنك إذا عرفت الأمر ولم تعرف الآمر تفننت في التفلت من الأمر أما إذا عرفت الآمر ثم عرفت الأمر تفانيت في طاعة الآمر .

هناك مرحلة مكية عاشها الصحابة مفقودة في حياتنا ، مرحلة معرفة الله عز وجل يعني مثلاً الله عز وجل قال في القرآن الكريم :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً)

(سورة البقة الآية : 26)

بعوضة ! من أقل المخلوقات شأناً عند الإنسان ، النبي أشار إلى ذلك ، قال :

((لو كَانت الدُّنيا تَعْدِلُ عند الله جَناحَ بَعُوضَةٍ ما سقى كافراً منها شَرْبَةَ ماء))

[أخرجه الترمذي سهل بن سعد رضي الله عنه]

هذه البعوضة وردت في القرآن الكريم ، بعد أن اكتشفت المجاهر الإلكترونية تبين أن في رأس البعوضة مئة عين ، وفي فمها 48 سناً ، وفي صدرها ثلاثة قلوب ، قلب مركزي ، وقلب لكل جناح ، وفي كل قلب أذينان ، وبطينان ، ودسامان ، وفي البعوضة جهاز لا تملكه الطائرات ، تملك جهاز استقبال حراري ، أي أنها لا ترى الأشياء لا بأشكالها ولا بألوانها ، ولا بأحجامها ، بل تراها بحرارتها فقط ، جهاز رادار ، وأن حساسية هذا الجهاز واحد على ألف من الدرجة المؤوية ، وما كل دم يناسبها، تملك جهاز تحليل دم ، هذا الجهاز يشير إليها أن دم هذا الطفل يناسبها ، ودم هذا الطفل لا يناسبها ، لئلا تقتل أثناء امتصاص الدم معها جهاز تخدير ، معها جهاز استقبال حراري رادار ، وجهاز تحليل وجهاز تدير ، ولأن لزوجة الدم لا تسمح للدم أن يسري في خرطومها ، معها جهاز تمييع أما خرطومها الذي لا يزيد عن قطر شعرة ، فيه ست سكاكين ، أربع سكاكين لإحداث جرح مربع وسكينان على شكل أنبوب تلتئمان لامتصاص الدم ، وفي أرجل البعوضة محاجم ، إذا وقفت على سطح أملس ، ومخالب إذا وقفت على سطح خشن ، فإذا قال الله عز وجل

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً)

نقول سبحان الله .

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

(سورة الملك)

يعني دقة صنعة البعوضة لا تقل عن دقة صنعة الحوت الأزرق ، الذي وزنه 150 طن ، خمسين طن لحم ، وخمسين طن دهن ، وخمسين طن عظام ، ويستخرج منه 90 برميل زيت ، يرضع وليده في كل رضعة 300 كغ ، 3 رضعات طن حليب ،

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

دقة الصنعة ، وإتقان الصنعة في البعوضة كالحوت تماماً ، إذا عرفنا الله سبحانه وتعالى ، ثم عرفنا أمره تفانينا في طاعته ، أما إذا لم نعرفه ، تفننا في التفلت من الأمر .

يعني الانضباط الأخلاقي يحتاج إلى أن تعرف الله ، من هو هذا الإله العظيم ؟ ماذا ينتظرك لو أطعته، وماذا ينتظرك لو عصيته ، لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر على من اجترأت .

فالإنسان حينما يعرف من هو الله يعد للمليون قبل أن يعصيه ، لذلك يمكن أن نقول : أن معرفة الله أحد أكبر أسباب الانضباط الأخلاقي ، وهذا ما يميز المؤمن عن غير المؤمن .

سيدنا ابن عمر لقي راعياً ، قال له : بعني هذه الشاة وخذ ثمنها ، قال : ليست لي قال له : قل لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب ، وخذ ثمنها ، قال : والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها ، ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني فإني عنده صادق أمين ، ولكن أين الله ؟ هذا الراعي على ضعف ثقافته الإسلامية وضع يده على جوهر الدين .

والذي حصل علوماً لا نهاية لها ، ولم يستقم على أمر الله لم يعرف شيئاً من الدين ، لأنه الإنسان كما قيل : كفى بالمرء علماً أن يخشى الله ، وكفى به جهلاً أن يعصيه يعني لمجرد أن تطيع الله عز وجل فأنت على علم بالله ، ولمجرد أن تخالف أمره فأنت على نوع من جهل الله عز وجل ، ومعرفة الله أصل هذا الدين ، فالخلق الكريم لا يبنى إلا على معرفة بالآمر .

مرة ثانية : الإنسان قد تأتيه ورقة من دائرة البريد ، أن تعال غداً وتسلم رسالة مسجلة ، لا تتحرك شعرة ، وقد يذهب ، وقد لا يذهب ، قد تأته ورقة بالحجم نفسه ، من جهة أخرى ، قد لا ينام الليل ، الفرق بين الورقتين هو الآمر .

فنحن إذا عرفنا الآمر تفانينا في طاعته ، أما إذا لم نعرف الآمر تفننا في التفلت من الأمر .

إن شاء الله نسعى في الحلقات القادمة أن نرسخ معنى الأخلاق كمنطلق نظري أنا متى أطيع الله ؟ حينما أعرفه ، متى أتفانى في طاعته ؟ حينما أتقرب منه ، أما إذا نظرنا إلى الأخلاق مجردة عن معرفة الله في أغلب الظن أن الإنسان يتبع مصلحته ، وشهوته ونزوته ، ولا يعبأ بهذه التعليمات التي يسمعها من حين إلى آخر .

فكما أن الصحابة الكرام أقاموا في مكة المكرمة سنوات طويلة يتعرفون إلى الله بل إن الآيات المكية كلها تعريف بالله .

(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا)

(سورة الشمس)

(وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ)

(سورة الفجر)

أما المرحلة المدنية مرحلة التشريع ، يعني أنت بالكون تعرفه ، وبالشرع تعبده وما لم نجمع بين الخطين فالحركة عرجاء ، لا بد من أن نعرف الله أولاً ، عندئذٍ نتفانى في طاعته ثانياً .

إذاً : الخلق أبرز ما في هذا الدين ، كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى : الإيمان هو الخلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - موسوعة الأخلاق الإسلامية - الدرس (02-28) : علاقة الإيمان بالعبادات ـ ولكل حال عبادة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 09-01-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

فضيلة الدكتور لقد بينتم لنا معنى الأخلاق ، وعلاقة الأخلاق بالإيمان ، واليوم حبذا لو أننا نعرج على موضوع قريب إلى هذا الموضوع ألا وهو عن علاقة الإيمان بالعبادات ، فالله عز وجل يقول في محكم تنزيله :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

والسيدة عائشة رضي الله عنها عندما سُئلت عن خُلق النبي صلى الله عليه وسلم قالت : " كان خُلقه القرآن " .

فهل يا ترى القرآن كتاب أخلاق أم ماذا ؟ .

الدكتور :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

أستاذ أحمد جزاك الله خيراً على هذا السؤال ، لكن كتعقيب على قول السيدة عائشة رضي الله عنها : أنه كان خلقه القرآن ، هناك مقولة رائعة : القرآن كون ناطق الكون قرآن صامت ، والنبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي ، لأنه خلقه القرآن هو قرآن يمشي ، ولكن قد نشير على علاقة القرآن بالخلق ، قال تعالى :

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ *عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

(سورة الرحمن)

هناك من يسأل ، أيعقل أن يُعلم الإنسان القرآن قبل أن يُخلق ؟

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ)

أجاب بعض المفسرين : إن هذا الترتيب ليس ترتيباً زمنياً ، بل هو ترتيب رُتبي ، بمعنى أن وجود الإنسان لا معنى له من دون منهج يسير عليه .

أرأيت لو اشتريت آلة غالية الثمن ، عظيمة النفع ، دقيقة الصنع ، والشركة الصانعة لم ترسل لك تعليمات التشغيل والصيانة ، إن استخدمتها من دون التعليمات أعطبتها وإن خفت عليها جمدتها ، وجمدت ثمنها ، أليست التعليمات أهم من الآلة نفسها ؟ .

هذا معنى الآية الكريمة

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ *عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

لا معنى لوجود الإنسان من دون منهج يسير عليه .

أما كما تفضلت بسؤالك القيم علاقة الأخلاق بالتكليف ، أو بالعبادة ، نحن في حلقة سابقة بينت أن العبادة بتعريف جامع مانع دقيق ، هي طاعة طوعية ، وليست طاعة قسرية ، لأن الأقوياء يطاعون ، لكنها طاعة طوعية .

بالمناسبة : قمم البشر إما أن يكونوا أقوياء ، أو أنبياء ، الأنبياء ملكوا القلوب والأقوياء ملكوا الرقاب ، الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا ، والأقوياء أخذوا ولم يعطوا ، الأنبياء عاشوا للناس ، والأقوياء عاش الناس لهم ، الأقوياء يمدحون في حضرتهم ، الأنبياء يمدحون في غيبتهم .

فلذلك النبي الكريم قمة من قمم البشر ، بل إن الله سبحانه وتعالى أثنى على خلقه العظيم ، وأقسم بعمره الثمين ، قال :

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)

(سورة الحجر)

إذاً العبادة طاعة ، لكنها طاعة طوعية ، وليست قسرية ، ممزوجة بمحبة قلبية فما عبد الله من أطاعه ولم يحبه ، وما عبد الله من أحبه ولم يطعه .

تعصي الإله وأنت تظهر حبه   ذاك لعمري في المقال شنيع

لو كان حبك صادقاً لأطعته   إن المحب لمن يحب يطيع

إذاً هي طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية ، في هذا التعريف الذي ذكرته موجزاً في حلقة سابقة جانب معرفي ، وجانب سلوكي ، وجانب جمالي ، نحن ليس في الإسلام عندنا شيء اسمه إعجاب سلبي ، وهذا ما يقع به بعض المسلمين ، معجب بهذا الدين ، معجب بهذا المنهج ، عنده نزعة إسلامية ، عنده عاطفة إسلامية ، عنده خلفية إسلامية ، عنده أرضية إسلامية ، عنده اهتمامات إسلامية عنده عاطفة إسلامية ، لكنه ليس مسلماً .

ذكرت قصة في مناسب أخرى : أن طالباً ذهب إلى بلاد الغرب البعيدة ، ورأى فتاةً أحبها حباً جما ، فلما استأذن والده بالزواج منها ، رفض الوالد أشد الرفض ، وهدده بالتبرؤ منه إذا تزوجها ، وقد تعلق بها تعلقاً شديداً ، لكنه بعد حين خطر في باله أن يستأذن والده أنها إذا أسلمت هل يوافق على الزواج منها ؟ فأجاب والده بالإيجاب ، فاختل توازن هذا الشاب فرحاً ، لأن هناك بصيص أمل ، اشترى لها كتباً عن الإسلام باللغة الإنكليزية ، وبين لها أنها ما لم تسلم لن يستطيع الزواج منها ، قرأت هذه الكتب، لأنها ذكية جداً ، قالت له : لا بد من إجازة ، حتى أقرأ الكتب بعيدة عنك ، أو بعيدة عن ضغوطك ،

أخذت إجازة أربعة أشهر وقرأت هذه الكتب وهو عدها بالثواني ، لا بالساعات بالثواني ، وكادت روحه تزهق من شدة الانتظار ، وبعد أن انتهت المدة ، والتقى بها ، ألقت عليه كلمة زلزلته ، قالت له : لقد أسلمت ، لكنني لن أتزوجك ، لأنك لست مسلماً ، بحسب ما قرأت لست مسلماً .

فهناك من يتحدث عن الإسلام ، أنا أسميه إسلام صالونات ، يبدو أنه النظم الوضعية أصبحت في الوحل ، ولم يبقَ إلا الدين .

بالمناسبة : أحد كبار علماء في أمريكا زار بريطانيا ، والتقى بالجالية الإسلامية هناك ، عالم هداه الله إلى الإسلام ، وقال لهذه الجالية : أنا لا أصدق أن يستطيع العالم الإسلامي اللحاق بالغرب ، على الأقل في المدى المنظور ، لاتساع الهوة بينهما ، ولكنني مؤمن أشد الإيمان أن العالم كله سيركع أمام أقدام المسلمين ، لا لأنهم أقوياء ، ولكن لأن خلاص العالم بالإسلام ، ولكن بشرط أن يحسنوا فهم دينهم ، وأن يحسنوا تطبيقه ، وأن يحسنوا عرضه على الطرف الآخر .

إذاً طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية ، فالإسلام سلوك ، ليس إعجاباً سلبياً ، ليس ثناءً على هذا الدين ، الإسلام سلوك الإسلام وقف عند محكمات القرآن ، أن يكون المسلم وقافاً عند كتاب الله ، أن يكون مؤتمراً بما أمر الله ، منتهياً عما نهى الله ، وكل مسلم بإمكانه أن يطبق إسلامه في نفسه أولاً ، وفي بيته ثانياً ، وفي عمله ثالثاً ، وإذا فعل كل منا ذلك كنا في حال غير هذا الحال .

الأستاذ أحمد :

دكتور راتب ، يلفت أنظارنا في هذه الأيام إلى أن العبادة بحد ذاتها ، وكأنها تنقسم إلى شطرين ، الشطر الأول : هو العبادة الشعائرية إن صحت عليها هذه التسمية والشطر الثاني : هو ما يتعلق بالعبادة التعاملية التي تكون بين الأفراد فيما يكون بينهم ، حبذا لو نبين الفارقة فيما بين هاتين العبادتين .

الدكتور :

أولاً القرآن الكريم أكثر من ضرب الأمثال ، وأنا سأستعين بالمثل لأوضح هذه الحقيقة التي سألتني عنها :

هناك عام دراسي تسعة أشهر ، في دوام ، إلقاء دروس ، انتباه ، كتابة وظائف مذاكرات ، وفي ثلاث ساعات امتحان ، العبادة الشعائرية تشبه ساعات الامتحان الثلاثة والعبادة التعاملية تشبه العام الدراسي بأكمله .

فالعبادة التعاملية : الصدق ، الأمانة ، العفة الحلم ، الرحمة ، إحقاق الحق إبطال الباطل ، إنجاز الوعد، تحقيق العهد ، هذه المكارم التي تفتقر لها البشرية في الأرض الآن ، هذه عبادة تعاملية .

العبادة الشعائرية : هي الصوم ، والصلاة ، والحج ، والزكاة ، والنطق بالشهادة لكن أستاذ أحمد ، أنا مضطر أن أقول حقيقة : وأنا من منهجي أنني أواجه الحقيقة المرة لأنها أفضل ألف مرة من الوهم المريح ، أن العبادات الشعائرية ، الصلاة ، والصوم ، والحج والزكاة ، لا تصح ، ولا تقبل إلا إذا صحت العبادات التعاملية ، كيف ؟ طبعاً لولا الدليل لقال من شاء ما شاء .

((إن هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذون دينكم))

((ابن عمر دينك دينك إنه لحمك ودمك))

الصلاة : سأل النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه الكرام سألهم سؤالاً دقيقاً :

((من هو المفلس ؟ قالوا ـ على البداهة ـ : من لا درهم له ولا متاع . قال : لا ، المفْلسَ مَنْ أتى بصلاة وصيام وصدقة ، و قد ضرب هذا ، وأكل مال هذا ، وشتم هذا فيُأخذ هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإذا فنيَتْ حَسَنَاتُهُ طرحوا عليه سيآتهم ، ثم يُطْرَحُ في النار))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أو هريرة]

أين الصلاة ؟

((يؤتى برجال يوم القيامة ، لهم أعمال كجبال تهامة ، يجعلها الله هباءً منثورا قيل : يا رسول الله جلهم لنا ، قال : إنهم يصلون كما تصلون ، ويأخذون من الليل كما تأخذون ، ولكنهم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها))

إذاً لا تصح العبادة الشعائرية ، وفي رأسها الصلاة إلا إذا صحت العبادة التعاملية .

" ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام " قال هذا العالم الجليل التستري رحمه الله تعالى .

((ولأن أمشي مع أخ في حاجته خير لي من صيام شهر ، واعتكافي في مسجدي هذا))

[أخرجه الطبراني عن عبد الله بن عمر]

هذه العبادة التعاملية ، الشعائرية : الصلاة ، الصوم :

((مَن لم يَدَعْ قولَ الزُّور والعملَ بهِ ، فليسَ للهِ حاجة فِي أن يَدَعَ طعَامَهُ وشَرَابَهُ))

[أخرجه البخاري ، وأبو داود ، والترمذي عن أبي هريرة]

((ربى صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش))

هذا الصيام ، الحج :

((إذا وضع الحاج رجله في الركاب ، وقال : لبيك اللهم لبيك ، وكان حجه بمال حرام ، ينادى ألا لبيك ولا سعديك ، وحجك مردود عليك))

هذا الحج ، الزكاة : قال تعالى :

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

(سورة التوبة)

الشهادة :

((من قال لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة ، قيل وما حقها ؟ قال : أن تحجبه عن محارم الله))

ذكرت دليلاً على الصلاة ، والصيام ، والحج ، والزكاة ، والنطق بالشهادة فالعبادات الشعائرية لا تصح ، ولا تقبل إلا إذا صحت العبادات التعاملية ، وهذه حقيقة مرة هي عندي أفضل وعند العقلاء أفضل ألف مرة من الوهم المريح .

الأستاذ أحمد :

جزيت خيراً دكتور ، هذا السؤال فضيلة الدكتور يطرح علينا سؤالاً آخر ، هو أننا في هذه الأيام أيضاً نلحظ كثيراً من الناس يتعبدون الله عز وجل ، يصلي لأن والده يصلي يصوم لأن والده يصوم ، هل هذه من الممكن أن نطلق عليها بأنها عبادة الهوية مثلاً ؟ .

الدكتور :

لعل معنى هذا المصطلح الذي ذكرته لي جزاك الله خيراً ، عبادة الهوية تعني أنت من ؟ أنت قوي ؟ عبادتك الأولى إحقاق الحق ، وإبطال الباطل ، أنت غني ؟ عبادتك الأولى إنفاق المال ، الغني يصوم ويصلي ويحج ويزكي ، لكن الأولى إنفاق المال ، أنت عالم ؟ عبادتك الأولى إلقاء العلم ، وقد قال الله عز وجل :

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب الآية : 39)

أنت امرأة ؟ العبادة الأولى رعاية الزوج والأولاد .

((اعلم أيتها المرأة ، وأعلمِ من دونك من النساء أن حسن تبعل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله))

أستاذ أحمد ، هل تصدق أن النبي صلى الله عليه وسلم حينما فتح مكة ، ودعته بيوتاتها العريقة أن يبيت عندهم ، ماذا قال ؟ قال : انصبوا لي خيمة عند قبر خديجة ونصب لواء النصر أمام قبرها ، ليعلم العالم أجمع أن هذه المرأة التي في القبر شريكته في النصر .

عبادة الهوية أن تعبد الله فيما أقامك ، مثل لعل أخواتنا الكريمات المشاهدات ينتفعن به :

لو أن فتاة أو امرأة لها أولاد عدة ، قامت إلى قيام الليل ، وصلت ساعات طويلة وبكت بكاءاً شديداً ، وكانت في أعلى درجات القرب من الله ، لكنها قبل الساعة السابعة أصابها نعاس شديد ، فآوت إلى الفراش ، وأمرت أولادها أن يدبروا شأنهم وحدهم ، الغرفة باردة ، والطعام غير جاهز ، وظائفهم لم يكتبوها ، ثيابهم ليست منتظمة ، فلما ذهبوا إلى المدرسة عوقبوا كثيراً ، أنا أقول : المرأة التي تصلي

الفجر حاضراً ، وتهيئ الطعام لأولادها تدفئ لهم غرفتهم ، تراقب وظائفهم ، تراقب ثيابهم ، أقرب إلى الله ألف مرة من الأولى لأن الثانية عبدت ربها فيما أقامها .

لذلك عبادة الهوية أن تعبد الله فيما أقامك ، الغني له عبادة ، والقوي له عبادة والعالم له عبادة ، والمرأة لها عبادة ، هذه عن عبادة الهوية .

الأستاذ أحمد :

هل إذاً من قولك أن هذه العبادة الهوية أن هناك أنواعاً أخرى للعبادة أوسع وأشمل من عبادة الهوية ؟.

الدكتور :

قال بعضهم : عبادة الظرف ، عندك ضيف العبادة الأولى إكرام الضيف ، عندك قريب مريض العبادة الأولى تمريض المريض ، عندك ابن على مشارف امتحان أول عبادة أن تهيئ له جو الامتحان ، أن ترجئ بعض الاحتفالات ، عبادة الظرف أن تقوم بالظرف الاستثنائي خير قيام ، هذه عبادة ثانية .

ولكن كأني بك تسألني عن عبادة ثالثة ، أقرأ هذا في وجهك ، هي عبادة العصر إن أراد الطرف الآخر إفقارنا ، فاستخراج الثروات ، وتطوير الصناعات ، واستصلاح الأراضي ، وإنشاء السدود ، وتوفير الغذاء ، فويل لأمة تأكل ما لا تزرع .

أحداث الدانمرك نبهتنا إلى قضية ، أن خمسة ملايين إنسان يطعمون 55 مليون انتبهنا إلى قضية .

ويل لأمة تأكل ما لا تزرع ، وتلبس ما لا تنسج ، وأنا أضيف وتستخدم آلة لا تصنعها ، لأن قرارها ليس بيدها ، فعبادة العصر إن أراد الطرف الآخر إفقارنا استصلاح الأراضي ، إنشاء السدود ، استخراج الثروات ، تطوير الصناعات ، تهيئة فرص عمل ، حل مشكلات الشباب ، حل مشكلات الأمة، هو العبادة الأولى .

وإن أراد الطرف الآخر إضلالنا ، ترسيخ مبادئ الدين ، توضيح هذه المبادئ تبسيط هذه المبادئ ، إلغاء الخلافيات إلى هذه المبادئ ، الآن تعزيز قيم الإسلام ، مكافئة المتفوقين بهذه القيم ، وإن أراد الطرف الآخر إفسادنا أن نصون شبابنا وشاباتنا من كل انحراف ، أن نجعل الاهتمام بالشباب هدفنا الأول ، لأنهم المستقبل .

وأنا أقول لك كلمة ، وأرجو الله أن تكون على الصواب : لم يبقَ في أيدي المسلمين من ورقة رابحة إلا أبناءهم ، الأبناء هم المستقبل .

((أفضل كسب الرجل ولده))

[رواه الطبراني عن أبو بردة بن نيار رضي الله عنه]

هذه عبادة العصر ، إن أراد الطرف الآخر إفقارنا أن نغتني ، إن أراد إضلالنا أن نرسخ معالم ديننا ، إن أراد إفساد شبابنا وشاباتنا ، أن نحصنهم ، وأنا أتمنى أنك إذا منعت شاباً من شيء هيئ له البديل ، وإن أراد إذلالنا ، ينبغي أن نضحي بالغالي والرخيص والنفس والنفيس .

سيدنا عمر جاءه ملك الغساسنة مسلماً رحب به ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام طلب النخبة ، لكنه أثناء الطواف حول الكعبة بدوي من فزاره داس طرف ردائه ، فانخلع من كتفه ، هو ملك ، فالتفت نحو هذا الأعرابي وضربه ضربة هشمت أنفه ، لم يجد هذا الأعرابي بداً من أن يشتكي إلى عمر ، ذهب إليه ، وسيدنا عمر استدعى جبلة وهو ملك وقفا أمامه ، وقال عمر : لجبلة ، وصاغ هذا شاعر معاصر، قال عمر لجبلة : أصحيح ما ادعى هذا الفزاري الجريح ؟ قال : لست ممن ينكر شيا ، أنا أدبت الفتى أدركت حقي بيديا قال : أرض الفتى لا بد من إرضاءه ، ما زال ظفرك عالق بدمائه ، أو يهشمن الآن أنفك وتنال ما فعلته كفك ، قال : كيف ذاك يا أمير ؟ هو سوقة وأنا عرش وتاج ، كيف ترضى أن يخر النجم أرضا ؟ قال : نزوات الجاهلية ، ورياح العنجهية ، قد دفناها ، أقمنا فوقها صرحاً جديدا ، وتساوى الناس أحراراً لدينا وعبيدا ، فقال جبلة : كان وهماً ما جرى في خلدي أنني عندك أقوى وأعز، أنا مرتد إذا أكرهتني ، فقال عمر : عالم نبنيه ، كل صدع فيه يداوى وأعز الناس بالعبد بالصعلوك تساوى .

عبادة العصر أن نتعامل مع المستجدات تعاملاً جديداً ، أن نعرف موقعنا ، وأن نطلع على ما يجري في العالم ، وأن نتكيف .

الأستاذ أحمد :

فضيلة الدكتور بما أننا على مفهوم العبادة ، العبادة الشعائرية حبذا لو نفهم منكم كيف يمكن للمسلم أن يدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم كما بين ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن الله جل جلاله قال :

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف الآية : 180)

أنت لن تستطيع أن تتقرب إلى الله إلا بخلق مستمد من كماله ، الله رحيم ، إن كنت رحيماً تتقرب إلى الله ، إن كنت منصفاً تتقرب إلى الله ، إن كنت عادلاً تتقرب إلى الله هكذا ، ولكن كما أذكر دائماً : أن معرفة الله أصل في هذا الدين ، ونحن في موضوع الخلق إذا عرفنا الآمر ثم عرفنا الأمر الأخلاقي تفانينا في طاعة الآمر .

الحقيقة أحد رواد الفضاء ، حينما ركب مركبته وانطلق بها إلى الفضاء وتعلمون أستاذ أحمد أنه في عنا حادثة اسمها انتثار الضوء ، أي أن ذرات الهواء تعكس الضوء على ذرات أخرى لم يصبها

الضوء، في عنا حالة في الأرض اسمها ضياء ، وفي مكان في أشعة الشمس ، هذه الحالة مربوطة بالهواء فقط ، فلما ركب هذا الرائد الفضائي مركبته الفضائية ، وانطلق بها وتجاوز الـ65 ألف كم هي سمك طبقة الهواء ، ودخل في ما بعد طبقة الهواء ، صاح بأعلى صوته : لقد أصبحا عمياً ، كيف ؟ وكان أحد كبار العلماء الفلك العرب في هذه القاعدة الفضائية ، الحقيقة انتهى الهواء ، فانتهى انتثار الضوء ، فأصبح الظلام دامساً ، هذا شيء عُرف بعد أن صعدنا إلى الفضاء ، أما أن تأتي آية في القرآن قبل 1400 عام ، يقول الله عز وجل :

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)

(سورة الحجر)

القرآن الكريم فيه 1300 آية ، فيها إشارات إلى حقائق كشفت أخيراً ، ولا يقبل عاقل على وجه الأرض أنها عُرفت أثناء نزول الوحي ، هذه الآيات هي أدلة قاطعة على أن الذي خلق الأكوان هو الذي أنزل هذا القرآن .

لذلك إعجاز الأنبياء السابقين إعجازات حسية ، عصا أصبحت ثعباناً ، نار لم تحرق سيدنا إبراهيم ، لكن معجزة النبي معجزة علمية ، أي أن في القرآن 1300 آية تشير إلى حقائق لم تكن مكتشفة ، الآن اكتشفت .

فلذلك أنا أرى أن التفكر في خلق السماوات والأرض أقصر طريق إلى الله وأوسع باب ندخل منه على الله .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - موسوعة الأخلاق الإسلامية - الدرس (03-28) : الأخلاق والوقت
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-01-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم ترحيب :

الأستاذ أحمد :

سيدي الكريم ، الأخلاق أمرٌ عظيم طيبٌ مباركٌ ، ولكن هل له علاقة بالوقت ، وبقسم الله عز وجل بالوقت ، وإن وجد فما الرابط بين الأخلاق والوقت ؟

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

الإنسان زمن كلما انقضى يوم انقضى بضع منه :

أستاذ أحمد ، لا بد من مقدمة ، الجماد شيء يشغل حيزاً وله وزن ، وله أبعاد ثلاثة ، أما النبات فأيضاً شيء يشغل حيزاً ، وله وزن ، وله أبعاد ثلاثة ، لكنه ينمو ، الحيوان شيء يشغل حيزاً ، وله أبعاد ثلاثة، وله وزن ، وينمو كالنبات ، ويتحرك ، أما الإنسان فشيء يشغل حيزاً ، وله أبعاد ثلاثة ، وله وزن ، وينمو ، ويتحرك ، ويفكر .

إذاً : أودع الله في الإنسان قوة إدراكية ، هي الحاجة العليا في الإنسان ، وما لم تلبَّ هذه الحاجة للبحث عن الحقيقة فقد يهبط الإنسان عن مستوى إنسانيته إلى مستوى آخر لا يليق به .



إذاً : أودع الله في الإنسان قوة إدراكية ، فلا بد من أن يعرف الإنسان سر وجوده وغاية وجوده ، لا بد من أن يعرف حقيقة الكون ، وحقيقة الحياة ، وحقيقته هو ، ومن أدق

تعريفات الإنسان تعريف ورد عن الإمام الجليل الحسن البصري ، " أنه بضعة أيام ، كلما انقضى يوم انقضى بضع منه " ، هذا تعريف جامع للإنسان .

وما من يوم ينشق فجره إلا وينادي : يا ابن آدم أنا خلق جديد ، وعلى عملك شهيد ، فتزود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة .

إذاً : الإنسان كائن متحرك ، وفي علم الزمن أننا إذا حركنا نقطة رسمت خطاً ، وإذا حركنا خطاً رسم سطحاً ، وإذا حركنا سطحاً شكل حجماً ، وإذا حركنا حجماً شكّل زمناً ، ففي أدق تعريفات الزمن أنه البعد الرابع للأشياء ، والإنسان كائن متحرك حسب النظرية التي جاء بها إنشتاين ، حينما اكتشف السرعة المطلقة في الكون إنها سرعة الضوء .

بالمناسبة ، لطيف علمي : الضوء سرعته الضوئية 300 ألف كيلومتر في الثانية ، وأيّ جسم سار مع الضوء أصبح ضوءًا ، إذا سار الشيء مع الضوء توقف الزمن ، هذا اللقاء الطيب تنعكس منه أمواج ، فلو سار الإنسان معها رأى هذا المنظر إلى أبد الآبدين ، إذا سار الشيء مع الضوء توقف الزمن ، فلو سبق الضوء لتراجع الزمن .

نظرياً : لو أننا ركبنا مركبة تجاوزت سرعة الضوء فهذا شيء مستحيل ، لكن افتراضياً لرأينا معركة بدر كما هي ، لو قصرنا عن الضوء لتراخى الزمن ، الإنسان زمن ، في أدق تعاريفه ، أو رأس ماله هو الزمن ، أو أثمن شيء يملكه هو الزمن .

لذلك كما تفضلت أقسم الله لهذا المخلوق الأول ، وإذا قلت المخلوق الأول أعني بالأول رتبة ، لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية : 72)

الله تعالى يقسم بالزمن :

الله عز وجل أقسم بمطلق الزمن لهذا المخلوق الأول الذي هو في حقيقته زمن فقال :

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ)

(سورة العصر)

جواب القسم :

(إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ)



خالق السماوات والأرض يقسم بمطلق الزمن لهذا المخلوق الأول الذي هو في حقيقته زمن أنه خاسر لا محالة ، فلو أن الإنسان تساءل : يا رب كيف هو خاسر ؟ الجواب : مضي الزمن يستهلكه ، السبت ، الأحد ، الاثنين الثلاثاء ، الأربعاء ، الخميس، الجمعة مضى الأسبوع ، أول أسبوع ، ثاني أسبوع ، ثالث أسبوع ، رابع أسبوع مضى شهر ، أول شهر ، ثاني شهر، عاشر شهر ، مضت سنة ، وهكذا ، من عقد لعقد ، من شهر لشهر ، من أسبوع لأسبوع ، من يوم ليوم،

قال بعضهم : " الدنيا ساعة ، فاجعلها طاعة ، والنفس طماعة عوِّدها القناعة " .

ربنا عز وجل يقسم بهذا المخلوق الأول الذي هو في حقيقته زمن بمطلق الزمن أنه خاسر لا محالة ، لأن مضي الزمن يستهلك الإنسان .

الأستاذ أحمد :

عفواً دكتور ، هل بين قوله تعالى :

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

لو افترضنا أننا وضعنا معترضتين ، قوله :

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

وبين معترضتين أخريين قوله تعالى :

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

كأن قوله تعالى :

(آمَنُوا)

يربط بينها وبين قوله تعالى :

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

رابط ، وبين قوله تعالى :

(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

وبين قوله :

(وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ)

أيضاً يربط بينهما رابط ، فهل هذا صحيح ؟

الدكتور راتب :

الوقتُ بين الإنفاق الاستهلاكي والإنفاق الاستثماري :

الحقيقة أن رحمة الله في كلمة

(إِلَّا)



كما تفضلت ، الإنسان خاسر لا محالة ، ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي : يا ابن آدم أنا خلق جديد ، وعلى عملك شهيد ، فتزود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة .

أنا مضطر أن أستخدم مصطلحين جديدين ، إنفاق الوقت إنفاقاً استهلاكياً ، وإنفاق الوقت إنفاقاً استثمارياً ، الوقت يمكن أن ينفق استهلاكاً ، فالإنسان عندها خاسر لا محالة ، ويمكن أن ينفق استثماراً ، عندئذٍ هو مستثنى من جواب القسم الذي قال الله فيه :

(إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ)

كيف ينفق الوقت استهلاكاً ؟ نأكل ، ونشرب ، وننام ، ونستمتع ، ونحن في غفلة عن سر وجودنا ، وغاية وجودنا ، ونتحدث من دون ضوابط ، ونكسب المال من دون ضوابط ، وننفقه من دون ضوابط، نقيم علاقات اجتماعية من دون ضوابط ، نحن نعيش لحظتنا ، مثل هذا الإنسان ينفق وقته إنفاقاً استهلاكياً ، إذاً : هو الذي ينطبق عليه قول الله عز وجل :

(إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ)

لكن متى أنفق الوقت إنفاقاً استثمارياً ؟ أنا حينما عرفت سر وجودي ، وغاية وجودي ، حينما عرفت أنني في حياة دنيا سمح لي فيها أن أدفع ثمن الحياة العليا ، حينما أكون في حياة دنيا أتعرف إلى الله ، وأطبق منهجه ، وأتقرب إليه ، حينما أكون في خدمة عباده ، عندئذٍ أن أنفق الوقت إنفاقاً استثمارياً ،

وأيّ شيء ينتهي عند الموت هو من الدنيا ، وأي شيء لا يدخل مع الإنسان في قبره هو من الدنيا ، هذا حينما أجعل هذا مقياساً فاصلاً بين ما هو للدنيا وما هو للآخرة ، أما حينما أتقرب إلى الله بعمل صالح ، حينما أدعو إلى الله ، حينما أعين ضعيفاً ، حينما أطعم جائعاً ، حينما أنشر دعوة ، حينما أتعهد أرملة ، حينما أنشئ دار أيتام ، أنا حينما أعمل عملاً يدخل معي في القبر هذا من الآخرة .

فلذلك رحمة الله كلها في كلمة :

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا)

أي أن إنفاق الوقت إنفاقاً استثمارياً أن أفعل في الوقت الذي ينقضي عملاً ينفعني بعد مضي الوقت ، لذلك أرجح الناس عقلا هو الذي يعد لآخرته .

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[أخرجه الترمذي وابن ماجه وأحمد]

قصة وعبرة :

في بعض الكتب الأدبية قصة ذات معنى كبير : صيادان مرَّا بغدير ، فيه ثلاث سمكات ، سمكة كيّسة ذكية ، وأكيس منها ، وعاجزة ، لما رأى الصيادان السمكات الثلاث تواعدا أن يرجعا ، ومعهما شباكهما ليصيدا ما في الغدير من السمك ، أما أكيسهن أي أعقلهن فعاشت المستقبل .

بالمناسبة ، الإنسان العاقل جداً يعيش المستقبل ، والأقلّ عقلا يعيش الواقع ، والغبي يعيش الماضي .

أما أكيسهن فإنها ارتابت وتخوفت ، وقالت : العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها ، ولم تعرِّج على شيء حتى خرجت من المكان الذي يدخل منه الماء من النهر إلى الغدير فنجت ، عاشت المستقبل ، وأما الكيسة الأقلّ عقلا فبقيت في مكانها حتى عادا الصيادان ، فذهبت لتخرج من حيث خرجت صديقتها ، يبدو أن بين النهر والغدير منفذا ، اطمأنت الثانية بأن المنفذ جاهز ، فذهبت لتخرج من حيث خرجت رفيقتها فإذا بالمكان قد سُد ، فقالت : فرطتُ ، وهذه عاقبة التفريط ، غير أن العاقل لا يقنط من منافع الرأي ، الآن احترقت أعصابها ، أيقنت بالهلاك ، وأجرت بعض المحاولات ، إما أن تنجح ، أو لا تنجح ، ثم إنها تماوتت ، تصنعت الموت ، فطفت على وجه الماء فأمسكها أحد الصيادين ، ووضعها

على الأرض بين النهر والغدير ، فوثبت في النهر فنجت ، وأما العاجزة فلم تزل في إقبال وإدبار حتى صيدت .

لذلك حينما أحتاط للأمور قبل وقوعها أكون في أعلى درجات العقل ، ولو أن الإنسان شاهد إنسانا يدفن تحت الأرض ، أنا أقول : ما من إنسان على وجه الأرض أعقل ممن يعمل لهذه الساعة التي لا بد منها، والإنسان في ثانية واحدة يفقد كل شيء ، كل عظمة الإنسان ، وهيمنته ، وقوته ، وحجمه المالي ، وسيطرته منوط بقطر شريانه التاجي ، ميلي وربع ، وكل عظمة الإنسان وجبروته ، وهيمنته ، وحجمه المالي منوط بسيولة دمه ، فإذا تجمد الدم في أي مكان في الرأس ، في مكان يفقد بصره ، وفي مكان يفقد نطقه ، وفي مكان يفقد ذاكرته ، وفي مكان يفقد حركته ، أي أن الإنسان في قبضة الله .

بالمناسبة :

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً)

(سورة الطارق)

في آية ثانية :

(إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

(سورة الأعراف)

المتانة في الفيزياء لمقاومة قوى الشد ، والقساوة لمقاومة قوى الضغط ، فكأن الإنسان مربوط بحبل مرخى ، لا يمكن أن ينقطع هذا الحبل :

(إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

ففي ثانية واحدة يكون الإنسان في قبضة الله .

حينما يؤمن الإنسان فلابد أن يتعرف إلى الحقيقة ، يتعرف إلى الله عز وجل خالق السماوات والأرض، واجب الوجود ، حينما يكشف الحقيقة الكبرى في الكون ، وحينما ينسجم معها ، ويطيع خالقه ، وحينما يتقرب إليه بالعمل الصالح ، وحينما يدعو إليه ، ينجو من الخسارة التي أقسم الله بالوقت للإنسان أنه خاسر .

الأستاذ أحمد :

بما أنك دكتور أعدتنا إلى مسألة الوقت ، يخطرني هنا قول المولى جل في علاه :

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

(سورة العنكبوت الآية : 45)

ويقول عز مِن قائلٍ في آية أخرى :

(إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً)

(سورة النساء)

فأيضاً نسمع منك إجابة على الربط ما بين الصلاة وبين أنها موقوتة ، لماذا لا تكون مفتوحة ، لماذا هي بمقدار ؟ .

الدكتور راتب :

الربط بين الصلاة والزمن :

1 ـ الصلاة هو الفرض الذي لا يسقط بحال :

بالمناسبة ، الإسلام له خمسة أركان ، الركن الوحيد المتكرر الذي لا يسقط بحال هو فرض الصلاة ، الشهادة ننطق بها مرة واحدة ، والزكاة تسقط عن الفقير ، والحج يسقط عن المريض والفقير ، والصيام يسقط عن المسافر والمريض ، لم يبقَ إلا الصلاة ، هي الفرض المتكرر الذي لا يسقط بحال ، لأنها عماد الدين .

((الصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين))

[ورد في الأثر]

((ليس كل مصل يصلي ، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي ، وكف شهوته عن محارمي ، ولم يصر على معصيتي ، وأطعم الجائع ، وكسا العريان ، ورحم المصاب ، وآوى الغريب ، كل ذلك لي))

[ورد في الأثر]

2 ـ معنى الصلاة متضمَّن في أركان الإسلام الأخرى :

بالمناسبة ، في الصلاة معاني أركان الإسلام كلها ، الإنسان في الصيام يدع الطعام والشراب ، والمصلي يدع الطعام ، والشراب ، والحركة ، والكلام ، هذا من معنى الصيام .

وفي الصلاة من معنى الحج ، أنه يتوجه إلى بيت الله الحرام .

وفي الصلاة من معنى الزكاة ، أن الوقت أصل في كسب المال ، هو يقتطع من وقته الثمين وقتاً ليصلي.

وفي الصلاة نطق بالشهادة ، إذاً : أركان الإسلام كلها مدمجة ، لأن الدين اتصال بالله عز وجل ، ولو ضغطت الدين كله بكلمة واحدة فهو اتصال بالله ، من هو الجاهل ؟ المقطوع عن الله ، من هو المؤمن ؟ المتصل بالله .

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران الآية : 159)

حينما يتصل الإنسان بالله يكون في قلبه رحمة ، وهذه الرحمة تنعكس ليناً .

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

(سورة آل عمران الآية : 159)

إذاً : الإنسان ليتلافى الخسارة المحققة لا بد من أن يبحث عن الحقيقة ، وأن يعمل بها ، وأن يدعو إليها، وأن يصبر على البحث عنها ، العمل بها ، والدعوة بها ، وبهذه الطريقة ينجو من الخسارة ، فالإنسان وقت .

الأستاذ أحمد :

يقول الله عز وجل :

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

(سورة مريم)

نحب أن نفهم هذا الوعيد الشديد من الله عز وجل لمن أضاع الصلاة .

الدكتور راتب :

الوعيد الشديد لمن ضيَّع الصلاة :

هذا الكلام دقيق وخطير جداً ، أتمنى على الإخوة المشاهدين أن يستوعبوا أبعاده .

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

(سورة النور الآية : 55)

تضييع الصلاة سبب لعدم الاستخلاف والتمكين :

بربك هل نحن مستخلفون ؟ لسنا مستخلفين ، هل نحن ممكّنون في الأرض ؟ لسنا ممكّنين ، هل نحن آمنون ؟ لسنا آمنين .

أنا أقول : لزوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين ، كيف تفسر ذلك ؟ الآية التي تفضلت بها :

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

وقد لقينا ذلك الغي ، قانون إلهي ، يعني زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين ، الآيات كثيرة جداً .

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

(سورة الصافات)

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم)

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة غافر الآية : 51)

ماذا نفعل بهذه المفارقة الحادة بين واقع المسلمين اليوم ووعود الله في القرآن الكريم ؟ هذه الآية تجيب عن هذا التساؤل :

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ)

بالمناسبة : من أروع ما قاله المفسرون حول قوله تعالى :

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

(سورة الشعراء)

القلب السليم هو القلب الذي سلم من شهوة لا ترضي الله ، وسلم من تصديق خبر يتناقض مع وحي الله، وسلم من عبادة غير الله ، هذه هي السلامة ، والقلب السليم هو الذي سلِم من تحكيم غير شرع الله .

الأستاذ أحمد :

الله عز وجل يقول :

(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ)

(سورة البقرة الآية : 45)

بما أننا نتحدث عن الاستخلاف في الأرض ، وأن الدين لا يمكّن لنا الآن ، ولأننا لم نأتي بالمقدمة فلن تأتي أيضاً النتائج ، إن أردنا أن ننهض من جديد يوصينا الله عز وجل فيقول :

(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ)

(سورة البقرة الآية : 45)

وما علاقة الصبر وهو خلق بالصلاة وهي عبادة ؟

الدكتور راتب :

علاقة الصبر بالصلاة :

أشرتم جزاكم الله خيراً إلى حقيقة خطيرة جداً ، الصلاة حقيقة اتصال بالله ، اتصال هذا المخلوق الحادث الفاني الضعيف بالأصل المطلق للكون ، فالضعيف إذا اتصل بالقوي أصبح قوياً ، والفقير إذا اتصل بالغني أصبح غنياً ، فالحقيقة أنّ كل الخير في الاتصال بالله عز وجل ، الصلاة عماد الدين كما قلت قبل قليل ، فأنا متى أصبر ؟ حينما يأتيني التعويض ، هناك مشكلة ، هناك مصيبة ، أما حينما

أتصل بالله عز وجل تكون السكينة ، والسكينة يشقى الإنسان بفقدها ولو ملك كل شيء ، ويسعد بها ولو فقد كل شيء ، ويا رب ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟ وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

إشارة القرآن إلى سرعة الضوء :

أستاذ أحمد ، هناك نقطة دقيقة جداً ، عقدت مؤتمرات عديدة للإعجاز العلمي ، عقد مؤتمر في موسكو ، ثم في بيروت ، ثم في دبي ، وفي مؤتمر موسكو طُرح موضوع يفوق حد الخيال ، أن نظرية إنشتاين التي قلبت مفاهيم الفيزياء هي مدرجة في آية قرآنية ، هي قوله تعالى :

(وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)

(سورة الحج)

الحقيقة أن العرب تعد السنة القمرية ، والقمر يدور حول الأرض دورة كل شهر ، فإذا أخذنا مركز الأرض ومركز القمر ، ووصلنا بينهما بخط ، هذا الخط هو نصف قطر الدائرة التي هي مسار القمر حول الأرض ، ونعرفه من نصف قطر الأرض مضاف إليه نصف قطر القمر ، مضاف إليه المسافة بينهما ، لو ضربنا هذا الخط باثنين القطر ، ضربنا بثلاثة فاصل 14 (البي)المحيط ، ضربناه 12بـ السنة ، بألف ، بألف سنة ، طالب من طلابنا في دقائق معدودة يمكن أن يحسب كم يقطع القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام ، هذا الرقم الكبير لو قسمناه على الوقت ، ونحن في الحديث عن الوقت ، لو قسمناه على ثواني اليوم لكانت المفاجأة الصاعقة ؛ أن النتاج هو سرعة الضوء ، الدقيقة وليست التقريبية ، 752 299 ، فما يقطعه القمر في رحلته حول الأرض ، في ألف عام ، يقطعه الضوء في يوم واحد ، وهذه الآية تضمنت سرعة الضوء المطلقة الدقيقة .

قلت قبل قليل في مطلع هذا اللقاء الطيب : إن سرعة الضوء التقريبية 300 ألف كم ، أما السرعة الدقيقة 299752 كيلومتر في الثانية ، هذه سرعة الضوء .

خاتمة :

إذاً : الإنسان متى لا يخسر ؟ ومتى يربح ، متى تتصل نعم الدنيا بنعم الآخرة ؟ حينما يعرف حقيقة الكون ، وحقيقة الحياة الدنيا ، وحقيقته ، هو وقت ، أو أثمن شيء يملكه هو الوقت ، أو رأس ماله الوحيد هو الوقت ، وهذا الوقت إما أن ينفق استهلاكاً كشأن معظم الناس الشاردين الغافلين ، أو ينفق استثماراً ، أي أن أفعل في الوقت الذي سينقضي عملاً ينفعني بعد مضي الوقت .



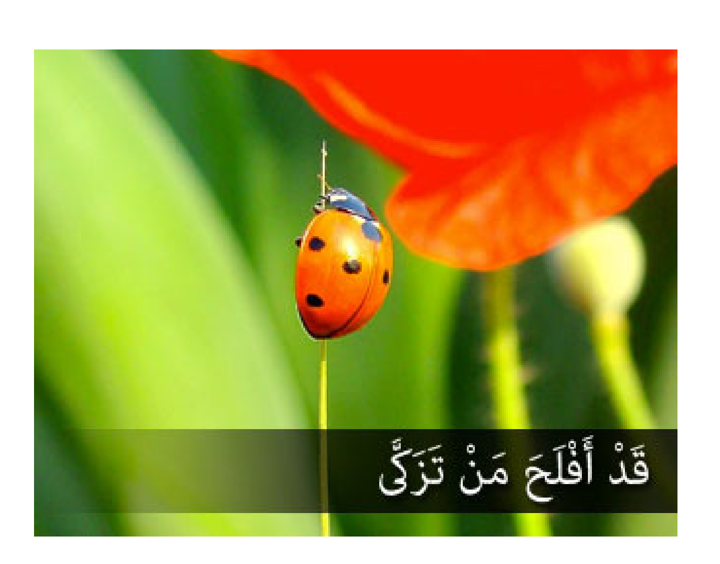
إذاً : ما دام الله قد أودع في الإنسان قوة إدراكية ، يجب أن يبحث عن الحقيقة أولاً ، وأن يعمل بها ثانياً، وأن يدعو إليها ثالثاً ، وأن يصبر على البحث عنها ، والعمل بها والدعوة بها .

الأستاذ أحمد :

مسألة أن يستفيد الإنسان من الوقت فيستثمره، فيكون زاداً له إلى الآخرة يذكرني بقول الله عز وجل :

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى)

(سورة الأعلى)



والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - موسوعة الأخلاق الإسلامية - الدرس (04-28) : الاستخلاف في الأرض
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-01-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وترحيب :

الأستاذ أحمد :
أيها الإخوة المشاهدون والأخوات المشاهدات ، يقول المولى عز وجل في محكم تنزيله :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

ويقول جلّ في علاه :

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

(سورة المؤمنون)

فلماذا خُلق الإنسان على وجه الأرض ؟ ولماذا جعله الله عز وجل خليفة له على أرض هذه البسيطة ؟ ولماذا حمل أمانة السماوات والأرض والجبال على حملها ؟
فضيلة الدكتور ، الله عز وجل كلفنا بعبوديته ، ومن هنا نفهم أن هذا التكليف لا بد له من مقومات ، حبذا لو تحدثونا عن مقومات التكليف من الله عز وجل لعباده المؤمنين .
الدكتور راتب :

العبودية لله أعلى المراتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .
يجب أن نعلم أن أعلى مرتبة على الإطلاق ينالها الإنسان أن يكون عبداً لله ، والدليل أن النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيد الخلق ، وحبيب الحق ، حينما وصل إلى أقرب مرتبة من الله عز وجل ، إلى سدرة المنتهى ، قال الله تعالى :

(فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى)

(سورة النجم)

1 ـ شمولية العبادة :

بقدر العبودية يكون الارتقاء ، لذلك الله عز وجل كلفنا أن نعبده ، إلا أن معظم المسلمين إذا ذُكرت كلمة عبادة تنصرف أذهانهم إلى العبادات الشعائرية ليس غير .

الإسلام منهج ، أكاد أقول : مؤلف من 500 ألف بند ، يبدأ من فراش غرفة النوم ، وينتهي بالعلاقات الدولية ، منهج فيه كل التفاصيل ، وما العبادات الشعائرية إلا جزء ضئيل جداً من منهج الإسلام .

إذاً : إذا قلنا : نعبد الله أي أن نعرفه ، لو سألتني أن أضغط الدين كله في كلمات ثلاث : تعرفه ، فتعبده، فتسعد بقربه في الدنيا والآخرة .

2 ـ ما هي العبادة ؟

التعريف الدقيق للعبادة : إنها طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية ، فيها جانب معرفي ، وجانب سلوكي ، وجانب جمالي ، الجانب السلوكي هو الأساس ، والمعرفي هو السبب ، والجمالي هو الثمرة ، لكن الله سبحانه وتعالى خلقنا للجنة .

3 ـ الناس في جانب العبادة قسمان لا ثالث لهما :

الكلام الدقيق جداً أن البشر على اختلاف مللهم ، ونحلهم ، ومذاهبهم وطوائفهم ، وأعراقهم وأنسابهم ، وكل الاختلافات التي في ضوئها يقسم البشر هم في الحقيقة رجلان ، أو نموذجان إنسان عرف الله فانضبط بمنهجه ، وأحسن إلى خلقه فسعد في الدنيا والآخرة ، وإنسان غفل عن الله ، وتفلت من منهجه، وأساء إلى خلقه فشقي في الدنيا والآخرة ، ولن تجد إنساناً ثالثاً ، الدليل :

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

(سورة الليل)

صدق أنه مخلوق للجنة ، الإنسان في الأصل خلق للجنة .

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى)

لأنه صدق أنه مخلوق للجنة اتقى أن يعصي الله ، وبنى حياته على العطاء .

لذلك ألف بعضُ الكُتّاب كتاباً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال في مقدمته يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام : " يا من جئت الحياة فأعطيت ولم تأخذ ، يا من قدست الوجود كله ، ورعيت قضية الإنسان ، يا من زكيت سيادة العقل ، ونهنهت غريزة القطيع ، يا من هيأك تفوقك لتكون واحداً فوق

الجميع فعشت واحداً بين الجميع ، يا من كانت الرحمة مهجته ، والعدل شريعته ، والحب فطرته ، ومشكلات الناس عبادته .

إذاً : حينما يعرف الإنسان أنه مخلوق للجنة يتقي أن يعصي الله ، ويبني حياته على العطاء ، أما حينما يكفر بالجنة ، يكذب بها لا يرى إلا الدنيا ، هي كل شيء ، هي مبلغ علمه نهاية آماله ، عندئذٍ يستغني عن طاعة الله ، فإذا استغنى عن طاعة الله بنى حياته على الأخذ .

لذلك الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا ، والأقوياء أخذوا ولم يعطوا ، الأنبياء عاشوا للناس والأقوياء عاش الناس لهم ، الأقوياء ملكوا الرقاب ، الأنبياء ملكوا القلوب .

فلذلك حينما يعرف الإنسان سر وجوده ـ أقول كلمة دقيقة ـ : إن لم تنعكس مقاييسه 180 درجة فإنه ما عرف سر وجوده ، لأن المؤمن يبني حياته على العطاء .

لذلك الله عز وجل جاء بنا إلى الدنيا ، وكلفنا أن نعرفه ، وأن نطيعه ، وأن نتقرب إليه ، وأن نسعد بقربه في الدنيا والآخرة .

يقول بعض العلماء : " في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ، ويقول : " مساكين أهل الدنيا ، جاؤوا إلى الدنيا ، وخرجوا منها ، ولم يعرفوا أجمل ما فيها " ، ويقول : " بستاني في صدري ، ماذا يفعل أعدائي بي ؟ إن أبعدوني فإبعادي سياحة ، وإن حبسوني فحبسي خلوة ، وإن قتلوني فقتلي شهادة ، فماذا يفعل أعدائي بي ؟ " .

فالناس على اختلاف مللهم ، ونحلهم ، وانتماءاتهم ، وأعراقهم ، وأنسابهم ، وطوائفهم ومذاهبهم ، وأديانهم ، هم نموذجان :

(أعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

(بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

(سورة الليل)

فالذي كذب بالجنة استغنى عن طاعة الله ، وبنى حياته على الأخذ ، لا على العطاء .

الآن الله عز وجل خلقنا لجنة عرضها السماوات والأرض .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قَالَ اللَّهُ :

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه]

كل إنسان مرئياته محدودة ، سافر إلى القاهرة ، إلى دبي فرضاً ، إلى لندن ، لكن كوالالمبور ما سافر إليها ، هناك مدن كثيرة ، فدائرة المشاهدات محدودة جداً ، أما المسموعات فكبيرة جداً ، ففي الأخبار

تستمع إلى ألف اسم مدينة ، لكن دائرة الخواطر لا نهائية ، قد يخطر في بالك إنسان طوله من هنا إلى القمر ، الحديث :

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

4 ـ الإنسان مخلوق للجنة فلابد من الإعداد لها :

الإنسان مخلوق للجنة ، أما الدنيا فهي مكان لدفع ثمن الجنة ، الآية الكريمة :

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ)

(سورة الزمر الآية : 74)

لولا أن الله جاء بنا إلى الأرض ، وتعرفنا إليه ، واستقمنا على أمره ، وعملنا الصالحات ، وأقبلنا عليه، وكسبنا الأعمال الصالحة لما كنا في الجنة .

كيف لو أن إنسانا أخذ شهادة عليا من جامعة عريقة ، ودخله صار فلكيا ، لما يمرّ أمام الجامعة التي درس فيها يقول : لولا هذه الجامعة لما كنت في هذا الحال .

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ)

إذاً : الإنسان مكلف أن يعبد الله ، أي أن يعدّ نفسه لجنة عرضها السماوات والأرض ، والدنيا أحقر من أن تكون عطاءً من الله ، وهي أقلّ من أن تكون عقاباً ، لأنها منقطعة ، فالموت ينهي كل شيء ، ينهي قوة القوي ، ينهي ضعف الضعيف ، ينهي غنى الغني ، ينهي فقر الفقير ، ينهي وسامة الوسيم ، ينهي دمامة الدميم ، ينهي عزة العزيز ، ينهي ذل الذليل ، الموت ينهي كل شيء ، إذاً : هي أحقر من أن تكون عطاءً ، نسأل الله السلامة ، لكن هدفَ الإنسان الآخرة ، فما لم ينقل اهتماماته إلى الآخرة فهو في خسارة كبيرة .

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة الزمر الآية : 15)

إذاً : الله عز وجل كلفنا أن نعرفه ، ثم كلفنا أن نعبده ، لتكون المعرفة والطاعة ثمناً للجنة .

الأستاذ أحمد :

دكتور ، أمرنا الله عز وجل فقال :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا)

(سورة الزمر)

هل هذا النظر يوصلنا إلى معرفة الله عز وجل ؟

الدكتور راتب :

لابد من التفكر في خَلق الله وأفعاله وكلامه :

الإنسان مكلف أن يتفكر في خلق السماوات والأرض ، في خلقه ، ومكلف كما تفضلت أن ينظر في أفعاله ، ومكلف أن يتدبر كلامه ، كيف نعرف الله ؟ نعرفه من خلقه تفكراً ، من أفعاله تدبراً ، من أفعاله نظراً ، من آياته القرآنية تدبراً ، هذه الطرق التي يمكن أن تعرف بها إلى الله عز وجل ، لأنه كما أن خلقه معجز أفعاله معجزة .

هذه ملاحظة مهمة جداً ، أنا أتمنى أن نبدأ بمعرفة الله من خَلقه أولاً ، هذا طريق آمن ، كلما ازددت فكراً ازددت معرفة بالله ، ثم أن نثني بكلامه ، ونؤخر معرفة الله من أفعاله إلى المرحلة الثالثة ، لأنك إن عرفته من خلال خَلقه ، ثم إن عرفته من خلال كلامه ، هاتان المعرفتان تلقيان الضوء على أفعاله ، لأنك لن تستطيع أن تثبت عدل الله بعقلك ، لأن عقلك وعقلي وعقل أي إنسان قاصر عن إدراك أفعال الله ، إلا في حالة واحدة مستحيلة ، أن يكون لك علم كعلم الله .

إذاً : نحن في موضوع الأفعال ، لأنها كحقل ألغام ، قد تجد بلادا غنية جداً ، غارقة في النعيم ، والانحراف ، والشذوذ ، والربا ، وما شاكل ذلك ، وهي قوية وتهدد العالم .

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً)

(سورة الأنعام الآية : 44)

وقد تجد بلادا تعاني مشكلات كثيرة ، لكن هذه المشكلات تقربها من الله عز وجل ، فالله عز وجل يقول :

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة الأعراف)

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)

(سورة القصص)

كل محنة وراءها منحة ، كما تفضلت ، وكل شدة وراءها شدة إلى الله عز وجل ، هذه حقيقة المصائب أحياناً ، ولها إن شاء الله برامج خاصة .

الأستاذ أحمد :

حبذا دكتور لو تسلطون الضوء على قولكم إن التكليف له المقومات .

الدكتور راتب :

مقومات التكليف :

بارك الله بك ، الحقيقة ما كلفنا الله أن نعبده إلا وأعطانا مقومات العبادة .

1 ـ الكون :

ومن أبرز المقومات هذا الكون الذي ينطق بوجود الله ، ووحدانيته ، وكماله ، هذا الكون قرآن صامت ، والقرآن كون ناطق ، والنبي عليه الصلاة والسلام قرآن يمشي ، هذا الكون يشفّ عن أسماء الله الحسنى ، وعن صفاته الفضلى ، لأن الله سبحانه وتعالى لا تدركه الأبصار ، ولكن العقول تصل إليه من خلال صنعته ، فالصنعة تدل على الصانع ، والنظام يدل على المنظم ، والحكمة تدل على الحكيم ، والتسيير يدل على المسير .

إذاً : هذا الكون هو الثابت الأول ، والمسلم إذا أراد أن يحاور أي مسلم ، الثابت الأول الذي يسكت الألسنة ، ويطأطئ الإنسان رأسه له هذا الكون ، هو بلغة عالمية ، أي إنسان مِن أيّ لغة يرى الشمس والقمر ، والليل والنهار ، يرى النبات ، يرى الطفل حينما يولد ، هناك آيات لا تعد ولا تحصى ، صدق أن الآيات المتعلقة بخلق الإنسان لو أمضى الإنسان حياته كلها ليتعرف إليها لم يستطع ذلك ، الله عز وجل :

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

(سورة الذاريات)

الماء :

كأس الماء ، الماء ينفرد من بين كل عناصر الأرض بخاصة ، لولا هذه الخاصة لما كان هذا اللقاء ، ولما كانت دمشق ، ولما كان العالم ، ولما كان البشر ، هذا الماء شأنه كشأن أي عنصر في الأرض ، يتمدد بالتسخين ، وينكمش بالتبريد ، إلا أن الماء ينفرد من بين كل العناصر أنه إذا بردته ، ووصل التبريد لدرجة زائد أربعة تنعكس الآية ، يزداد حجمه .

الحقيقة أن وحدة القياس للكثافة هو الماء ، الماء واحد ، لو أن الماء إذا بردناه قلّ حجمه كأي عنصر في الأرض ، أي تزداد كثافته ، فيغوص الماء المجمد إلى أعماق البحار ، وبعد حقب معينة تتجمد البحار كلها ينعدم التبخر ، ينعدم المطر ، يموت النبات ، يموت الحيوان ، يموت الإنسان .

الماء ينفرد بهذه الخاصة ، أنه حينما تبرده إلى درجة زائد أربع يزداد حجمه ، وتقلّ كثافته فيطفو ، وتبقى البحار دافئة ، ويبقى الجليد في الطبقة السطحية .

إذاً : الكون يدل على عظمة الله عز وجل ، وأنا أقول دائماً : إن التفكر في السماوات والأرض هو أقصر طريق إلى الله ، وأوسع باب ندخل منه على الله ، والنبي عليه الصلاة والسلام نهانا عن أن نفكر في ذات الله ، في خطوط حمر ، لكنه سمح لنا أن نفكر ما شاء لنا التفكر في مخلوقات الله .

الكواكب والأبراج والنجوم :

إذاً : الكون الثابت الأول ، طبعاً بمجراته ، شيء سريع بين الأرض والشمس 156 مليون كم ، يقطعها الضوء في 8 دقائق ، الشمس حجمها يزيد على حجم الأرض بمليون و300 ألف أرض ، مليون و300 ألف أرض يمكن أن تستوعبها الشمس ، وبينهما 156 مليون كم ، وهناك ببرج العقرب أحد أبراج السماء .

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

(سورة البروج)

نجم صغير أحمر متألق يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما .

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

(سورة غافر)

الكون بما فيه من آيات دالة على عظمة الله يطأطئ لها كل إنسان .

الأستاذ أحمد :

عندما قلتم دكتور : إن الكون هو الثابت الأول فهمنا أن هناك ثابتاً ثانٍ أو أكثر .

الدكتور راتب :

2 ـ العقل :

الثابت الثاني هو العقل ، العقل له مبادئ ، هو تقريباً كآلة حاسبة في جيبك ، لو فرضنا معك آلة حاسبة، وقبضت مبلغا ، ولم تستخدمها تندم .

مبادئ العقل : السببية ـ الغائية ـ عدم التناقض ـ

العقل له مبادئ ، السببية أحد أكبر مبادئه يعني أنا وأنت لا يمكن أن نفهم أي شيء بلا سبب ، والمبدأ

الثاني الغائية .

أنت قد تجد شاحنة تتدلى منها سلسلة ، لماذا ؟ أنت لا علاقة لك بالشاحنات ، ولا بنقل البترول ، ولا بأي شيء آخر ، لكن عندك حاجة عقلية أن تفهم لمَ هذه السلسلة مدلات من السيارة .

إذاً أنت لا تفهم شيئاً إلا بغايته ، ولا تفهم شيئاً إلا بسببه ، ولا تقبل التناقض وأروع ما في القضية أن مبادئ العقل تتناسب تناسباً تاماً مع قوانين الكون ، الله عز وجل جعل لكل شيء سببا ، وأعطاك جهازا لا يفهم أيّ شيئاً بلا سبب ، وكأن الله ينقلك بلطف إلى ذاته الكريمة .

الدجاجة من البيضة ، والبيضة من الدجاجة ، وأول دجاجة مَن خلقها ؟ هذا الذي أغفله داروين ، أول مخلوق لو كان وحيد الخليةَ من خلقه ؟

لذلك العقل هو الثابت الثاني ، العقل أداة معرفة الله ، لكن إما أن نستخدمه كي نعرف الحقائق ، أو أن نستخدمه لنبرر أخطائنا .

الأستاذ أحمد :

ولذلك أتى توجيه الله عز وجل في القرآن الكريم فخاطب المؤمنين بقوله :

(لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

(سورة الجاثية)

(لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

(سورة الروم)

(لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

(سورة الزمر)

(لِأُولِي النُّهَى)

(سورة طه)

الدكتور راتب :

لا للعقل التبريري :

الآيات التي تتحدث عن العلم والعقل والتفكر والتذكر تقترب من ألف آية ، فالعقل مبادئه ثلاثة ، مبدأ السببية ، الغائية ، عدم التناقض ، متوافقة تماماً مع مبادئ الكون ، إلا أن هناك عقلاً تبريرياً يُستخدم لغير ما خلق ، أن ينحرف الإنسان فيبرر خطأه بفلسفة عقلية ، هذا سماه العلماء العقل التبريري ، وهو ساقط ، الدليل في القرآن :

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ)

(سورة المدثر)

العين ؛ لو أنها تتمتع بأعلى درجات الرؤيا ، وقبع إنسان في غرفة مظلمة لا قيمة لها ، لو جلس اثنان في غرفة مظلمة أعمى وبصير ، فهما سيان ، حاجة العقل إلى وحي السماء كحاجة العين إلى الضوء ، العقل وحده يضل ، لكن العقل إذا اهتدى بنور الوحي فلا يضل ، لذلك العين تحتاج إلى نور مادي ، والعقل يحتاج إلى وحي .

العقل من حيث الاستعمال حياديٌّ :

الإنسان المنحرف والشارد يستخدم العقل للتبرير ، والدليل أن الله سبحانه وتعالى حينما وصف نبيه الكريم فقال :

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

(سورة النجم)

المفهوم العكسي لهذه الآية : أناس كثيرون ينطقون عن الهوى ، يتكلم لصالحه ، يمدح شيئاً ليبيعه ، يمدح شخصاً لينتفع منه ، ينافق لشخص كي يأخذ منه ، فهذا نطق عن الهوى ، فالنبي عليه الصلاة والسلام معصوم عن أن ينطق عن الهوى :

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

العقل أحياناً نستخدمه لخلاف ما خُلق له .

مثلاً : هناك آلات طابعة ملونة في البدايات كانت غالية جداً ، لتصميم البروشولات ، تصميم أغلفة الكتب ، يمكن أن نستخدمها ، وأن نربح أرباحاً طائلة ، أما لو استخدمناها لتزوير العملة ، ماذا نقول ؟ استخدمناها لخلاف ما صنعت له ، هذا عمل ممنوع ومحرم ، وعليه عقوبات .

العقل حيادي ، هو جهاز بالغ التعقيد ، بالمناسبة : الدماغ أعقد ما في الكون ، ففي الدماغ 140 مليار خلية سمراء لم تعرف وظيفتها حتى الآن ، وفيه 14 مليار خلية قشرية فيها التذكر والمحاكمة والقرارات ، لذلك نأخذ الآية الكريمة :

(لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ)

(سورة العلق)

مقدمة الرأس فيها مكان القرار ، فالخطأ يبدأ من مقدمة الرأس

(لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ)

(نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ)

(سورة العلق)

مهمةُ العقل لفهم النقل لا للحكم عليه :

العقل ميزة كبيرة جداً ، ولكن العقل مربوط بالباطل ، لو تعارض العقل مع النقل فنحن مع النقل ، الدليل :

لو أيقظنا إنسانًا من قبره قبل خمسين عامًا ، وأريناه قرصًا مدمجًا ، أنا عندي قرص فيه 1800 عنوان ، والعنوان الواحد فيه 70 مجلدًا ، وتقرأ كل هذه الكتب في ثوانٍ معدودة ، هذا شيء لا يصدق قديماً ، فهذا الذي مات قبل خمسين عامًا لا يصدق هذا ، أما اليوم فهو شيء مألوف ، لأن العقل مربوط بالواقع ، لكن الله سبحانه وتعالى مطلق .

إذاً : العقل علاقته بالنقل أنه من أجل أن نفهم النقل ، وأن نتأكد من صحة النقل ، أما أن يكون العقل حكماً على النقل فهذا مستحيل ، لأن العقل محدود بالواقع ، بينما النقل متعلق بالمطلق .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - موسوعة الأخلاق الإسلامية - الدرس (05-28) : الرفق واللين انعكاس داخلي

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-02-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الأستاذ أحمد :

سيدي الكريم نتمنى اليوم أن نقف أمامكم مع خُلق جديد ، ألا وهو الرفق ، فهل الرفق هو اللين ؟

الدكتور راتب :

خُلقُ الرفق :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

1 ـ الرفقُ أساسه رحمة مشتقة من الاتصال بالله :

أستاذ أحمد ، الإنسان عقل يدرك ، ونفس تنطوي بين جنبيه ، وجسم يتحرك ، النفس لها خصائص ، فبقدر اتصالها بالله تشتق منه الكمال ، فأي إنسان له صلة بالله يشتق منه الرحمة ، واللطف ، والإنصاف ، فالرفق انعكاس رحمة في القلب ، الرحمة في القلب تنعكس ليناً ورفقاً ، فخلق الرفق خاص بالمؤمنين ، أما المنقطعين عن الله عز وجل فهم قساة في أقوالهم وفي ألفعالهم ، إلا من كان ذكياً منهم فيتلبس بلبوس الرفق ليحقق مصالحه ، وهذا موضوع دقيق جداً ، فالذكي قد يصل في بعض تصرفاته إلى ما يشابه الفقيه ، لكن الباعث هو الدنيا ، الباعث هو انتزاع إعجاب الآخرين ، بينما المؤمن حينما تنعقد صلته بالله عز وجل يشتق منه الكمال .

لذلك الصلاة أهم شيء في الدين ، من ترك الصلاة فقد ترك أعظم أركان الدين ، وهو الصلاة .

إذاً : الرفق خُلق أساسه رحمة في القلب ، والرحمة التي في القلب أساسها اتصال بالرحيم .

((إنَّ اللهَ عز وجلَ رَفيق يحبُّ الرِّفق))

[أخرجه أبو داود عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه]

رحمة الله عز وجل أيضاً يمكن أن يشتق منها الإنسان جزءًا كبيرا من أخلاقه .

2 - الرفقُ لين في الأقوال والأفعال والأحوال والمعاملات :

الرفق هو اللين في المعاملة ، اللين في القول ، اللين في الفعل ، أن تكون مألوفاً أن تألف وتؤلف ، هذا كله من مظاهر الرفق في الإنسان .

لذلك الرفيق لين في معاملته ، لين في أقواله ، بل إنه يأخذ بالأسهل ، ما لم يكن الأسهل حراماً ، وما خُيِّر النبي بين شيئين إلا اختار أسهلهما ، إلا أن يكون حراماً .

من هو الرفيق ؟ هو الذي ينطوي على قلب رحيم ، هذه الرحمة انعكست رفقاً ، وليناً ، في الأقوال والأفعال ، وفي التصرفات ، بل وفي الأحكام ، الرفيق يرحم مَن حوله ، فلا يفتيهم إلا بالأيسر ، ما لم يكن هناك شبهة ، والرفيق الذي هو يرحم الناس ، فلا يأخذهم بالعزائم ، ويأخذ نفسه بالرخص .

كلمة رفيق تعني إنسانا موصول بالله ، اشتق من رحمة الله عز وجل هذا اللين في أقواله ، وفي أفعاله، فهو يألف ويؤلف ، يحبه كل من حوله ، مَن رآه بديهة هابه ، ومَن عامله أحبه ، هذا هو الرفيق بمنعكس إيماني ، الأصل هو الإيمان ، هذا الإيمان من مظاهره أن المؤمن رفيق بمَن حوله .

الأستاذ أحمد :

أستاذنا الكريم ، هذا تعريف الرفق ، لكن هذا الخُلق ، ونحن نتحدث عنه لا بد أن الباعث إليه إرشاد شرعي ، فأي هي توجيهات الله عز وجل لنا في الرفق ؟

الدكتور راتب :

الدليل القرآني على خُلق الرفق :

بارك الله بك ، الآية التي هي أصل في الرفق .

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)

(سورة آل عمران الآية : 159)

هذه الباء باء السبب ، يعني بسبب رحمة استقرت في قلبك يا محمد من خلال اتصالك بنا كنتَ ليِّنا .

مستحيل أن تتصل بالرحيم وتكون قاسياً ، مستحيل أن تتصل بالحكيم وتكون غير حكيم ، مستحيل أن تتصل باللطيف وتكون غير لطيف .

إن مِن ثمار الصلاة الأولى أن الإنسان باتصاله بالله يشتق منه الكمال ، فلا ترى إنساناً مصلياً يتمتع إلا بالأخلاق الكريمة ، لأن الأخلاق الكريمة نتيجة وثمرة يانعة من ثمرات اتصال العبد بربه ، لكن لا بد من التحكم قليلاً :

أداء الشعائر مع الانقطاع عن الله لا ينفع الإنسان :

هناك من يقف في الصلاة ويكبّر تكبيرة الإحرام ، ويقرأ الدعاء ، والفاتحة ، وسورة ، ويركع ويسجد ، وفق القواعد الشرعية ، وأحكام الصلاة ، لكن لأن له مخالفات كثيرة في الحياة ، في دخله شبهة ، في علاقاته الاجتماعية شبهة ، في أقوله شبهة ، في أفعاله شبهة ، هو مقطوع عن الله ، مقطوع عنه نفسياً، لكنه يؤدي الصلوات الخمس .

لذلك هذه نقطة دقيقة جداً ، النبي الكريم حينما سأل أصحابه :

((أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ ، فَقَالَ : إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا ، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

لا بد من أن أفرق بين المتصل بالله ومن يؤدي حركات الصلاة ، ويؤدي أقوالها وأفعالها ، حتى إن بعضهم قال : " سقط الوجوب ، وإن لم يحصل المطلوب " ، المطلوب لم يحصل ، إن الصلاة عندئذٍ لا تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ما دام هناك اتصال بالله حقيقي فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر نهيا ذاتيا ، لأنه اشتق من الله الكمال ، اشتق من الله العدل ، اشتق من الله الرحمة ، اشتق من الله اللطف ، اشتق من الله الحكمة ، فمن هو الرفيق ؟ هو الإنسان المتصل بالله عز وجل .

لئلا يختلط الأمر في أذهان الإخوة المشاهدين ، هناك اتصال بالله أساسه الاستقامة ، وهناك أداء لحركات الصلاة ، فلذلك المصلي إن لم يكن مستقيماً قبل الصلاة فلن يستطيع أن يقطف من الصلاة ثمارها .

إن الرفيق إنسان متصل بالله ، هذا الاتصال جعل قلبه يمتلئ رحمة ، هذه الرحمة انعكست ليناً ،

(فَبِمَا)

لباء للسبب ،

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

الرحمة شيء داخلي لها منعكس خارجي :

إن هذه الرحمة شيء داخلي لها منعكس خارجي ، كيف أن الإنسان قد يحب ، والحب شعوب داخلي في القلب ، ينعكس مودة ، وابتسامة ، وهدية ، واعتذارا ، ومداعبة أحياناً ، فالرحمة في القلب تنعكس لينا ، والحب في القلب ينعكس مودة .

إذاً :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

لينك ، ورفقك يا محمد صلى الله عليه وسلم كان بسبب رحمة من الله ، فلما كنت ليناً في معاملتك معهم أحبوك ، فلما أحبوك التفوا حولك ، فصار هناك اتصال ، ورحمة ، ولين ، والتفاف ، وهذه معادَلة . الرحمة شُقت من خلال هذا الاتصال ، والرحمة مشاعر داخلية ، تترجم إلى لين في العلاقات ، اللين يسبب محبة الناس ، إذاً : التفُّوا حوله .

الأستاذ أحمد :

كأنك تشير أستاذي إلى أن هذه الأمور النفسية التي تنطبع في القلب من الله عز وجل ، الصلة معه تنتج عملاً بالجوارح والأركان ، رسول الله صلوات الله وسلامه عليه كان من أكثر الناس صلة ووجداناً ، وشعوراً ، ونفساً بالله عز وجل ، وانطبع في ذلك على تصرفاته ، فلو أننا فتحنا كتب الشمائل والسير لوجدنا فصولاً وأبواباً كثيرة ، هذه تعد واحدة يقال لها فصل في تواضعه صلوات الله عليه ، في حلمه ، في كظمه الغيظ ، فما أمثلة ذلك من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ؟.

الدكتور راتب :

نتابع الآية :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ

الآن :

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

أي لو كنت منقطعاً عنا لامتلأ القلب قسوة ، ولانعكست القسوة غلظة وفظاظة ، وإذاً لانفض الناس مِن حولك ، هذه معادلة أخرى ، نحن أمام معادلتين الأولى : اتصال ، رحمة ، لين ، التفاف ، والثانية : انقطاع ، قسوة ، غلظة ، وفظاظة ، وانفضاض ، وهذا قانون ، والبطولة أن تكتشف السنن الثابتة في القرآن الكريم .

وقد نجمع في القرآن الكريم عددا كبيرا جداً من القوانين ، وهذه القوانين علاقات ثابتة ، فمن هو الذكي؟ من هو العاقل ؟ من هو الموفق ؟ هو الذي يكتشف هذه القوانين ، وقدم الأسباب ، فقطف الثمار.

إذاً : الدين معادلات ، هناك من يفهم الدين فهماً ضبابياً ، فهماً عشوائياً ، فهماً غير واضح ، وحينما تتصل بالله الاتصال الحقيقي فلابد من أن تكون رحيماً ، لا بد من أن تكون منصفاً ، لا بد من أن تكون حكيماً ، لأن هذا شأن العبد حينما يتصل بالمطلق ، بخالق السماوات والأرض ، بالذات الكاملة ، بصاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى .

إذاً : هذه الآية تعد أصلاً في خلق الرفق :

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

هذه لكم معشرَ الدعاة :

لكن لا بد من تعليق : أنت يا محمد صلى الله عليه وسلم ، هكذا منطوق الآية ، مع أنك نبي ، ورسول، بل سيد الأنبياء والرسل ، مع أنه يوحى إليك ، مع أنك كامل ، مع أنك أوتيت المعجزات ، مع أنك أوتيت الوحي ، مع أنك أوتيت القرآن ، مع كل هذه الخصائص المتميزة ، أنت أنت بالذات :

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

لو سألنا داعية لا يوحى إليه ، وليس نبياً ، ولا رسولاً ، ولا كلمه الله ، لا فصيحا ، ونطقاً ، وخلقاً ، وكان مع هذا غليظ القلب ، قاسيًا في دعوته ، نقول له : لمَ الغلظة ؟ الذي ملك كل الميزات لو أنه كان فظاً غليظ القلب لانفض الناس من حوله ، هذا درس للدعاة ، لذلك :

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

(سورة النحل الآية : 125)

هناك ملمح في الآية دقيق جداً : حينما تدعو إلى الله ينبغي أن تختار العبارة الحسنة اللطيفة ، لكن حينما تجادل مع المجادلة في نفس ، قد تُجرح ، والإنسان أحياناً يربط أفكاره بكرامته ، أما بالمجادلة لا ينبغي أن تختار العبارة الحسنة ، ينبغي أن تختار العبارة الأحسن ، لأن أحسن اسم تفضيل .

أخلاق الجهاد وأخلاق الدعوة :

هناك أخلاق الدعاة ، وهناك أخلاق الجهاد ، فرق كبير بينهما ، لذلك الله عز وجل يقول :

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

(سورة فصلت)

هذه أخلاق الدعوة ، لكن في الحرب شأن آخر .

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ)

(سورة التوبة الآية : 73)

إن الخطأ الذي وقع فيه الدعاة أن الآيتين تختلطان عندهما ، فقد يسلك الداعية خُلقَ الجهاد في مجال الدعوة ، وقد يكون قاسياً في ملاحظاته ، وقاسياً في تصرفاته ، فيبعد الناس عنه ، عندئذٍ ينعزل .

لقد علّمنا النبي ليكون الإنسان لطيفاً ، لين الجانب ، رفيقاً مع الناس كي يملك قلوبهم ، وسهلٌ جداً أن تكون قاسياً ، لكن البطولة الرائعة أن تكون حكيماً ، دائماً وأبداً يمكن أن تقف موقفا ذكيا ، وحكيما ، ورحيما من أجل أن تشدَّ إنسانا إليك ، لأن تصرفًا واحدًا أحمق تبعده عنك .

إن بطولة الداعية لا في معلوماته ، بل في حِكمته ، وفي قلبه الكبير الذي يتسع لكل الناس ، وفي إنصافه ، وفي تلطفه مع الآخرين ، وهذه آية أصل في الرفق ك

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

الأستاذ أحمد :

نرجع إلى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأين هي الأمثلة الواقعية العملية على خُلقه الرفق صلوات الله عليه .

الدكتور راتب :

أحاديث نبوية الواردة في خُلق الرفق :

أولاً : إذا قلت سنة النبي عليه الصلاة والسلام فسنةُ النبي تعني أقواله .

الحديث الأول :

عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ))

[أخرجه مسلم وأبو داوود عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها]

أيّ عملٍ أو نصيحة مع العنف سقطت قيمتها ، وكلُّ تدريس مع العنف لا قيمة له ، إذا أخطأ الطالب صبّ عليه الأستاذ الشتائم ، لكن النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((علموا ولا تعنفوا ، فإن المعلم خير من المعنف))

[أخرجه الحارث عن أبي هريرة]

أحيانا توضيح مع العنف ، أو أمرٌ مع العنف ، أو إدارة عمل مع العنف ، أو إدارة مدرسة مع العنف .

((إنَّ الرِّفقَ لا يكونُ في شيء إلا زَانَهُ ، ولا يُنْزَعُ مِن شيء إلا شانَهُ))

في كل التصرفات ينبغي أن تكون رفيقاً ، ويمكن أن تصل إلى كل أهدافك بوسائل لطيفة ، والناس راضون عنك ، أما عنَّفتَ ، ولو كنت منصفاً لم يُقبَل منك ، ولو كان الكلام حقاً فيه لطف ، وفيه رفق ، وفيه تؤدة ، وفيه حلم ، وفيه رحمة يُقبل منك بصدر رحبٍ .

إذاً : الحديث :

((إنَّ الرِّفقَ لا يكونُ في شيء إلا زَانَهُ ، ولا يُنْزَعُ مِن شيء إلا شانَهُ))

الحديث الثاني :

عَنْ عبْدِ الرَّحْمَن بْن شِمَاسَة قَالَ : أَتَيْتُ عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْأَلُهَا عَنْ شَيْءٍ ، فَقَالَتْ : أُخْبِرُكَ بِمَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي بَيْتِي هَذَا :

((اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ))

[أخرجه مسلم]

أن يكون رفيقاً برعيته ، لأن الله ائتمنه عليهم ، لذلك سيدنا عمر يقول : << مَن كان منكم تقياً أضع رأسي على الأرض ليطأه بقدمه >> ، رحمة برعاياه ، سيدنا عمر كان وقافاً عند كتاب الله ، وكان فيما يبدو شديداً ، ولما عاتبه بعض الأصحاب ، قال : << والله يا أبا ذر ، لو يعلم الناس ما في قلبي من الرحمة لأخذوا عباءتي هذه ، لكن هذا الأمر لا يناسبه إلا كما ترى >> .

إذاً : الأصل في الرفق أن تكون ليِّنَ المعاملة ، ليِّناً في أقوالك ، وفي أفعالك ، وأن تختار لمن حولك ما هو أسهل ما لم يكن حراماً .

الأستاذ أحمد :

أي أن أشعِر من حولي بأني رفيق ، لكني في نفس الوقت أن أكون حازماً كي لا تميَّع الأمور ، وتصير على الغالب ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عندما خرج إلى الطائف يدعو أهلها ، وقُوبِل بالحجارة والسفهاء ، والصبيان ، وأرسل له الله ملكَ الجبال مع سيدنا جبريل أن يستأذنه بأن يطبق عليهم الأخشبين عندما أعرضوا عن دعوته ، فوجئ التاريخ ، وفوجئت كتب السير عندما تحدثت عن الرجال العظام كيف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم زرع الله الرحمة في قلبه ، فعن عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهَا قَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ ؟ فَقَالَ : لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا

أَرَدْتُ ، فَانْطَلَقْتُ ، وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي ، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي ، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ ، فَنَادَانِي فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ ، وَمَا رُدُّوا عَلَيْكَ ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ ، قَالَ : فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ ، وَسَلَّمَ عَلَيَّ ، ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ ، فَمَا شِئْتَ ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَيْنِ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا))

[مسلم]

مع أنه كان في ذلك الوقت في أشدِّ أوقات المحنة ، والألم ، ونزف الدم ، وما كان منه إلا أن قال هذا القول ، هل في السيرة مثالاً آخر يشبه هذا ؟

الدكتور راتب :

صورٌ حيةٌ للرفق في حياة النبي عليه الصلاة والسلام :

1 – الرفق بأهل الطائف وقد آذوه :

أنا أقول : المصائب أنواع ثلاثة :مصائب ردع وقصم للفجار والكفار والمجرمين ، ومصائب دفع ورفع للمؤمنين ، ومصائب كشف للأنبياء ، فالنبي ينطوي على كمال لا يظهر إلا في هذه الصعوبة ، سار على قدميه إلى الطائف ، استقبله أهلها بالتكذيب والسخرية والإهانة ، بل أغروا صبيانهم أن يؤذوه، وكان بإمكانه أن يلغي وجودهم ، لكنه اعتذر عنهم ، ولم يتبرأ منهم ، ودعا الله لهم ، قال : اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون ، لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحدك .

2 – الرفق بقومه وقد آذوه في مكة :

المثل الذي طلبته مني ، في مكة المكرمة ، أهل مكة قبل أن يؤمنوا ناصبوا النبي الكريم العداء ، تفننوا في إزعاجه ، وفي التنكيل في أصحابه ، وقادوا حروباً ثلاثة ليستأصلوا الإسلام ثم فتحت مكة ، وعشرة آلاف سيف متوهجة تنتظر حركة من شفتي النبي عليه الصلاة والسلام ، وكان بإمكانه أن ينتقم أشد الانتقام ، كان بإمكانه أن يأمر بإبادتهم ، ما زاد عن أن قال :

((ما تظنون أني فاعل بكم ؟ قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء))

[السيرة النبوية]

إذاً : النبي عليه الصلاة والسلام قوة تأثيره فينا أنه ما أمرَ بأمرٍ إلا وسبق إليه ، وما نهانا عن شيء إلا أبعدنا عنه ، لذلك قيمة المرشد والداعية والقائد في أيِّ موقف قيادي قيمته لا في الأقوال ، بل في الأفعال .

حينما كان عليه الصلاة والسلام رفيقاً بأمته ، حينما رحم أمته ، مثلاً : كيف هاجر ؟ سيدنا عمر هاجر جهاراً نهاراً ، وتحدى المشركين ، النبي أولى بالنصر من عمر ، لكن النبي رحمة بأمته هاجر سراً ، وليلاً ، ومتخفياً ، واتجه نحو الساحل ، وقبع بغار ثور ، وهيأ كل الأسباب ، لأنه لو هاجر كعمر لعدَّ اقتحام الأخطار واجباً ، ولعدَّ أخذُ الحيطة حراماً ، ولهلكت أمته من بعد ، لذلك قالوا : أرحم الخَلق بالخلق رسول الله ، فهو أرحمُ بنا من أنفسنا .

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ)

(سورة التوبة)

إذاً : أفعال النبي تؤكد هذا الموقف الأخلاقي .

الأستاذ أحمد :

بعض الدعاة أستاذي الكريم عندما يدعون الناس ، ولا يرون ثمرة لدعوتهم يملُّون ، وربما ينفرون ، وربما ييئسون من هؤلاء المدعوين ، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان حينما يدعو على دوسٍ مثلا لم يدع عليهم ، بل قالَ :

((اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا))

[متفق عليه]

بدل أن يدعي على دوس دعا لها ، فهل فعْلُه هذا أشد ما يتمثله العلماء في أيامنا ؟

الدكتور راتب :

كلما علا إيمان المسلم زادت رحمتُه بالناس :

قبل ذلك لو تصورنا مقعدا في بناء من مئة طابق ، كلما صعدت طابقاً اتسعت رؤيتك ، لو تركب طائرة لرأيت مسافة ألف كيلومتر من فوق ، إذاً : كلما علا مكان الإنسان اتسعت دائرة رؤيته ، الآن كلما علا الإنسان في إيمانه اتسعت دائرة رحمته ، هناك إنسان يهتم ببيته فقط ، وإنسان بأسرته ، وإنسان بعائلته ، وإنسان بقوله ، وإنسان بأمته ، وإنسان يهتم بالبشرية جميعاً .

((لو تعلمون ما أعلمُ لضَحِكتم قليلاً ، ولبَكَيْتمْ كثيراً))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أنس بن مالك]

كان عليه الصلاة والسلام يبكي على البشرية كلها ، هذه كلمة دقيقة ، كلما علا مكان الإنسان عند الله تتسع دائرة نفقته ، واهتمامه ، ورحمته ، فهذا الذي يرحم ابنه فقط له الأجر ، لكن شيء فطري ، وشيء طبيعي ، وهذه الرحمة أودعت بقلب الأب والأم من دون كسب منهم ، لكن الذي يرحم موظفاً عنده فهي رجمة كسبية ، ولن تكون الرحمة ميزةً في المؤمن إلا أن تكون عامة ، أن تحب الأمُّ ابنها شيء طبيعي ، أما أن تحب الأم بنت زوجها التي عندها فهذه رحمة كبيرة .

بطولتي ليست برحمة خاصة هذه فطرية ، ولا أجر لي فيها ، لكن بطولتي بالرحمة العامة ، فكلما اتسعت دائرة الرحمة علا الإنسان عند الله ، والأنبياء اهتماماتهم بالبشرية جميعاً .

قد تجد بلدا معاملته لشعبه تفوق حد الخيال ، لكنه مع شعوب أخرى وحش كاسر ، يتفنن في إذلال الشعوب ، وفي إفقارها ، وفي إبادتها ، وفي سحقها ، وفي إيقاع الأذى بها ، نقول : هؤلاء عنصريون، ما لم تكن إنسانياً فلا قيمة لك عند الله ، فالغرب مع شعبه بأعلى درجة من الحرية ، والديمقراطية ، وحقوق الإنسان ، أما إذا دخل إلى بلد آخر يتفنن في إفقار الشعب ، وفي إذلاله ، وفي إبادته أحياناً .

البطولة أن يكون في القلب رحمة عامة ، وليست خاصة ، الرحمة الخاصة من صفات كل البشر ، كل أب وكل أم يحرص على أولاده ، أما أن تحرص على إنسان يعمل عندك في المحل التجاري في سن ابنك هل تعامله كما تعامل ابنك ؟ هل لو طلب منك ساعة ليتابع دراسته ترفض ذلك ؟ وابنك تتمنى أن يكون طبيباً ، تقدم له ألوفا مؤلفة ، ودروسًا خاصة ليكون طبيبا ، أما هذا اليتيم الذي عندك هل تتمنى له أن يكون متعلماً كابنك ؟ فما لم تكن الرحمة عامة فلا قيمة للرحمة الخاصة ، لأنها فطرية ، ولا أجر فيها ، إن كانت في حدود الفطرة .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - موسوعة الأخلاق الإسلامية - الدرس (06-28) : الأسوة الحسنة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 06-02-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

ترحيب وتقديم :

الأستاذ أحمد :

سيدي الكريم ، نرى أن الإسلام اتخذ من الأسوة الحسنة باباً من أبواب الرُّقِيّ بالمجتمعات إلى الكمال الإنساني ، الذي يوصِل إلى الكمال الخُلقي ، فوجَّهنا القرآن أول ما وجَّهنا إلى أن نجعل من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هو بشر مثلنا ، لكنه يوحى إليه ؛ أن نجعل قدوة حسنة لنا ، فقال عز وجل من قائل :

(كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

(سورة الأحزاب الآية : 21)

فما هي الأسوة بشكل مجرد ؟ وكيف تكون حسنة ؟ حبذا لو نسمع منكم .

الدكتور راتب :

الأسوة الحسنة :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

1 – التقليدُ والمحاكاة من خصائص النفس البشرية :

أستاذ أحمد ، لا بد من التنويه إلى أن من خصائص النفس البشرية التقليد والمحاكاة، وهذا لصالحها ، لأن الإنسان ربما لا يفكر ، أو ربما لا يستوعب ، أو رأى إنسان على وضع يعجبه ، يحب أن يقلّده ، ففي

التقليد من خصائص البشر وهي لصالحه

أصل تركيب الإنسان رغبة في التقليد والمحاكاة .

فلذلك جعل الله هذه الخصيصة لصالح الإنسان ، من أجل أن يستفيد من تفوق الآخرين ، فإذا قلّدهم كان له في هذا التقليد تقدم عند الله عز وجل .

2 – ثلاث شخصيات عامة في حياة كل إنسانٍ :

لكن قال علماء النفس : في حياة كل منا شخصية نكونُها ، وهي نحن ، وشخصية نتمنى أن نكونها ، وشخصية نكره أن نكونها .



النقطة الدقيقة : أن النبي صلى الله عليه وسلم كلفه الله أن يبلّغ ، ولكن الحقيقة أن قدوته أبلغ من تبليغه ، لأن الناس يتعلمون بعيونهم أكثر مما يتعلمون بآذانهم ، فكان عليه الصلاة والسلام قدوة حسنة .

3 – القدوة قبل الدعوة :

لا بد أن تكون مثال لمن تدعوهم

من هنا كانت لنا قاعدة في التربية وفي الدعوة إلى الله : " القدوة قبل الدعوة " .

إن الإنسان يمكن أن ينتفع من كل العلماء في أمور الدنيا ، طبيب ، مهندس ، محامٍ ، ولا يعني الإنسانَ سلوكُ هذا العالِم ، يعنيه علمُه فقط ، إلا أن رجل الدين وحده لا يمكن أن تنتفع به إلا إذا كان قدوة حسنة ، وهذا لحكمة بالغة ، لأنه كما تفضلت لو أنه كان صادقًا فيما يقول ينبغي أن يطبِّقه ، فإن كان عاجزاً قلنا له : أنت لست مؤهلاً أن تنصح الناس ، فإما أن كلامك غير واقعي ، إذاً سقطت الدعوة، وإما أنك عاجز ، فأنت لست مؤهَّلاً أن توجِّه الناس .

إذاً : القدوة قبل الدعوة ، سيدنا عمر بن الخطاب قالوا عنه : كان إذا أراد إنفاذ أمر جمع أهله وخاصته، وقال : << إني أمرت الناس بكذا ، ونهيتهم عن كذا ، والناس كالطير ؛ إن رأوكم وقعتم وقعوا ، وايمُ الله ، لا أوتَين بواحد وقع فيما نهيت الناس إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه مني >> ، فصارت القرابة من عمر مصيبة ، لأنه كان قدوة حسنة ، بدل أن تكون ميزة ، << وايم الله لا أوتين بواحد وقع فيما نهيت الناس إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه مني >>.

سيدنا عمر رأى إبلاً سمينة ، قال : << لمن هذه الإبل ؟ قالوا : هي لابنك عبد الله ، فغضب ، وقال : ائتوني به ، فلما جاء ابنه عبد الله ، ورأى أباه غاضباً قال له : لمن هذه الإبل ؟ قال : هي لي ، اشتريتها بمالي ، وبعثت بها إلى المرعى لتسمن ، فماذا فعلت ؟! أين المخالفة ؟! أين المعصية ؟! فقال سيدنا عمر : ويقول الناس : ارعوا هذه الإبل فهي لابني أمير المؤمنين ، اسقوا هذه الإبل فهي لابني أمير المؤمنين ، وهكذا تسمن إبلك يا ابن أمير المؤمنين ، قال له : بع هذه الإبل ، وخذ رأس مالك ، ورد الباقي لبيت مال المسلمين >> ، لذلك القدوة أساس .



4 – لابد من معرفة سيرة النبي حتى نقتدي به :

الآن هناك ملمح دقيق جداً ، وهو حينما قال الله عز وجل :

(كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

كيف يكون النبي أسوة حسنة إن لم نعرف سيرته ؟

عندنا قاعدة أصولية أستاذ أحمد : " ما لا يتم الفرض إلا به فهو فرض ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، وما لا تتم السنة إلا به فهو سنة " .

مثل : الصلاة فرض ، لكن الصلاة لا تتم إلا بالضوء ، إذاً الوضوء فرض ، ماذا نستنبط ؟ إذا كان الله عز وجل يبين لنا أن النبي هو قدوتنا في أفعاله ، وفي إقراره ، وفي أقواله ، كيف يكون النبي أسوة حسنة لنا إن لم نعرف سيرته ؟

إذاً : لا تتم أسوة النبي إلا بمعرفة سيرته ، وكما أن كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب ، فهذا الأمر يقتضي وجوبُه أن نعرف سنة رسول الله .

الأستاذ أحمد :

الرسول صلى الله عليه وسلم كان بين أصحابه أسوة لِمَا رأوه من حاله ، أما نحن فنقل إلينا الخبر الصحيح .

الدكتور راتب :

لذلك لا بد من قراءة سيرة النبي حتى نتمكن أن نعرف مواقفه ، وحياته في بيته ، مع أصحابه ، في حله وترحاله ، في سلمه وحربه ، حتى يطبق قوله تعالى :

(كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

5 – فعلُ النبيّ أبلَغُ في التعبير عن فهمه للقرآن :

هناك ملمح آخر : قال بعض العلماء : إن فعل النبي أبلغ في التعبير عن فهمه في لكتاب الله من قوله ، لأن القول يحتمل التأويل ، والفعل حديٌّ .

لو قال لك شخصٌ : أنا أصلي بغير وضوء ، فهذه ليس لها تأويل ، ولو قال لك رجلٌ آخر : أنا أفرّ من رحمة الله ، الله عز وجل جعل المطر رحمة الله ، أو قال لك : أنا أحب الفتنة ، يعني أنه يحب أولاده .

(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ)

(سورة التغابن الآية : 15)

إذاً : القول يؤوَّل ، أما الفعل فحديٌّ ، لذلك قال العلماء : " إن فعل النبي أبلغ في التعبير عن فهمه لكتاب الله من أقواله " .

إن سيرة النبي منهج كامل ، كيف أن الله عز وجل جعل كما قال النبي كتاباً وسنة ، كيف أن الكون قرآن صامت ، وكيف أن القرآن كون ناطق ، وكيف أن النبي قرآن يمشي سيرة النبي كتاب وسنة ، وأنا أؤكد أنه لو لم يكن في أيدينا إلا سيرة النبي لكفت ، لأن أقواله ، أفعاله ، إقراره منهج ، وشرح لكتاب الله .

إذاً :

(كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

(لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً)

(سورة الأحزاب)

6 – القدوة له أجران إن أحسن ، وإن أساء ضوعف إثمُه :

ولكن هذا الإنسان الذي يحتل مركز قيادي ، أقلّ مركز قيادي الأب في البيت ، المعلم في الصف ، المدير في المدرسة ، أيّ مركز قيادي ، الله عز وجل أغراه ، أو أغرى صاحب المركز ؛ أنك إذا كنت قدوة فلك أجران ، أجرك وأجر مَن قلدك ، وبالمقابل الغرم بالغنم ، وأيّ إنسان يحتل مركزًا قياديا لو أنه دخّن ، وتبعه طالب فدخن يقع عليه إثمه ، وإثم الطالب الذي قلده .

إذاً :

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ)

بالمناسبة أستاذ أحمد : الإبلاغ ، والتقرير ، والكلام ، وإلقاء التوجيهات ، تسقط أمام الفعل المخالف للقول ، لو فرضنا بأبسط التعريفات :

لو طُرق الباب ففتح الابن الباب ، قال : يا أبتِ فلان بالباب ، قال له : قل له : ليس موجوداً ، لو ألقى الأب على ابنه آلاف المحاضرات في الصدق فهذه المحاضرات سقطت ، لأنه كذب أمام ابنه .

لذلك الشيء الخطير أن الصغار في السنوات الأولى ، وحتى السبع سنوات يأخذون كل شيء عن الكبار، فإذا كذبت الأم ، وكذب الأب ، أو وعد فأخلف ، أو وجه ابنه توجيهاً خالفه في مكان آخر ، لذلك لو أن الأب والأم ، لو أن المعلم ، لو أن الموجه ، لو أن الشيخ لم يقل كلمة واحدة ، وكان كاملاً كان كماله أبلغ من أقواله .

لذلك أنا أدعو الآن إلى شيء اسمه الدعوة الصامتة ، كن أميناً ، الأمانة دعوة ، كن صادقاً ، الصدق دعوة ، كن وفياً ، الوفاء دعوة ، المؤمن لأنه مستقيم ، ولأنه يطبق منهج الله هو داعية دون أن يشعر .

الأستاذ أحمد :

سيدي الكريم ، بالنسبة لحديث النبي عليه الصلاة والسلام هل في حديثه ما يثبت أسوة رسول الله ، ويحضنا على نأتسي .

الدكتور راتب :

حديثٌ عظيم في القدوة الحسنة والقدوة السيئة :

يقول عليه الصلاة والسلام :

((مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فله أجرها وأجر من عَمِلَ بهَا إلى يوم القيامة لا يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً))

[أخرجه ابن ماجه عن جرير]

الموضوع حساس ودقيق ، الدين توقيفي ، لا يضاف عليه ، ولا يحذف منه ، لأنه من عند الله ، وأيّ إضافة عليه فهي اتهام له بالنقص ، وأي حذف منه فهو اتهام له بالزيادة ، ولكن هذا الحديث :

((مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً))

في غير العقائد والعبادات ، في أمور الدنيا ، دفّأنا المسجد ، كبّرنا الصوت ، وضعنا خدمات للمصلين ، هناك مليارات الأعمال الصالحة إذا فعلناها تكون سنة حسنة في غير العقيدة والعبادات ، لأن العقائد والعبادات الأصل فيها الحظر ، ولا تشرع عبادة إلا بالدليل القطعي في دلالته ، وفي ثبوته ، أما الأشياء فالأصل فيها الإباحة ، ولا يحرم شيء إلا بالدليل القطعي الثابت .

إذاً : هذا الحديث الذي يفهم منه أنه :

((مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فله أجرها وأجر من َعُمِلَ بهَا إلى يوم القيامة))

صندوق تعاوني ، هذا الصندوق في وزارة عمم على كل الوزارات ، حل مشكلة الموظفين ، إذاً : هذا الذي فكر بإنشاء هذا الصندوق له أجره ، وأجر من قلده في كل الوزارات ، هذا شيء لطيف جداً . إلا أنه في أمور العقائد والعبادات لا يزاد عليها ، ولا يحذف منها ، بل إن تعريف التجديد الحقيقي أن ننزع عن الدين كل ما علق به مما ليس منه .

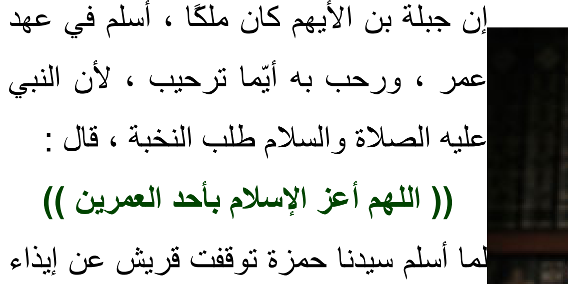
الأستاذ أحمد :

نريد أن نسمع منك إلى مثال تطبيقي عملي يبين لنا كيف تكون الأسوة في حياتنا ؟

الدكتور راتب :

مثال عمليّ للأسوة الحسنة :





إن جبلة بن الأيهم كان ملكًا ، أسلم في عهد عمر ، ورحب به أيّما ترحيب ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام طلب النخبة ، قال :

((اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين))

لما أسلم سيدنا حمزة توقفت قريش عن إيذاء المسلمين ، لما أسلم سيدنا عمر صلى المسلمون في بيت الله الحرام ، إلا أن هذا الملِك ، ملك الغساسنة ، سيدنا عمر رحب به ، وطرب لإسلامه ، وأكرمه ، في أثناء

طوافه حول البيت بدويٌّ من قبيلة فزاره دون أن يشعر ، وعن غير قصد داس طرف رداء هذا الملك ، فانخلع رداءه عن كتفه ، فالتفت نحوه وضربه ضربة هشمت أنفه ، أمام هذا البدوي سيدنا عمر ، توجه إليه شاكياً ، سيدنا عمر قدوة في العدل ، استدعى جبلة ، وقف أمام البدوي ، شاعر معاصر صاغ الحوار شعراً :

قال عمر لجبلة :

أصحيح ما ادعى هذا الفزاري الجريح ؟

فقال جبلة :

لست ممن ينكر شيا
أنا أدبت الفتى أدركت حقي بيديَّ

قال عمر :

أرضِ الفتى لا بد من إرضائه
ما زال ظفرك عالق بدمائه
أو يهشمن الآن أنفك
وتنال ما فعلته كفك

فقال جبلة :

كيف ذاك يا أمير ؟!
هو سوقة وأنا عرش وتاج !
كيف ترضى أن يخر النجم أرضا ؟

فقال له عمر :

نزوات الجاهلية ورياح العنجهية قد دفناها
أقمنا فوقها صرحاً جديدا
وتساوى الناس أحراراً وعبيدا

قال جبلة :

كان وهماً ما جرى في خلدي
أنني عندك أقوى وأعز
أنا مرتد إذا أكرهتني

فقال عمر :

عالم نبنيه ، كل صدع فيه يداوى

وأعز الناس بالعبد بالصعلوك تساوى

هذا هو العدل ، لذلك أستاذ أحمد ، البشرية مرت بمراحل ثلاث ، عصر المبادئ ، المبادئ أولاً ، عصر الأشخاص ، عصر الأشياء ، نحن في عصر الأشياء ، يستمد المرء قيمته من مركبته ، بل من رقم من مؤخَّرتها ، قيمة الإنسان متاعه ، لذلك البيت الذي دخل صاحبه السجن يعدُّ أهجى بيت قالته العرب ، هو الآن شعار كل إنسان :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

***

الأستاذ أحمد :

و هل هناك من أقول مأثورة نقلت عن بعض العارفين أو العلماء الربانيين تحضنا على الأسوة الحسنة ؟

الدكتور راتب :

احذروا من مخالفة الأقوال للأفعال :



الشيخ مثلاً استقامته أبلغ من محاضراته ، المعلّم سلوكه أبلغ من أقواله ، الأب انضباطه أبلغ من توجيهاته ، فالقدوة قبل الدعوة ، والإحسان قبل البيان ، مبدءان كبيران في الدعوة إلى الله ، كن قدوة ، احذر أيها المعلم ، احذر أيها الأب ، احذر أيها الموجه ، احذر أيها الداعية أن يراك الذي تدعوه على حالة بخلاف ما تدعوه ، عندئذٍ تسقط الدعوة .

الأستاذ أحمد :

مع أنها صحيحة ، وحقيقية .

الدكتور راتب :

ينصرف الناس عن الدعوة حينما يرون الداعية ليس في مستوى دعوته ، هذا الأمر دعانا إلى أن نستمع إلى مقولة رائعة قالها بعض العلماء ، قال : " من دُعي إلى الله بمضمون هزيل غير متماسك سطحي ، أو دُعي بمضمون مقبول ، لكن المدعو لم يجد المصداقية في الداعية ، فهذا المدعو بهذه الطريقة الهزيلة ، والأسلوب غير العلمي والتربوي ، واكتشاف أن الداعية ليس في مستوى هذه الدعوة ، هذا المدعو بهذا المضمون ، وبهذه الطريقة لا يعد عند الله مبلّغاً ، ويقع إثم تفلته من المنهج على من دعاه بهذه الطريقة " .

الأستاذ أحمد :

سبحان الله ! لأن الكلام لا يغني عن الحال ، الأسوة الحسنة أمر طيب جميل ، لكن لا بد أن له فوائد مرجوة ، فما فوائده ؟

الدكتور راتب :

فوائد الأسوة الحسنة : الأهداف لا تتحقق إلا بالقدوة الحسنة :

فوائد الأسوة الحسنة أن الدعوة إلى أيِّ شيء لا تتحقق إلا بالأسوة الحسنة ، فالتوجيهات إذا فرغت من مضمونها انتهت الدعوة كلياً ، الفائدة العظمى أنك إذا أردت أن تحمل هذا الإنسان على تطبيق مبدئك ودعوتك وتوجيهاتك فلا بد من أن يرى نموذجاً .



لذلك أنا أرى أن قصة معاصرة فيها بطولة أبلغ من آلاف القصص القديمة ، لماذا ؟ لأن القصة كان أبطالها معاصرين لك ، هؤلاء عاشوا الظرف نفسه ، وتحملوا الضغوط نفسها ، وواجهتهم الصوارف نفسها ، وواجهتهم العقبات نفسها .

إذاً : المشكلة أن القصة في أدق تعريفاتها حقيقة مع البرهان عليها ، فإذا انتزعت قصة من مجتمعك ، لإنسان أخلاقي ، إنسان نزيه ، إنسان عفيف ، إنسان أمين ، فهذا الأمين في جو معين ، في جو ليس مَن حوله مثلَه مثلاً ، هو شاهد عليهم ، لذلك جعل الله في كل مجتمع أناساً يُعدُّون حجة على الآخرين ، فتجد القاضي نزيها ، والطبيب

مخلصا لا يبتز أموال الناس ، والمحامي صادقا ، والحاكم عدلاً ، هؤلاء المطبقون لمبادئهم ، هؤلاء حجة على مَن سواهم .

فلذلك أكبر ثمار القدوة الحسنة أن الأهداف لا تتحقق إلا بالقدوة الحسنة .

الأستاذ أحمد :

بعض الأخلاق التي مررنا عليها ، والتي سنأتي عليها بإذن الله عز وجل يقتصر تطبيقها على الأفراد ، خُلق فردي يتعامل به الإنسان مع شخص آخر ، هل الأسوة الحسنة من الممكن أن تطبقها المجتمعات بشكل جماعي ، كما يطبقها الأفراد بشكل فردي ؟

الدكتور راتب :

تطبيق الأسوة الحسنة بشكل جماعي :

طبعاً ، نحن حينما نقيم الإنسان بأعماله ، أيام يقيم الشخص بأقواله ، أو بشهادته أما حينما يكون التقييم بالعمل تأخذ القدوة الموقع الأول في حياتنا ، الحقيقة أن كل منصب قيادي في كل مجالات الحياة يحتاج إلى هذه الحقائق الدقيقة حول القدوة الحسنة ، والحقيقة أن الناس حينما يعيشون المثل المتحركة .

بالمناسبة : الناس لا يعنيهم المثل ، وهي في الكتب ، الكتب ميتة ، يريدون بطلاً أمامهم ، صادقًا ، أمينا، الذي جعل أكبر قطر إسلامي في العالم إندونيسيا يدخل فيها الإسلام عن طريق القدوة ، عن طريق التجار ، لم تفتح لا بسيف ، ولا بقهر ، إنما بالقدوة الحسنة .

لذلك ورد في بعض الأحاديث :

((واستقيموا يستقم بكم))

[رواه الطبراني عن سمرة بن جندب]



ذو الوجهين لا يكون وجيهاً

يكفي أن تكون في مكان ما ، في دائرة ، في مستشفى ، في مدرسة ، في جامعة ، وأن تكون مستقيماً ، وانظر كيف أنك تغدو مضرب المثل ، تغدو مطمح الآمال ، تغدو في مركز يتمنى مَن حولك أن يقلدوك .

لذلك تصلح الدنيا بالقدوة ، ولا تصلح بالعنف ، العنف لا يجدي شيئاً في هذا الموضوع .

الأستاذ أحمد :

رأينا أمثلة عن بعض الدول التي حكمت بالحديد والنار ، من نشر الشيوعية ، كيف أن هذا الكائن أو هذا النظام ظنناه في يوم من الأيام أنه ماردٌ فإذا به ماردٌ ، لكن من وَرق ، ينهار لأنه لم يُبنَ على قناعات ، ولا على احترام ، وإنما بني على رعب ، وعلى خوف .

الدكتور راتب :

هنا نقطة دقيقة : أن الكلمة إن لم تكن صادقة تفقد قيمتها ، أقول لك مع الأسف الشديد : أحياناً يكفر الناس بالكلمة ، بمطلق الكلمة ، مع أن الأنبياء جاؤوا بالكلمة فقط ، لكنهم جاؤوا بالكلمة الصادقة ، أما إذا رأى الناس متكلماً فصيحاً ، طليق البيان ، فلما عاملوه وجودوه على غير ما يقول ، سقطت الكلمة ، ونحتاج إلى أمد طويل كي نعيد للناس ثقتهم بالكلمة .

الأستاذ أحمد :

لذلك في هذه الأيام ما أكثر الخطباء ، ما أكثر الخطب التي تقال ، والمواعظ التي تتلى ، لكن لا تؤثر في الناس التأثير الذي كان من قبل ، لأن الكلمة كما تفضلتم فقدت قيمتها وخاصيتها .

سؤالي الآن : رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قدوة حسنة ، الله عز وجل جعل الصحابة يقتدون به لِما رأوه منه ، لكننا نحن معاشر مَن أتى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا أن نجعل من رسول الله قدوة حسنة ، فهل نقل التاريخ والسيرة والسنة ما إلينا ينطبق عليه قول الله عز وجل :

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

(سورة الحجر)

مِن حفظ الله لهذه السيرة لنا فيه إعجاز ؟

الدكتور راتب :

القدوة الحسنة التي تعاصرك لها أثر كبير :



الحقيقة أنك إذا قرأت عن رجل في التاريخ عظيم ، أخلاقي ، شجاع ، كريم مصلح ، عالم تتأثر ، لكن كما قلت قبل قليل : إنك إن عاصرت إنساناً مثلاً أعلى في الأخلاق ، هذا يعيش ظروفك ، يعيش الضغوط ،

يعيش الإغراءات ، يعيش الصوارف ، يعيش العقبات ، يعيش المعطيات .

فلذلك القدوة الحسنة إن كانت معاصرة فلها تأثير كبير جداً ، بل إن المسلمين اليوم بحاجة إلى مسلم متحرك ، لا إلى إسلام في الكتب ، مسلم متحرك ، له تأثير يفوق حد الخيال ، وألاّ يكتشف الناس أية مسافة بين أقوالك وأفعالك ، هذه قمة في الدعوة إلى الله ، وقمة في التوجيه ، ودعوة إلى الآباء والأمهات والمعلمين أن يكونوا كذلك ، لأن الناس يأخذون عن كبرائهم كل خير ، والكبراء لهم أجران ، والكبراء إذا زلّت قدمهم فعليهم وزر .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - موسوعة الأخلاق الإسلامية - الدرس (07-28) : التفاؤل والتشاؤم
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2008-02-07

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ أحمد :

سيدي الكريم نتمنى أن نتحدث اليوم وإياكم عن خلق التفاؤل ، وهل التفاؤل حسن الظن بالله عز وجل ؟ ما تعريف هذا الخلق ؟ .

تعريف التفاؤل :



الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

التفاؤل : هو حسن الظن بالله ، والتفاؤل توقع الخير ، والتفاؤل ألا تسمح للمصائب أن تأخذك إلى اليأس ، التفاؤل أن ترى ما عند الله ، وأن تكون واثقاً بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك ، التفاؤل أن تكون غنياً بالله ، التفاؤل أن تنقل اهتماماتك إلى الدار الآخرة ، فالدنيا عندئذٍ لا تعنيك ، التفاؤل أن ترى الهدف البعيد ، فإذا حالت عقبات دونه وأنت مُصر عليه فأنت متفائل ، والتفاؤل صفة العظماء ، والتفاؤل صفة المؤمنين ، والتفاؤل صفة الذين عرفوا أن الأمر بيد الله ، صفة الموحدين ، فالتفاؤل توقع الخير ، والتفاؤل حسن الظن بالله ، والتفاؤل أن تكون محصناً من أن يأخذك اليأس إلى مكان بعيد .

الأستاذ أحمد :

قلتم أن التفاؤل من صفات المؤمنين ، أين أرشدنا القرآن الكريم إلى أن التفاؤل من صفات المؤمنين ؟.

التفاؤل أساسه الإيمان و هو ثمرة من ثمراته :

الدكتور راتب :

المؤمن متفائل حتماً ، لأنه يعلم علم اليقين أن الأمر بيد الله ، وأن الله قوي .

((ما شاءَ اللهُ كانَ ، وما لم يشأ لم يكن))

[أخرجه أبو داود عن بنت من بنات النبي]

وأن الله في أية لحظة بيده المعادلات كلها ، بيده موازين القوى ، وأن الأمر يرجع إليه ، وما أمرك الله أن تعبده إلا بعد أن طمأنك فقال :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود الآية : 123)

التفاؤل أساسه الإيمان ، أنت حينما تؤمن أن الله وحده هو القوي ، وأن أمره هو النافذ ، وأن :

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف الآية : 54)

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف الآية : 84)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

(سورة الكهف)

ما دام الله عز وجل ، صاحب الأسماء الحسنى ، هو الرحيم ، هو العدل ، هو القوي ، هو الغني ، هو الحنان ، هو المعطي ، ما دام الأمر بيده الله عز وجل قال :

(إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

ألزم ذاته العلية إلزاماً ذاتياً في الاستقامة ، هو العدل ، وسعت رحمته كل شيء ، لا يمكن أن يجتمع إيمان بالله مع التشاؤم ، إيمان بالله مع اليأس ، إيمان بالله مع السوداوية ، لذلك قال تعالى :

(إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)

(سورة يوسف)

أي كأن التشاؤم من صفات الكفار ، وكأن التفاؤل من صفات المؤمنين .

التشاؤم من صفات الكفار والتفاؤل من صفات المؤمنين :

الإيمان بالله أثمر التفاؤل ، وعدم الإيمان به يؤدي إلى التشاؤم ، إنسان لا يرى أن الله بيده كل شيء ، يرى قوى مخيفة ، طاغية ، معتدية ، حاقدة ، جبارة ، لا ترحم ، وأنه ضعيف أمامها ، طبعاً تحصيل حاصل أن يكون متشائماً ، تحصيل حاصل أن يسحق نفسياً ، أن يحس بالإحباط ، كل مشاعر الإحباط ، والخوف الشديد القاتل ، واليأس القاتل ، بسبب ضعف الإيمان .

مثلاً لا أعتقد أن هناك حالة أصعب من أن يكون عدواً قوياً ، حاقداً ، ظالماً ، متغطرساً ، وراءك بكل قوته ، وأنت مع بعض الأشخاص قلة قليلة لا تملكون شيئاً ، والبحر أمامكم .

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ)

(سورة الشعراء)

لا يعقل أن يكون النبي عليه الصلاة والسلام وهو في الغار ، وقد وصلوا إليه ، وقد وضعت مئة ناقة لمن يأتي به حياً ، أو ميتاً ، وأن يبقى ثابتاً ، واثقاً من الله عز وجل ، قال يا رسول الله ، في رواية : لقد رأونا ، وفي رواية :

((لو أن أحدهم نظر إلى قدَمَيه أبْصرَنَا تحت قدميه . فقال : يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أنس بن مالك]

طبعاً هذه صفات الأنبياء ، لكن لكل مؤمن من هذه الصفات نصيب بقدر إيمانه ، فأنت حينما ترى أن الله سبحانه وتعالى حينما يقول :

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية)

هذه آية تملأ القلب تفاؤلاً ، أنت إنسان مستقيم ، وقاف عند حدود الله ، دخلك حلال ، بيتك إسلامي ، عملك إسلامي ، لا تعصي الله ، لا تكذب ، لا تغش المسلمين ، لم تبن مجدك على أنقاضهم ، ولا حياتك على موتهم ، ولا غناك على فقرهم ، ولا أمنك على خوفهم ، ولا عزك على ذلهم ، إنسان تخشى الله ، لا بدّ لك من معاملة خاصة ، لا بدّ لك من أن تكون متميزاً عن بقية الناس .

آيات من القرآن الكريم تثبت أن الإيمان والتوحيد يورثا التفاؤل :

لذلك الإيمان والتوحيد يورثا التفاؤل ، والشواهد كثيرة جداً ، هذه الآية أوضح آية:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(أفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة)

(أفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

(سورة القلم)

(أفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِين)

(سورة القصص)

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا)

(سورة التوبة الآية : 51)

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ، نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ)

(سورة فصلت)

القرآن الكريم يملأ القلب تفاؤلاً :

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه)

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم)

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)

(سورة الصافات)

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة غافر الآية : 51)

الآيات كثيرة جداً :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

(سورة النور الآية : 55)

(وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم)

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

(سورة النساء)

هذه آيات في كتاب الله ، هذه وعود رب العالمين ، وزوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين .

المؤمن دائماً متفائل و لا يسمح لشيء أن يسحقه أو يشلّ قدراته :

كيف لا يكون المؤمن متفائلاً وقد يرى أن الله سبحانه وتعالى معه ؟

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنفال)

أي الله معهم بالنصر ، والتأييد ، والحفظ ، والتوفيق ، هذه معية خاصة ، لذلك المؤمن قطعاً متفائل ، ولا يسمح لمصيبة أن تسحقه ، ولا يسمح لمصيبة أن تأخذه إلى اليأس ، ولا يسمح لمصيبة أن تشل قدراته ، ولا يسمح لمصيبة أن تجعله سوداوياً متشائماً ، لكن ضعف الإيمان يودي إلى التشاؤم ، ضعف الإيمان يودي إلى السوداوية ، واليأس .

الأستاذ أحمد :

ضعف الإيمان يودي إلى السوداوية واليأس ، ولكن هل من الممكن لإنسان أصابه شيء من اليأس ، أن يصل به يأسه إلى الكفر ؟ هل المسألة عكسية ؟ .

الإنسان يتشاءم بقدر ضعف إيمانه ويتفاءل بقدر قوة إيمانه :

الدكتور راتب :

والله الإنسان مخير ، فإذا أصابته حالة سلبية عليه أن ينتبه لنفسه ، وأن يذكر ما عند الله من وعود ، وأن يتوب إلى الله من بعض الذنوب ، التشاؤم حالة مؤلمة جداً ، أحياناً هي عقاب من الله ، الإنسان حينما يعصي ربه ، أو حينما يقصر ، يشعر بالكآبة ، والكآبة توصله إلى التشاؤم ، أو حينما لا يوحد ، حينما يرى آلهة في الأرض ، والآلهة مصالحها متناقضة ، ومتنافسة فيما بينها ، وهو ضاع بين هذه الآلهة ـ المتوهمة طبعاً ـ أما إذا وحّد الله فالأمر بيد الله .



((ما شاءَ اللهُ كانَ ، وما لم يشأ لم يكن))

وكل شيء وقع أراده الله ، وكل شيء أراده الله وقع ، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة ، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق .

إذاً الإنسان يتشاءم بقدر ضعف إيمانه ، ويتفاءل بقدر قوة إيمانه ، وكلما كان

الإيمان أقوى كان التفاؤل أقوى .

لذلك عظماء الأرض كانت أمامهم عقبات وعقبات ، يقول عليه الصلاة والسلام :

((لقد أُخِفْتُ في الله ما لم يُخَفْ أحدٌ ، وأوذيت في الله ما لم يُؤذَ أحد ، ولقد أتى عليَّ ثلاثون من يوم وليلة ، ومالي ولبلال طعامٌ إلا شيء يُواريه إبطُ بلال))

[أخرجه الترمذي عن أنس رضي الله عنه]

ومع ذلك كان سيد أهل الأرض .

الأستاذ أحمد :

سيدي الكريم هل من مثال تطبيقي عملي على مسألة التفاؤل حتى نفهمه على أرض الواقع بشكل أوضح؟.

مثال تطبيقي عملي على مسألة التفاؤل :

الدكتور راتب :

كل أخوتنا يعلمون أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما هاجر وأفلت من يد قريش، وضعت مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً ، كلمة مئة ناقة تعني شيئاً كبيراً ، الناقة تساوي مبلغاً كبيراً جداً ، مئة ناقة ، ثروة طائلة ، لذلك تهافت الناس على التسابق لأخذ هذه الجائزة إذا جاؤوا بالنبي حياً أو ميتاً ، النتيجة أن إنساناً اسمه سراقة طمع بالجائزة ، فركب فرسه ، وعدا إلى طريق الهجرة ، أدرك النبي ، لكن النبي كما تعلم متفائل ، وموقن بنصر الله عز وجل ، قال له كلمة ـ نحن نرددها كثيراً ، وقد لا نفهم معناها ، أو قد لا ننتبه إلى خلفياتها ، أو إلى مدلولاتها ، أو إلى أبعادها ـ قال له : يا سراقة ! كيف بك إذا لبست سواري كسرى ؟ شيء لا يصدق ! إنسان مطارد ، مهدور دمه ، مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً ، لسان حاله يقول : أنا سأصل آمناً ، وسأؤسس دولة ، وسأحارب أقوى دولتين في العالم، الفرس والروم ، وسوف ينهزم الفرس ، وسوف تأتيني كنوز فارس ، وسوف تأتي إلى المدينة ، ويا سراقة لك سواري كسرى ، هذا الذي وقع مستحيل ! .

كأن نخاطب دولة متفلتة ، في طرف الصحراء ، تعاني من مليون مشكلة ، نقول لها : أنت سوف تحتلين البيت الأبيض ، هذه هي النسبية .

لذلك قال له : كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى ؟ فكان عليه الصلاة والسلام متفائلاً ، لكن تفاؤله حقيقي ، تفاؤل يعتمد على إيمانه .

التفاؤل من ثمار الإيمان :

وأنا أقول الآن بدافع من الإيمان : لا تستطيع جهة في الأرض مهما تكن قوية ، مهما تكن تملك الأسلحة الفتاكة ، والإعلام، والاقتصاد ، لا يمكن للقطب الأوحد في الأرض أن يفسد على الله هدايته لخلقه ، مستحيل وألف ألف ألف مستحيل .

لن تستطيع دولة مهما كانت قوية أن تفسد هداية الله لخلقه

أنت أب وقوي ، وعالم ، وغني ، لك أولاد، هدفك الأول أن يتعلم أولادك ، وأن ينالوا شهادات عليا ، أحد هؤلاء الأولاد يمنع أخوته من الذهاب إلى الامتحان ، والأب ينظر إليه ، ويراقبه ، والأمر بيد الأب ، وكل شيء بيده ، أيعقل هذا ؟! أيعقل أن يسمح لواحد من أولاده أن يفسد على الأب خطته في تربية أولاده ؟! مستحيل . لكن الله يسمح للأقوياء أن يهددوا ، ليمتحن إيمان المؤمنين ، يسمح للأقوياء أن يعلنوا عن خططهم الجهنمية ليمتحن إيمان المؤمنين .

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)

(سورة آل عمران)

لذلك أنا مؤمن أن التفاؤل من خصائص المؤمنين ، بل إن التفاؤل من ثمار الإيمان ، وإن التشاؤم واليأس والسوداوية والإحباط من ثمار الشرك أولاً ، والمعصية ثانية .

الأستاذ أحمد :

هذا مثال من السيرة ، أما مثال تطبيقي ، فما يحضركم في التفاؤل ؟.

القصص في القرآن الكريم وقعت وأرادها الله أن تكون قانوناً وحافزاً لنا :

الدكتور راتب :

هناك شعور أنك حينما تتصل بالله ، ترى أن القوى بيديه ، وأن الله سبحانه وتعالى بيده الأمر . إنسان وجد نفسه في بطن حوت ، هل هناك حالة أصعب من هذه الحالة ؟

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

قلة قليلة وراءها جيش ضخم ، كثير العَدد ، والعُدد ، له قيادة حاقدة ، وطاغية ، وظالمة ، والبحر أمامنا، الأمل صفر ، أعتقد أن مليون إنسان كانوا في مثل هذا الموقف يوقنون بالهلاك ، يتشاءمون ، ييئسون :

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

فهذه القصص لنا ، هي وقعت وأرادها الله أن تكون قانوناً لنا ، وحافزاً إلينا .

الأستاذ أحمد :

الآن ما الفرق بين التفاؤل ، والتشاؤم ؟ .

الفرق بين التفاؤل والتشاؤم :



الدكتور راتب :

هناك خرافات كانت سائدة في العصر الجاهلي ، الإنسان إذا طار عن يساره طير يتشاءم ، يتوقع الهلاك ، والمصائب ، وإن طار الطير عن يمينه يتفاءل ، فالله عز وجل ردّ على هؤلاء ، وقال :

(طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ)

(سورة يس الآية : 19)

سبب تفاؤلك منك ، سبب تشاؤمك منك ، أي أنت حينما تستقيم ، وتؤدي الحقوق تفاءل ، لأن الله يعدك بالتوفيق ، وحين تبني مجدك على أنقاض الناس ، تأخذ ما ليس لك ، تعتدي على أعراضهم ، يلقي الله في قلب هذا العاصي التشاؤم والخوف والقلق ، فالتفاؤل والتشاؤم لا يأتي من جهة بعيدة عنك ، يأتي منك ، فأنا معي أسباب التفاؤل هي طاعتي لله ومعي أسباب التشاؤم هي التقصير والمعصية ، فكل إنسان يعصي الله يصاب بالكآبة أولاً ، ثم بالسوداوية ، والتشاؤم ، واليأس ، وهناك يأس خاطئ .

طبعاً نهاية اليأس الانتحار ، والمؤمن مستحيل وألف ألف مستحيل أن يقدم على هذه المرحلة ، لأن الله موجود ، وقد يخلق الله من الضعف قوة ، ومن الجهل علماً ، ومن عدم الحكمة نجاحاً وتفوقاً ، والأمثلة كثيرة جداً .

الأستاذ أحمد :

عندما سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الفأل فعرفه بالكلمة الصالحة يسمعها أحدكم ، كيف تكون الكلمة الصالحة من الفأل ؟.

إحساس الإنسان بالضعف يجعله يلجأ إلى الله عز وجل :

الدكتور راتب :

أي أنت حينما ترى مريضاً لا ينبغي أن تقول له : مرضك قاتل ولا علاج له ، ينبغي أن تنفس له في الأجل ، أحياناً الله عز وجل يمنح الشفاء الذاتي من دون أسباب علمية ، هناك بحث في الطب اسمه الشفاء الذاتي ، آلاف الحالات ، مرض مستعصٍ ، مرض عضال، يأتي معه شفاء ذاتي .

لا بد أن تمنح الأمل للمريض

فلذلك أخطر شيء في الحياة أن تهزم من الداخل ، أن تقع في اليأس ، فأحياناً أنت ضعيف هذا سرّ قوتك ، إحساسك بالضعف يجعلك تلجأ إلى الله.

لذلك قالوا : الله عز وجل يستجيب لعباده إذا دعوه ، ولكن وفق شروط .

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)

(سورة البقرة)

كأن الله سبحانه وتعالى وضع ثلاثة شروط ثلاثة لاستجابة الدعاء ، أن تؤمن ، وأن تستجيب ، وأن تكون في دعائك مخلصاً ،

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ـ أي مخلصاً ـ فَلْيَسْتَجِيبُوا ـ يطيعوني ـ لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)

لكن العلماء استثنوا إنسانين ، استثنوا المظلوم واستثنوا المضطر ، فالمظلوم يستجيب الله له ، لا لأهليته بالدعاء ، ولكن بعدل الله ، والمضطر يستجيب الله له ، لا لأهليته في الدعاء ، ولكن برحمة الله .
فالله عز وجل موجود ، وهو ينتظر دعاءنا ، فقد قال الله عز وجل :

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ)

(سورة الفرقان الآية : 77)

الدعاء علاج التشاؤم :

ماذا يعني الدعاء ؟ يعني الدعاء أنه مستحيل على الإنسان أن يدعو جهة ليس مؤمناً بوجودها ، وألا يعد مجنوناً ، فما دمت تقول: يا رب ، أنت موقن أن الله موجود ، وموقن أيضاً أن الله يسمعك ، وموقن أيضاً أن الله قادر على تلبية طلبك ، وموقن أيضاً أن الله يحب أن يلبك ، موقن بوجوده ، وسمعه ، وعلمه ، وقدرته ، ومحبته لك .

لذلك الذي يدعو الله مؤمن ، من لا يدعُني أغضب عليه ، إن الله يحب الملحين في الدعاء ، إن الله يحب من عبده أن يسأله شسع نعله إذا انقطع ، إن الله يحب من عبده أن يسأله حاجته كلها ، إن الله يحب من عبده أن يسأله ملح طعامه .
فالدعاء مرغوب عند الله عز وجل ، وما أمرك أن تدعو الله إلا ليستجيب لك ، وما أمرك أن تستغفره إلا ليغفر لك ، وما أمرك أن تتوب إليه إلا ليتوب عليك ، إذاً الدعاء هو الذي يخرج الإنسان من التشاؤم.

(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً)

(سورة الأعراف الآية : 55)

والله عز وجل يقول :

((إذا قال العبد : يا رب وهو راكع ، قال الله له : لبيك يا عبدي ، فإذا قال : يا رب وهو ساجد ، قال الله له : لبيك يا عبدي ، فإذا قال : يا رب وهو عاصٍ قال الله له : لبيك ثم لبيك ثم لبيك))

[ورد في الأثر القدسي]

إذاً مع الدعاء ليس هناك تشاؤماً ، مع التوجه إلى الله ليس هناك تشاؤماً ، والتشاؤم علاجه الدعاء .

الأستاذ أحمد :

التفاؤل هو حسن الظن بالله عز وجل ، فمن فوائد التفاؤل عند الله عز وجل ـ لا بد من هذا التفاؤل بثمرة ـ وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما هي فوائد وثمرات التفاؤل ؟.

فوائد وثمرات التفاؤل :

الدكتور راتب :

الحقيقة التفاؤل حينما يأتي بعده استجابة للدعاء يقوي الإيمان ، والتفاؤل يهب الإنسان طاعة سيد الأنام ، النبي علمنا التفاؤل ، والتفاؤل يجعلك إنساناً محبباً ، هناك إنسان أينما جلس يخوف الناس من الحروب ، صار هذا الإنسان مربوطاً بالشر، صار وجوده ثقيلاً،هناك أشخاص سوداويون ، إذا جلس يعطيك الصورة القاتمة للمستقبل ، يعطيك ضعف الأمل بإنجاز ما نعاني منه ، المتفائل محبوب ، والمتفائل استجاب لقول النبي الكريم في محبته للتفاؤل ، والمتفائل ازداد إيمانه قوة ، والمتفائل ازداد مكانة عند الناس .

المتفائل تزداد مكانته عند الناس

الأستاذ أحمد :

إذاً هل من فوائد الخُلق ـ خلق التفاؤل ـ أنه يجلب السعادة إلى النفس ، وإلى القلب ، وأنه يقوي من العزيمة ، ويحث النفس على العمل ؟.

المؤمن يكافأ بالتفاؤل وغير المؤمن يعاقب بالتشاؤم :

الدكتور راتب :

الحقيقة التفاؤل سرّ السعادة ، مثلاً ، أضرب لك هذا المثل : إنسان سيسافر إلى بلد بمركبته وهو يعلم أن العجلة الاحتياطية ليست صالحة ، الآن يركب ويمشي ، يشعر في أثناء سيره بقلق شديد ، لأنه لو تعطلت إحدى العجلات توقف ، إذا هناك خوف ، أو تشاؤم ، أو سوداوية من هذه الرحلة ، لو أن ابنه أصلح له العجلة ولم يخبره معنى ذلك أنه شعر بأسباب القلق ، والخوف ، والتشاؤم ، وهي في الحقيقة

الواقعية ليست موجودة معه ، عجلة احتياط صالحة ، حالة معاكسة ، لو أنه يظن أو يعتقد أن العجلة الاحتياط صالحة لكنها في الحقيقة معطوبة ، وسار إلى بلد بعيد ، وكان في راحة نفسية ، هو شعر بالأمن والتفاؤل مع أنه لا يملك أسباب التفاؤل .

معنى ذلك أن الله قادر أن يخلق التشاؤم واليأس من دون أسباب مادية ، وأن يخلق الأمن والطمأنينة من دون أسباب مادية .

إذاً المؤمن يكافأ بالتفاؤل ، وغير المؤمن مع أنه يملك أسباب القوة ، والأموال ، وكل شيء ، هو قلق ، لذلك يكون التفاؤل أحياناً مكافأة للمؤمن ، ويكون التشاؤم معاقبة للمسيء ، فقد تكون متفائلاً ولا تملك أسباب التفاؤل ، وقد تكون متشائماً ومعك أسباب التفاؤل .

فالعبرة أن الله سبحانه وتعالى بيده قلوب العباد ، يقلبها كيف يشاء ، وفي الأعمّ الأغلب يجعل هذا القلب متفائلاً إذا كان منيباً لله عز وجل ، ويجعله أيضاً متشائماً إذا كان بعيداً عن الله عز وجل .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - موسوعة الأخلاق الإسلامية - الدرس (08-28) : خلق الحكمة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 08-02-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ أحمد :

أستاذي الكريم نود أن نقف اليوم معك عند خلق من الأخلاق جديد ألا وهو خلق الحكمة ، والله عز وجل يقول :

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

(سورة البقرة الآية : 269)

واللافت للنظر أن أياً من آيات القرآن الكريم لم تتحدث عن مثل هذه الخيرية إلا آية الحكمة ، فما هو سرّ هذا الخلق ؟ وما تعريفه عندكم ؟ .

الحكمة أحد أكبر عطاءات الله عز وجل :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

من التعاريف الجامعة المانعة للحكمة : فعل ما ينبغي ، بالقدر الذي ينبغي ، مع من ينبغي ، في الوقت الذي ينبغي ، على كلٍ : الحكمة عطاء إلهي .

مثلاً ورد في بعض الآثار القدسية :

((إن بيوتي في الأرض المساجد ، وإن زوارها هم عمارها ، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني ، وحقّ على المزور أن يكرم الزائر))

[ورد في الأثر]

بربك لو دخلت إلى بيت من بيوت الله هل هناك من ضيافة ؟ على الشبكية ليس هناك أي ضيافة ، لكن الحقيقة إذا أكرمك الله بالحكمة فهي أعظم عطاء إلهي ، إذا أكرمك الله بنعمة الأمن ، إذا أكرمك الله بقلب رحيم ، إذا أكرمك الله بعلم ينير لك الطريق ، إذا أكرمك الله وأنت في بيت من بيوته بالسكينة ، عطاءات الله عز وجل آثارها تغطي الدنيا والآخرة .

لذلك الحكمة أحد أكبر عطاءات الله عز وجل ، وأنا لا أصدق أبداً أن تكون هذه لغير المؤمن ، فقد تجد إنساناً مقطوعاً عن الله ، شارداً عنه ، يتمتع بأعلى درجة من الذكاء ، يرتكب حماقة تلوى حماقة ، لأن الله عز وجل يقول :

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ)

(سورة محمد)

لا يمكن أن يتمتع بالحكمة إلا من كان موصولاً بالله عز وجل .

الأستاذ أحمد :

ذكياً لكنه ليس بحكيم .

لا يتمتع بالحكمة إلا من كان موصولاً بالله عز وجل :

الدكتور راتب :

يرتكب الأذكياء أحياناً حماقات لا يمكن أن توصف لعظم أخطارها ، أما المؤمن مسدد من الله عز وجل ، فنعمة الحكمة من أعظم النعم ، لأنك بالحكمة تسعد بزوجة من الدرجة الخامسة ، تسعد بها أيما سعادة ، وبعدم الحكمة تشقى بزوجة من الدرجة الأولى ، بالحكمة تجعل العدو صديقاً ، من دون حكمة تجعل الصديق عدواً ، بالحكمة تنتفع بالمال القليل ، وبغير الحكمة تبدد المال الكثير ، بالحكمة تعتني بصحتك ، ومن دون حكمة تخسر صحتك ، وهي أثمن ما في حياتك ، بالحكمة تكسب قلوب الناس ، من دون حكمة تكسب عداوتهم .

فالحكمة من أعظم عطاءات الله عز وجل ، وهي خاصة بالمؤمن ، ولن يكون غير المؤمن حكيماً ، لأنه مقطوع عن الله عز وجل ، وهذه الحكمة تعطى ولا تؤخذ ،

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

الأستاذ أحمد :

أستاذي الكريم : رسول الله صلى الله عليه وسلم هل حضنا أيضاً على الحكمة ؟ أو وجهنا إليها بشكل أو بآخر ؟ .

الحكمة لا يملكها الإنسان ولكن يملك أسبابها وأسبابها الاستعانة بالله تعالى :

الدكتور راتب :

الحقيقة أحياناً الشيء الذي لا تملكه وقد وجُهت إليه توجه إلى أسبابه ، أنت لا تملك أن تكون حكيماً

بإرادتك ، لأن اتخاذ القرار أحياناً يتراءى لك أن هذا القرار فيه حكمة ، فإذا فيه حمق ما بعده حمق ، لذلك الحكمة لا تملكها ، ولكن تملك أسبابها ، أسبابها أن تستعين بالله عز وجل ، وأن تقول في كل موقف عصيب : " اللهم إني تبرأت من حولي وقوتي والتجأت إلى حولك وقوتك يا ذا القوة المتين " ، أنت حينما تكون مستعيناً بالله ، مقبلاً عليه، يمدك الله بهذه الحكمة التي تنتفع بها أيما انتفاع ، من دون حكمة الحياة جحيم لا يطاق ، مع أنك قد تكون قوياً ، أو غنياً ، لكن مع الحكمة تبدو الحياة جنة في الأرض ، لذلك في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة .

الأستاذ أحمد :

أفهم منك أن الغنى على سبيل المثال ، ربما يكون لإنسان جاهل غير مثقف هو قسمة من الله عز وجل، لكن الحكمة كأنها لا تكون إلا بمقدمات ، لذلك قال الله عز وجل :

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ)

وإتيان الله الحكمة لهذا الشخص ليس عطاء .

الحكمة أحد أكبر ثمار الإيمان بالله :

الدكتور راتب :

مكافأة وجزاء على مقدمات هي بيده ، أنا أقول دائماً : حينما تؤمر بشيء لا تملكه أنت مأمور بالأخذ بأسبابه ، أسباب الحكمة أن تكون مستقيماً على أمر الله ، موصولاً بالله ، عندئذٍ يتولى الله أمرك ، وهذا معنى قوله تعالى :

(وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة البقرة الآية : 257)

أي إذا كان الله وليك ممن تخاف ؟ إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ إذا كان الله في عليائه ، إذا كان الله قيوم السماوات والأرض ، خالق السماوات والأرض وليك فمن الذي يمكن أن يصل إليك ؟ إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ ويا رب ماذا فقد من وجدك وماذا وجد من فقدك ؟ .

إذاً الحكمة عطاء إلهي يخص المؤمنين حينما يستقيمون على أمره ، ويخطبون وده ، ويقبلون عليه ، تأتي الحكمة كأحد أكبر ثمار الإيمان ، فالمؤمن يتمتع بالحكمة .

أستاذ أحمد ، حروب نشبت أحرقت الأخضر واليابس بسبب الحمق ، مشكلات بين الزوجين أدت إلى انفصال الزواج ، وتشرد الأولاد بسبب الحمق ، شركات عملاقة انهارت بسبب الحمق ، أي آثار الحمق كبيرة جداً ، وما يجري في العالم من حروب ، ومن آلام ، ومن فقر ، ومن قهر ، بسبب البعد عن الله

عز وجل ، بل إنني أرى أن كل ما نعانيه في حياتنا هي أعراض لمرض واحد هو الإعراض عن الله ، هي أعراض الإعراض .

الأستاذ أحمد :

لذلك قال تعالى :

(فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

(سورة طه الآية : 124)

بكل مستوياتنا .

الجهل أعدى أعداء الإنسان والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به :

الدكتور راتب :

(وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً)

(سورة الجن)

لذلك حينما نوقن أن كل ما نعاني من مشكلات بسبب بعدنا عن منهج الله ، وأنا بعدنا عن منهج الله بسبب الجهل ، فالجهل إذاً أعدى أعداء الإنسان ، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به ، والشواهد لا تعد ولا تحصى .

أحياناً يكون تدمير الرجل بتدبيره ، تحجب عنه الحكمة ، يرتكب حماقات ما بعدها حماقات ، قد يكون تدمير الإنسان بيده .

(يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ)

(سورة الحشر)

والإنسان البعيد عن الله هذه الحماقات قد تنهيه ، قد تنهي سلطانه ، وقد تنهي غناه، وقد تنهي قوته ، وقد تنهي مكانته في المجتمع ، فلذلك لا يمكن أن يكون غير المؤمن حكيماً .

الأستاذ أحمد :

قديماً كان الناس يقولون لمن يعرف اليوم أنه طبيب أو دكتور كانوا يقولون : إنه حكيم ، وعندما نقرأ في كتب التاريخ أو الفلاسفة ، يقولون : قال أحد الحكماء ، فهل إطلاقهم لهذا الوصف على الذي يقوم بعمليات التطبيب ، أو صاحب النظر الواسع والمستقبلي سمي بهذه التسمية لإعجاب الناس بالحكمة ؟ .

الحكمة سلوك أما الإدراك النظري فهو علم :

الدكتور راتب :

فيما أرى ، أو فيما قرأت أيضاً أن الفيلسوف إذا طبق مبادئه يكون حكيماً ، فالحكمة سلوك ، أما الإدراك النظري فهو علم ، فأنا أحمل نظرية معينة ، أنا حينما أطبقها أكون حكيماً ، فالحكمة تطبيق المثل العليا ، المثل تكون نظرية ، فإذا طبقت أصبحت حكمة ، هذا في الفلسفة .

أما الطبيب حينما يفاجئ المريض بمرضه الخبيث من دون تمهيد قد ينتهي هذا المريض ، أما أحياناً يخبر أهله ، يترفق به ، ينفس له في الأجل ، فالطبيب المؤمن عنده حكمة ، فقد ينقل المريض إلى مرضه بنعومة ، ورقة ، أو عن طريق من حوله ممن يلوذ به، أما إذا فاجأه بالحقيقة المرة قد ينهي حياته .

أنا أذكر طبيباً قال لمريضه : معك ورم خبيث ، ولن تعيش أكثر من أربعة أشهر تدبر أمرك في هذا الوقت ، مات في اليوم التالي من الوهم الذي أصابه.

الأستاذ أحمد :

أستاذي الكريم ، رسول الله صلى الله عليه وسلم كان حكيماً في جلّ أعماله ، بل في كلها التي تعامل فيها إما مع أعدائه ، أو مع أصحابه ، مع أعدائه لم يبادرهم فوراً بالقتال بل أرسل لهم الرسائل ، ودعاهم إلى الإسلام ، ثم بعد ذلك فتح البلاد ، ومع أصحابه أيضاً ، فما أمثلة ذلك من سيرة النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم ؟.

مثال عن حكمة النبي صلى الله عليه وسلم :

الدكتور راتب :

الحقيقة أن النبي عليه الصلاة والسلام كماله يلفت النظر ، بلغه أن بعض أصحابه الأنصار وجدوا عليه في أنفسهم ، فنقل الخبر زعيمهم سعد بن عبادة ، فسأله النبي بادئ ذي بدء، يا سعد أين أنت منهم ؟ قال: ما أنا إلا من قومي ، فقال : اجمع لي قومك ، جمع الأنصار ـ لكن دقق ـ النبي عليه الصلاة والسلام بعد معركة حنين دانت الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها ، إذاً هو أصبح أقوى رجل في الجزيرة ، وبكلمة من شفته ينفذ كل شيء ، وأناس انتقدوه ، واعترضوا على توزيع الغنائم ، فكان بإمكانه بمنطق الأقوياء الجبابرة أن يلغي وجودهم ، وكان بإمكانه أن يهدر كرامتهم ، وكان بإمكانه أن يهملهم ، وكان بإمكانه أن يعاتبهم لصالحه ، الذي يلفت النظر في كماله أنه ذكرهم بفضلهم عليه ، قال : " أما بعد ، فيا معشر الأنصار ! أما إنكم لو قلتم فلصدقتم ، ولصدقتم به ، أتيتنا مكذباً فصدقناك ، أتيتنا

عائلاً فأغنيناك ، أتيتنا شريداً فآويناك ، يا معشر الأنصار ! ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي ؟ ـ ما قال فهديتكم ، فيها أدب ـ ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي ؟ ألم تكونوا أعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ ألم تكونوا عالة فأغناكم الله ؟ ـ بتواضع ، وبتوحيد ، وبإنكار للذات ، وبشفافية ـ يا معشر الأنصار ! أوجدتم عليّ في أنفسكم من أجل لعاعة ؟ ـ أي حروف ، الكلمة تنبئ عن معناها ، شيء لا قيمة له ـ تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ، يا معشر الأنصار ! أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا أنتم برسول الله إلى رحالكم ؟ ـ فبكوا حتى أخضلوا لحاهم ، وامتص نقمتهم ، واعتراضهم ، وانتقادهم ـ بل قال : اللهم ارحم الأنصار ، وارحم أبناء الأنصار ، وارحم أبناء أبناء الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً ، وسلك الأنصار شعباً ، لسلكت شعب الأنصار ، فامتلأ قلبهم محبة لهم " .

لكن هذه القصة هل هي من حكمته ؟ ممكن ، من رحمته ؟ ممكن ، من وفائه ؟ ممكن ، من حنكته السياسية ؟ ممكن ، إذاً أوتي الكمال البشري كله .

فلذلك الحكيم هو الذي يفعل ما ينبغي بالقدر الذي ينبغي ، مع من ينبغي ، في الوقت الذي ينبغي .

الأستاذ أحمد :

قالوا : رأس الحكمة : الصمت ، لماذا ميز الصمت بأنه رأس الحكمة ؟.

الصمت رأس الحكمة :

الدكتور راتب :

لأن الصامت أمره بيده ، أما إن نطق بكلمة غير مناسبة أصبح مصيره بها .

احفظ لسانـك أيها الإنسان لا يلدغنــك إنه ثعبان

كم في المقابر من قتيل لسانه كانت تهاب لقاءه الشجعان

***

فالصمت زينة للإنسان ، والصمت حكمة ، ولكن لبعض العلماء قول رائع يقول : " الشريعة حكمة كلها ، رحمة كلها ، مصلحة كلها ، عدل كلها ، وأية قضية خرجت من الحكمة إلى خلافها ، ومن العدل إلى الجور ، ومن المصلحة إلى المفسدة ، فليست من الشريعة ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل ".

إذاً الحكمة أن تفعل ما ينبغي ، بالقدر الذي ينبغي ، مع من ينبغي ، في الوقت الذي ينبغي .

الأستاذ أحمد :

هذا التعريف ، والحكمة بحدِّ ذاتها كمصطلح أمر شامل ، عام ، فضفاض ، نريد أن نسألكم عن معاني الحكمة ؟ هل لها معنىً ؟ لو أتت في سياق معين لكان لها دلالة ، ولو أتت في سياق آخر لكان لها دلالة

أخرى ؟.

اختلاف دلالات الحكمة باختلاف السياق الذي تأتي فيه :

الدكتور راتب :

لو جاءت الحكمة في باب الفلسفة ؛ الحكيم هو الفيلسوف الذي تجسد في سلوكه أفكاره ، وفلسفته ، أي طبق ما يعلم ، هذا في مجال الفلسفة .

في مجال القرآن والسنة :

(وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

(سورة آل عمران الآية : 164)

الحكمة سنة النبي عليه الصلاة والسلام ، فإذا جاءت في الحقل الديني فالحكمة هي من سنة النبي عليه الصلاة والسلام ، لأن الأمر الإلهي أمر عام .

(أَقِيمُوا الصَّلَاةَ)

(سورة الأنعام الآية : 2)

فالنبي حدد الركعات ، والفرائض ، والسنن ، والواجبات ، والمستحبات ، أي تنفيذ الأمر الإلهي على وجه أمثل هو الحكمة .

إذاً بيان النبي لما في القرآن من أحكام عامة ، ومن أوامر عامة ، ومن نواهٍ عامة، البيان التفصيلي هو الحكمة التي إذا وردت مع القرآن فهمت أنها السنة .

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ)

(سورة لقمان الآية : 12)

النبوة أحياناً ، إما التطبيق ، وإما سيرة النبي وبيانه الكريم للقرآن الكريم .

الأستاذ أحمد :

الحكمة هل يمكن أن يصل إليها الإنسان بالتعلم ، ثم بعد ذلك يؤتيها الله إياه إيتاءً ، أو منحة ؟.

فرق كبير بين أن تكون حكيماً بتوجيه من الله و بين من يبتغي مصلحته المادية :

الدكتور راتب :

والله أحياناً الإنسان إذا كان ينطوي على ذكاء وقاد ، قد يهديه ذكاؤه إلى الموقف السليم ، لكن لا بدّ من أن أنوه إلى أن هذا الموقف السليم الذي هدي إليه الإنسان بذكائه هو يشبه الحكمة التي يؤتيها الله للمؤمن ، ولكن مع اختلاف البواعث ، فرق كبير بين أن تكون حكيماً بتوجيه الله عز وجل ، وبإلقاء

الحكمة في قلبك ، وقد ربحت الدنيا والآخرة ، ربحت الدنيا بحكمتك ، ومحبة الناس لك ، وربحت الآخرة ، ربحت الأبد ، وبين الذي يبتغي مصلحته المادية فقط ، بل الذي يبتغي أن يكون ذا دخل وفير ، قد يلجأ إلى أن يكون متواضعاً في موقف ، أي منصفاً في موقف ، وهذا يكسبه مكانة في مجتمعه .

لذلك قد تلتقي أفعال الحكماء من المؤمنين ، مع أفعل الأذكياء من الشاردين ، هذا اللقاء يكون في النتائج ، ولكن ليس في البواعث .

لذلك هناك أخلاق الأذكياء ، لكن المشكلة أن هؤلاء الأذكياء إذا توهمنا أنهم حكماء حينما تمس مصالحهم ينقلبون إلى وحوش ، والدليل أن الحضارة السابقة لبعض الشعوب حينما ضربت مصالحها انقلبت إلى وحشية ، وسقطت الحضارة ، وبقيت قوة غاشمة، والإنسان أحياناً يكون بعيداً عن الله ، بعيداً عن أن يقتبس الحكمة من الله ، حينما يهديه ذكاؤه إلى أن يكون متواضعاً ، لطيفاً ، رقيق الحاشية ، ليناً، يألف ويؤلف ، بدافع من ذكائه ، حينما يستفز ينطلق بكلمات الكفر أحياناً ، وينطلق بأفعال لا يمكن أن تصدق ، لذلك :

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

(سورة آل عمران الآية : 179)

فالله عز وجل متكفل أن يضع هذا الإنسان في ظرف يكشف حقيقته .

الأستاذ أحمد :

رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما كان جالساً بين أصحابه دخل عليه شاب فقال له : يا رسول الله أتأذن لي في الزنا ، استهجن الصحابة كلهم مثل هذا التصرف ، وسؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم واستئذانه ، لم ينهره النبي عليه الصلاة والسلام ، لم يعنفه ، وإنما قال له : ادنُ مني ، وبدأ يسامره ، حبذا لو نعرف الحكمة وتشرح لنا بقية القصة ؟

الحكمة من القصة التالية :

الدكتور راتب :

هذا درس للدعاة ، أنت حينما تقول لوزير داخلية : ائذن لي أن أقتل فلاناً ، هذا تحدٍ كبير ، قمة الفظاظة ، وقلة الذوق ، فهذا الشاب يخاطب نبي الأمة ، يخاطب سيد الخلق ، الذي يوحى إليه ، يقول له : ائذن لي بالزنا ، شيء غير معقول ! الصحابة تألموا ، ماذا فعل النبي ؟ قال ادنُ مني ، ـ دقق ـ قال له : يا هذا أتريده لأمك ؟ تصور أمه تزني فامتلأ وجهه دماً ، فقال : لا ، قال : ولا الناس يريدونه لأمهاتهم ، أتحبه لأختك ؟ لابنتك ؟ لعمتك ؟ لخالتك ؟ بعد هذا الشرح والحوار ، قال : " والله دخلت على رسول الله وما شيء أحب إلي من الزنا ، وخرجت من عنده وما شيء أبغض عليّ منه ".

مرة كنت في أمريكا ، سُئلت سؤالاً عن حكم المصافحة ، طبعاً أمامي طبيبات وأطباء يقعن في حرج شديد حينما لا يصافحن الأجانب في المفهوم الإسلامي ، بإمكاني أن أقول الجواب الشرعي ، إني لا أصافح النساء ، قلت للسائلة : الملكة إليزابيت لا يصافحها إلا سبعة رجال ، بحكم القانون البريطاني لعلو مكانتها في مجتمعها ، والمرأة المسلمة أيضاً لا يصافحها إلا سبعة رجال بحكم القانون القرآني لعلو مكانتها في مجتمعها ، فكانت هذه الإجابة مقبولة جداً عندها لأنها كالملكة .

أحياناً يمكن أن تنقل فكرتك بأسلوب لطيف .

الأستاذ أحمد :

لم تحد عن حدود الشرع ، وفي نفس الوقت أعطيتها مثالاً عملياً واقعياً مما تعيشه، وحاولت أن ترتقي بالسائلة على أنكِ والإسلام ينظر إليكِ ياقوتة وملكة ، لا يسمح لأي كان بأن يعبث معك بمثل هذا العبث.

الدكتور راتب :

أحياناً تقول : الياقوتة والجوهرة الثمينة ، توضع في مكان أمين وليست مبتذلة ، هذه من الحكمة .

الأستاذ أحمد :

من سنة النبي عليه الصلاة والسلام أيضاً نلمح مواقف تدلنا على الحكمة ؟.

الدعوة إلى الله بالحكمة قمة النجاح عند الله عز وجل :

الدكتور راتب : الحقيقة له قول رائع يقول :

((لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ : رَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ وَرَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا .))

[البخاري عن ابن مسعود]

الأولى مالاً ، والثانية حكمة ، لا حسد إلا في اثنتين ، هنا الحسد لا بمعنى الحسد الاصطلاحي ، بمعنى الغبطة :

((لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ : رَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ وَرَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا .))

[البخاري عن ابن مسعود]

إذاً :

((إن الله وملائكته حتى النملة في جحرها ، وحتى الحوت في البحر ، يصلون على معلم الناس الخير))

[رواه الطبراني و أحمد عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه]

فالذي يعلم الحكمة له مكانة علية جداً ، بل إن الله عز وجل يقول :

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة فصلت)

إذاً الدعوة إلى الله بالحكمة قمة النجاح عند الله عز وجل ، لكن الدعاة أشد الناس حاجة إلى مفهوم الحكمة ، ليترفقوا بالناس ، وقيمة الداعية ليس في معلومات يحفظها ، بل في قلب كبير يرعى الناس جميعاً ، ويحتوي الناس جميعاً ، ويقبل الناس جميعاً ، فبلطفه وحكمته يأخذ بيد الناس إلى الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - موسوعة الأخلاق الإسلامية - الدرس (09-28) : خلق البر
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 09-02-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ أحمد :

سيدي الكريم نتمنى اليوم أن نتحدث عن خلق جديد ألا وهو خلق البر ، خلق البر هذا عرفه لنا ربنا جلّ وعلا في قوله :

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

(سورة البقرة)

ذكرت الآية بتمامها ، لأننا لو بقينا نشرح فيها حلقات متتابعة ربما ما كفانا الوقت، فحبذا من انطلاق قول الله الذي ذكرنا أن نعرف البر ، وأن تتحدث لنا عن أنواع البر.

العبادات الشعائرية لا تقبل ولا تصح إلا إذا صحت العبادات التعاملية :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

أستاذ أحمد ، أحياناً القرآن يعرف شيئاً ، أنا أرى أن هذا التعريف أكمل تعريف مثلاً : الولي عرفه القرآن الكريم ، فقال :

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

(سورة يونس)

فنحن لو تقيدنا في تعريفات القرآن لنجحنا ولأفلحنا ، الآن الموضوع عن البر .

البر في القرآن معرف بآية تعريفاً تفصيلياً ، وكأن القرآن أراد أن ينبهنا إلى أن هناك عبادة تؤدى أداءً شكلياً ، عبادة تؤدى أداءً مفرغاً من المضمون ، هذه العبادات لا تقدم ولا تؤخر ، بل إن العبادات الشعائرية لا تقبل ، ولا تصح ، إلا إذا صحت العبادات التعاملية.

والدليل : أن النبي عليه الصلاة والسلام سأل أصحابه :

((أَتَدْرُونَ ما المُفْلِسُ ؟ قالوا : المفْلسُ فينا من لا درهم له ولا متاع . قال : إن المفْلسَ مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي قد شَتَمَ هذا ، وقذفَ هذا وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيُعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته فإن فنيَتْ حَسَنَاتُهُ قبل أن يُقْضى ما عليه ، أخِذَ من خطاياهم فطُرِحَتْ عليه ، ثم يُطْرَحُ في النار))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

الصيام :

((مَن لم يَدَعْ قولَ الزُّور والعملَ به ، فليسَ لِلهِ حاجة فِي أن يَدَعَ طَعَامَهُ وشَرَابَهُ))

[أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

الحج :

((من حج بمال حرام فقال : لبيك اللهم لبيك ، قال الله له : لا لبيك ولا سعديك وحجك مردود عليك))

[الأصبهاني في الترغيب عن أسلم مولى عمر بن الخطاب]

إذاً الله عز وجل في هذه الآية ، بل في مطلعها أراد أن يلفت نظرنا إلى أن العبادات الشعائرية ، وفي رأسها الصلاة ، إذا أديناها أداءً شكلياً ، أداءً فيه تفريغ من المضمون ، هذه العبادات لا تقدم ولا تؤخر ، ولا تقبل أساساً ، فالله عز وجل لئلا نتوهم أن البر هو أن نصلي وألا نستقيم ، أخبرنا أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، قال تعالى :

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ)

الإيمان الذي لا يحمل على طاعة الله لا يعد إيماناً منهجياً :

أحياناً تنشأ خلافات في أمور ثانوية ، وهذه الخلافات تستهدف الجهد والوقت ، وتعيق التقدم ، وتضعف المسلمين ، كأن الله يريد أن يلفت النظر إلى أن الخلافات ، والمشاحنات ، والعداوات ، والبغضاء ، حول شكليات العبادة ، من دون التفات إلى مضامينها وإلى مقاصدها ، عمل ليس مقبولاً عند الله عز وجل :

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ)

الآن جاء التعريف الإيجابي ، ذاك ليس براً ،

(وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ)

هناك آية تقول :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا آَمِنُوا)

(سورة النساء الآية : 136)

معنى ذلك أن الإيمان الذين هم عليه لا يكفي ، بل لا يحملهم على طاعة الله ، جاءت بعض الآيات :

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ)

(سورة الحج الآية : 78)

(اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

(سورة آل عمران الآية : 102)

إذاً نريد أن نتقن هذه العبادة ، نتقن الجهاد ، نتقن التقوى ، نتقن الصلاة ، إذاً الإيمان الذي لا يحمل على طاعة الله لا يعد إيماناً منهجياً ، لا يعد إيماناً تقطف ثماره .

ما لم ينقلب إيمان الإنسان إلى التزام ووقوف عند حدود الله فلا قيمة له :

لذلك :

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ)

آمن بالله الإيمان الذي يحمله على طاعة الله ، آمن بالله الإيمان الذي يريده الله ، آمن بالله الإيمان الذي يرقى بالإنسان ، آمن بالله الإيمان الذي يدفعه إلى الجنة .

لذلك ليس كل مؤمن بمؤمن ، بل إنني أرى ـ وأرجو أن أكون على صواب ـ أن هناك دائرة كبيرة ، كل من قال : لهذا الكون إله فهو مؤمن ، ضمن هذه الدائرة ، والذي أنكر وجود الله هو خارجها ، هذه الدائرة داخلها دائرة ، كل من حمله إيمانه على طاعة الله في الدائرة الثانية ، وكل من لم يحمله إيمانه على طاعة الله في الدائرة الأولى ، وفي مركز الدائرة الثانية نقطة هي دائرة الأنبياء والمرسلين .

إذاً الله عز وجل يقول :

(وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ)

يؤكد هذا المعنى أن النبي عليه الصلاة والسلام قال :

((من قال لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة ، قيل وما حقها ؟ قال : أن تحجبه عن محارم الله))

[الترغيب والترهيب عن زيد بن أرقم بسند فيه مقال كبير]

أي ما لم ينقلب الإيمان إلى التزام ، إلى سلوك ، إلى وقوف عند حدود الله ، إلى ائتمار ، لا قيمة لهذا الدين .

الأستاذ أحمد :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((من لم تنهه صلاته عن الفحشاء و المنكر فلا صلاة له))

[ورد في الأثر]

ما من ركنين من أركان الإيمان تلازما في القرآن كالإيمان بالله واليوم الآخر :

الدكتور راتب :

بل :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

(سورة الأنفال الآية : 72)

إذاً :

(وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ)

أستاذ أحمد ، ما من ركنين من أركان الإيمان تلازما في القرآن تلازماً عجيباً كالإيمان بالله واليوم الآخر ، لأننا إذا آمنا بالله ، خالقاً ومربياً ، ومسيراً ، ولم نأتمر بأمره ، ولم ننتهِ عما عنه نهانا ، ما قيمة هذا الإيمان ؟ أما الإيمان باليوم الآخر معنى ذلك أن هناك يوم تسوى فيه الحسابات ، هناك يوم يجازى فيه المحسنون على إحسانهم ، ويعاقب فيه المسيئون على إساءتهم .

لذلك الإيمان بالله يعني أن لهذا الكون إلهاً عظيماً ، خلق الكون ، وأمده ، وسيّره، ولكن الإيمان بالله واليوم الآخر يعني أن الله سوف يحاسب ، وسوف يعاقب ، وأي إنسان لا يدخل الله في حساباته ، بل لا يدخل الآخرة في حساباته هو إنسان غبي جداً ، لأنه تجاهل حقيقة صارخة ، فهنا جاءت :

(وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

الإيمان بالملائكة يؤكد للإنسان أن كلّ أعماله مسجلة :

ثم إن بعض المسلمين قد لا يفهمون بعض الآيات ، أو لا يأخذونها على محمل الجد ، أن على كتفيك ملكين يكتبان عليه كل حركاته ، وكل سكناته .

(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)

(سورة ق)

الإيمان بالملائكة يؤكد للإنسان أن كل أعماله مسجلة ، وقد أذكر وأقول : إذا قيل لإنسان أنك مراقب ، أو هاتفك مراقب ، ينتقي أدق الألفاظ ، وأوضحها ، ينتقي لفظة لا تؤول تأويلين ، إذا راقبك إنسان تنضبط ، فكيف إذا علمت أن على كتفيك ملكين يكتبان عليك كل صغيرة وكبيرة ،

(وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ)

النبيون ماذا فعلوا ؟ بينوا كتاب الله عز وجل .

(لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)

(سورة النحل الآية : 44)

بينوا هذا الكتاب ، بينوا التفاصيل ، كأن الكليات في القرآن ، والتفاصيل في السنة، الأنبياء لهم دور آخر ، فضلاً عن أن النبي مبين ، هو قدوة ، هو أقنعك بهذا الدين ، لأنه طبقه ، هو حجة عليك . إذاً النبي له وظيفتان ، وظيفة التبليغ أولاً ، ثم وظيفة التبيين ثانياً ، ثم وظيفة القدوة ثالثاً .

التفكر في خلق السماوات والأرض يعرفنا بالله أما قراءة القرآن فتعرفنا بمنهجه :

إذاً

(وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ)

الكتاب منهج أي نحن بعقولنا إذا قمنا بجولة في الكون نستنبط أن لهذا الكون خالقاً عظيماً ، مربياً حكيماً، مسيراً عادلاً .

ولكن هناك حقائق لا يمكن أن نعرفها بعقولنا ، كيف ؟ أنت إذا زرت جامعة تأملت في الأبنية ، أبنية رائعة ، هناك قاعات للتدريس ، و قاعات للمطالعة ، ومكتبات ، و سكن الطلاب ، وحدائق عامة ، وملاعب ، يمكن أن تستنبط آلاف الحقائق ، أن وراء هذا البناء عقل كبير ، مهندس خبير ، إشراف ، ذوق فني رفيع ، خبرة عالية في التعليم الجامعي، كل مرافق الطلاب ميسرة ، لكن مهما كنت ذكياً ، ومهما كان التأمل عميقاً ، لا يمكن أن تعرف من هو عميد هذه الجامعة ، ولا من هم عمداء الكليات ، ولا النظام الداخلي ، ولا شروط القبول ، ولا شروط النجاح والرسوب ، ولا الأقساط ، هذه المعلومات لا بد أن تجدها في كتاب .

لذلك كل شيء عجز عقلك عن إدراكه أخبرك الله به ، إذاً الكتاب فيه إخبار من الله .

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة إبراهيم الآية : 32)

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد الآية : 2)

الكتاب فيه تفاصيل ، إذاً التفكر في خلق السماوات والأرض يعرفك بالله ، أما قراءة القرآن ، تعرفك بمنهج الله ،

(وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ)

الأستاذ أحمد :

وكأن عدد أركان الإسلام وأعمدته في هذا الشطر من الآية .

الإيمان الذي لا يترجم إلى عمل لا قيمة له إطلاقاً :

الدكتور راتب :

هناك النبي ، والكتاب ، والملائكة ، واليوم الآخر ، والإيمان بالله .

الآن : إيمان من دون عمل لا وزن له إطلاقاً ، كيف ؟ لو أن إنساناً مصاب بمرض جلدي ، علاجه الوحيد أن يتعرض لأشعة الشمس ، قبع في غرفة مظلمة ، قميئة ، رطبة ، وقال : يا لها من شمس ساطعة ! ما أعظم نور الشمس ! ما أعظم فوائد أشعة الشمس ! وهو لا يفعل هذا ، ما قيمة هذا الإيمان؟.

لذلك الإيمان الذي لا يترجم إلى عمل لا قيمة له إطلاقاً ، إذاً هنا

(وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ)

هذه مرحلة اعتقادية .

أكبر دليل على أن المؤمن يحب الله حينما ينصاع إلى تنفيذ أمره :

الآن المرحلة السلوكية ، الأول الإيمان النظري ، الثاني الإيمان العملي ، الأول المنطلقات النظرية ، والثاني التطبيقات العملية ،

(وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ)

المال محبب .

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة آل عمران الآية : 14)

المال محبب ، الإنسان يحب أن يقتني المال ، و يكنزه ، و يأخذه ، و هذا طبع فيه ، أما إنفاقه تكليف ، فأكبر دليل على أن المؤمن يحب الله ، حينما ينصاع إلى تنفيذ أمره ، إذاً صار التكليف بإنفاق المال محكاً واختباراً ،

(وَآتَى الْمَالَ)

ولكن أنا قد أوتي الناس كي أنتزع إعجاب الناس ، أنا أعطي المال ليقال عني المحسن الكبير ، أنا لا أدفع مبلغاً في بناء مسجد إلا إذا وضعوا لوحة كتب عليها هذه المئذنة تبرع بها المحسن الكبير ،

(َآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ)

لا من أجل الشهرة ، لا من أجل المديح، لا من أجل أن يرقى إلى مكانة علية ، لا من أجل أن يتاجر بهذا العطاء ،

(آتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ)

الأقربون أولى بالمعروف :

وللمفسرين آراء طريفة ، معنى

(عَلَى حُبِّهِ)

أي على أنه يحب المال آتاه ، أي عاكس طبعه ، قاوم طبعه .

(خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى)

(سورة النازعات)

الهوى اتقاء المال ، هذا المعنى الأول ، المعنى الثاني : آتى المال بسبب محبته لله عز وجل ، إما أنه آتى المال وهو يحبه ، أو آتى المال بسبب محبته لله ، فأن تقول آتى المال حباً مفعول لأجله ،

(آتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ)

من ؟

(ذَوِي الْقُرْبَى)

القاعدة : الأقربون أولى بالمعروف .

بالمناسبة : الله عز وجل حينما قال :

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

(سورة الشعراء)

لماذا ؟ لأن بين الأقارب ليس هناك حواجز ، أنت الآن لا تستطيع أن تقول لإنسان في الطريق تعال معي إلى المسجد ، لا يعرفك ، وبالتالي لا يثق بك ، أما أخوك ، ابن عمك ، ابن خالتك ، صديقك ، زوج أختك ، لا يوجد حواجز أبداً ، فابدأ بهؤلاء هم أقرب الناس إليك ، وهذا الملمح نجده في هذه الآية،

(وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى)

الأستاذ أحمد :

ربما يتمنى أن يعطي المال فيعطيه لغريب حتى يمدح بين الناس ، أما ربما بينه وبين القريب لا يدري به كثير من الناس ، ففي الأمر مشقة وصعوبة .

ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ أولى الناس بالعناية والإرشاد :

الدكتور راتب :

(ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى)

اليتيم فقد الأب ، أو فقد الأم ، أو فقد الأب والأم ، هو أولى الناس بالعناية والإرشاد ، لأنه :

(وَمَنْ أَحْيَاهَا)

(سورة المائدة الآية : 32)

أي من أحيا النفس البشرية :

(فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً)

(سورة المائدة الآية : 32)

ولتكريم اليتامى جعل الله نبيه الكريم ، وسيد الخلق أجمعين ، وحبيب الله عز وجل يتيماً ،

(وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ)

المسكين هو العاجز الذي يعجز عن كسب رزقه ، الفقير ليس عاجزاً ، لكن رزقه لا يكفيه ، ليس الفقير الذي تسده اللقمة واللقمتان ، ولكن الفقير هو الذي لا يجد ما ينفق ، إذاً أعطانا ربنا عز وجل أن هؤلاء المساكين الذين ابتلاهم الله بعاهة تمنعهم من كسب الرزق أولى الناس بقصد هذه الأموال ؛ أموال الصدقات .

من لوازم وصف الله جلّ جلاله للفقير بأن يحسبه الجاهل غنياً :

(وَابْنَ السَّبِيلِ)

المنقطع في الطريق ، المسلمون متعاونون ، فكل إنسان ، وقد يكون غنياً في بلده ، إلا أنه الآن هو فقير ، وقد جعل الله لابن السبيل نصيباً من الزكاة .

(وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ)

الذي يسأل ، طبعاً قال تعالى :

(وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

(سورة الذاريات)

الثاني لا يسأل ، فيحرم ، لكن هناك ملمح أتمنى أن يكون واضحاً لدى الأخوة المشاهدين ، قال تعالى يصف الذين يستحقون الزكاة :

(يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ)

(سورة البقرة الآية : 273)

ما دام الذي يستحق الزكاة لا تعرفه بالشكل ، لا بد من أن تتفقده فتسأل عنه ، من لوازم وصف الله جلّ جلاله للفقير بأن يحسبه الجاهل غنياً ، ينبغي أن تسأل عنه أنت ، أن تبحث عنه .

العبودية عادت لا على مستوى الأفراد بل على مستوى الشعوب :

إذاً هنا جاءت :

(وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ)

السائل قال تعالى :

(وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ)

(سورة الضحى)

الذي يسأل يجب ألا يرد ، ولكن إن لم تكن واثقاً من حاجته أعطه مالاً لا تندم عليه إن لم يكن كما ينبغي ،

(وَفِي الرِّقَابِ)

هذه مضى وقتها ، في موضوع عتق العبيد وهناك إشارات في القرآن :

(فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا)

(سورة المجادلة الآية : 12)

معنى ذلك قضية مرحلية ، لكنني أرى أن العبودية عادت لا على مستوى الأفراد بل على مستوى الشعوب ،

(وَفِي الرِّقَابِ)

الآن بعد هذا الإيمان الرائع

(بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ)

وبعد هذا العطاء الرائع ، إنفاق المال

(عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ)

إيتاء الزكاة فريضة بينما إنفاق المال على حبّ الله عز وجل طوعية :

الآن هيأ أسباب الصلاة

(وَأَقَامَ الصَّلَاةَ)

هناك ملمح دقيق في هذه الآية وهو أنه أقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، لو أخذنا الزكاة بمفهومها الفطري إيتاء الزكاة شيء ، وإنفاق المال على حب الله شيء آخر .

لذلك قال لعض العلماء : للمال حق سوى الزكاة .

(فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

(سورة المعارج)

أما

(فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ)

الصدقة ، لذلك قضية إيتاء الزكاة فريضة بينما إنفاق المال على حبّ الله عز وجل طوعية ، يبقى في الثانية أكثر ، أنت حينما تؤدي الضريبة لا يعقل أن تشكر ، ما سمعنا أن وزير المالية قدم كتاب شكر لمن أدى الضريبة ، لأنه واجب مستحق ، أما حينما يقدم المواطن بناء ليكون جامعة يقام له حفل تكريم.

إذاً إيتاء المال كصدقة يرقى بالإنسان أيما رقي ، بينما دفع الزكاة أداء لواجب.

هناك ملمح آخر : أنت حينما تتصل بالله عز وجل ، ينبغي أن تشتق من كماله ، حينما تكون مع الرحيم ينبغي أن تكون رحيماً ، حينما تكون مع العدل ينبغي أن تكون عادلاً ، حينما تكون مع اللطيف ينبغي أن تكون لطيفاً ، فيبدو أن الصلاة من أولى أهدافها أن تشتق الكمال من الله لهذا المعنى أقام الصلاة ، واستفاد منها لتزكية نفسه ، وآتى الزكاة .

الإنسان خاسر لا محالة إن لم يبحث عن الحقيقة ويعمل بها ويدعو إليها :

الآن المحصلة صارت شخصية فذة ، لها مرتبة علمية ،

(آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ)

(وَأَقَامَ الصَّلَاةَ)

ومرتبة أخلاقية ،

(وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا)

((من عامل الناس فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ، ووعدهم فلم يخلفهم فهو ممن كملت مروءته ، وظهرت عدالته ، ووجبت أخوته ، وحرمت غيبته))

[ورد في الأثر]

إذاً :

(وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ)

نحن في طريق الدنيا في معركة أزلية أبدية بين الحق والباطل ، لا بد من أن نصبر ، بل إن الإنسان خاسر لا محالة إن لم يبحث عن الحقيقة ، ويعمل بها ، ويدعو إليها ، ويصبر على البحث عنها ، والعمل بها، والدعوة إليها ،

(وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ـ في المعركة ـ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ـ ما عاهدوا الله عليه ـ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

الذين اتقوا أن يدخلوا النار ، واتقوا سخط الله ، واتقوا غضب الله عز وجل .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - موسوعة الأخلاق الإسلامية - الدرس (10-28) : خلق الاستقامة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 10-02-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ أحمد :

سيدي الكريم نتمنى اليوم أن نتحدث عن خلق جديد من الأخلاق الإسلامية ألا وهو خلق الاستقامة ، لكن السؤال الذي يعيشه كل واحد منا في واقعه المعاصر ، أننا نجد كثيراً من الناس ربما يقومون بأعمال هي نتاج طبيعي لتربيتهم الأسرية الطيبة ، لكنهم لا يتمثلون العبادات والشعائر ، كثيراً ما سمعنا أشخاصاً يقولون : أنا لا أكذب إلا أني أيضاً لا أصلي ، أنا لا أسرق إلا أني لا أصوم ، أنا قلبي لا يحمل حقداً على أحد ، فهل مثل هذه الأخلاق تكفي وتغني عن الرابط ، والدين ، والقيام بالشعائر ، أو بمعنى أصح هل هناك رابط وصلة ما بين الاستقامة و الدين ؟ .

منهج الله كلٌّ لا يتجزأ :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

أستاذ أحمد ، بادئ ذي بدء : منهج الله كلٌّ لا يتجزأ ، فإما أن نأخذه كله ، وعندئذٍ نقطف ثماره ، أو أننا إذا أخذنا بعضه كل عمل صالح له حساب عند الله ، لكن مجموع الأعمال الصالحة من دون استقامة لا ترقى بنا إلى أن نقطف ثمار الدين ، على كلٍّ قضية الاستقامة وعلاقتها بالدين قضية دقيقة جداً ، لا بدّ من مثل :

التجارة ، كم نشاط لها ؟ آلاف الأنشطة ، بدءاً من تأسيس شركة ، إلى شراء مقر ، شراء مستودعات ، شراء مكاتب ، تعيين موظفين ، استخدام شركات ، أخذ وكالات ، شراء بضاعة ، شحن بضاعة ، توزيع البضاعة ، جمع ثمنها ، الدعاية ، المحاسبة ، الضرائب ، آلاف الأنشطة ، لكن كل هذه الأنشطة على كثرتها وتنوعها يمكن أن تضغط بكلمة واحدة ، هي الربح ، فما لم يربح الإنسان في العمل التجاري فليس بتاجر ، هذا التمهيد.

الآن العمل الديني بشكل عام ، والعمل الإسلامي بشكل خاص ، بدءاً من طلب العلم ، تأسيس مدارس ، جامعات ، إنشاء مساجد ، تعيين خطباء ، تعيين مدرسين ، تأليف كتب ، مؤتمرات إسلامية ، أداء عبادات ، يمكن أن نعدد مئات ألوف الأنشطة في الدين ، وكذلك يمكن أن تضغط كلها بكلمة واحدة هي الاتصال بالله ، ومفتاح الاتصال بالله الاستقامة على أمره ، وما لم نحكم اتصالنا بالله عن طريق استقامتنا على أمره لن نقطف من ثمار الدين شيئاً .

ما لم نحكم اتصالنا بالله عن طريق استقامتنا على أمره لن نقطف من ثمار الدين شيئاً :

لذلك الداعية الذي يحض أخوانه على الاستقامة يكون مفلحاً ، وناجحاً ، وموفقاً، لأن هذا الطالب ـ طالب العلم ـ لن يقطف ثمار الدين إلا بطاعة الله عز وجل ، إذاً موقع الاستقامة كما نقول في التعريف الدقيق الذي أذكره كثيراً : العبادة طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية ، هذا التعريف فيه ثلاث كليات ، الكلية الأولى والأخطر هي : الالتزام ، طاعة طوعية، سببها معرفة يقينية ، ثمراتها سعادة أبدية .

فما لم نلتزم ، ما لم يكن عطاؤنا وفق منهج الله ، ما لم يكن منعنا وفق منهج الله، ما لم يكن سرورنا وفق منهج الله ، ما لم تكن تصرفاتنا وفق منهج الله ، ما لم يكن بيتنا إسلامياً ، عملنا إسلامياً ، أفراحنا إسلامية ، أتراحنا إسلامية ، علاقاتنا إسلامية ، العلاقات الجزئية والدولية ، ما لم يكن الإسلام منهجاً مطبقاً في حياتنا ، يغطي كل شؤون حياتنا لن نستطيع أن نقطف من هذا الدين ثماره اليانعة التي وعد الله بها .

الأستاذ أحمد :

أستاذ الكريم ، عندما يقول الله عز وجل في سورة فاتحة الكتاب :

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

(سورة الفاتحة)

ويطلب منا ، بل ونكررها في كل ركعة من ركعات صلواتنا ، مما يدل على أهمية هذا الدعاء ألا وهو الصراط المستقيم ، هل في آيات الذكر الحكيم من آيات أخر تحض وتحث على الاستقامة ؟.

الصراط المستقيم يفضي إلى معرفة الله وطاعته والسعادة بقربه :

الدكتور راتب :

لعل الصراط هو الطريق ، أما المستقيم الذي يوصل إلى الله ، والدليل :

(فاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ)

(سورة فصلت الآية : 6)

هناك آلاف الطرق تفضي إلى نتائج مرضية أو غير مرضية ، لكن الطريق المستقيم الذي أراده الله في آية الفاتحة

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)

الذي يوصل إلى الله ، أي مثلاً : أنا أمام مجموعة طرق وأنا في الصحراء ، أحد هذه الطرق يوصل إلى الماء ، وأنا أكاد أموت عطشاً ، فلذلك لو سلكت أي طريق ، ولا ينتهي بنبع ماء فأنا هالك ، إلا إذا عرفت الطريق الذي يفضي بي إلى نبع الماء .

لذلك الصراط المستقيم هو الذي يفضي إلى معرفة الله ، وطاعته ، والسعادة بقربه .

الآية التالية أصل في الاستقامة :

لكن الآية الدقيقة :

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

(سورة فصلت الآية : 30)

لن تستقيم على أمره إلا إذا عرفته ، خالقاً ، رباً ، مسيراً ، واحداً ، موجوداً ، هو القوي ، هو الغني ، هو العاطي ، هو الرازق ، هو الحليم ، هو الرحيم ،

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

فالاستقامة يجب أن تسبقها معرفة بالله ، حتى تكون صحيحة.

(تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ)

(سورة فصلت الآية : 30)

الثمار .

(أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت الآية : 30)

أستاذ أحمد هذه الآية فيها معنى دقيق جداً ، وملمح خطير ، نحن الآن في هذه الثانية وراءنا ماض ، وأمامنا مستقبل ،

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا)

مما سيكون ، وألا تندموا على ما كان ، غطت الزمن كله ، علامة المستقيم لا يندم على ما فات ، ولا يخشى مما هو آت .

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة الآية : 51)

هذه الآية أصل في الاستقامة ،

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

من استقام على أمر الله لا يضل عقله ولا تشقى نفسه :

لذلك قال تعالى :

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

(سورة طه)

أي لا يضل عقله ، ولا تشقى نفسه .

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة)

أي : لا يندم على ما فات ، ولا يخشى مما هو آت ، ولا يضل عقله ، ولا تشقى نفسه ، ماذا بقي من السعادة ؟ الذي يستجيب لأمر الله ، الذي يتبع منهج الله ، لا يضل عقله ، أفكاره كلها صحيحة ، تصوراته كلها صحيحة ، ولا تضل نفسه ، مشاعره ، أخلاقه ، استقامته واضحة ، ولا يخشى مما هو آت ، كما أنه لا يندم على ما هو آت .

فلذلك الاستقامة واضحة جداً في هذه الآية .

الاستقامة هي الحجر الأساس في البناء الإسلامي :

بالمناسبة يأتي بعد هذه الآية :

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً)

(سورة فصلت الآية : 33)

أي لا يكون المؤمن مؤمناً إلا إذا استقام على أمر الله ، الآن ولا يكون الداعية داعية إلا إذا جاء عمله مطابقاً لأقواله ، كلام دقيق ورائع ،

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً)

(وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة فصلت)

إذاً الاستقامة هي الحجر الأساس في البناء ، ما لم نستقم على أمر الله ما الذي يكون ؟ خلفية إسلامية ، نزعة إسلامية ، أرضية إسلامية ، ثقافة إسلامية ، اهتمامات إسلامية، مشاعر إسلامية ، لكن ليس هناك إسلام .

لذلك القصة التي أرويها أحياناً : أن طالباً سافر إلى بلاد بعيدة ، وأعجبته فتاة وأحبها حباً جماً ، استأذن والده بالزواج منها ، فجاء الرفض والتعنيف والتهديد بالتبرئة منه لو تزوجها ، لكنه بعد شهر استأذن والده أنها إذا أسلمت هل يقبل ؟ فجاء الجواب بالإيجاب ، أعطاها كتباً مترجمة إلى اللغة الإنكليزية ، وطلبت فرصة مقدارها أربعة أشهر كي تقرأ الكتب بعيدة عنه ، وعن تأثيره ، ومداخلاته ، لكنه أمضى هذه المدة بشعور عجيب ، وكأنها أربع سنوات ، فلما انتهت المدة ، والتقى بها ، ونطقت بفمها أنها أسلمت ، كاد يختل توازنه من الفرح ، لكنها قالت له : ولكنني لن أتزوجك ، لأنك بحسب ما قرأت لست مسلماً .

لذلك المسلمون أحياناً يرتادون المساجد ، ويصلون ، ويحجون ، ويزكون ، لكن كسب أموالهم غير إسلامي ، إنفاق أموالهم ، أفراحهم ، أتراحهم ، علاقاتهم ، النمط في حياتهم اليومية نمط آخر غير الإسلام ، لذلك هؤلاء مع اعتزازهم بالإسلام ، ومع شعورهم أنهم مسلمون ، لكنهم لم يقطفوا من ثمار الإسلام شيئاً .

فلذلك الاستقامة هي الدين ، هي حجر الزاوية ، هي الأساس ، فمن لم يستقم لن يقطف من الدين شيئاً .

الأستاذ أحمد :

وهل كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما بينت لنا من آيات الذكر الحكيم دعوة إلى الاستقامة ، هل كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنته وهديه مع أصحابه تحفيزاً على الاستقامة ؟.

ثمار الاستقامة لا تعد ولا تحصى :

الدكتور راتب :

يقول عليه الصلاة والسلام :

((استقيموا ولن تُحْصُوا))

[أخرجه ورواه مالك رضي الله عنه]

وفي البلاغة أن الفعل إذا حذف مفعوله أطلق معناه ، أي استقيموا ، فإذا استقمتم لن تحصوا ثمار الاستقامة ، أهي الراحة النفسية ؟ أهي العزة ؟ أهي الشعور بالقرب من الله ؟ أهو التوفيق ؟ النجاح ؟ العلو الذي يرضاه الله عز وجل ؟ ثمار الاستقامة لا تعد ولا تحصى

((ولن تُحْصُوا))

الخير من استقامتكم ، أي سعادة زوجية ، أولاد أبرار ، صحة ، مكانة ، تألق ، راحة نفسية ، أمن ، سكينة ، سعادة ،

((استقيموا ولن تُحْصُوا))

الخير كله ، الخير كل الخير ، والنجاح كل النجاح ، والفلاح كل الفلاح ، والفوز كل الفوز ، في استقامة العبد على أمر الله ، إن استقام العبد على أمر الله ، لن ـ لتأبيد النفي ـ يحصي ثمار هذه الاستقامة التي تعود عليه .

إذاً القرآن يؤكد أن الإنسان إذا استقام لا يخشى مما هو آت ، ولا يندم على ما هو فات ، ذكر النبي الكريم هذا القول الرائع :

((استقيموا ولن تُحْصُوا))

أي أن خيرات الاستقامة لن يحصيها المستقيم ، تأتيه الخيرات من كل مكان .

الأستاذ أحمد :

أستاذنا الكريم ، أيضاً يحضرني في هذا المقام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما سأله سيدنا عبد الله بن سفيان قال له : قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك ؟ فكان الجواب:

((قل : آمَنْتُ بالله ، ثم استقم))

[مسند أحمد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سُفْيَانَ عَنْ أَبِيهِ]

إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم :

الدكتور راتب :

طبعاً هذا الحديث له روايات عديدة ، في بعض الروايات فيه زيادة ، جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم و قال له : " يا رسول الله عظني ولا تطل " ، قال : " قل آمنت بالله ثمَّ استقم " ـ الشاهد في الزيادة ـ قال : " أريد أخفَّ من ذلك " ـ أي رأى الاستقامة عبئاً شديداً عليه ، فقال عليه الصلاة والسلام ببساطة ما بعدها بساطة : " إذاً فاستعدّ للبلاء " .

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد الآية : 11)

أنت تريد الكرامة ، والله يأمرك بالاستقامة ، فما لم نستقم ينبغي ألا نكون سذجاً وننتظر من الله ما لم يكن .

الأستاذ أحمد :

ما هي نتائج عدم الاستقامة بشكل عام ؟.

نتائج عدم الاستقامة :

الدكتور راتب :

الكلام الدقيق والصريح هؤلاء الذين قالوا :

(نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ)

(سورة المائدة الآية : 18)

هذا ادعاء ، بماذا ردّ الله عليهم ؟ ردّ عليهم فقال :

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ)

(سورة المائدة الآية : 18)

وإذا قال المسلمون : نحن أمة محمد ، نحن أمة القرآن ، نحن الأمة المختارة نحن أمة الوحيين ، هذه دعوى ،

(قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ)

يأتي في الآية كلام خطير :

(بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة الآية : 18)

ليس لكم أية ميزة ، وأنا أقول : الحقيقة المرة أفضل ألف مرة من الوهم المريح، أنا حينما لا أستقيم ، وأدعي أنني من أمة محمد ، من هذا الدين العظيم ، هذا لا يقدم ولا يؤخر ، لذلك قال تعالى :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

(سورة آل عمران الآية : 110)

ما علة هذه الخيرية ؟

(تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

(سورة آل عمران الآية : 110)

فإن لم نأمر بالمعروف ، ولم ننهَ عن المنكر ، ولم نؤمن بالله فقدنا خيرتنا ، فنحن عندئذٍ أمة ممن خلق، هان أمر الله علينا فهنا على الله ، ثمار عدم الاستقامة ، أو الأصح نتائج عدم الاستقامة خطيرة جداً ، أمة تنتمي انتماءً شكلياً لهذا الدين ، وليست مطبقة لأحكامه ، إذاً لن تقطف ثماره .

لن يفلح المسلمون ولن يستحقوا نصر الله عز وجل إلا إذا اصطلحوا معه وطبقوا منهجه :

لذلك قال تعالى :

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

(سورة النساء)

فإذا كان لهم علينا ألف سبيل وسبيل ، ما التفسير ؟ واضح لسنا على أمر الله :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)

(سورة النور الآية : 55)

نحن لسنا مستخلفين ، هذه حقيقة مرة .

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

(سورة النور الآية : 55)

نحن لسنا ممكنين ، هذه الحقيقة المرة .

(وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

(سورة النور الآية : 55)

نحن لسنا آمنين ، نحن لسنا مستخلفين ، ولسنا ممكنين ، ولسنا آمنين ، التفسير أن زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين ، الخلل عندنا ، والكرة في ملعبنا

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

فلذلك لن نفلح ، ولن نستحق نصر الله عز وجل إلا إذا اصطلحنا معه ، وطبقنا منهجه ، عندئذٍ نقدم لله أسباب النصر .

الأستاذ أحمد :

عندما ذكرتم أستاذي الكريم

(تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

ذكرتم أن الاستقامة أمر حدّي ، بمعنى عما مضى وعما لحق .

الاستقامة حدّية أما العمل الصالح فنسبي :

الدكتور راتب :

لا ، هذا معنى آخر ، أي لو أن عندك مستودع لوقود سائل ، هذا المستودع قد يوصف بأنه كبير ، أو أقل ، أو صغير ، أو متوسط ، أما إحكامه حدّي ، لا يوجد غير حالة واحدة ، إما أن يكون المستودع محكماً ، أو غير محكم ، لا يوجد نوعاً ما ، غير صحيح ، محكم أي لو ملأته بالوقود السائل لن يتسرب منه شيء ، أما الغير محكم نسبي ، قد يفقد محتواه بسنة ، أو بشهر ، أو بأسبوع ، أو بيوم ، فعدم الإحكام نسبي ، أما الإحكام حدي .

الاستقامة حدية ، أما العمل الصالح فنسبي ، هذا المستودع المحكم قد أملئ نصفه ، ربعه ، ثلثه ، أما إحكامه فحدي ، لذلك إن الله :

((وإنَّ الله أمرَ المؤمنين بما أمر به المرسلين))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

بالاستقامة لا يوجد تفاوت ، الحرام حرام ، الحلال حلال ، الحق حق ، الباطل باطل ، الخير خير ، الشر شر ، الغيبة حرام ، الصدق واجب ، الكذب حرام ، الاستقامة طبيعتها حدية لا تقبل التفاوت ، نحن والأنبياء في موضوع الاستقامة سواء .

((وإنَّ الله أمرَ المؤمنين بما أمر به المرسلين))

مثلاً : أقل ممرض في المستشفى ، لو أراد أن يعطي المريض حقنة ، لا بد من تعقيمها ، لا بد من غليها ، لا بد من تعقيم المكان ، لا بد من تعقيم الجرح ، هكذا ، ولو أتى أكبر طبيب جراح في هذه المستشفى و أراد أن يعطي حقنة يطبق التعليمات التي نفذها الممرض.

هناك موضوعات بحياتنا حدّية ، لا يقبل التفاوت ، أما العمل الصالح فنسبي ، إنسان ينفق ألف ليرة ، إنسان ينفق مليون ليرة ، هناك إنفاق ، وهناك عمل صالح ، في إنشاء المشاريع ، جميع الأعمال الصالحة نفعلها بقدر ما نستطيع ، أما في الاستقامة لا يوجد بقدر ما نستطيع ، الاستقامة حدية ، لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، أقل الناس معرفة بالله ، وأكثرهم معرفة بالله .

الأستاذ أحمد :

لكن لماذا أكثر اللوم على الدعاة ؟ أو ما علاقة الاستقامة بالدعوة ؟ لماذا إذا كان الداعية غير مستقيم كان التثريب عليه أكثر من لو أن شخصاً عادياً لم يكن مستقيماً ؟

على الداعية أن يكون قدوة قبل أن يتكلم :

الدكتور راتب :

يمكن أن تنتفع من طبيب غير مستقيم في حياته الخاصة ، يمكن أن تنتفع من مهندس ، يمكن أن تنتفع من كل أصناف العلوم ، من أصحابها ، دون أن يكونوا مستقيمين في حياتهم الخاصة ، إلا الداعية ، لن تنتفع به إلا إذا كان عمله مطابقاً لسلوكه .

لذلك عظمة الأنبياء والشيء المدهش في حياتهم أنه ليس هناك مسافة بين أقوالهم وأفعالهم ، الداعية يجب أن يكون قدوة قبل أن يتكلم ، الإحسان قبل البيان ، القدوة قبل الدعوة .

لذلك إذا كان مطلوب من المؤمن أن يكون مستقيماً فالمطلوب من الداعية ألف مرة أن يكون مستقيماً .

مرة التقيت بأحد كبار الدعاة في مصر ـ توفي رحمه الله ـ سألته نصيحة للدعاة توقعت أن يتكلم كثيراً ، تكلم كلمة واحدة ، قال : "ليحذر الداعية أن يراه المدعو على خلاف ما يدعو فقط" .

المصداقية ، بل إن بعض العلماء يقول : " لو أن الإنسان دعا إلى الله بمضمون هزيل ، بمضمون غير متماسك ، ولم يجد المدعو المصداقية في الداعية لا يعد هذا المدعو بهذه الطريقة ، وبهذا المضمون ، مُبلغاً عند الله ، ويقع إثم تفلته من منهج الله على من دعاه بهذه الطريقة ".

أشقى الناس من تاجر بالدعوة إلى الله :

لذلك الناس يتعلمون بعيونهم لا بآذانهم ، فالداعية يمكن أن يكون أكبر داعية في الأرض وهو صامت ، أنا الآن أدعو إلى الدعوة الصامتة ، أي استقامته دعوة ، صدقه دعوة، أمانته دعوة ، عفته دعوة ، يمكن أن تصمت وتكون أكبر داعية .

لذلك : ما من شيء يتذبذب بين أن يكون أقدس عمل على الإطلاق يرقى إلى صنعة الأنبياء ، وبين أن يكون أتفه عمل على الإطلاق لا يستأهل إلا ابتسامة ساخرة كالدعوة إلى الله ، إذا بذلت من أجلها الغالي والرخيص ، والنفس والنفيس ، وإذا طبقت ما تقول ، وإذا كنت مخلصاً فيما تقول ، ترقى هذه الدعوة إلى أن تقترب من صنعة الأنبياء ، أما إذا تاجرنا بها ، وارتزقنا منها ، كما قال الإمام الغزالي : " لأن أرتزق بالرقص أهون من أرتزق بالدين"

فالذي يتاجر بالدين كما لو أن أمامك ورقة مستطيلة ، هي الحقيقة شيك بمليون دولار ، لكن وضعت على ظهرها ، توهمتها ورقة عادية ، كتبت عليها بعض الكلمات أجريت حساباً بسيطاً ، ثم مزقتها ، ثم اكتشفت بعد حين أنها شيك بمليون دولار ، هذا ما تعني الآية الكريمة :

(اشْتَرَوْا بِآَيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً)

(سورة التوبة الآية : 9)

لذلك أشقى الناس من تاجر بالدعوة إلى الله ، اللهم أعوذ بك من أن يكون أحد أسعد بما علمتني مني ، اللهم إني أعوذ بك أن أقول قولاً فيه رضاء ألتمس به أحداً سواك ، اللهم إني أعوذ بك أن أكون عبرة لأحد من خلقك ، اللهم إني أعوذ بك أن أتزين للناس بشيء يشينني عندك .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - موسوعة الأخلاق الإسلامية - الدرس (11-28) : الفطرة السليمة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2008-02-11

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ أحمد :

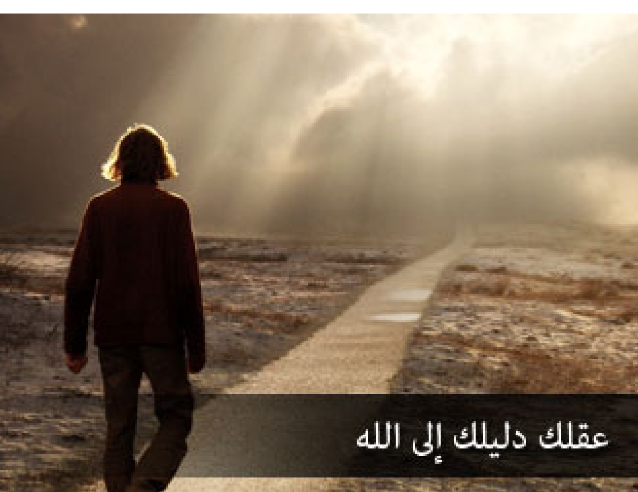
أستاذ الكريم في حلقات سابقة كنا قد تحدثنا عن علاقة الأخلاق بالتكليف ، وأن من مقومات التكليف أموراً عدة ، وذكرنا منها مقوم الكون ، ومقوم العقل ، ووعدتمونا أن نتحدث في هذه الحلقة عن مقوم آخر جديد ألا وهو مقوم الفطرة ، والفطرة قال الله عز وجل عنها في محكم تنزيله :

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الروم)

انطلاقاً من هذه الآية ، وانطلاقاً من موضوع حلقتنا اليوم ، حبذا أن نسمع منكم تفسيراً لحقيقة الفطرة ومعناها .

الإنسان بالعقل يتعرف إلى الله و بالفطرة يعرف أخطاءه :



الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى حينما رفع السماوات وضع الموازين ، قال تعالى :

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

(سورة الرحمن)

فكما أن العقل ميزان ، الفطرة ميزان آخر ، نحن بالعقل نتعرف إلى الله ، بينما بالفطرة نعرف أخطاءنا ، الفطرة مقياس نفسي ، جبلة ، هذه الجبلة تكشف لك الخطأ ذاتياً من دون أن تتلقى توجيهاً آخر ، يعرف الإنسان من ذاته ما إذا كان قد أخطأ أو

أصاب .

كما تفضلت قبل قليل في قوله تعالى :

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

الحقيقة أن الحق دائرة تتقاطع فيها أربعة خطوط ، خط النقل الصحيح وسوف أركز على صفة لكل كلمة ، خط النقل الصحيح ، وخط العقل الصريح ، وخط الفطرة السليمة ، وخط الواقع الموضوعي .

الفطرة من أدق وسائل كشف الخطأ والتصحيح :

الحق دائرة تتقاطع فيها أربعة خطوط ، الفطرة السليمة ؛ أي أن جبلة الإنسان كما خلقه الله متوافقة من منهج الله ، فالإنسان يكتشف أنه قد أخطأ ، أو أنه أخذ ما لا ينبغي ، أو أنه أساء إلى إنسان آخر ، كل أخطاء الإنسان تكشف ذاتياً من خلال فطرته ، ففطرته مشعر ذاتي ، ميزان نفسي ، جبلة خصصها الله لكشف الخطأ الذاتي ، هناك آلات كثيرة حديثة تكشف لك الخطأ ذاتياً ، إن كان هناك خطأ يظهر على الشاشة ، هناك آلات قديمة تكشف أنت الخطأ .



الفطرة طريق معرفة الخطأ من الصواب

فالإنسان كصنعة متقنة من صنع الله عز وجل ، فخصص الله الإنسان بآلية بالغة التعقيد بحيث أنه إذا أخطأ يعرف أنه أخطأ، معرفة ذاتية فطرية من دون توجيه آخر . إذاً خط العقل الصريح ، مع خط الفطرة السليمة ، مع خط الواقع الموضوعي ، مع خط النقل الصحيح ، قلت : النقل الصحيح لأن هناك نقلاً غير صحيح ، هناك نقل ضعيف الإسناد ، موضوع ، وقلت : العقل الصريح لأن هناك عقلاً تبريرياً ساقطاً في ميزان المعرفة، وقلت : الواقع الموضوعي لأن هناك واقعاً مزوراً ، وقلت : الفطرة السليمة لأن الإنسان إذا مارس الخطأ ، وبالغ به تنطمس فطرته .

(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة المطففين)

إذاً الفطرة قياس ، الله عز وجل رحمة بنا زودنا بمقياس ، بمعنى أن الإنسان إذا عاش بالغابة ، ولم يتلقَ أي توجيه ، ولا رسالة ، ولا علم ، لو أنه يعيش مع أمه ، وكانا جائعين فأكل وحده ، ولم يطعم أمه يشعر أنه أخطأ بدافع من فطرته ، فهذه الفطرة من أدق وسائل كشف الخطأ والتصحيح .

الأستاذ أحمد :

دكتور عفواً ، لو أن هذا الإنسان يعيش في الغابة ، قلنا له يجب عليك أن تعرف أن لهذا الكون إلهاً وخالقاً ، فهل قولنا هذا صحيح ؟

من لم تصله رسالات الأنبياء يحاسب على عقله و فطرته :

الدكتور راتب :

العقل الذي أودعه الله فيه كافٍ لمعرفة ربه ، والفطرة التي جبل عليها كافية لمعرفة خطئه ، لذلك الإنسان يحاسب يوم القيامة إذا لم تصله رسالات الأنبياء ، لا يحاسب على تفاصيل الشريعة بل يحاسب على عقل كان كافياً لمعرفة ربه ، وعلى فطرة كانت كافية لمعرفة خطئه .

الأستاذ أحمد :

ماذا نقول عن قوله تعالى :

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً)

(سورة الإسراء)

الدكتور راتب :

بعض العلماء قالوا : الرسول هو العقل .

الأستاذ أحمد :

دكتور نعود إلى الآية الكريمة التي قال الله عز وجل فيها :

(فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فطرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

هذا المقطع من الآية يستدعينا لسؤال ؛ هل هناك علاقة ما بين الفطرة وما بين المنهج الإلهي بما أنه قال :

(فِطْرَةَ اللَّهِ)

الفطرة لا تعني الكمال ولكنها تعني حبّ الكمال :

الدكتور راتب :

قبل أن أجيب عن هذا السؤال ، لا بدّ من التنويه أن الفطرة لا تعني الكمال ، فلان يحب الرحمة ، لا تعني أنه رحيم ، فلان يحب العدل ، لا تعني أنه عادل ، فلان يحب اللطف ، لا تعني أنه لطيف ، فرق كبير بين أن تحب الكمال ، وبين أن تكون كاملاً ، ففطرة الله أن كل مخلوق خلقه الله عز وجل تطوق

نفسه إلى الكمال ، فإما أن يكون كاملاً فيصطلح مع نفسه ، أو ألا يكون كذلك فهو في حرب مع نفسه ، فالفطرة لا تعني الكمال ، ولكن تعني حبّ الكمال .

لذلك الأناس المنحرفون لو أخذوا ما ليس لهم ، يقتسمون هذا المال الحرام وفق فطرهم بالعدل ، فالفطرة لا تعني أن الإنسان كامل لكن تعني أنه يحب الكمال ، ولأنه يحب الكمال يكشف خطأه ، فكشف الخطأ خطوة لا بدّ منها لإصلاحه ، فكأن الله سبحانه وتعالى زودنا بطريقة رائعة ذاتية تكشف لنا أخطاءنا .

لذلك الألم الذي يعتور الإنسان بعد كشف خطئه لعله يحثه على ملازمة الصواب.

الأستاذ أحمد :

هل هذا ما يمكن أن نطلق عليه النفس اللوامة ؟

الدكتور راتب :

والله يمكن أن نسميه النفس اللوامة ، أو أن نسميه الشعور بالذنب ، أو أن نسميه الإحساس بالكآبة ، هي كلها أسماء لمسمى واحد ، الإنسان إذا خالف فطرته يشعر أنه أخطأ .

الأستاذ أحمد :

دكتور ، مسألة أن الشعور بالذنب ، أو النفس اللوامة ، أو الشعور بالكآبة ، يستدعينا لسؤال جديد ، ألا وهو أن كثيراً من الناس يهيمون على وجوههم في المعاصي حتى نرى أن البصيرة عندهم قد انطمست والعياذ بالله ، ثم بعد ذلك إنهم يعانون من كآبة داخلية فهل الكآبة اليوم باتت مرضاً في هذا العصر نتيجة البعد عن فطرة الله عز وجل التي فطر الناس عليها ؟

الإنسان حينما يخطئ يعلم أنه أخطأ بدافع من فطرته :

الدكتور راتب :

لكنك سألتني سؤالاً قبل قليل عن علاقة الفطرة بالمنهج الإلهي ، لا بد من أن أجيب عن هذا أولاً ، ذلك أن الله سبحانه وتعالى أعطى الإنسان منهجاً ، أي أعطاه منهجاً لحركته ، افعل ولا تفعل ، فهذا النظام بحركته يتوافق توافقاً تاماً مع فطرته ، بمعنى أنه لأن الله أمره أن يكون منصفاً فطرته برمجت ، وولفت ، وجبلت على حبّ الإنسان ، فمعك أمر أن تكون منصفاً ، ومعك جبلة تدعوك إلى الإنصاف ، فهذا التوافق العجيب توافق تام .

أحياناً نأتي بخارطة نافرة ، أي مجسمة ، نضع لها إطاراً ، ونصب فوقها الجبصين السائل ، بعد أن يجف الجبصين يكون معنا قالب مطابق تماماً على مستوى أعشار الميلي للخريطة ، أنا أرى أن المجسم هو الشرع والمنهج الإلهي ، وأن القالب هو الفطرة أي أن أي أمر إلهي نفسك تواقة إليه ، وأي نهي إلهي نفسك تبتعد عنه ، وهذا معنى قوله تعالى :



(حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ)

(سورة الحجرات الآية : 7)

هذه قضايا دقيقة جداً ، أنا كنت أطمح أن يكون هناك ما يسمى بعلم النفس الإسلامي ، الإنسان حينما يخطئ يعلم أنه أخطأ بدافع من فطرته .

العلاقة بين الفطرة وبين المنهج الإلهي علاقة تامة :

إذاً العلاقة بين الفطرة وبين المنهج الإلهي علاقة تامة جداً ، بمعنى أن كل أمر أمرك الله به أنت فطرت على تطبيق هذا الأمر ، وأي نهي نهاك الله عنه أنت فطرت على اجتناب هذا النهي ، والآية كما قلت قبل قليل :



(حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ)

إذاً توافق الفطرة مع المنهج توافق تام ، لهذا قال : الإسلام دين الفطرة .

الإنسان إما أن يرجع إلى النصوص ليرى ما إذا كان على صواب ، أو على خطأ، أو أن يكون صافياً يرجع إلى فطرته ، وهذا من توجيهات النبي :

((استفتِ قلبك وإن أفتاك المفتون وأفتوك))

[أحمد والطبراني وأبو يعلى وأبو نعيم عن وابصة]

بمعنى : لو أن إنساناً في جيبه الأيمن جهاز الكتروني لكشف العملة المزورة ، وفي جيبه اليسرى نشرة بأرقام الورقة النقدية المزورة ، نتائج الجهاز ، وكشوفات الأوراق متشابهة تماماً ، أنا حينما أتسلم عملة أجنبية ، إما أن أستخدم الجهاز فأضع العملة عليه ، هناك لون معين يكشف لي ما إذا كان مزوراً ، وإما أن أرى الورقة هل هذا الرقم مزور ؟ فأنا معي نشرة هي المنهج ، ومعي جهاز هو الفطرة ، فلو استخدمت أحد الطريقتين فالنتيجة واحدة ، فإما أن أسأل الشرع ما حكم هذا العمل ؟ يقال : حرام ، وإما أن أكون صافياً ولم تنطمس فطرتي بعد فأصغي إلى نداء قلبي ، فأشعر أنني سأخطئ ، لذلك :

((استفتِ قلبك وإن أفتاك المفتون وأفتوك))

[أحمد والطبراني وأبو يعلى وأبو نعيم عن وابصة]

الأستاذ أحمد :

هذا يذكرنا بقول الله عز وجل :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

(سورة الشمس)

والسؤال هنا فضيلة أستاذنا ، الله عز وجل حينما استعمل قوله تعالى :

(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

كيف يلهم الله عز وجل النفس الفجور والتقوى وهما ضدان متناقضان والأصل أننا نعرف أن الله عز وجل لا يأتي منه إلا الخير ؟

الإنسان مخير فإذا فجر يكشف ذاتياً من دون توجيه خارجي أنه فجر :

الدكتور راتب :

بارك الله بك على هذا السؤال ! سؤال دقيق وخطير ، أنا أتمنى من كل أعماقي ألا نفهم الآية على ما قد تُفهم عليه من قبل ضعيفي الفهم ، أي لا يمكن ، ومستحيل وألف ألف ألف مستحيل أن يدفع الله جلّ جلاله عبده إلى الفجور ، هنا

(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا)

أي أنه ألهمها إذا فجرت أنها فجرت ، أي هي تكشف فجورها ذاتياً ، ليس معنى هذه الآية أنه خلق فيها الفجور ، معاذ الله ! .

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف الآية : 28)

الإنسان مخير ، ولأنه مخير كل شيء حيادي ، فإذا فجر يكشف ذاتياً من دون توجيه خارجي أنه فجر ، إذا فجر يشعر بالضيق ، بالكآبة ، تعذبه نفسه ، يشعر بالذنب ، هذا كله بسبب أن فطرة الإنسان متوافقة توافقاً تاماً مع منهج الرحمن .

الأستاذ أحمد :

هذه دكتور ، الفطرة التي تحدثتم عنها ، هل هناك من علاقة بين الفطرة وبين الصبغة التي استعمل الله عز وجل لفظة :

(صِبْغَةَ اللَّهِ)

(سورة البقرة الآية : 138)

الفطرة و الصِبغة :

الدكتور راتب :

أستاذ أحمد ، الإنسان قبل أن يتصل بالله مزود بفطرة تكشف له الخطأ ، لكن لو أنه تعرف إلى الله ، وأقبل عليه ، وأطاعه ، واصطلح معه ، واتصلت نفسه بالله ، تأتي الصبغة أي أنت حينما تتصل بالرحيم تكون رحيماً ، حينما تتصل بالحليم تكون حليماً ، حينما تتصل بالعدل تكون منصفاً ، فكل إنسان أقبل على الله ، واشتق منه الكمال ، نقول عندئذٍ أضاف إلى فطرته الصبغة ، قال تعالى :

(صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً)

(سورة البقرة الآية : 138)

الصبغة شيء والفطرة شيء آخر ، الصبغة تعني أنك كامل ، تعني أنك رحيم ، تعني أنك منصف ، تعني أنك وقاف عند الحدود ، أما الفطرة تعني أنك تتبنى .

الأهداف الكبرى تحتاج إلى عمل لأن التمنيات بضائع الحمقى :

لكن بالمناسبة الله عز وجل لا يتعامل أبداً مع التمنيات ، قال تعالى :

(لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ)

(سورة النساء الآية : 123)

الأهداف الكبرى تحتاج إلى عمل .

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ)

(سورة الإسراء الآية : 19)

أما التمنيات كما يقال : بضائع الحمقى ، كل إنسان يتمنى ، لذلك أنا أقول : ما أنت فيه صدقك ، وما لست فيه تمنياتك ، الذي وصلت إليه هذا بسبب صدقك في الطلب ، أما الذي لم تصل إليه هو تمنيات لم تبذل من أجلها جهداً ، إن القرار الذي يتخذه الإنسان في شأن مصيره قلّما تنقضه الأيام إذا كان صادراً حقاً عن إرادة وإيمان .



أنا أذكر مرة أن رجلاً من صعيد مصر ، أرسل ابنه إلى الأزهر ، وعاد بشهادة وألقى خطبة في مسجد القرية ، الأب حضر الخطبة وبكى بكاءً شديداً ، فهم الناس بكاءه فرحاً بابنه ، الحقيقة ليست كذلك ، بكى بكاءً شديداً أسفاً على ضياع عمره بالجهل ، هذا الألم الشديد دفعه إلى أن يركب دابته وينطلق إلى القاهرة من صعيد مصر ، بقي أسابيع بل بضع شهور حتى وصل إلى القاهرة سأل عن الأزعر ، أي أزعر هذا ؟! هو يقصد الأزهر ، أوصلوه إليه، وبدأ بتعلم القراءة والكتابة في الخامسة و الخمسين من عمره ، ثم تعلم القرآن ، ثم تابع العلوم، وما مات إلا شيخ الأزهر ، مات في السادسة و التسعين .

بالمناسبة : الإنسان إما أن يكون صادقاً ، وإما أن يكون متمنياً ، الفطرة تقف عند التمني ، أما الصبغة نتيجة الصدق تصدق في طلب الحقيقة ، تصدق في مكارم الأخلاق ، تتصل بالله ، تشتقها من الله عز وجل ، تكون مصطبغاً بالكمال الإلهي ، فالعلاقة بين الفطرة والصبغة علاقة دقيقة ، الفطرة أن تحب الكمال ، لكن الصبغة أن تكون كاملاً ، الفطرة أن تحب الإنصاف ، لكن الصبغة أن تكون منصفاً .

الأستاذ أحمد :

دكتور قول الله عز وجل :

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة الآية : 286)

وفي آية أخرى يقول المولى جلّ في علاه :

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا)

(سورة الطلاق الآية : 7)

الوسع هو الطاقة ، أما ما آتاها فما معناها ؟ .

الوسع الذي وهبه الله للإنسان يقدره الله عز وجل :

الدكتور راتب :

الحقيقة الوهم الكبير أن كل إنسان يتوهم وسعاً له ، هذا الخطأ الكبير الناتج عن أن كل إنسان يخترع وسعاً له ، يقول : هذا فوق طاقتي ، لكن النقطة الدقيقة جداً أن الوسع الذي وهبك الله إياه يقدره الله عز وجل ، أما أن أخترع أنا مقياساً لوسعي فأتجاوز بعض ما ينبغي أن أفعله بدعوى أن هذا فوق طاقتي ، هذا غير صحيح إطلاقاً ، الله عز وجل سمح للمسافر أن يفطر ، سمح للمسافر أن يقصر من الصلاة ، فهذا الوسع بتقدير الله عز وجل لما أتاها في مجال الأعمال الصالحة ، والإنسان أتاه الله طلاقة اللسان ، هذه الطلاقة بمَ وظفها ؟ بإقناع الناس بالحق ، لا إقناعهم بالباطل ، أتاه مالاً ، ماذا فعل بهذا المال ؟ أنفقه في إطعام الجياع والفقراء والمساكين ، وفي حلّ مشكلات الأمة ، أم في متع رخيصة ؟ أعطاه الله جاهاً ، هل استخدم الجاه في إحقاق الحق ، وإبطال الباطل ، أم استخدم الجاه من أجل أن يأخذ ما ليس له ، وأن يذل من حوله ؟

الذي أتاك الله إياه هو امتحانك مع الله ، الإنسان في الدنيا ممتحن ، ممتحن في شيئين ، فيما أعطاه الله ، وفيما زواه عنه ، لذلك من أدق الأدعية :

((اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب ، وما زويت عني ما أحب فاجعله فراغاً لي فيما تحب))

[الترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَزِيدَ الخَطْمِيِّ الْأَنْصَارِيِّ]

كل إنسان مبتلى فيما آتاه الله و فيما زوي عنه :

ألم يقل الله عز وجل :

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنين)

الإنسان مبتلى فيما أتاه ، مبتلى فيما زوي عنه ، هذا يقودنا إلى أن لكل إنسان فضلاً عن العبادات التي جاءت في ثنيات التشريع ، هناك عبادة خاصة لكل إنسان ، فالقوي عبادته الأولى إحقاق الحق ، والغني عبادته الأولى إنفاق المال ، والعالم عبادته الأول تعليم العلم ، والمرأة عبادتها الأولى رعاية الزوج والأولاد ، فالذي أتاك الله إياه ينبغي أن يكون متميزاً في الإنفاق منه ، ألم يقل الله عز وجل :

(الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

(سورة البقرة)

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا)

أتاها المال ، لذلك لا يقبل من الغني أن يمضي طوال الليل في الاستغفار ولا يدفع شيئاً ، نقول له : أنت عبادتك الأولى إنفاق المال ، فكل إنسان بحسب هويته مكلف أن ينفق مما آتاه الله ، وكلمة ينفق واسعة جداً ، يمكن أن تنفق من جاهك ، أو من وقتك ، أو من جهدك ، أو من مالك .

العمل الصالح علة وجود الإنسان في الحياة الدنيا بعد الإيمان بالله :

على كلٍّ الحياة علة وجودنا فيها العمل الصالح ، والدليل أن الإنسان حينما يأتيه أجله يقول :

(رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

(سورة المؤمنين)

بعد الإيمان بالله العمل الصالح .

الأستاذ أحمد :

هذه الآيات استعرضناها التي تتحدث عن الفطرة ، هل هناك من أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تدلنا أيضاً على مفهوم الفطرة ؟ .

أحاديث تدلنا على مفهوم الفطرة :

الدكتور راتب :

((والإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهتَ أن يَطَّلِعَ عليه النَّاسُ))

[أخرجه مسلم عن النواس بن سمعان رضي الله عنه]

أي الحق لا يستحى به ، لا تخجل منه ، لا يحتاج إلى أن تضخمه ، لا يحتاج إلى أن تقلل من شأن خصومه ، الحق يعلن على الملأ ، يقال في رابعة النهار ، الحق هو الله عز وجل ، أما الباطل تستحي به ، هل ترى أحداً يغش الحليب بمزجه بالماء أمام الناس ؟ لا يستطيع ، لذلك :

((البر ما اطمأنت إليه النفس))

[أحمد عن وابصة بن معبد]

من أحد مقاييس البر :

((ما اطمأنت إليه النفس))

((والإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهتَ أن يَطَّلِعَ عليه النَّاسُ))

الأستاذ أحمد :

وهل هذا معنى حديث النبي عليه الصلاة والسلام :

((ما مِن مولودٍ إلا يُولَدُ على الفِطْرةِ))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي ومالك عن أبي هريرة]

الدكتور راتب :

أي مولود من أي جنس ، في أي مكان ، في أي زمان ، يولد على حبّ الخير هذه الفطرة ، لكن بيئته أحياناً تسوقه إلى هذه الجهة ، أو إلى هذه الجهة ، لكن لو عاد إلى فطرته .

كم إنسان تاب وهو غارق بالمعاصي والآثام ، لماذا تاب ؟ عاد إلى فطرته ، أحياناً الإنسان يكون قوياً ، ولا أحد يعترض عليه ، يعود إلى فطرته فتنهاه فطرته عن أن يتابع عمله السيئ .

فالفطرة مقياس دقيق جداً ، لكن المشكلة أن الفطر أحياناً تنطمس فتتابع الخطأ ، كما لو أن صفحة بيضاء أي أثر يكتب عليها يظهر ، فإذا امتلأت باللون الأسود نقول : انطمست ، فنحن نخشى أن يتابع الإنسان الخطأ إلى أن تنطمس فطرته عندئذٍ لا يعي على خير .

الأستاذ أحمد :

وهل هذا ما حدثتمونا عنه من الكآبة ، مرض الكآبة ؟ .

الكآبة نتيجة تفلت الإنسان من منهج الله عز وجل :



الدكتور راتب :

الحقيقة أن مرض العصر هو الكآبة ، بدليل أن الإنسان تفلت من منهج الله .

أستاذ أحمد ، السيارة لماذا صنعت ؟ من أجل أن تسير ، لماذا وضع فيها مكابح ، المكبح في فلسفته يتناقض مع علة صنع السيارة ، لكنه ضمان لسلامتها ، كذلك الكآبة التي تحصل من انحراف يصيب الإنسان ، هذه الكآبة لعلها ترجعه إلى الصواب .

تصور لو أن الإنسان فطرته ليست وفق منهج الله ، يرتكب كل المعاصي والآثام دون أن يشعر بشيء إطلاقاً ، يرتكب كل المعاصي والآثام ، ويعتدي ، ويأخذ ما ليس له ، ويتفنن في إيذاء الناس ، وينام ناعم البال .

لذلك في بعض الفنادق بألمانيا ، كتب على أسرتها : إن لم تنم فالعلة ليست في فرشنا إنها وثيرة ، ولكن العلة في ذنوبك .

الإنسان إذا أصغى إلى صوت فطرته قد يراجع نفسه ، سيدنا نعيم بن مسعود جاء ليحارب النبي ، هو في الخيمة خاطب نفسه ، هذا يسمى في علم النفس الحوار الذاتي ، قال : يا نعيم ! ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ أجئت لتحارب هذا الرجل ؟! ماذا فعل ؟ أسفك دماً ؟ أنهب مالاً ؟ انتهك عرضاً ؟ أين عقلك يا نعيم ؟ ـ هذه الفطرة ـ فقام من توه ، وتوجه إلى معسكر النبي ، ودخل على النبي الكريم ، قال له : نعيم؟! قال له : نعيم ، قال له : ما الذي جاء بك إلينا ؟ قال : جئت مسلماً .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - موسوعة الأخلاق الإسلامية - الدرس (12-28) : خلق الشكر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-02-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ أحمد :

أستاذي عندما يقول الله عز وجل :

(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)

(سورة إبراهيم الآية : 7)

نفهم من الآية أنها سبب لدوام النعمة ، ولكن قبل ذلك نتمنى أن نسمع منكم شيئاً عن أصل الشكر وتعريفه .

الإنسان عندما قبل حمل الأمانة سخر الله له ما في السماوات والأرض :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

أستاذ أحمد ، في عالم الذر حينما قال الله :

(عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية : 72)

فلما قبل الإنسان حمل الأمانة سخر له :

(مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

(سورة الجاثية الآية : 13)

فكل ما في الكون بنص هذه الآية مسخر للإنسان ،

(سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

وحمله الأمانة ، والأمانة نفسه التي بين جنبيه .

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

(سورة الشمس)

تسخير الكون للإنسان تسخير تعريف و تسخير تكريم :

النقطة الدقيقة : أن هذا الكون مسخر للإنسان تسخيرين ، تسخير تعريف وتسخير تكريم ، ما الذي يدل على ذلك ؟ أن النبي صلى الله عليه وسلم حينما نظر إلى الهلال فقال :

((هلالُ خَيْرٍ ورُشْدٍ))

[أخرجه أبو داود عن قتادة رحمه الله]

أي ننتفع به في الدنيا ، ويرشدنا إلى ربنا ، فمن خلال هذا النص الدقيق يتضح أن كل شيء خلقه الله عز وجل له وظيفتان ، وظيفة نفعية في الدنيا ، ووظيفة إرشادية إلى الله عز وجل ، ويبدو أن العالم الغربي حقق الوظيفة الأولى في أعلى درجة ، انتفع من كل ما في السماوات والأرض ، بينما المؤمن الكامل فضلاً عن أنه ينبغي أن ينتفع مما سخره الله له ينبغي أن يشكر الله على هذه النعمة ، ويتعرف إليه بها .

الإنسان حينما يؤمن بالله و يشكره يحقق الهدف من وجوده :

إذاً الوظيفة النفعية حققها الإنسان الذي شرد عن الله ، بينما الوظيفة التعريفية هذه من خصائص المؤمن ، إذاً هذا الكون مسخر لهذا الإنسان تسخيرين تسخير تعريف ، وتسخير تكريم ، موقف الإنسان من تسخير التعريف أن يؤمن ، موقف الإنسان من تسخير التكريم أن يشكر ، فالإنسان حينما يؤمن ، وحينما يشكر يحقق الهدف من وجوده ، والدليل توقف المعالجة حينما يؤمن ويشكر ، الآية الكريمة :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ)

(سورة النساء الآية : 147)

أنا في الدنيا حينما أتعرف إلى الله من خلال هذا الكون الذي سُخر لي ، وحينما أشكره على أن منحني نعمة الإيجاد .

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً)

(سورة الإنسان)

ومنحني نعمة الإمداد ، أمدني بالهواء ، وبالماء ، وبالطعام ، وبالشراب ، وبالشمس ، وبالقمر ، وبالليل ، وبالنهار ، وبالزوجة ، وبالأولاد ، وبالرزق ، أنا أشكر الله على أن منحني نعمة الإيجاد ، وأشكره ثانية على أن منحني نعمة الإمداد ، وأشكره ثالثاً على أنه هداني إليه ، منحني نعمة الهدى والرشاد .

الشكر الذي يقوم به المؤمن هو ردّ للجميل الإلهي الذي أوجده وأمدّه وهداه إليه :

الشكر في الأصل يحقق الهدف من وجود الإنسان ، لأن الكون مسخر للإنسان تسخير تعريف ، وتسخير تكريم ، التعريف يقتضي أن تؤمن ، والتكريم يقتضي أن تشكر .

فلذلك الكون كله يدل على الله ، الإنسان إذا غفل عن الله ينتفع بالكون ، لكن المؤمن ينتقل من النعمة إلى المنعم ، فضلاً عن أنه ينتفع بما سخر الله له ، يشكر الله شكراً عميقاً ، فالشكر الذي يقوم به المؤمن هو ردّ للجميل الإلهي الذي أوجده ، وأمده ، وهداه إليه ، هذا فيما يتعلق بأصل الشكر .

إذاً الشكر له فهم عقائدي ، فهم عقدي ، هذا هو الفهم العقدي .

الأستاذ أحمد :

أما تعريفه ولو بكلمات مبسطة .

تعريف الشكر و أنواعه :

الدكتور راتب :

الشكر هو أن يعترف الإنسان بنعم الله عز وجل بلسانه إقراراً واعترافاً ، وأن يمتلئ قلبه حباً وحمداً ، وأن تنصاع جوارحه طاعة وانقياداً .

هناك شكر يظهر على اللسان ، وهناك شكر يظهر كشعور في قلب الإنسان ، وهناك شكر يظهر على الجوارح والأعضاء حينما تنصاع لطاعة الله عز وجل ، هو في الحقيقة اعتراف بالنعمة .

لكن لمجرد أن تعزو النعمة إلى الله فهذا أنواع الشكر ، بمجرد أن تقول كعادة من عادات أقوالك : لقد منّ الله عليّ في هذه الزوجة الصالحة ، لقد منّ الله عليّ بهذا المأوى الذي أسكنه ، لقد منّ الله عليّ أن أعطاني قدرات مكنتني أن أنال هذه الشهادة ، لقد منّ الله عليّ أن يسر لي سبيل الرزق ، لقد منّ الله عليّ أن وهبني هؤلاء الأولاد ، فأنت دون أن تشعر ، ودون مجاملة ، ودون تقاليد لا معنى لها ، أنت حينما ترى النعم التي حولك تعزوها إلى الله عز وجل ، ولمجرد أن تعزو النعمة إلى الله فهذا نوع من الشكر .

لكن حينما تلتقي مع ذاتك ، حينما تتأمل ، تجد أن قلبك مفعم بمحبة الله ، هذه المحبة ومعها الحمدُ مظهر آخر من مظاهر الشكر الأعلى درجة ، الأولى إدراكية ، الثانية نفسية ، أما حينما تتحرك لخدمة الخلق ، والتخفيف عنهم ، ولهدايتهم ، ولحل مشكلاتهم ، ولإطعام الجائع ، هذه درجة أعلى تؤكدها الآية الكريمة :

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)

(سورة سبأ)

((إنك إذا ذكرتني شكرتني وإذا نسيتني كفرتني))

[أخرجه الطبراني عن أبي هريرة]

الأستاذ أحمد :

أستاذي بمعنى أن معرفة الله عز وجل أنه هو صاحب النعمة هذه أقل درجات الشكر ، ثم بعد ذلك تنطبع في القلب .

الدكتور راتب :

امتناناً ، وحمداً ، ثم تظهر على الأعضاء خدمة للخلق .

الأستاذ أحمد :

وما هي الآية الأصل التي تعد باباً من الأبواب من قوله تعالى في باب الشكر ؟.

الآية التالية أصل في الشكر :

الدكتور راتب :

(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)

لكن هناك نقطة ، من أسماء الله الحسنى أنه شكور ، أنك إذا قدمت لعباده خدمة ، أو عطاء ، أو توجيهاً، أو رعاية ، أو أي شيء آخر هو في الحقيقة قدمته لله ، الدليل قول الله عز وجل :

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

(سورة البقرة الآية : 245)

أي عمل صالح تقدمه لأي مخلوق يعد قرضاً حسناً لله ، لذلك الله عز وجل يريدنا أن نتاجر معه .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

(سورة الصف)

أي عمل صالح يقدمه الإنسان لأي مخلوق يعد قرضاً حسناً لله :

معنى ذلك أنك حينما تقدم شيئاً لعباد الله والله عز وجل شكور ، في بعض الأحاديث : "وأن اللقمة يضعها الرجل في فم زوجته هي له صدقة ، وقد يراها يوم القيامة كجبل أحد ".

(وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

(سورة النساء)

ولا نقيراً ، ولا قطميراً ، ولا مقدار حبة من خردل .

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)

(سورة الزلزلة)

بل مستحل وألف ألف مستحيل أن تطيعه وأن تشكره وتخسر ، ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تعصيه وتؤذي عباده وتربح ، بل إن البشر من هذا المنظور صنفان ؛ صنف عرف الله فانضبط بمنهجه، وأحسن إلى خلقه ، فسعد وسلم في الدنيا والآخرة وصنف غفل عن الله ، وتفلت من منهجه ، وأساء إلى خلقه ، فشقي في الدنيا والآخرة .

الأستاذ أحمد :

رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يقول :

((إن للطاعم الشاكر من الأجر مثل ما للصائم الصابر))

[الحاكم عن أبي هريرة]

فما معنى هذه الكلمات السهلة الممتنعة من جوامع الكلم ؟.

حاجة الغني إلى الصبر أكثر من الفقير :

الدكتور راتب :

نحن نتوخى أن الصبر صاحبه في أعلى مقام ، والحقيقة أن الغني الشاكر ليس أقل أجراً عند الله من الفقير الصابر .

لي رأي خاص ، هذا الرأي أن الصبر يحتاجه الغني أكثر من الفقير ، لأن الفرص المتاحة أمام الغني للتفلت من منهج الله كثيرة جداً .

تصور إنساناً سافر إلى بلاد الغرب ، ولا يعرف الله أبداً ، يمكن أن يقع في آلاف الموبقات ، والمعاصي ، والآثام ، معه مال ، فالغنى يتيح للغني أن يفعل كل ما يشتهي ، من دون قيد أو شرط ، فإذا رأيت غنياً مستقيماً معنى ذلك الصبر الذي يتمتع به هذا الغني أعلى درجة من الصبر الذي يتمتع به الفقير ، الفقير ليس أمامه خيارات ، من فقره ضاقت خياراته، بينما الغني من غناه اتسعت خياراته ، ومع ذلك ضبط نفسه بمنهج الله عز وجل ، فالصبر قد يحتاجه الغني أكثر من الفقير ، هذه نقطة .

الآن الغني حينما يشكر قيمته إيجابية ، ليست إيجابية ، الفقير صبر ، صبر على الحرمان ، صبر على نقص المال ، صبر على بعض المشكلات ، أما الغني بدل أن يمتنع عن أن يفعل شيئاً ، ساعد الفقراء ، أطعم الجياع ، أسس معهداً ، أسس ملجأ ، أسس ميتماً ، أسس مدرسة ، فصفة العمل الصالح عند الغني إيجابية ، بينما صفة الصبر عند الفقير سلبية ، فأنا أقول دائماً بأن أمام الغني فرصاً لا تعد ولا تحصى

للعمل الصالح ، ولأن علة وجود الإنسان في الدنيا هي العمل الصالح ، والدليل الإنسان حينما يأتيه ملك الموت يقول :

(رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

(سورة المؤمنين)

لذلك فرص العمل الصالح المتاحة للغني لا تعد ولا تحصى ، إذاً ينبغي أن يسعى المؤمن لأن يكون غنياً إذا كان طريق الغنى سالكاً وفق منهج الله ، فإذا كان الغنى على حساب دينه ، ومبادئه ، نقول له ساعتئذٍ : الفقر وسام شرف لك ، وكذلك القوة ، القوي بجرة قلم يحق حقاً ويبطل باطلاً ، يقر معروفاً ويزيل منكراً ، القوي أمامه خيارات لإنصاف الناس، وإحقاق الحق ، ورفع الظلم عن الناس ، أمامه خيارات لا تعد ولا تحصى .

على الإنسان أن يطلب القوة والغنى والعلم لكن بشرط الضوابط الشرعية :

مبدئياً ما دامت علة وجودي في الأرض أن أعمل صالحاً ، فالقوي قدرته وخياراته على العمل الصالح واسعة جداً .

إذاً ينبغي أن أكون ذا شأن في المجتمع ، إذا كان هذا الهدف سالكاً وفق منهج الله عز وجل ، أما إذا كان هذا الهدف على حساب مبادئي ، وديني ، وقيمي ، أقول : الضعف وسام شرف لهذا الإنسان ، أي الغنى والقوة والعلم هم القوى الكبرى في الدنيا ، إما أن تكون متخصصاً في اختصاص نادر ، أو تملك ثروة طائلة ، أو بموقع قوي ، بإمكانك أن تحق الحق ، وأن تبطل الباطل ، فهذا الذي أتمناه ألا يقنع المسلمون أن يكونوا في الدرجة الدنيا من الحياة .

النبي عليه الصلاة والسلام طلب النخبة ، قال :

((اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين))

[ورد في الأثر]

فلما أسلم سيدنا حمزة توقف إيذاء قريش لأصحاب النبي ، ولما أسلم سيدنا عمر صلى المسلمون في بيت الله الحرام .

إذاً القوة مطلوبة ، والغنى مطلوب ، والعلم مطلوب ، لكن بشرط الضوابط الشرعية ، وأن يكون سالكاً وفق منهج الله .

الأستاذ أحمد :

حديثك عن الغني وعن الفقير ، الغني الشاكر ، والفقير الشاكر ، هل بين الشاكر والشكور من رابط ؟.

الشاكر و الشكور :

الدكتور راتب :

الحقيقة أن الشاكر يشكر الله على نعمه ، بينما الشكور آفاقه واسعة جداً ، يشكر الله على بعض المصائب ، إذا أحبّ الله عبده ابتلاه ، فإن صبر اجتباه ، وإن شكر اقتناه ، أي الشكر بعمقه الكبير حينما يسوق الله لعبد مصيبة ، أو تضييقاً ، أو شدة هي في حقيقتها نعمة ، وهذا معنى قوله تعالى :

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

(سورة لقمان الآية : 20)

المصائب هي النعم الباطنة ، ولكن قد يقول قائل : لماذا المصائب ؟ أقول بشكل واضح : لماذا صنعت السيارة ؟ من أجل أن تسير ، ولماذا كان فيها المكبح وهو يتناقض مع علة صنعها ؟ من أجل سلامتك ، فالمصائب أحياناً هي مكابح تكبح جنوح الإنسان وهو في الطريق الخطأ .

الأستاذ أحمد :

عندما يقول الله عز وجل :

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ)

(سورة البقرة)

هذا يستدعيني لأن أسأل سؤالاً من شقين أوله : كيف يكون ذكر الله عندنا ؟ ثم ذكر الله لنا ؟ ثم بعد ذلك

(وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ)

هل يقصد بالكفر هنا كفر النعمة أم عكس الإيمان ؟

ذكر الإنسان لله من لوازم عبوديته لربه أما ذكر الله للإنسان فيملأ قلبه سكينة وأمناً :

الدكتور راتب :

الحقيقة : الإنسان حينما يشكر الله عز وجل يقترب منه ، أما ذكر الله للإنسان شيء ، وذكر الإنسان لربه شيء آخر ، الحقيقة الإنسان حينما يذكر الله بأن يدعوه ، يستغفره، يناجيه ، يتوب إليه ، يثني عليه، يهلل ، يقول : لا إله إلا الله ، يكبر ، يقول : الله أكبر ، يحوقل ، يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، هكذا ذكر الله ، ذكر الله من لوازم عبودية الإنسان لربه ، أما إذا ذكرك الله ملأ قلبك سكينة ، منحك نعمة الأمن ، منحك نعمة الصبر ، منحك نعمة الشكر ، منحك نعمة التوازن ، منحك نعمة الرضا ، منحك الحكمة ، منحك الأمن ، الأمن أعظم نعمة .

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

(سورة الأنعام)

الله عز وجل شكور إذا ذكرته يمنحك نعماً لا تعد و لا تحصى :

لذلك الصلاة ذكر ، لقوله تعالى :

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

(سورة العنكبوت)

العلماء قالوا : ذكر الله أكبر ما فيها ، لكن بعض العلماء قال : لا ، ذكر الله لك أيها الإنسان حينما تذكره أكبر من ذكرك له ، أنت تؤدي واجب العبودية ، لكنه يمنحك الحكمة ، يمنحك الأمن ، يمنحك الطمأنينة ، يمنحك السداد ، والرشاد ، يمنحك السعادة ، يمنحك الثقة ، يمنحك التفاؤل ، يمنحك الحب ، يمنحك أشياء لا تعد ولا تحصى .

((إنك إذا ذكرتني شكرتني))

[رواه الطبراني عن أبي هريرة]

علاقة الذكر بالشكر ، أنت حينما تتعرف إلى الله ، وإلى أنه صاحب كل النعم تذكره ، ذكرك له واجب العبودية له ، بينما ذكره لك يعطيك عطاءً يفوق حدّ الخيال ، إذا أعطى أدهش ، وقد يكون عطاء الله فهماً لكتاب الله .

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

(سورة النساء)

مثلاً : كلمة عظيم لو قالها طفل ، قال لك : أنا معي مبلغ عظيم ، كم تقدر هذا المبلغ ؟ بمئتي ليرة ، أما إذا قال مسؤول كبير في دولة عظمى : أعددنا لهذه الحرب مبلغاً عظيماً ، يقدر بمئتي مليار ، فإذا قال ملك الملوك ، ومالك الملوك ، إذا قال الله رب العالمين، إذا قال من بيده جميع الخلق :

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

فلذلك العلم عطاء عظيم ، الحكمة عطاء عظيم ، الأمن عطاء عظيم ، الاستقرار النفسي ، الرضا ، التفاؤل ، الاستقامة ، السمعة الطيبة ، فالله عز وجل شكور إذا ذكرته يمنحك هذه النعم .

لذلك :

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

هذا وظيفتها السلبية ،

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

أكبر ما فيها ، أو إن ذكر الله لعبده حينما يذكره أكبر من ذكره له ، بمعنى أنه يمنحك هذه الخصائص .

الأستاذ أحمد :

(وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ)

(سورة البقرة)

الكفر كفر النعمة ؟.

المؤمن منشغل دائماً بشكر الله على النعم التي أعطاه إياها :

الدكتور راتب :

طبعاً ، هناك كفرٌ دون كفرٍ ، مثلاً هناك إنسان لا يرى إلا السلبيات في حياته ، وهناك إنسان يرى الإيجابيات ، منشغل بشكر النعم التي بين يديه ، وقد ينسى التي زويت عنه.

على كلٍّ المؤمن له موقف رائع ، يقول :

((اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب ، اللهم وما زويت عني مما أحب فاجعله فراغاً لي فيما تحب))

[الترمذي عن عبد الله بن يزيد الخطميّ الأنصاري]

والمؤمن لا يخلو من شيء طمح إليه ، وأكرمه الله به ، وشيء فاته ، فهو يشكر في الحالين ، الذي مكنه الله منه يقول : يا رب أعطيتني هذه النعمة فاجعلها في طاعتك ، وإذا زوى عنه نعمة أخرى يقول: يا رب اجعل فراغها في طاعتك .

الأستاذ أحمد :

أستاذي بعض الناس رأيتهم يظنون أن شكر كل النعم يكون بترداد لفظ الحمد لله ، وأظن أن هذا الفهم خاطئ ، فلكل نعمة نوع من أنواع الشكر ، فكيف تشكر النعم على اختلافها ؟.

لكلّ نعمة شكرها :

الدكتور راتب :

إذا منحك الله نعمة الصحة تشكر الله عليها بأن تجعل هذه الصحة في سبيل طاعة الله ، لا أن تستخدمها فيما نهى الله عنه ، إذا منحك الله نعمة النظر ينبغي أن ترى بها نعم الله لا أن ترى بها عورات المسلمين ، إذا منحك نعمة الأذن المرهفة ينبغي أن تستمع بها إلى الحق لا إلى الباطل وما شاكل ذلك ، إذا منحك نعمة اليد ينبغي أن تكون بفعل الخير لا للبطش بالناس ، فكل نعمة لها شكرها ، أن تستخدم هذه النعم في طاعة الله ، وشيء غريب جداً أن تستخدم نعمة في معصية الله ، هذا شيء يبعد الإنسان عن ربه .

الأستاذ أحمد :

فلذلك ذكروا أن ابن السماك عندما دخل على هارون الرشيد ، وجلس عنده ، وأراد هارون الرشيد أن يشرب شربة ماء ، قال له : أيها الخليفة لو منعت عنك هذه الكأس بكم تشتريها ؟ قال : بنصف ملكي ، قال : فاشرب هنيئاً مريئاً ، ثم عندما انتهى قال له : و لو منع منك إخراجها بكم تشتريها ؟ قال : بالنصف الآخر ، فقال : فاشرب هنيئاً مريئاً ، ولكن اتق الله في ملك لا يساوي شربة ماء ، هذا من باب الشكر .

شكر النعمة حصن لها وكفر النعمة محق لها :

الدكتور راتب :

الحقيقة أي جهاز من أجهزتنا ، أية حاسة من حواسنا ، أي خطأ في جسمنا يجعل الإنسان في جحيم لا يطاق ، فحينما يستيقظ سليماً معافى ، مثلاً كان عليه الصلاة والسلام إذا استيقظ ، يقول : " الحمد لله الذي ردّ إلي روحي - أي سمح لي أن أعيش يوماً جديداً - وعافاني في بدني ، وأذن لي بذكره " كان إذا دخل الخلاء يقول :

((الحمد لله الذي أذاقني لذته - أكل طعاماً طيباً ، أحياناً الإنسان يقبع في المستشفى يأخذ السيروم - وأبقى فيّ منفعته ، وأذهب عني أذاه - بهذا الخروج -))

[البيهقي عن عائشة]

إذاً كان عليه الصلاة والسلام تعظم عنده النعمة مهما دقت ، بل إن شكر النعمة حصن لها ، وسبب في زيادتها ، بينما كفر النعمة محق لها ،

(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)

الأستاذ أحمد :

أستاذي الكريم ، بعض الفقراء كان يلح بالشكوى من فقره للناس ، فأراد أحد العلماء أن يؤدبه ، فقال له: بكم تشتري نعمة البصر لو أنها منعت عنك ؟ وضرب له مثلاً بكذا ألف من الدراهم ، وعدد له نعم الله عليه ، ثم بعد ذلك قال له : أما تستحي أن تشكو مولاك وقد أعطاك ما أعطاك ؟ هل كلام العالم لهذا الفقير فقط سببه أنه لا يريد أنه يشكو الله للناس أم أن الإنسان لابدّ له أن يرفع يديه إلى السماء ويدعو ؟.

على المؤمن ألا يشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم :

الدكتور راتب :

لو اشتكى إلى كافر فكأنما اشتكى على الله ، لكن من شكا إلى مؤمن فكأنما اشتكى إلى الله ، المؤمن مؤمن ، يعرف نعم الله عز وجل ، أحياناً الإنسان عنده حاجة إلى البوح ، فالبوح إلى مؤمن لا شيء فيه، هو شكوى إلى الله ، لكن الأكمل :

(قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ)

(سورة يوسف الآية : 86)

والأكمل : ويعاب من يشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - موسوعة الأخلاق الإسلامية - الدرس (13-28) : خلق الخوف
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-02-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ أحمد :

سيدي الكريم نحب اليوم أن نقف وإياكم مع خلق جديد ألا وهو خلق الخوف ، لكنا نريد بادئ ذي بدء عند مسألة فنقول : هل الخوف خلق فطري أم أنه ناشئ عن سبب من الأسباب ؟ حبذا لو نسمع منكم تعريفاً لهذا الخلق .

خُلق الخوف :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

أستاذ أحمد ، الخوف خصيصة من خصائص الإنسان ، لقوله تعالى :

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

(سورة المعارج)

هو خلق في أصل فطرته ،

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

هو نقطة ضعف في خلق الإنسان ، لكنها لصالحه ، الخوف توقع حدوث مكروه ، أو توفي محبوب ، الوقوع شيء والتوقع شيء آخر ، وقد قيل : أنت من خوف الفقر في فقر ، ومن خوف المرض في مرض، وتوقع المصيبة مصيبة أعظم منها ، ذلك لأن الإنسان حينما يعتصم بالله عز وجل قد ينجو من هذا الخوف الذي هو في أصل جبلته ، الدليل

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

(سورة المعارج)

فالمصلي باتصاله بالقوي ، وباتصاله بالغني ، وباتصاله بالحافظ ، والناصر والموفق ، ينجو من هذه الحالة التي جُبل عليها .

الخوف حافز من حوافز الإيمان والطاعة أو عقاب إلهي على ذنب لا يغفر :

إذاً الخوف من خصائص الإنسان ، وهو في أصل خلقه ، لكنه لصالحه ، وهو توقع حدوث مكروه ، أو وفاة محبوب ، هذا هو تعريف الخوف ، والخوف يغطي كل البشر ، الأنبياء يخافون .

(فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً)

(سورة القصص الآية : 21)

بل إنه من علامات ضعف الإنسان ، من علامات عبودية الإنسان ، ذلك أن الله سبحانه وتعالى ثبت أشياء لا تعد ولا تحصى ، ثبت ملايين القوانين ، حركات الأفلاك ، خصائص المواد ، وما إلى ذلك ، إلا أنه حرك صحة الإنسان ورزقه لتكون صحته ورزقه وسيلتين لتأديبه إذا خرج عن منهج الله عز وجل .

فالإنسان يخاف أحياناً ، أو أن الله سبحانه وتعالى يلقي في قلبه الخوف ، لكن هناك خوف لصالحه ، وهناك خوف يعد نتيجة حتمية للشرك .

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

(سورة آل عمران الآية : 151)

إما أنه حافز من حوافز الإيمان والطاعة ، وإما أنه عقاب إلهي على ذنب لا يغفر في أصل القرآن الكريم ، وهو الشرك .

الأستاذ أحمد :

إذاً هناك خوف محمود ، وآخر مذموم ، الشرك أوصل إلى خوف مذموم ، لكن الخوف المحمود هل هو ممن ينطبق عليه قول الله عز وجل :

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ)

(سورة البينة)

درجات الخوف تختلف بحسب تفاوت الإيمان :

الدكتور راتب :

الآية الدقيقة :

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

(سورة النازعات)

أي الخوف المحمود ، الخوف الإيجابي ، الخوف الذي ينتهي بك إلى طاعة الله ، الخوف الذي ينتهي بك إلى الجنة ، الخوف الذي ينتهي بك إلى السلامة في الدنيا ، هو أن تخاف مقام الله عز وجل .

الأستاذ أحمد :

ولذلك قوله تعالى :

(ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ)

(سورة إبراهيم)

الدكتور راتب :

فهناك خوف محمود ، خوف المؤمنين ، بل إن هذا الخوف الذي هو من صفات المؤمنين على درجات، أحياناً يخاف المؤمن من عقاب الله ، هناك خوف أرقى ، أحياناً يخاف المؤمن من أن تنقطع صلته بالله ، يخاف من أن يكون في المستوى الذي لا يليق به ، على كلٍّ درجات الخوف بحسب تفاوت الإيمان .

خوف كل إنسان متعلق بإيمانه :

بالمناسبة : الله عز وجل كل إنسان له عنده ملف .

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام الآية : 132)

فخوف كل إنسان متعلق بإيمانه ، الأنبياء يخافون ، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

((رأس الحكمة مخافة الله))

[أخرجه ابن أبي عمر عن عبد الله بن مسعود]

أي لو أن الحكمة إنسان لكان رأسها خوف الله عز وجل .

الأستاذ أحمد :

كيف يخاف الأنبياء وقد علموا أن الله عز وجل قد غفر لهم ما تقدم من ذنبهم وما تأخر ؟ سألت السيدة عائشة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لم يغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فكان جوابه لها : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ هل هناك علاقة بين الخوف وبين الشكر ؟.

خوف الأنبياء خوف مقدس :

الدكتور راتب :

أولاً : الله عز وجل ذات كاملة ، لا يمكن لبشر كائن من كان بما فيهم الأنبياء أن يعرفوه المعرفة المطلقة ، لأنه لا يعرف الله إلا الله ، الأنبياء والرسل يتفاوتون في معرفة الله، لكن خوف الأنبياء خوف مقدس ، هو يخاف من ألا تكون معرفته بالله كما ينبغي ، فهذا خوف .

كما لو أن طالباً أراد أن يكون الأول على كل دفعته ، فخاف ألا يكون الأول هو ناجح قطعاً ، إنه يخاف ألا يكون الأول ، فخوف الأنبياء من نوع آخر .

الأستاذ أحمد :

مسألة الأنبياء والحديث عن الإيمان يجعلنا نسأل سؤالاً آخر ألا وهو : كيف يمكننا أن نفهم خلق الخوف من الله عز وجل في ضوء مظلة كبيرة ألا وهي مظلة التوحيد لله عز وجل ؟.

التوحيد لا يعفي من المسؤولية :

الدكتور راتب :

أولاً التوحيد لا يعفي من المسؤولية ، الدليل : حينما حدثنا ربنا عز وجل عن حادثة الإفك ، فقال :

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ)

(سورة النور الآية : 11)

إذاً كل شيء وقع أراده الله ، وكل شيء أراده الله وقع ، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلق ، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق ، هناك من يستغل التوحيد استغلالاً خاطئاً ، يظن أن هذا الذي وقع بما أن الله سمح له أن يقع إذاً الذي أوقعه ليس مسؤولاً ، لا ، تأتي الآية التي بعدها .

(وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

(سورة النور الآية : 11)

إذاً التوحيد لا يعفي من المسؤولية ، كما لو أن طبيباً أهمل معالجة المريض فمات هو قد يقول : مات بأجله ، نقول له : دعك من التوحيد ، أنت كنت متسبباً بوفاته ، إذاً تحاسب وقد قال عليه الصلاة والسلام :

((مَنْ تَطَبَّبَ ولا يُعْلَمُ منه طِبّ ، فهو ضامِن))

[أخرجه أبو داود والنسائي عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

تعلق الحكمة المطلقة بالخير المطلق :

إذاً أحياناً يختلط التوحيد بالخوف ، التوحيد موضوع آخر ، التوحيد يعني أنه لا يليق أن يقع في ملك الله ما لا يريد ، فكل شيء وقع أراده الله ، وكل شيء أراده الله وقع ، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق ، هذه المقولة على إيجازها تملأ قلب الإنسان طمأنينة وراحة ، لأنه إله ، أما أن يقع في ملكه ما لا يريد مستحيل، إذاً أراده ، بمعنى سمح به ، وما دام الله قد سمح به فلحكمة بالغةٍ بالغة ، وحكمته البالغة متعلقة بالخير المطلق :

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة آل عمران الآية : 26)

الحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق .

الشّر المطلق لا وجود له في الكون و يتناقض مع وجود الله عز وجل :

لذلك نحن نؤمن أن الشر المطلق لا وجود له في الكون ، إن وجود الشر المطلق يتناقض مع وجود الله، لكن هناك شرّ نسبي ، في نظرنا شر ، لكنه بمستقبل الإنسان خير ، قال تعالى :

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة الروم)

إذاً الشر المطلق لا وجود له في الكون ، بل يتناقض مع وجود الله .

الأستاذ أحمد :

الإمام الحارث المُحاسبي يقول : "العلم يورث المخافة" ، هل هذا يعني أن الأشخاص العوام أو الجهلة ليس عندهم خوف من الله أم أن العالِم يكون خوفه أدق وأكثر تفصيلاً ؟

العلاقة المتينة بين الخوف و الإدراك :

الدكتور راتب :

أنا أسوق لك قصة طريفة تجيب عن هذا السؤال : مرة سألني طالب ، قال لي : أنا لا أخاف من الله ، قلت له : أنت بالذات معك الحق ، فاستفز بهذا التعليق ، قال : ولِمَ؟ قلت له : لأن الفلاح أحياناً يذهب

إلى الحصيدة ، ومعه ابنه الصغير الذي لا يتجاوز السنتين ، هذا الابن قد يضعه بين سنابل القمح ، فيمر أمامه ثعبان ، لو رآه رجل لخرج من جلده ، لكن الطفل لا يعرف ما هذا الشيء ، ولا خطورته ، يضع يده عليه ، لماذا لا يخاف منه ؟ لأنه لا يدرك .

فكلما ضعف إدراك الإنسان ضعف خوفه من الله ، وكلما ازداد إدراكه ازداد خوفه من الله ، فهناك علاقة متينة بين الخوف ، وبين الإدراك ، فالذي لا يعرف خطورة المواد المسرطنة يأكلها وهو مرتاح، تجد الطبيب أحياناً يبالغ في غسل الخضراوات لماذا ؟ لأنه يعلم أن هناك جراثيم ، وأوبئة ، وأمراض وبيلة ، ومزمنة ، وقد تكون وبائية من هذه الجراثيم .

فكلما ازداد علم الإنسان ازداد خوفه ، هذا في الدنيا ، كلما ازداد علمه ازداد خوفه ، وكلما قلّ العلم قلّ الخوف ، لذلك : إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم ، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم ، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم .

الأستاذ أحمد :

هي ثلاثة مفاتيح ، ولذلك قال الله عز وجل :

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر الآية : 28)

العلم يحقق خشية الله عز وجل .

الإنسان خُلق ضعيفاً ليفتقر بضعفه فيسعد بافتقاره :

الدكتور راتب :

بالمناسبة الله عز وجل تفضلاً منه أودع فينا هذه الخاصة ، الخوف يدفعنا إلى طاعته ، الخوف يسوقنا إلى بابه ، الخوف يجعلنا نمتنع عن بعض المعاصي والآثام ، الخوف يجعلنا نخاف من الله عز وجل ، لأنه ورد أن :

((يا رب ، أي عبادك أحبّ إليك حتى أحبه بحبك ؟ فقال : أحبّ عبادي إليّ تقي القلب ، نقي اليدين ، لا يمشي إلى أحد بسوء ، أحبني ، وأحبّ من أحبني ، وحببني إلى خلقي ، قال : يا رب إنك تعلم أني أحبك وأحبّ من يحبك ، فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال : ذكرهم بآلائي ، ونعمائي ، وبلائي))

[من الدر المنثور عن ابن عباس]

أي ذكرهم بآلائي كي يعظموني ، وذكرهم بنعمائي كي يحبوني ـ الشاهد ـ وذكرهم ببلائي كي يخافوني.

هناك أمراض وبيلة ، هناك أمراض مستعصية ، هناك أمراض قاتلة ، هذه الأمراض لها وظيفة رادعة تردع الإنسان عن أن يقترف المعاصي والآثام .

إذاً لحكمة بالغة خلق الإنسان ضعيفاً ، يخاف ، ولو خلقه قوياً لاستغنى بقوته فشقي باستغنائه ، خلق ضعيفاً ليفتقر بضعفه ، فيسعد بافتقاره .

الأستاذ أحمد :

إذاً هي باب للاصطلاح مع الله ، والتذكير بالله عز وجل .

الدكتور راتب :

خير باعث إلى الله ، خير سائق يسوقنا إلى باب الله .

الأستاذ أحمد :

حديثك عن محبة الناس لله ، ومحبة الله للناس ، ذكرني بقول أحدهم إذا قال : من لا يخاف الله خوفه الله من الناس ، ومن خاف الله خوف الله الناس منه ، هل معنى ذلك أن يجعل له مهابة في قلوب الناس لأنه ترك العزة بالعباد واعتز برب العباد والبلاد ؟.

خوف الإنسان من الله عز وجل يعطيه الأمن مع الناس :

الدكتور راتب :

هذا المعنى وارد ، لكن تعليقي على هذا الكلام : إن أراد إنسان أن يشتري منك حاجة فخوفك من الله جعلك تعطيه الحاجة تامة وكاملة ، وكان بإمكانك أن تعطيه شيئاً فاسداً لا يستطيع أن يحاسبك ، أنت حينما تعاملت معه وخفت من الله ، مستحيل وألف ألف مستحيل أن يخيفك الله من أحد ، إذا كان خوفك من الله صحيحاً وقائماً ، فهذا الخوف من الله يعطيك الأمن مع الناس ، إن خفته أخاف منك ، إن لم تخفه خوفك من كل شيء ، وقد يخوفك من أحقر الأشياء .

الأستاذ أحمد :

من وصايا لقمان لابنه ، أنه قال : "خف الله خوفاً لا تأمن فيه مكره" ، بعد ذلك قال له : " وارجُه رجاءً أشد من خوفك "، فما هي العلاقة القائمة ما بين الخوف والرجاء ؟.

علاقة الخوف بالرجاء :

الدكتور راتب :

الحقيقة هذا الكلام أنا أسوقه للأخوة الدعاة : إياك أن تقف على المنبر فتجمع كل الزواجر والروادع ،

وأشكال العذاب والأمراض ، عن طريق الترهيب ، ومشاهد يوم القيامة، ولاسيما مشاهد أهل النار ، وإياك أن تلغي مشاهد الخوف ، وأن تتحدث عن رحمة الله فقط ، لابدّ من أن تزاوج بين التخويف والرجاء ، لأن أي طرف من السهل جداً أن ننحاز إليه، سهل جداً أن تملأ كلامك رجاءً برحمة الله ، وسهل جداً أن تملأ كلامك خوفاً من الله عز وجل، لكن لابدّ من الموازنة بين الرجاء وبين الخوف ، الموازنة حالة صحية ، مثلاً ابنك قد تكون قاسياً معه فيخافك ، وقد تكون رحيماً معه فيرتاح ويتساهل في طاعتك ، أما البطولة كأب أن تجمع بين أن يخافك ابنك ، وبين أن يرجوك ، هذه بطولة ، ودائماً المواقف الوسطية تحتاج إلى مهارة عالية جداً ، المواقف المتطرفة سهلة جداً ، سهلة أن تكون قاسياً فتكسر ، أو ليناً فتعصر ، لكن البطولة أن يحار الذين حولك ، يحبونك بقدر ما يخافونك ، هذا كلام موجه للآباء ، وللمعلمين ، ولأصحاب القرار ، وفي كل مكان ، يجب أن تكون محبوباً ومرغوباً ، أن يتعامل الناس معك بالرجاء والخوف في وقت واحد ، وهذا من خلق الأنبياء .

(وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً)

(سورة الأنبياء الآية : 90)

الأستاذ أحمد :

عندما كنت أقرأ في كتاب الحافظ المنذري : الترغيب والترهيب ؛ شعرت بأن الدين كله قائم ما بين أوامره ونواهيه على الترغيب والترهيب ، ورأيت أن الناس كثير منهم يؤثر الترغيب أكثر من الترهيب، والعكس أيضاً صحيح ، لهؤلاء نريد أن نعطيهم ما يحتاجون ، إن وجدناهم طمعوا في رحمة الله عز وجل ، واستكانوا ، وخلدوا إلى معاصيهم رهبناهم ، وإن وجدناهم من الذين نشفق عليهم ، قلوبهم رقيقة ، جعلنا عندهم شيئاً من الرجاء، كيف التعامل مع مثل هؤلاء ؟.

على الإنسان أن يوازن بين الخوف و الرجاء إن خاطب المجموع :

الدكتور راتب :

إن خاطبت إنساناً لك أن تراعي هذه الناحية ، إن خاطبت إنساناً يغلب عليه الرجاء اجعل مضمون كلامك الرجاء ، وإن خاطبت إنساناً آخر يغلب عليه الخوف اجعل خطابك له من نوع خصائصه ، ولكن إذا خاطبت المجموع يجب أن توازن بين الرجاء والخوف ، إن خاطبت جماعة فيهم من يرجح خوف الله ، وفيهم من يرجح رحمته ، لذلك إنك إن خاطبت المجموع ينبغي أن تنوع بين الخوف والرجاء ، أمّا تعرف إنساناً بابه إلى الله هو الخوف ، تأتيه من الخوف ، إنسان آخر بابه إلى الله الرجاء، تأتيه من الرجاء ، وهذه الحكمة، والدعوة إلى الله تحتاج إلى حكمة .

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)

(سورة النحل الآية : 125)

الأستاذ أحمد :

يقول أحدهم : الخوف رقيب العمل ، والرجاء شفيع المحن ، أي محن يقصد ؟.

على الإنسان ألا يخاف إلا ذنبه ولا يرجون إلا ربه :

الدكتور راتب :

هذا الموضوع يسوقنا إلى التوحيد ، ماذا يعني التوحيد ؟ يعني أن الأمر بيد الله ، وأن الأشياء المخيفة التي حولك هذه بيد الله عز وجل ، فكلما ازداد التوحيد لم تخف من هذه الأشياء المخيفة ، بل خفت من الله أن يسمح لها أن تصل إليك ، لذلك التوحيد مهم جداً في موضوع الخوف .

((لا يخافن العبد إلا ذنبه))

[ورد في الأثر]

لأن الوحوش الكاسرة المخيفة مربوطة بأزمة محكمة بيد الله ، هذا المعنى ورد في آية كريمة :

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

لذلك التوحيد يعني أن تخاف من الله ، وألا تخاف ممن سواه ، التوحيد يعني أن تخاف من الله حينما تذنب ، فقط ،

((لا يخافن العبد إلا ذنبه))

قال تعالى :

(أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً)

(سورة النساء)

أي الله عز وجل ما يفعل بعذابنا إن آمنا وشكرنا ، قال تعالى :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

(سورة النساء)

إذاً التوحيد يعني لا أن تخاف من عقاب بلا ذنب ، التوحيد يعني أن تخاف من عقاب بسبب ذنب ، إذاً في الحقيقة ينبغي أن تخاف من ذنبك ، لا يخافن العبد إلا ذنبه ، ولا يرجون إلا ربه .

الأستاذ أحمد :

الخوف عنوان عريض ، لكن تحت هذا العنوان نرى أن بعض المفردات متشابهة، على سبيل المثال استعمل القرآن في مرة من المرات لفظة الهلع :

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

وفي مرة أخرى

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

والخوف من الله عز وجل

(ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ)

فهل الخوف والهلع والخشية يؤديان إلى معنى واحد أم أن لكل واحدة منهم معنىً مستقلاً ؟.

الخوف والهلع والخشية مفردات تجتمع في معانٍ موحدة إلا أن كلاً منها ينفرد بحالة خاصة:

الدكتور راتب :

يبدو أن الهلع شدة الخوف ، والخشية متعلقة بالله عز وجل ، قد تخاف من شيء أما الخشية الخوف من الله عز وجل ، لذلك هذه المفردات مع أنها تجتمع في معانٍ موحدة إلا أن كلاً منها ينفرد بحالة خاصة ، كأن تقول : نظرت ، أو استشرفت ، أو لمحت ، أو حاولت أن أتمطى لأرى وأستشرف ، فهناك كلمات لها معانٍ موحدة ، وهناك كلمات تختص ببعض المعاني .

الأستاذ أحمد :

سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ هذا الذي بات يعرف بعمر الفاروق وهو خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : " لو أن قدم شاة تعثرت في العراق لخفت أن يسألني الله عنها " ، سيدنا عمر الفاروق عُرف عنه أنه كان في وجهه خطان أسودان من كثرة البكاء ، وهذا سيدنا عمر ، إذاً للخوف نتائج محمودة ، ونتائج إيجابية ، كيف ننمي نحن عوام المسلمين وعامتهم هذا الخلق في أنفسنا حتى نصل إلى هذه الدرجة التي تشبه درجة خوف سيدنا عمر ؟

من ازداد علماً ازداد خوفاً من الله عزّ وجل :

الدكتور راتب :

سيدنا عمر حينما قال : والله لو تعثرت بغلة في العراق لحاسبني الله عنها ، لمَ لم تصلح لها الطريق يا عمر ؟ سيدنا عمر حينما كان يجول في المدينة مع عبد الرحمن بن عوف ، وجدا قافلة قد خيمت لتستريح ، فسمع بكاء طفل ، اقترب عمر من أمه وقال : أرضعيه ، اقترب مرة ثانية ، وثالثة ، وهي ترضعه ثم يبكي ، فغضب وقال لها : أرضعيه ، قالت : ما شأنك بنا ؟! إنني أفطمه ، قال : ولمَ ؟ قالت: لأن عمر لا يعطي العطاء إلا بعد الفطام ، تروي الرواية أنه ضرب جبهته ، وقال : ويحك يا بن

الخطاب كم قتلت من أطفال المسلمين ؟ ثم أصدر قراراً فورياً بأن يكون العطاء عقب الولادة ، ثم صلى الفجر بأصحابه ولم يفهموا قراءته من شدة بكائه ، وكان يدعو ويقول : "ربي هل قبلت توبتي فأهنئ نفسي ؟ أم رددتها فأعزيها ؟ " .

لذلك كلما ازددت علماً ازددت خوفاً ، وكلما قلّ العلم قلّ الخوف ، هذا يعود بنا إلى أول ما طرح في هذا اللقاء الطيب .

شيء آخر في موضوع الخوف : النبي عليه الصلاة والسلام دخل إلى بيت أحد أصحابه الذين توفاهم الله عز وجل ، فسمع امرأة من وراء الستار تقول : هنيئاً لك أبا السائد لقد أكرمك الله ، النبي عليه الصلاة والسلام مشرع ، تشريعه كلامه ، تشريعه فعله ، تشريعه إقراره ، فلو بقي ساكتاً لكان كلام هذه المرأة صحيحاً ، لا بدّ من أن يعلق ، قال : " ومن أدراكِ أن الله أكرمه ؟ قولي : أرجو الله أن يكرمه ، وأنا نبي مرسل لا أدري ما يفعل بي ولا بكم " .

هذا الحديث ينفي صفة ذميمة في الإنسان وهي التألي على الله ، أن تحكم عليه مستقبلاً ، المستقبل لا يعلمه إلا الله ، وهذا النبي الكريم على علو مقامه قال : "وأنا نبي مرسل لا أدري ما يفعل بي ولا بكم"، هذا هو الأدب مع الله .

لذلك أنت حينما تزكي إنساناً تقول : أحسبه صالحاً ولا أزكي على الله أحداً .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - موسوعة الأخلاق الإسلامية - الدرس (14-28) : خلق الصبر
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-02-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ أحمد :
أستاذي الكريم الصبر خلق من الأخلاق له فلسفته الخاصة ، وهو أمر نحتاجه في حياتنا اليومية ، فتعب البدن بحاجة إلى صبر ، والسعي على الرزق بحاجة إلى صبر ، والعلاقات مع الناس بحاجة إلى الصبر ، والصبر على البلاء بحاجة إلى صبر ، فما هو أصل الصبر وما فلسفته ؟ .

الإنسان قبل حمل الأمانة فحمّله الله مقوماتها :

الدكتور راتب :
بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .
أستاذ أحمد ، مرة ثانية حينما نعرف حقيقة الإنسان ، هو المخلوق الأول رتبة .

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية : 72)

إذاً هو المخلوق الأول ، هو المخلوق المكرم .

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

(سورة الإسراء)

هو المخلوق المكلف .

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

لأن الإنسان قبِل حمل الأمانة ، لذلك حمله الله مقوماتها ، ألا وهي : الكون ، ينطق بأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى ، منحه العقل ، لكن يعنينا في هذا الكلام الشهوة ، قال تعالى :

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة آل عمران الآية : 14)

إذاً الإنسان كائن أودعت فيه الشهوات ، والشهوات تدفعه إلى الحركة ، أي كائن متحرك ، حركته بسبب شهواته .

بل تسمى الشهوة في علم النفس الدافع ، الدافع إلى الطعام والشراب ، الدافع إلى الجنس ، الدافع إلى تأكيد الذات .

المؤمن بالصبر والإرادة والإصرار يوقع حركته في الحياة وفق الحيز الذي سمح الله به :

إذاً لأن الله أودع فيه الشهوات ، أصبحت عنده دوافع ، إذاً حركة ، الآن كي يستحق جنة الله ورضوانه، والأبد في نعيم مقيم لا بد من أن يوقع حركته في مجال سمح الله له به ، فقط ، علاقته بالمال ، هناك مئات بل ألوف من أساليب كسب المال الغير مشروع ، وهناك منطقة مسموح بها هي الكسب المشروع ، أي إذا بنيت منفعة على مضرة ، هذا كسب غير مشروع ، أما إذا بنيت منفعة على منفعة فهذا كسب مشروع .

فهو حينما يوقع حركته في كسب المال وفق الحيز الذي سمح الله له به هذا يحتاج إلى صبر ، هناك أموال مغرية ، هناك كسب غير مشروع كبير جداً ، الأرقام فلكية ، هو يمتنع عن أي مال يأخذه بطريق غير مشروع ، ويحصر حركته في كسب المال في الطريق المشروع .

علاقته بالمرأة يمكن أن يستمتع بها بألف طريق غير مشروع ، سمح الله له بالزواج ، أعطاه مساحة كافية يلبي هذا النداء من دون أن يكون تلبية النداء على حساب إنسانة سقطت ، ونبذها المجتمع ، تزوج، الزوجة زوجته ، لها مستقبل ، لها منه أولاد ، تتقدم بالسن ، أولادها حولها ، أصهارها ، بناتها، هناك تخطيط و تصميم إلهي .

ما دام الإنسان يوقع حركته بدافع من شهواته وفق منهج الله ، وفق الحيز المسموح له ، فهو صابر ، لأنه يمكن أن تكسب مالاً فلكياً عن طريق المخدرات ، أو عن طريق القمار ، أو عن طريق أشياء غير مشروعة ، أو عن طريق تجارة محرمة ، أو عن طريق إفساد الشباب ، الآن الدخل الفلكي معظمه عن طريق غير مشروع .

فالمؤمن بصبر ، وإرادة ، وعزم ، وإصرار ، يوقع حركته في الحياة وفق الحيز الذي سمح الله به ، بل كتطمين ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها .

أصل الصبر و فلسفته :

إذاً فلسفة الصبر أنك مخلوق أول ، مكرم ، مكلف ، لأنك مكلف أودعت فيك الشهوات ، لتكون كالمحرك في السيارة ، كي ترقى بها إلى رب الأرض والسماوات ، ولكن لابدّ من أن توقع حركتك بدافع هذه الشهوات وفق منهج الله ، وفق الطريق المستقيم .

وأوضح مثل : مركبة فيها مقود هو العقل ، وفيها محرك هو الشهوة ، وهناك طريق هو الشرع ، فمادمت أنت في أعلى درجات اليقظة توقع حركة المركبة من اندفاع المحرك على طريق معبد ، فأنت في سلام ، لذلك الله عز وجل قال :

(يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ)

(سورة المائدة الآية : 16)

قال :

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء الآية : 9)

فلابدّ من إرادة ، ولا بد من ضغط ، ولا بد من قوة تحمل ، كي توقع الحركة التي نشأت من شهوات أودعت فيك وفق منهج الله ، والتطمين : ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها .

الأستاذ أحمد :

إذاً من هذا الكلام هل نفهم أن تعريفه يمكن أن يلخص بقولنا : إنه حبس ـ أي الصبر ـ النفس عن الجزع وهو أمر نفسي ، ومنع اللسان من الشكوى ، هل يصح هذا التعريف ؟.

الإيمان نصفه صبر :

الدكتور راتب :

يمكن ، الإيمان نصفه صبر ، الحقيقة الإنسان لأنه مخير بإمكانه أن يتحرك بدافع أية شهوة مئة و ثمانون درجة ، مسموح له بسبعين درجة ، فإذا أوقع الحركة في السبعين درجة سلم ونجا ، وسعد وأسعد ، أما إذا تجاوز هذه السبعين بدل أن يتزوج زنى ، بدل أن يعمل بعمل مشروع سرق المال .

ما هو الصبر ؟ هو قوة إرادة تعينك على أن توقع الحركة وفق منهج الله .

الأستاذ أحمد :

الله عز وجل يقول :

(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ)

(سورة البقرة)

نستعين بهما على ماذا ؟.

الاتصال بالله عزّ وجل يزود الإنسان بسعادة تغنيه عن كل ما يغضب الله :

الدكتور راتب :

هناك نقطة دقيقة :

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص الآية : 50)

المعنى المخالف لهذه الآية أن الإنسان إذا اتبع هواه وفق هدى الله لا شيء عليه هذه واحدة ، أما الآن :

(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ)

الإنسان حينما يدع نهياً إلهياً ، حينما يدع شيئاً محرماً ، يحتاج إلى صبر ، لكن أحياناً هناك بديل لهذا الشيء المحرم ، أنت تبحث عن السعادة النفسية ، فإذا تحققت في الاتصال بالله استغنيت بها عن أية معصية تتوهم أنها تحقق لك لذة أو متعة ، فالصبر هو الترك ، أما الصبر من الناحية الإيجابية ، مثلاً يوجد طعام و هو ليس لك ، فينبغي أن تبتعد عنه ، و لو كنت جائعاً جداً ، تحتاج إلى صبر ، لكن إذا كان إلى جانب هذا الطعام طعام أنفس منه ، وأطيب منه ، ومتاح لك ، تقبل على الطعام الطيب المتاح لك ، ولا تعبأ بهذا الطعام الذي حُرم عليك .

فعندما تصلي تجد أن الصبر ضعفت تكاليفه ، الصبر لم يعد عبئاً على الإنسان

(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ)

أي دعوا كل الشهوات المحرمة بإرادة قوية ، لكنكم حينما تتصلون بالله عز وجل تأتيكم سعادة تغنيكم عن كل شيء ، عن كل تطلع إلى ما يغضب الله عز وجل، صارت الآية لها معنى دقيقاً ،

(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ)

أولاً .

مثلاً : إنسان في بداية طريق الإيمان يدع كل المعاصي والآثام ، لكن نفسه أحياناً تطوق إليها ، مثلاً : تاب عن سماع الأغاني ، له أغنية مفضلة قبل أن يتوب كان يحبها كثيراً لو سمعها في سيارة قد يطرب

لها ، لكن بعد تعمق اتصاله بالله ، وسمو نفسه الآن يشمئز منها ، لا يدعها وهو مشتاق إليها ، يدعها وهو مشمئز لها ، فنفسه ارتقت إلى مستوى الشرع.

الأستاذ أحمد :

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

((إنكم سَتَلْقونَ بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض))

[أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن زيد بن عاصم]

ما هي الأثرة ؟ وكيف يكون الصبر حتى نلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟.

على الإنسان أن يبتعد عن المعاصي لأن ما عند الله أكبر من هذه المعاصي :

الدكتور راتب :

((إذا رأيتم شُحا مُطاعا ، وهوى مُتَّبَعا ، ودُنيا مُؤثرة ، وإعجابَ كلِّ ذي رأي برأيه))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي ثعلبة الخشني]

من علامات آخر الزمان

((إذا رأيتم شُحا مُطاعا))

أي مادية مقيتة ، الإنسان يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل ، يبيع مبادئه ، يبيع قيَمه ، يبيع آخرته بدنيا غيره ،

((إذا رأيتم شُحا مُطاعا ، وهوى مُتَّبَعا))

الشهوات ، ولا يعبأ الإنسان ما إذا كانت هذه الشهوات مسموح بها أو محرمة ، عليه أن يقتنصها ،

((وإعجابَ كلِّ ذي رأي برأيه))

أي كل إنسان مرجع رأيه هو الدين ، يريد ديناً كما يريد ، مثل هذا الإنسان من علامات آخر الزمان ، شرد عن الله ، وتعلق بشهواته ، واعتدّ بقدراته ، واستعلى ، واستكبر ، وباع دينه بعرض من الدنيا قليل.

هذه الدنيا المؤثرة ، أي آثر الدنيا على طاعة الله ، أحياناً يأتيه دخل كبير جداً من تجارة محرمة آثر هذا الدخل الكبير على طاعة الله .

وأنا أقول دائماً : الإنسان حينما يقول : الله أكبر ، هذه الكلمة يقولها المسلمون في الأعياد ، لمجرد أن يطيع مخلوقاً ويعصي خالقاً ما قال الله أكبر ولا مرة ، ولو رددها بلسانه ألف مرة ، لمجرد أن يطيع زوجته فيما يغضب الله ، ويعصي الله ، هو في الحقيقة رأى أن طاعة زوجته أكبر من طاعة الله ،

حينما يغش في البيع والشراء ، المبلغ الكبير الذي يجنيه من غش الناس في البيع والشراء رآه أكبر من طاعة الله .

لذلك الكلمات الإسلامية حينما يمتد الأمد تفقد مضمونها ، كلمة الله أكبر أكبر من كل شيء ، أكبر من الدنيا وما فيها ، المؤمن حينما يقول : الله أكبر أي لا يقبل أن يرتكب معصية لأن ما عند الله أكبر من هذه المعصية .

الأستاذ أحمد :

لذلك حينما يكبر تكبيرة الإحرام في الصلاة ويقول : الله أكبر ، أي أكبر من كل الملهيات عن الصلاة .

كلمات المسلمين مع طول الأمد وضعف الإيمان والتفلت من منهج الله فقدت مضمونها:

الدكتور راتب :

مرة ثانية : الإنسان حينما يطيع مخلوقاً ويعصي خالقاً ، ما قال الله أكبر ولا مرة ولو رددها بلسانه ألف مرة ، فلذلك كلمات المسلمين مع طول الأمد ، ومع ضعف الإيمان ، ومع التفلت من منهج الله ، فقدت مضمونها .

قد تقول لإنسان ملحد : كيف حالك ؟ يقول لك : الحمد لله ، لا يؤمن بالله أصلاً ، فلذلك هناك كلمات فقدت مدلولها ، لكن المؤمن يحافظ على مدلول هذه الكلمات ، فإذا قال : الله أكبر لا يمكن أن يعصي الله .

الأستاذ أحمد :

تحدثنا أستاذي الكريم عن صور الصبر وهي صور جزئية ، لكن أنواع الصبر وهي شاملة وعامة ، حبذا لو نسمع منكم تعداداً لها أو تعليقاً عليها ؟.

أنواع الصبر :

1 ـ الصبر على طاعة الله :

الدكتور راتب :

الحقيقة للصبر ثلاثة أنواع : صبر على طاعة الله ، وطاعة الله تكليف ، والتكليف ذو كلفة ، أي كلمة تكليف تعني أن هناك كلفة ، لأن طبع الإنسان يتناقض مع التكليف ، الإنسان طبعه يقتضي أن يأخذ المال ، والتكليف أن ينفقه ، فالإنفاق يحتاج إلى إرادة ، وإلى قوة ، أما أخذ المال لا يحتاج إلى مجاهدة ،

شيء يتوافق مع الطبع .

حينما تمر أمامه امرأة أجنبية ، لا تحل له ، فأن يملأ عينيه منها وفق طبعه أما إذا غضّ بصره فهذا تكليف .

أن يبقى نائماً في سريره الوثير في أيام الشتاء ، والفراش دافئ ، ثم يؤذن الفجر ، فينزع عنه اللحاف ، وينهض من الفراش ، ويتوضأ ويصلي ، هذا ليس في راحة الجسم ، يقاوم الجسم هذا العمل ، فالطبع أن تبقى نائماً ، والتكليف أن تستيقظ .

حينما يصل إلى سمعك شيء من فضائح الناس الطبع يقتضي أن تروج هذه الفضائح ، معلومات ممتعة، وقصص مثيرة ، تتصدر المجلس وتحدث الناس عما فعل فلان، ولماذا طلق زوجته ؟ لأنها خانته ، وكذا وكذا لكن التكليف أن تسكت ، التكليف ألا تسهم في إشاعة الفاحشة بين المؤمنين .

الآن ما دام التكليف متناقض مع الطبع ، إذاً أنت بحاجة إلى صبر على طاعة الله هذا أول أنواع الصبر، الصبر على طاعة الله .

2 ـ الصبر عن المعصية :

الآن المعصية محببة ، هذا كلام دقيق وواقعي ، المعصية محببة ، والفتن رائجة ، وطريق الحرام سهل ، بينما طريق الحلال صعب ، لحكمة بالغةٍ بالغة جعل الله الحرام سهلاً ، وجعل الحلال صعباً .

مثلاً : المخدرات فرضاً من مكان زراعتها إلى مكان تسويقها ، هناك ألف ضعف، أرباح تجار المخدرات أرباح فلكية ، وقد تكون أعلى أرباح بالعالم .

لأن التكليف يحتاج إلى جهد وإرادة ، أما الحرام فمحبب ، دخل كبير ، مكانة ، معنى دخل كبير أي بيت فخم ، مركبة فارهة ، امرأة جميلة ، أثاث فخم ، سياحة ، رحلات ، هذا كله يحققه الدخل الحرام الكبير .

فلذلك الصبر عن المعصية ، مثلاً : لو أن الحرام صعب ، والحلال سهل ، لأقبل الناس جميعاً على الحلال ، لا لأنهم عباد لله ، بل لأنه سهل ، لكن لحكمة بالغةٍ أنت تتاجر ، تشتري بضاعة ، تعرضها ، تعلن عنها ، تروجها ، تبيعها ، تجمع ثمنها ، بجهد كبير جداً خلال عام تربح بالمئة عشرين، إذا المال معك مستثمر لك عشرة بالمئة فقط ، أما أي تجارة محرمة ، الآن تجارة الرقيق الأبيض أرقام فلكية ، ما هو الصبر عن المعصية ؟ المعصية محببة ، ودخلها كبير ، وازن بين امرأتين ؛ امرأة تعمل بالبيوت تتقاضى مبلغاً من المال مقابل عمل عشر ساعات ، امرأة أخرى ساقطة قد تربح مئة ضعف

بساعة ، إذاً الحرام سهل ، والحلال صعب .

الأستاذ أحمد :

لذلك الدخول إلى أماكن اللهو بكلفة وثمن ، بينما الدخول إلى بيوت الله عز وجل مجاناً .

3 ـ الصبر على قضاء الله وقدره :

الدكتور راتب :

إذاً الصبر الأول على طاعة الله ، لأن طاعة الله ذات كلفة ، والصبر الثاني عن معاصي الله ، بقي الشيء الثالث هو الصبر على قضاء الله وقدره ، أنت مستقيم ، قد تأتي مصيبة لا تفهم حكمتها ، الله عز وجل يقول :

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

(سورة القلم الآية : 48)

أب أحياناً يأمر ابنه أن يعتني بأسنانه لصالح الابن ، يأمره أن يجتهد لصالحه ، لكن لو أن الابن جائع جداً ، والطعام على الطاولة ، والأب يقول لابنه : لا تأكل ، لم يفهم حكمة ذلك ، متى أنت بحاجة ماسة إلى الصبر ؟ حينما تغيب عنك الحكمة ، الله عز وجل قال

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

وأنت حينما تصبر لقضاء الله وقدره دليل أنك مؤمن بالله ، مؤمن بحكمته ، مؤمن بعلمه ، مؤمن بعجله.

الآن مثلاً : طفل صغير على كرسي طبيب الأسنان ، لا يفقه ماذا يجري في أسنانه قد يتألم ، قد يبكي بكاءً شديداً ، قد يمسك يد الطبيب ، وإذا كانت تربيته ضعيفة قد يسب الطبيب ، لأنه يجهل ما يفعله الطبيب ، أما الراشد يعلم أن هذا الألم لإيقاف الألم ، وأن هذا الألم صيانة لأسنانه ، لذلك مع أنه يتألم تراه صامتاً ، وساكتاً ، بل يشكر الطبيب .

الرضا عن الله من علامات الصبر :

إذاً كلما ارتقت معرفتك بالله عز وجل ارتقى صبرك ، والعارفون بالله يرون أنه ربما منعك فأعطاك ، وربما أعطاك فمنعك ، وقد يكون المنع عين العطاء ، فالمؤمن يستسلم لله ، ليس معنى هذا أن يقعد عن السعي ، أما حينما يبلغ أعلى درجة من السعي ، وينتهي به سعيه إلى هذا المستوى يرضى به ، لذلك الرضا عن الله من علامات الصبر ، الله عز وجل قال :

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ)

(سورة البينة الآية : 8)

الأستاذ أحمد :

ماذا تحدثنا عن فوائد هذا الخلق إن تمثلت بالإنسان وصار صبغة أنه صبور صار يعرف بأنه صبور ، لذلك ضربت الأمثال بصبر سيدنا أيوب ، ما الحكمة من ذلك ؟.

الإنسان الصابر يوفى أجره بغير حساب لأنه خالف طبعه :

الدكتور راتب :

نحن في العلاقات التجارية هناك شيكات ، كل شيك له مبلغ ، لكن أعلى عطاء أن يوقع لك الشيك والرقم مفتوح ، هذا عطاء بلا حدود ، لذلك قال تعالى :

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

(سورة الزمر الآية : 10)

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

لماذا ؟ لأنه خالف طبعه ، لأنه قبل المكروه ، يقول الإمام علي رضي الله عنه : "الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين" فأنت حينما ترى أن الله على كل شيء قدير ، بيده كل شيء ، ساق لك مصيبة ، لا بدّ من حكمة ، لا بدّ من حكمة بالغةٍ بالغة لو كشفت لذاب الإنسان شكراً لله على هذا الذي أصابه من الله .

فلذلك يا رب هل أنت راضٍ عني ؟ إنسان يطوف حول الكعبة ، كان وراءه الإمام الشافعي ، قال له : يا هذا هل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك ؟ قال : سبحان الله! كيف أرضى عنه وأنا أتمنى رضاه؟ فقال : إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله ، أي الرضا عن الله مرتبة عالية جداً ، وهي الصبر ، فالصابر يعرف الله، الصابر يعرف حكمته ، يعرف عدله ، يعرف رحمته ، يعرف أن أفعال الله كمال مطلق .

لكن هناك نقطة دقيقة : حينما تصبر على حكم الله دون أن تفهم حكمته ترقى إلى درجة العابدين ، ثم تكافأ من قِبل الله بأن يكشف لك حكمة الذي أصابك ، وترقى إلى مرتبة العارفين ، من مرتبة العابدين إلى مرتبة العارفين .

لذلك المؤمن :

((عَجَبا لأمر المؤمن ! إنَّ أمْرَه كُلَّه له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابتْهُ سَرَّاءُ شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابتْهُ ضرَّاءُ صَبَر ، فكان خيراً له ، وليس ذلك لغير المؤمن))

[أخرجه مسلم عن صهيب الرومي]

الأستاذ أحمد :

ومن ذلك يقول ابن المبارك : المصيبة واحدة فإذا جزع منها المرء صارت اثنتين بمعنى ذهب بأجر هذه المصيبة .

الطاعة مع الصبر طريق إلى النصر :

الدكتور راتب :

لكن قبل أن ننهي ، المسلمون حينما يصبرون وهم في طاعة الله صبرهم مع الطاعة طريق النصر ، الدليل :

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ)

(سورة إبراهيم)

(وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً)

(سورة آل عمران الآية : 120)

تصور كل كيد الطرف الآخر يتلاشى أمام الطاعة والصبر ، لكن لو أننا نخالف منهج الله عز وجل ، ونصبر قهراً ، فالمعصية مع الصبر تنتهي إلى القبر ، بينما الطاعة مع الصبر طريق إلى النصر .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - موسوعة الأخلاق الإسلامية - الدرس (15-28) : خلق الإخلاص
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 15-02-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ أحمد :

سيدي الكريم حبذا لو نتطرق اليوم إلى خلق جديد ؛ ألا وهو خلق الإخلاص ، فالله عز وجل حينما حدثنا في سورة النساء عن المنافقين ، وأنهم في الدرك الأسفل من النار استثنى بعد ذلك منهم فقال :

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ)

(سورة النساء الآية : 146)

فيكف يكون الإخلاص ، وما هو الإخلاص أصلاً ؟ .

العبادة علة وجود الإنسان في الأرض :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

أستاذ أحمد ، بادئ ذي بدء علة وجود الإنسان في الأرض العبادة ، لقوله تعالى :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

والعبادة في أدق تعاريفها : طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية ، ولكن هذه العبادة بتفاصيلها تتجه إلى جارحةٍ جارحة ، فعبادة العين غضّ البصر عن ما لا يحل ، عبادة الأذن عدم سماع الباطل والغناء ، عبادة اللسان أن ينطق بالحق ولا يكذب ، عبادة اليد ألا يبطش بها ، عبادة الرجل ألا تقوده إلى منكر .

والسؤال الآن : ما عبادة القلب ؟ القلب له عبادة ، إن عبادة القلب الإخلاص فالإخلاص عبادة القلب ، أي ألا تطلب لعملك شاهداً إلا الله ، أن تكتفي أن الله يعلم ، أما إذا أردت أن تذكر هذا العمل للناس كي تنتزع إعجابهم ، كي يسمعوك ثناءهم ، كي تعلو عندهم، هذا يضع مشكلة أمام الإخلاص ، ألا تحتاج إلى شاهد على عملك إلا الله ، وأن تصفي السر والعلانية ، والقول والعمل .

تعريف الإخلاص :

الإخلاص له تعريفات كثيرة ، العبرة أنك تبتغي بهذا العمل وجه الله ، أن تبتغي به إرضاء الله عز وجل ، إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي .

الإخلاص له تفاصيل ، وله تعاريف ، ولكن حينما تريد لعملك شاهداً غير الله معنى ذلك أنت تتوجه بعملك إلى غير الله ، تسعى أن ترضي غير الله ، تسعى أن يكون لك مكانة عند غير الله ، تسعى أن تأخذ ثناء من غير الله ، ما دام العمل متوجهاً لغير الله ففي إخلاصه شك .

الإخلاص أن تتوجه إلى الله ، أن يكون سرك كعلانيتك ، الإخلاص أن تزهد في مديح الناس ، الإخلاص عبادة القلب ، هذه الحقيقة الأولى .

الأستاذ أحمد :

أما ما أريد الآن الحديث عنه والاستماع إلى جوابه أن الإخلاص ما سببه ؟.

سبب الإخلاص :

الدكتور راتب :

الحقيقة جزاك الله خيراً على هذا السؤال ، هذا أخطر سؤال في هذا اللقاء ، أنت متى تخلص ؟ إذا كان توحيدك جيداً ، أنت حينما توقن أن المعطي هو الله ، إذاً لا تسأل غير الله ، وأن المانع هو الله ، إذاً لا تخاف إلا الله ، وأن الرازق هو الله إذاً لا تعصي الله من أجل الرزق ، أنت حينما توقن أن الله هو المعطي ، وهو المانع ، وهو المعز ، وهو المذل ، وهو الرافع ، وهو الخافض ، إذا اعتقدت أن الأمر كله بيد الله ، أمر كل حياتك ، أمر كل من حولك ، كل من فوقك ، كل من دونك ، أمر صحتك ، أمر أهلك ، أمر أولادك ، حينما ترى أن الله بيده كل شيء ، تتوحد وجهتك ، اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها ، أنت حينما تخلص تتمثل هذه الآية :

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

(سورة الزمر)

أنك إذا عبدت الله تأتيك الخيرات ، إذاً عليك أن تشكر ، أنت حينما تخلص تقرأ قوله تعالى :

(قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ)

(سورة الأنعام)

أنت حينما تخلص تقوى شخصيتك ، الإخلاص يحتاج إلى توحيد .

مرة ثانية : دخلت إلى بناء من أربعة طوابق ، هذا البناء إدارة الهجرة والجوازات ، وأنت تريد أن تسافر إلى بلد معين ، وقد أنبئت يقيناً أن تأشيرة الخروج لهذا البلد بيد المدير العام وحده ، و يوجد بالبناء خمسمئة موظف ، هل يمكن أن تبذل ماء وجهك لشرطي ؟ لموظف ؟ لمعاون المدير ؟ أبداً ، الأمر في هذا الموضوع بيد المدير العام .

من تفوق في توحيده تفوق في إخلاصه :

أنت حينما توقن أن كل أمورك بيد الله ، وأن كل سلامتك بيد الله ، وأن كل سعادتك بيد الله ، وأن التوفيق في زواجك بيد الله ، وأن أولادك بيد الله ، وأن صحتك بيد الله وأن الله يطلب منك الاستقامة ، فأنت حينما تعتقد أنه لا إله إلا الله ، لا مسير ، لا مربي ، لا معطي ، لا مانع ، أنت حينما لا ترى مع الله أحداً ، أنت حينما ترى أنه :

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود الآية : 123)

عندئذٍ تعبده مخلصاً ، أنت حينما توقن أنه :

(فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف الآية : 84)

الذي يجري في الأرض من حوادث ، من حروب ، من أزمات ، من زلازل ، من براكين ، من مجاعات ، أنت حينما توقن أن هذا الذي وقعَ وقع بعلم الله ، وأن كل شيء وقع أراده الله ، وأن كل شيء أراده الله وقع ، وأن إرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة ، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق ، أنت حينما تتفوق في توحيدك تتفوق في إخلاصك .

التوحيد أحد أكبر أسباب الإخلاص :

إذا صحّ أن للإخلاص مؤشراً وللتوحيد مؤشراً ، المؤشران يتحركان معاً ، بقدر ما أنت موحد بقدر ما أنت مخلص ، بقدر ما يوجد في كيان الإنسان من شرك خفي فيه عدم إخلاص ، فالإخلاص سببه التوحيد ، أما التوحيد فهو محصلة الإيمان كله ، أي التوحيد ليست كلمة تقولها ، ولا فكرة تفهمها ، إنه متغلغل في أعماق الإنسان ، متغلغل في أعماق الإنسان أن الله هو كل شيء ، وأن بيده كل شيء.

(فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

(سورة الروم الآية : 30)

التوحيد أحد أكبر أسباب الإخلاص ، لا ترى مع الله أحداً ، لا ترجو غير الله ، لا تعقد الأمل على غير الله ، لا تتوكل على غير الله ، لا تخاف غير الله ، لا ترجو غير الله ، لا تصبو إلى غير الله ، هذا هو التوحيد .

بل إن هذا الإنسان الذي عرف الله يسمى بمصطلح آخر الإنسان الرباني ، هناك إنسان رباني ، هناك إنسان شهواني ، هناك إنسان شيطاني ، فالرباني هدفه و مقصده الله عز وجل ، وتطبيق أمره ، والدنيا في خدمة هدفه ، فالإخلاص شيء يرفع الإنسان إلى أعلى عليين ، الإخلاص يجعلك في مرتبة عند الله كبيرة ، الإخلاص يجعلك تعلو في عين الله .

الأستاذ أحمد :

إذاً لو أردنا أن نرتقي في الإخلاص لا بدّ من أن نصحح التوحيد من الشرك الظاهر والشرك الخفي ، جزاك الله خيراً .

قبل قليل ذكرنا أمر الله عز وجل بالإخلاص في المنافقين ، وكيف استثنى منهم الذين يخلصون بعد ذلك ، لكن ما هو توجيه رب العالمين للمؤمنين بشأن الإخلاص ؟.

توجيه رب العالمين للمؤمنين بشأن الإخلاص :

الدكتور راتب :

يقول الله عز وجل :

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ)

(سورة الزمر)

أستاذ أحمد ، أحياناً ينهانا النبي عن أن نبغض ، مع أن البغضاء شعور ، إحساس ليس إرادياً ، فإذا كان النهي أو الأمر عن حالة نفسية لا نملكها ماذا تعتني الآية إذاً ؟ الآية

(قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ)

إذا كان التوجيه لحالة نفسية ، أو لشعور لا أملك له جلباً ، ولا دفعاً ، فماذا يعني هذا الأمر ؟ أن آخذ بأسبابه ، أنا حينما أنهى عن الغضب ، يجب أن آخذ بأسباب ترك الغضب ، فالأشياء التي لا أملكها الأمر ينصب على أسبابها ، فالإخلاص حالة نفسية .

مثلاً : إنسان صلى وراء الإمام صلاة الفجر أربعين عاماً ، وأدرك تكبيرة الإحرام ، مرة غفل عن صلاة الفجر ، فصاح مذعوراً وقال : ماذا يقول الناس عني ؟ إذاً هو يتوجه إلى أن يكون عالياً عند الناس بهذه الصلاة .

الأستاذ أحمد :

إذاً كل عمله خلال هذه السنوات كلها كان من أجل رضا الناس عنه .

قيمة العمل الصالح تتحدد بنيته :

الدكتور راتب :

فالإنسان مشاعره أثناء أداء العمل لا يتحكم بها ، أي قد يعمل عملاً ويعلن أنه لله، لكن دون أن يشعر يظهر من فلتات لسانه ، ومن تصرفاته ، أنه يبتغي به إرضاء الناس ، لكن أحياناً قال عليه الصلاة والسلام :

((إنما الأعمال بالنيات))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن عمر بن الخطاب]

قيمة العمل الصالح تتحدد قطعاً بنيته ، أضرب مثلاً :

الأراضي في أكثر البلاد إما أن تكون مشاعاً ، أو أنها قُسمت إلى محاضر ، وإلى مقاسم ، فجاء إنسان لأحد كبار الإقطاعيين الذين يملكون أراض بآلاف الدنمات ، همس في أذنه : أرضك على المشاع ، إن أردت أن يرتفع سعرها قدم مساحة لبناء مسجد ، فتضطر البلدية أن تقسمها إلى مقاسم ، وبهذه الطريقة يرتفع ثمنها ، هو أراد أن يضاعف سعر أرضه أو أن يرفع سعرها ، فقدم هذه الأرض لبناء مسجد ، لو أن ألف إنسان سمع هذا الخبر لامتلأ إعجاباً بهذا الإنسان ، لكن الحقيقة أن هذا الإنسان لا تعنيه الصلاة لا من قريب ولا من بعيد ، بل هو لا يصلي أصلاً ، فهذا العمل مع أن ظاهره رائع ، لكن حقيقته ساقطة .

والذي ذكرته من قبل في مناسبات كثيرة : أن امرأة أحبها رجل من مكة ، فاشترطت لقبول زواجها منه أن يهاجر إلى المدينة ، فهاجر ، سماه الناس مهاجر أم قيس لأنه أراد بهذه الهجرة امرأة يتزوجها .

((إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى . فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله . ومن كانت هجرته إلى دنيا يُصِيبها ، أو امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه))

أستاذ أحمد ، أحياناً يستخدم الدين للدنيا ، فلذلك مثل هؤلاء تنطبق عليهم الآية الكريمة :

(اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً)

(سورة التوبة الآية : 9)

فالإخلاص من أهم ما في الدين ، بل لي رأي : أنه الدين كله ، لماذا ؟ لأنك إن قمت بالعبادات من دون إخلاص لا قيمة لها ، إذاً الإخلاص إذا انعدم انعدم ثواب العبادات كلها ، إذاً الإخلاص هو الدين .

الأستاذ أحمد :

حتى إنني عندما كنت أقلب الأوراق في كتب علماء التربية والأخلاق والسلوك وجدت أنهم يصدرون

هذا الباب ـ باب الإخلاص ـ قبل الحديث عن أي باب من الأبواب الأخرى من أبواب العبادات ، لأهميته ، ولأن كل ما يتبعه متعلق به ، ولكن هل في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يحضنا أيضاً على الإخلاص ، أو يمكننا أن نتمثله واقعاً ؟.

العمل الصالح مقيد بقبول الله له :

الدكتور راتب :

يقول عليه الصلاة والسلام :

((إنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ لا يقْبَلُ منَ العَمَلِ إلاَّ ما كان له خالصا ، وَابتُغِيَ به وجْهُهُ))

[أخرجه النسائي عن أبي أمامة الباهلي]

ولعل الآية الكريمة :

(وَأنْ أعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ)

(سورة النمل الآية : 19)

بالمناسبة : الصفة قيد ،

(أَنْ أعْمَلَ صَالِحاً)

مطلقة ، لكن

(تَرْضَاهُ)

العمل الصالح مقيد بقبول الله له ، من هنا قال الفُضيل رحمه الله : "إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وصواباً ، خالصاً ما ابتغي به وجه الله ، وصواباً ما وافق السنة ".

الأستاذ أحمد :

وكذلك رأيت الفُضيل يقول : " ترك العمل من أجل الناس رياء ، والعمل من أجل الناس شرك ، والإخلاص أن يعافيك الله منهما ، من الرياء ومن الشرك ".

الدكتور راتب :

أحياناً الشيطان يأتي على الإنسان بشبهة أنك إذا صليت الآن صلاة نافلة أمام الناس لعلك تريد بهذا أن تنتزع إعجابهم ، دعك من الصلاة ، فكلما نهاك الشيطان عن عمل صالح خوف أن يظن الناس أنك ترائي ، هذا ترك العمل أيضاً مراءاة ، وحينما تقوم بعمل تبتغي غير الله هو شرك ، فالإخلاص أن تكون بعيداً عن كل أنواع الرياء ، وعن كل أنواع الشرك .

الأستاذ أحمد :

ذكرتني عندما ذكرت قول هؤلاء الأئمة ، فالإمام الجنيد له قول يقول فيه : " الإخلاص سرّ بين الله

وبين العبد لا يعلمه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده ، ولا هوىً فيميله" عبارات جميلة لكنها تحتاج إلى شرح .

سرّ نجاح الإنسان وتوفيقه وقبول عمله هو الإخلاص :

الدكتور راتب :

الحقيقة الذي بينك وبين الله وحده هو الإخلاص ، الصلاة بينك وبين الله ، وبينك وبين العباد ، أنت حينما تقوم لتصلي رآك الناس صليت ، إذاً هناك مكاسب من هذه الصلاة ، معظم الأعمال والعبادات تقوم بها أمام الناس ، أما الشيء الذي بينك وبين الله وحده ، ولا أحد يطلع عليه حتى ولا الملك ، هذا هو الإخلاص ، معنى هذا أن سرّ نجاح الإنسان ، وتوفيقه ، وسرّ قبول عمله هو الإخلاص .

بل إن العلماء وقعوا في حيرة من حديث ، أن امرأة بغياً رأت كلباً يأكل الثرى من العطش ، فسقته فغفر الله لها ، أيعقل أن امرأة بغياً ، من أجل سقيا كلب يغفر الله لها ؟ ! تحليل العلماء : أنها كانت في الصحراء ، ولا أحد يراها ، ولا تبتغي إرضاء إنسان إطلاقاً أو الدعاية لها ، هذا العمل يكاد يكون إخلاصه تاماً .

لذلك العمل بإخلاصه ، بالمناسبة : مع الإخلاص ينفعك كثير العمل وقليله ، بينما من دون إخلاص لا ينفعك لا كثيره ، ولا قليله ، بل إن الموازنة بين عمل صغير مع الإخلاص أفضل ألف مرة من عمل بلا إخلاص ، وقد ورد في بعض الأحاديث أنه :

((يؤتى برجال يوم القيامة ، لهم أعمال كجبال تهامة يجعلها الله هباءاً منثوراً قيل : يا رسول الله جلهم لنا ؟ فقال : إنهم يصلون كما تصلون ، ويأخذون من الليل كما تأخذون ، ولكنهم إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها))

[سنن ابن ماجه عن ثوبان]

الأستاذ أحمد :

إذاً العمل كان من صلاة وقيام لأجل الناس .

الإخلاص هو السّر بين الإنسان و ربه :

الدكتور راتب :

الآن :

((ركعتان من ورع ـ مخلص ـ خير من ألف ركعة من مخلط))

[الجامع الصغير عن أنس]

((من لم يكن له ورع يحجزه عن معصية اللّه إذا خلا بها لم يعبأ اللّه بسائر عمله شيئاً))

[رواه الديلمي عن أنس]

فالإخلاص هو الأساس في الدين ، بل هو الدين كله ، بل هو عبادة القلب ، بل هو السر الذي بينك وبين الله .

الأستاذ أحمد :

وما هي المحصلة المرجوة من الإخلاص إن تمت ؟ .

مؤشرات الإخلاص :

الدكتور راتب :

قبل المحصلة هناك نقطة دقيقة جداً : أنا كيف أقنع نفسي أنني مخلص ؟ سؤال دقيق ، هل هناك أدلة ، هل هناك مؤشرات في الإخلاص ؟ العلماء اجتهدوا ، بعضهم قال : من مؤشرات الإخلاص أن العمل يستوي في سرك أو في جهرك ، في خلوتك أو في جلوتك، في بيتك أو أمام الناس ، إذا استوى العمل في سرك أو في جهرك ، في خلوتك أو في جلوتك، في بيتك أو أمام الناس فهذا أحد مؤشرات الإخلاص .

هناك مؤشر ثان : أنك عملت عملاً صالحاً ، إذا كان هذا العمل يزداد بالمديح ويقل بالذم هنالك إشكالية في الإخلاص ، أما إذا لم يتأثر العمل لا بمديح الناس ، ولا بثنائهم ، ولا بذمهم وانتقادهم ، هذا مؤشر آخر أنه الإخلاص .

لكن المؤشر الثالث مهم جداً : الناس يتداولون كلمة ثواب ، والثواب مصدر من فعل ثاب ، وثاب إلى رشده أي رجع إلى رشده ، أنا أتصور ـ وأرجو أن أكون مصيباً ـ أن الإنسان حينما يرفع عملاً خالصاً لله هذا العمل يُرفع إلى الله مكسواً بالإخلاص ، لابسه الإخلاص ، الله عز وجل يكافئ العبد على إخلاصه بمكافأة لا تقدر بثمن ، في الدنيا قبل الآخرة ، يعيد عليه سكينة تملأ قلبه سعادة ، هذه السكينة يسعد بها ولو فقد كل شيء ، ويشقى بقدها ولو ملك كل شيء .

من أدق الملاحظات : أن إنساناً يجلس في غرفة قميئة ، لكنه مخلص ومتصل بالله هو أسعد الناس ، وقد يجلس ببيت بمئة مليون ، فيه كل وسائل الراحة لكنه منقطع عن الله ، فهذا البيت يبدو جحيماً .

فهذه السكينة تسعد بها ولو فقدت كل شيء ، وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء ، هذه السكينة وجدها النبي الكريم في غار ثور ، وهو ملاحق ، ومهدور الدم ، وجدها يونس في بطن الحوت ، وجدها إبراهيم في النار ، وقد يفقد المؤمن أحياناً حريته ، يجدها بين أربعة جدران .

الأستاذ أحمد :

ولذلك قالوا : العبد حر ولو كبل بالقيود ، والحر عبد ولو خفقت له البنود .

الإخلاص يرفع عمل الإنسان إلى الله والله يكافئه بالسكينة :

الدكتور راتب :

شيء آخر : بعض العلماء يقول : ماذا يفعل أعدائي بي ؟ بستاني في صدري إخلاصه جعل صدره بستاناً ، إن أبعدوني فإبعادي سياحة ، وإن حبسوني فحبسي خلوة مع الله، وإن قتلوني فقتلي شهادة . الإخلاص يجعل المؤمن في جنة ، لذلك يقول بعض العلماء : "في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة "، الله عز وجل يؤكد هذا المعنى فيقول :

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ)

(سورة محمد)

ذاقوا طعمها في الدنيا ، الإخلاص يرفع عملك إلى الله ، والله عز وجل يكافئك قبل يوم الحساب بمكافأة لا تقدر بثمن بما يسمى بالسكينة ، تتنزل على قبلك السكينة فتسعد بها ولو فقدت كل شيء ، وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء .

الأستاذ أحمد :

المؤمن يقوم ببعض العبادات ، والمنافق ربما أيضاً يقوم بما يظنه الناس أنه عبادة لكنه غير مخلص ، ما الرابط بين هذا وذاك ؟.

عبادات المنافق سيئات و عادات المؤمن عبادات :

الدكتور راتب :

أستاذ أحمد ، الشيء الرائع جداً أن المؤمن عباداته طاعات وقربات ، شيء مفروغ منه ، أما أعماله ، حرفته ، كسب رزقه ، زواجه ، عنايته بهندامه ، أخذ أهله إلى نزهة ، هذه أشياء عادية يفعلها كل الناس ، كل الناس يأكلون ، ويشربون ، ويتزوجون ، ويشترون البيوت ، ويؤسسونها ، ويعملون ، ويتنزهون أحياناً ، ويسمرون ، المؤمن لأنه عرف الله وأخلص له تنقلب عاداته إلى عبادات ، بينما المنافق يصلي من أجل أن يبتز أموال الناس ، من أجل أن يثقوا به ، لذلك عبادات المنافق سيئات ، بينما عادات المؤمن عبادات .

أما كتنويه دقيق : حرفة المؤمن ، مهنته ، وسيلة كسب رزقه ، إذا كانت في الأصل مشروعة ، تجارة مشروعة ، وظيفة مشروعة ، تعليم ، حرفة المؤمن إذا كانت في الأصل مشروعة ، وسلك بها الطرق

المشروعة ، وابتغى بها كفاية نفسه ، وكفاية أهله ، وخدمة المسلمين ، ولم تشغله عن واجب ، ولا عن فرض ، ولا عن عمل صالح ، ولا عن طلب علم ، انقلبت حرفته إلى عبادة ، شيء رائع جداً ، وأنت في عملك في عبادة ، وأنت في مكتبك في عبادة ، وأنت في حقلك في عبادة ، وأنت في عيادتك في عبادة ، المؤمن عاداته عبادات ، والمنافق عباداته سيئات .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - موسوعة الأخلاق الإسلامية - الدرس (16-28) : خلق الحرية
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-02-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ أحمد :

دكتور موضوع حلقاتنا اليوم عن أحد مقومات التكليف ألا وهو الحرية ، والحرية أمر ينشده الناس جميعاً ، بل وينشده حتى غير الإنسان من المخلوقات كالحيوانات على سبيل المثال ، إذاً الحرية أمر عظيم ، نتمنى أن نصحبك وتصحبنا اليوم في ظلال هذا المعنى الكريم .

الله عز وجل لا يريد من الإنسان إلا أن يأتيه بدافع من الحب لأن الله يحب عباده :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

أستاذ أحمد بادئ ذي بدء : لو أن الله سبحانه وتعالى أراد أن نكون جميعاً مؤمنين لكان ذلك ، ولكن الله لا يريد إلا أن نأتيه بمبادرة منا ، إلا أن نأتيه طائعين ، لذلك قالوا في تعريف العبادة : العبادة طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية ، أي أن الله لا يريد من الإنسان إلا أن يأتيه بدافع من الحب ، لأن الله يحب عباده ، قال تعالى :

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

(سورة المائدة الآية : 45)

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

(سورة البقرة الآية : 256)

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً)

(سورة يونس الآية : 99)

ولكن الله أراد أن يكون الإنسان مخيراً .

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف الآية : 29)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

(سورة الإنسان)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة الآية : 148)

العمل الصالح الذي هو ثمن الجنة لا قيمة له إطلاقاً إن لم يكن الإنسان حراً في فعله :

نصوص القرآن الكريم تؤكد أن الإنسان يتمتع بحرية من أجل شيء واحد ، هذا الشيء هو أن عمله الصالح الذي هو ثمن الجنة لا قيمة له إطلاقاً إن لم يكن حراً في فعله .



إذاً قيمة العمل أن يكون فاعله حراً ، أما إذا أجبر لا قيمة لهذا العمل ، بمعنى آخر : العمل لا يثمن إلا إذا انطلق صاحبه من حرية في أن يفعله أو لا يفعله ، على حيز الواقع أنت حر تصلي أو لا تصلي ، تصدق أو لا تصدق ، تنصف أو لا تنصف ، تحب أو لا تحب ، ترحم أو لا ترحم ، تذهب إلى المسجد أو إلى الملهى ، أنت حر ، لولا هذه الحرية لما كان هناك عمل صالح إطلاقاً .

بمعنى أن الله لو أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب ، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب ، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة ، إن الله أمر عباده تخييراً ونهاهم تحذيراً ، وكلف يسيراً ولم يكلف عسيراً ، وأعطى على القليل كثيراً .

إذاً لولا الحرية لما كان من قيمة للعمل الصالح الذي هو ثمن الجنة ، فالله عز وجل خلقنا أحراراً ، من هنا الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ يقول :

" ركب الملك من عقل بلا شهوة ، وركب الحيوان من شهوة بلا عقل ـ الملك مسير ، والحيوان مسير ـ وركب الإنسان من كليهما ـ لكنه مخير ـ فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة ، وإن سمت شهوته على علقه أصبح دون الحيوان " .

الأستاذ أحمد :

هذا الكلام يذكرنا بالحديث القدسي الذي يقول فيه ربنا جلّ في علاه :

((يا عبادي إني حَرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي ، وجعلتُه بينكم محرَّماً ، فلا تَظالموا))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذرالغفاري]

أمرنا الله عز وجل بألا نتظالم ، وبألا يقيد بعضنا حرية الآخرين ، وهو مع أنه إله ، ويجوز له أن يظلم، ومع ذلك لا يأتينا من الله إلا الخير ، فما معنى قول الله عز وجل

((إني حَرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي ، وجعلتُه بينكم محرَّما ، فلا تَظالموا))

الله عز وجل لا يُسأل عما يفعل أصلاً ومع ذلك ألزم نفسه بالعدل و الرحمة :

الدكتور راتب :

بادئ ذي بدء : أين ما وردت كلمة على مع الذات الإلهية فمعناها الإلزام الذاتي .

(إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

(سورة النحل الآية : 9)

الرزق على الله ، حيث ما جاءت على إلى جانب لفظ الجلالة معنى ذلك أن الله ألزم نفسه بالعدل ، ألزم نفسه بالرحمة .

(كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)

(سورة الأنعام الآية : 54)

إذاً الله عز وجل لا يُسأل عما يفعل أصلاً ، ومع ذلك ألزم نفسه بالعدل .

((يا عبادي إني حَرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي ، وجعلتُه بينكم محرَّماً ، فلا تَظالموا))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري]

في ثنيات الحديث القدسي الصحيح :

((لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وإنْسَكم وجِنَّكم ، كانوا على أتْقَى قلب رجل واحدِ منكم ما زاد ذلك في مُلْكي شيئاً ، يا عبادي ، لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم ، وإنسَكم وجِنَّكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي ، لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم ، وإنسَكم وجِنَّكم ، قاموا في صعيد واحد ، فسألوني ، فأعطيتُ كُلَّ إنسان مسألتَهُ ما نقص ذلك في ملكي إلا كما يَنْقُص المِخْيَطُ إذا أُدخِلَ البحرَ ، ذلك لأن عطائي كلام وأخذي كلام ، فمن وَجَدَ خيراً فليَحْمَدِ الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي ذر الغفاري]

الله عز وجل شاءت مشيئته ، واقتضت حكمته أن نكون أحراراً ،

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

ولولا الحرية لما كان هناك ثواب ، ولا عقاب ، ولا مسؤولية ، ولا جنة ، ولا نار ، ولا تكليف ، ولا أمانة، و لأصبحت الحياة تمثيلية سمجة .

عقيدة الجبر هي وراء حالة المسلمين الذين توهموا أنه لا حول لهم ولا قوة :



ما من عقيدة فاسدة أحبطت أعمال المسلمين، وجعلتهم في المؤخرة من عقيدة الجبر ، التي يتوهم أصحابها أن كل شيء كُتب على الإنسان قبل أن يولد دون أن يكون متسبباً بهذا الذي كتب عليه ، أي ألقاه في اليم مكتوفاً ، وقال له : إياك إياك أن تبتل بالماء.

هناك أدعية تلقى في بعض المناسبات ليس لها أصل إطلاقاً ، إن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب شقياً محروماً ، هذا الدعاء لا أصل له ، ولم يرد عن النبي عليه الصلاة والسلام ، يجب أن نؤمن أن الإنسان حر ، والآيات كثيرة جداً وتؤكد هذا .

الأستاذ أحمد :

وكما قال العلماء ـ علماء العقيدة ـ : بأن علم الله علم كاشف وليس مؤثراً ، علم الله في الأزل .

الدكتور راتب :

علم كشف لا علم جبر .

الأستاذ أحمد :

أستاذي الكريم ، مقولتكم من عمل يُثمن بالحرية ، يستدعي سؤالاً آخر هل إذا سلبت الحرية لم يعد هناك داعٍ أن يكون هناك جنة ونار ؟.

الحرية تُثمن العمل :

الدكتور راتب :

طبعاً ، الإمام الحسن رضي الله عنه يقول : "لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب ، لو أجبر عباده على المعصية لبطل العقاب ، لو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة ، إن الله أمر عباده تخييراً ،

ونهاهم تحذيراً ، وكلف يسيراً ، ولم يكلف عسيراً ، وأعطى على القليل كثيراً " ـ لولا الحرية لما ثُمن عمل الإنسان ـ .

الأستاذ أحمد :

هذا يستدعي فضيلة الأستاذ أن نتساءل سؤالاً جديداً ، كثيرة هي المقولات والأحاديث التي يطلقها بعض الناس بأنهم أحرار ، وبما أنهم أحرار يجوز لهم أن يفعلوا ما يشاؤون ، وأن يأكلوا ما يريدون ، وأن يلبسون ما يستذوقون ، فهل الحرية مطلقة أم أنها مقيدة ؟.

الإنسان بدافع من حبّه لذاته ينبغي أن يقيد نفسه بمنهج الله عز وجل :



الدكتور راتب :

الحقيقة الحرية مقيدة ، مقيدة بمنهج الله عز وجل ، الإنسان أرسل لهذه الدنيا ، أعطي منهجاً ، أعطي حرية ، فإما أن يختار اتباع المنهج ، وإما أن يختار التفلت من هذا المنهج ، أي الخلق كلهم على اختلاف مللهم ، ونحلهم ، وانتماءاتهم ، وأعراقهم ، وأنسابهم ، وطوائفهم ، ومذاهبهم نموذجان ، نموذج عرف الله فانضبط بمنهجه ، وأحسن إلى خلقه ، فسلم وسعد في الدنيا والآخرة ، نموذج آخر تفلت من منهج الله ، لأنه غفل عنه ، وأساء إلى خلقه فشقي في الدنيا والآخرة ، فالحرية تثمن العمل .

والإنسان إذا تصورناه حراً حرية مطلقة هو في الحقيقة دابة متفلتة ، هذه كلمة تليق به ، لأنه يبني مجده على أنقاض الآخرين ، يبني غناه على فقرهم ، يبني عزه على ذلهم، يبني أمنه على خوفهم ، يبني حياته على موتهم ، الضوابط في تطبيق منهج الله عز وجل ، والإنسان أعقد آلة في الكون ، ولأنه آلة بالغة التعقيد له صانع عظيم ، ولهذا الصانع العظيم تعليمات التشغيل والصيانة ، فلمجرد أن يطبق منهج الله سلم وسعد ، ذلك لأن كل إنسان جُبل على حبّ وجوده ، وعلى حبّ سلامة وجوده ، وعلى حبّ استمرار وجوده ، وجوده ، وسلامة وجوده ، وكمال وجوده ، واستمرار وجوده منوط بتطبيق تعليمات الصانع ، فأنت بدافع من حبك لذاتك ينبغي أن تقيد نفسك بمنهج الله عز وجل .

دعك من هذا ، أحياناً نشتري آلة غالية جداً ، هناك أجهزة بمئات الملايين ، ومعها تعليمات دقيقة ، حرصاً مني على سلامة الجهاز ، وعلى حسن مردوده ، لأنه عظيم النفع ، وهناك كمبيوترات للتحليل الطبي ، يوضع عليها نقطة دم بكبسة زر تعطي ثمانية و ثلاثين تحليلاً ، إذا كان أجرة كل تحليل مبلغاً كبيراً ، معنى هذا أن الجهاز له أرباح طائلة ، تصور أن شركة أرسلت هذا الجهاز ، ولم ترسل خطأ تعليمات التشغيل ، موقف صاحب الجهاز إن شغله من دون تعليمات أفسده ، وإن تركه خوفاً عليه جمد ثمنه ، أليست التعليمات أثمن من الجهاز ؟ .

وجود الإنسان كله لا معنى له من دون منهج يسير عليه :

لذلك قال تعالى :

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

(سورة الرحمن)

أيعقل أن يعلم الإنسان القرآن قبل أن يُخلق ؟

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ)

العلماء قالوا : هذا الترتيب ليس ترتيباً زمنياً ، هو ترتيب رتبي ، بمعنى أن وجود الإنسان كله لا معنى له من دون منهج يسير عليه ، فالمنهج مقدم ، الإنسان الحضاري معه منهج، بلا منهج دابة متفلتة مفهوم الحرية بلا ضوابط مفهوم ساذج ، مفهوم غبي ، مفهوم يحرص عليه الإباحيون والمتفلتون ، أما الحرية قيمة علمية وأخلاقية ، تنتهي حريتي ـ عندهم يقولون ـ حينما تبدأ حرية الآخرين ، لكن تنتهي حريتي عند حدود الشرع ، بالضبط .

تمشي أنت في حقل ، رأيت لوحة كتب عليها حقل ألغام ، تقف ، هذه اللوحة هل تعدها حداً لحريتك أم ضماناً لسلامتك ؟ هذا هو الفقه ، حينما أتيقن أن كل حدود الله ضمان لسلامتي أنا عندئذٍ فقيه ، ضمان لسلامتي وليست حداً لحريتي .

مرة قلت وأقول دائماً : ليس في الإسلام حرمان ، الإسلام فيه نظام ، فيه قيود إيجابية لصالح المجموع، فلذلك الحرية تثمن العمل ، ولكنها في الإسلام مأخوذة من منهج الله عز وجل .

في بلاد متفلتة الإنسان يفعل ما يشاء ، لكن قد يسهم في إفساد البشر ، كيف أن الآن في الإنترنيت ما يزيد عن ثلاثة و عشرين مليون موقعاً إباحياً ، هذه الحرية ، أما إذا كان هناك انضباطاً بمنهج خالق الأرض والسماوات فسنصون بهذا الانضباط أخلاق أولادنا .

الأستاذ أحمد :

لذلك قال البعض : الحرية المطلقة ليست موجودة ، ولا بد أن تتعارض مع الحرية الشخصية ، أو الاجتماعية ، أو الربانية ، الشخصية حتى على ذاته ، على نفسه ، على سبيل المثال لا يمكن أن يسمح الإسلام لشخص بأن ينتحر تحت حجة أنه حر ، هذه حرية شخصية ، أما الحرية الاجتماعية كما تفضلتم لا يسمح لهذا الشخص بإيذاء الآخرين تحت حجة أنه حر ، وأما الحرية الربانية فلا يسمح لشخص بأن يتعدى حدوده مع من منحه هذه الحرية ، الناس السذج يقولون : بما أنها حرية وهي قيّمة لا بد من أن تكون مطلقة ، فهل من مثال علمي واقعي ملموس يرد على هؤلاء ؟.

عدم استقامة الحياة إلا بمنهج إلهي :

الدكتور راتب :

بارك الله بك ، هناك نقطة مهمة جداً ، أنا كإنسان حينما أضع حداً أقيد فيه الناس أنا إنسان مثلهم ، وقد تكون هذه التعليمات لصالحي ، لذلك هناك من يعارضني ، لذلك واضع القانون إنسان له عقل ، والإنسان الذي يطبق عليه القانون إنسان له عقل ، وقد يكون الذي يطبق عليه القانون أذكى من واضع القانون ، إذاً يحتال ، هذه قضية واضحة جداً هي حرب بين عقلين .

اخترعنا جهازاً لكشف السرعات الزائدة ، وضعناه على الطرقات العامة ، هناك إنسان يخترع جهازاً لكشف هذه الأجهزة قبل وقت معين ، إذاً أبطل الإنسان الذي سيطبق عليه القانون قيمة هذه الأجهزة ، نحن في متاهة اختراع يقابل اختراعاً .

أما حينما يكون واضع المنهج خالق الإنسان الوضع اختلف ، الإنسان لا يقبل أن يأتي إنسان مثله ثم يقيده بقيود ، أما إذا جاء القيد من عند خالق السماوات والأرض ، من عند الخبير مقبول عند الجميع ، الحياة لا تستقيم إلا بمنهج إلهي .

الأستاذ أحمد :

ومن ذلك قول الله عز وجل لسيدنا آدم وحواء عندما قال له :

(وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ)

(سورة البقرة الآية : 35)

بالبداية قال :

(حَيْثُ شِئْتُمَا)

ثم قال :

(وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ)

مما يدل على أن الحرية ليست مطلقة .

الدكتور راتب :

وفي هذه الآية ملمح لطيف آخر أنه :

(وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا)

الأشياء المباحة بالألوف ، بالملايين

(وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ)

أي كم شراب مسموح به ؟ بالمئات ، هناك خمسمئة شراب ، ممنوع الخمر فقط ،

(وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ)

هذا ملمح آخر .

الأستاذ أحمد :

السؤال الآن يطرح نفسه أستاذنا ، أن الإنسان والجن هما وحدهما أعطيا الحرية ، وغيرهما من المخلوقات لم يعط هذه الحرية ، ما المحكمة من ذلك ؟.

الحكمة من أن الجن و الإنس وحدهما أعطيا حرية الاختيار :

الدكتور راتب :هذه آية كريمة يقول الله فيها :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب الآية : 72)

في عالم الأزل ، عالم الذر لا عالم الصور ، كل الخلائق خلقت دفعة واحدة وعرضت عليها الأمانة ، فبقية المخلوقات أحجموا عن قبولها ،

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

أي الحيوانات اختارت الشهوة من دون مسؤولية ، والملائكة اختارت العقل من دون مسؤولية ، فلا الحيوان مكلف ، ولا الملك مكلف ، لذلك هي كائنات مسيرة ، لكن الإنسان كان طموحاً جداً

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ)

منْ منَ المخلوقات تكون نفسه أمانة بين يديه ؟ قال تعالى :

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

(سورة الشمس)

فهذه الأمانة التي يأخذها بحقها يستحق عليها جنة الأبد ، يستحق جنة عرضها السماوات والأرض ،

(فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

من هو الإنسان؟ هو مخلوق ، أودعت فيه الشهوات ، قُدم له الكون كأكبر ثابت لمعرفة الله ، أودعت فيه الشهوات ، مُنح فطرة تكشف له خطأه ، أعطي منهجاً ، أعطي حرية ، لذلك الإنسان مخير ، والجن كذلك ، بينما بقية المخلوقات ليست مخيرة .

فالإنسان أمام خيارين إما أن يفوق الملائكة ، أو أن يهوي إلى أسفل سافلين .

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)

(سورة البينة)

أي بالإيمان ، والعقل ، والفطرة ، ومعرفة الله ، يرقى الإنسان إلى فوق جميع الكائنات ، وبترك منهج الله يهوي إلى أسفل سافلين .

الأستاذ أحمد :

يسأل الناس فيقولون : هل الإنسان مخير أم مسير ؟ أنتم تقولون أنه مخير والبعض يرى أنه مسير ؟ .

الإنسان مسير فيما لم يكلف به ومخير فيما كلف به :

الدكتور راتب :



هو في الحقيقة مسير ومخير ، مسير في كونه ذكراً أو أنثى ، من منا اختار جنسه ؟ مسير في أمه وأبيه، مسير في بلدته ، ومكان ولادته ، مسير في زمان ولادته ، مسير في إمكاناته ، هناك إنسان قوي، إنسان وسيم ، إنسان ضعيف ، إنسان متألق الفكر ، وهناك قدرات عامة ، وقدرات خاصة ، وهناك مكان ولادة ، و زمان ولادة ، و هناك أب ، و كون الإنسان ذكر أو أنثى ، هذه من التي سُير فيها .

لكن هذا الذي سير فيه الإنسان قولاً واحداً لصالحه ، ليس في الإمكان أبدع مما كان ، هذا قاله بعض العلماء ، ليس في الإمكان ، فلما شرحه قال : ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني ، أي أنسب جنس ـ ذكر أو أنثى ـ أنسب أم ، أنسب أب ، أنسب مكان ولادة ، أنسب زمان ولادة الذي كان فيه الإنسان ، فهذا الجانب التسييري ، بعد أن حدد الله له جنسه ، وأمه ، وأباه ، ومكان ولادته ، وزمان ولادته ، جعله مخيراً فيما كلف ، كلفه بالإيمان ، كلفه بالأركان ، كلفه بالصدق ، بالأمانة ، بالعفة ، بالاستقامة ، كلفه بأداء العبادات ، أنت مخير فيما كلفت ، والواقع يؤكد ذلك ، أنا أصلي أو لا أصلي ، أصدق أو لا أصدق ، أكذب أو لا أكذب ، أنا مخير ،

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

الفلاح كل الفلاح في طاعة الله ، والشقاء كل الشقاء في معصيته ، فالإنسان مسير فيما لم يكلف به ، ومخير فيما كلف به ، هذا الصواب .

الإضلال إذا عُزي إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري :

لكن هناك نقطة دقيقة جداً : الإنسان مخير لو أنه اختار شيئاً يشقيه ، الله عز وجل رب العالمين ، ماذا يفعل ؟ يسوق له شدة لعله يتوب ، في وقت الشدة يؤخذ اختياره ، إذا أراد ربك إنفاذ أمر أخذ من كل ذي لبّ لبه ، أي إنسان أحياناً يتخذ قراراً بغش الناس ، هو تاجر هذا قراره ، هذا اختياره ، لو أن الله تركه وتابع هذا الغش إلى أن وافته المنية استحق عذاباً أبدياً ، لكن الله رب العالمين ، الآن يتورط هذا الإنسان بعمل دون أن يشعر يأتيه العقاب كعلاج لاختياره السيئ ، فالإنسان مخير ، أما تقتضي حكمة الله أن يأخذ منه اختياره ليؤدبه ، فإذا أدبه وتاب عاد إلى الجادة الصحيحة .

إذاً الإنسان مخير ، ومسير ، مسير فيما لم يكلف ، ومخير فيما كلف ، لكن هناك آيات كثيرة يتوهم فيها الإنسان أنه مسير :

(يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة النور الآية : 46)

هذه المشيئة مشيئة العبد أحياناً ، من شاء الهداية يهديه الله عز وجل ، وأحياناً :

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ)

(سورة فاطر الآية : 8)

إذا عزي الإضلال إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري ، يؤكده قوله تعالى :

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف الآية : 5)

بمعنى أن الطالب لم يداوم ، ولم يؤدِ امتحاناً ، ولم يقتن كتاباً ، ولم يلتق بالمدرس ، فأرسل له إنذار ، وثان ، وثالث ، أصرّ على ترك الجامعة ، صدر قراراً بترقيم قيده ، هل هذا القرار فيه قهر ؟ لا ، هو تجسيد لرغبته ،

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

الأصل أن الإنسان مخير .

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آَبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام)

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - موسوعة الأخلاق الإسلامية - الدرس (17-28) : خلق التوكل على الله
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-02-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ أحمد :

سيدي الكريم نتمنى لو نعرج اليوم على خلق جديد ألا وهو خلق التوكل على الله عز وجل ، وإن أول ما يستوقفنا في حديثنا اليوم قول الله عز وجل :

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)

(سورة الطلاق)

قوله تعالى :

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)

فيها إشارة إلى معية عظيمة من الله عز وجل ، فهل للتوكل هذه القيمة الثمينة ؟ حبذا لو عرفت لنا التوكل ، وشرحت لنا عنه.

تعريف التوكل :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

أستاذ أحمد ، بادئ ذي بدء : من تعريفات التوكل أنه : صدق القلب بالاعتماد على الله في جلب المنافع، ودفع المكاره ، حسن الظن بالله ، الثقة بما عند الله ، واليأس مما في أيدي الناس ، هذه بعض تعريفات التوكل .

ولكن ما من خلق من أخلاق المؤمن أسيء فهمه من معظم المسلمين كما أسيء فهم التوكل ، لأن التوكل محله القلب ، والأخذ بالأسباب من صفات الجوارح ، فإذا أصبح التوكل منوطاً بالجوارح ، والتواكل أصبح محله القلب ، فقد وقعنا في خطر كبير .

من أراد أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله :

لذلك حينما قال الله عز وجل :

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)

بمعنى :

(وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً)

(سورة النساء الآية : 81)

أي إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

(سورة طه)

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

(سورة الشعراء)

سيدنا يونس وهو في بطن الحوت ، والأمل بمنظور الناس في النجاة معدوم .

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله ، الله عز وجل القوي ، الغني ، الحكيم ، العليم ، يستجيب لك .

من أخذ بمنهج الله عز وجل فهو في رعايته و تأييده :

لكن في قوله تعالى كما تفضلت

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)

هذه الآية يمكن أن تكون في سياقها متعلقة بالطلاق ، بمعنى أنه من يتق الله في تطليق امرأته ، فيطلقها طلاقاً سنياً لا بدعياً

(يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)

في إرجاعها ، أما لو نزعنا هذه الآية من سياقها أصبحت قانوناً ،

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ)

في كسب ماله يجعل الله له مخرجاً من تلف ماله

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ)

في تربية أولاده يجعل الله له مخرجاً من عقوقهم ،

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ)

في اختيار زوجته يجعل الله له مخرجاً من الشقاء الزوجي ،

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ)

فيوحده يجعل الله له مخرجاً من الشرك الجلي أو الخفي ، يمكن أن تكتب حول هذه الآية مجلدات ، أي ما دمت تأخذ بمنهج الله فأنت في رعاية الله ، وفي مظلة الله ، وفي حفظ الله ، وفي تأييد الله .

الله سبحانه وتعالى خلق كل شيء وفق نظام السببية كي تنتظم الحياة :

لكن لا بد من التنويه إلى أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون وفق نظام السببية ، جعل لكل شيء سبباً ، وأودع فينا عقلاً أساسه نظام السببية ، فعقلنا لا يفهم شيئاً إلا بالسبب .

أنت لا تصدق أنك إذا أغلقت أبواب البيت ، وأطفأت الكهرباء ، وسافرت ، وليس أحد معه مفتاحاً إلا أنت ، رجعت إلى البيت فإذا فيه ضوء متألق ، لا يمكن أن تقبل إلا أن أحداً دخل إلى البيت .

الإنسان في أصل تفكيره لا يقبل شيئاً من دون سبب ، والكون في أصل تنظيمه لكل شيء سبب ، لكن أحياناً يتوهم الإنسان أن السبب وحده خالق النتيجة ، السبب يترافق مع النتيجة ، أو يأتي قبل النتيجة ، ولكن خالق النتيجة هو الله ، لماذا النظام ؟ لماذا السببية ؟ كي تنتظم الحياة ، هناك قوانين ، هناك علاقة ثابتة ، حينما تنتظم الحياة وفق مبدأ السببية تصبح الحياة مقبولة ومعقولة .

من أخذ بالأسباب واعتمد عليها وقع في الشرك ومن لم يأخذ بها وقع في المعصية :

لكن هؤلاء الذين توهموا أن الأسباب تخلق النتائج استغنوا عن الله ، هؤلاء يؤدبون إما بإلغاء الأسباب تأتي النتيجة بلا سبب ، مثالها : سيدنا عيسى خلق من دون أب، أو تعطل الأسباب ، شاب وشابة في ريعان الشباب لا ينجبان ، الأسباب موجودة والنتائج مفقودة ، أو الأسباب غير موجودة والنتائج موجودة ، هذا من أجل لفت النظر إلى أن الله هو الفعال ، لذلك من أخذ بالأسباب واعتمد عليها وقع في الشرك ، وهذا شأن العالم الغربي ، ومن لم يأخذ بها وقع في المعصية وهذا شأن الأمم التي لم تتعمق في دينها .

الأستاذ أحمد :

ذكرت كلمة دكتور ، لمثلين واضحين صريحين ، بل صارخين لتعطيل الله عز وجل للأسباب ، أولهما إلقاء سيدنا إبراهيم في النار وكلنا يعلم أن النار تحرق ، وملموس هذا الأمر ، لكنها في يومها من قول

الله عز وجل :

(بَرْداً وَسَلَاماً)

(سورة الأنبياء الآية : 69)

لم تحرق سيدنا إبراهيم ، والمثال الثاني أيضاً السكين التي لم تذبح بيد سيدنا إبراهيم ، وأيضاً هنا عطل الله عز وجل الأسباب .

على الإنسان أن يأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ثم يتوكل على الله وكأنها ليست بشيء :

الدكتور راتب :

سيدنا إبراهيم حينما قال الله عز وجل :

(يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

(سورة الأنبياء)

لو أن الآية كوني برداً لمات من شدة البرد ، قال

(وَسَلَاماً)

ولو أن الله عز وجل قال : يا نار كوني برداً وسلاماً لتعطلت النار إلى يوم القيامة ،

(عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

خصصها لهذه السورة .

فحقيقة التوكل أستاذ أحمد ، أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء ، هذه بطولة ، سهل جداً أن تأخذ بالأسباب ، وأن تعتمد عليها ، وأن تؤلهها ، وسهل جداً بسذاجة وجهل ألا تأخذ بها ، وأن تتوكل على الله .

الأستاذ أحمد :

كالذين استكبروا عن عبادة الله عز وجل وقالوا : أصل الكون أن المادة تخلق نفسها ، أي استكبروا عن عبادة الله .

أحد أكبر أسباب تخلف المسلمين أنهم فهموا التوكل فهماً غير صحيح :

الدكتور راتب :

إذاً لا بد من أن تأخذ بالأسباب ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء ، مثلاً : لو أن طريقاً ضيقاً عن يمينه وادٍ سحيق ، وعن يساره وادٍ سحيق ، إن أخذت بالأسباب ، واعتمدت عليها ، وألهتها ، واستغنيت عن الله عز وجل ، وقعت في وادي الشرك ، هذا شرك، وإن لم تأخذ بها إطلاقاً ، وتوكلت على الله

بخلاف منهجه ، وقعت في وادي المعصية.

لذلك أحد أكبر أسباب تخلف المسلمين أنهم فهموا التوكل فهماً غير صحيح ، جعلوا محله الجوارح ، بينما التوكل محله القلب ، إذاً أن نأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء وأن نتوكل على الله وكأنها ليست بشيء .

هناك حديث :

((إن الله يَلُومُ على العَجْزِ))

[أخرجه أبو داود عن عوف بن مالك]

أي أن استسلم للمصيبة ، أن أقول : أنا لا أستطيع ، هذا قدري ، انتهينا ، لن تقوم لنا قائمة ، هذا الموقف الانهزامي ، الاستسلام ، التطامن ، اليأس ، القنوط ، هذا موقف غير إيماني ،

((إن الله يَلُومُ على العَجْزِ))

أن تستسلم ، أن تضعف ، أن تهون في نظر الناس .

((ولكن عليكَ بالكَيْس))

[أخرجه أبو داود عن عوف بن مالك]

الكيس ؛ أن تسعى ، أن تأخذ بالأسباب ، أن تخطط ، أن تفكر ، أن تعد إعداداً علمياً ، لذلك يفهم الناس المؤمن إنساناً ساذجاً ، متواكلاً ، المؤمن عليه أن يأخذ بالأسباب أكثر ممن شرد عن الله ، ثم يتوكل على الله ، هذا هو الأدب مع الله .

التوحيد لا يلغي المسؤولية :

لذلك :

((إن الله يَلُومُ على العَجْزِ ، ولكن عليكَ بالكَيْس ، فإذا غَلَبَك أمر ، فقل حَسبيَ الله ونعم الوكيل))

[أخرجه أبو داود عن عوف بن مالك]

حسبي الله ونعم الوكيل لا تقال إلا حينما آخذ بكل الأسباب ولا تحقق النتائج ، عندئذٍ أستسلم وأقول : حسبي الله ونعم الوكيل ، مثلاً : لو أن طالباً لم يدرس إطلاقاً فرسب فقال : حسبي الله ونعم الوكيل ، هذه مشيئة الله ، هذا كذب ودجل ، أما حينما يدرس الدراسة القصوى ، ويحول مرض بينه وبين أداء الامتحان ، هذا الموقف يقال فيه : حسبي الله ونعم الوكيل .

أما نحن نفعل الخطأ بأيدينا ، ونسبب مشكلات بأيدينا ، فإذا جاءت النتائج المؤلمة نقول : حسبنا الله ونعم الوكيل ، هذا فهم ساذج ، وفهم سقيم ، بل فهم شيطاني ، والذي أخر المسلمون أنهم فهموا القضاء والقدر فهماً معكوساً ، الله عز وجل نبهنا فقال :

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ)

(سورة النور الآية : 11)

ليس حديث الإفك شراً ، هناك حكمة بالغة ، يا ترى الذي روج هذا الحديث هل بإمكانه أن يحتج بالتوحيد ؟ تقول : أنا لم أفعل شيئاً ، هذه مشيئة الله ، قال :

(وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

(سورة النور)

معنى ذلك أن التوحيد لا يلغي المسؤولية ، المشكلة ينبغي أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ، كما يأخذ بها الشارد ، ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء ، لكن ما الذي يحصل ؟

لو أن طبيباً متفوقاً في جهاز الهضم يقع تحت تأثير وهم أنه لن يصاب بأمراض جهاز الهضم ، لأن هذه الأمراض اختصاصه ، وهو أدرى الناس بما ينبغي أن يفعل ، حينما تعتد بشيء وتنسى الخالق ، حينما تعتد بالسبب وتنسى أن الله خالق النتيجة ، أحياناً يؤدب هذا الإنسان بأن يصاب بمرض في جهازه الهضمي .

مرة طبيب في بلاد بعيدة كان يؤكد أن الجري وحده يصون القلب ، كلامه صحيح ، وكلامه علمي ، وكلامه واقعي ، وكان يجري في اليوم عشرين كيلو متراً ، وألف كتباً ، وأقام ندوات ، وكان مثلاً أعلى في الجري ، مات وهو يجري في سن مبكرة جداً ، لا لأن الجري خطأ ، أبداً ، الجري صواب ، لكنه ألّه الجري .

أي إنسان يؤله السبب يؤدب ، يجب أن تأخذ بالسبب و تتوكل على الله .

عظمة سيرة النبي أنها منهج لكل إنسان :

أستاذ أحمد ، التطرف سهل ، أي أن تكون قاسياً جداً في معاملة ابنك قضية سهلة جداً ، وأن ترخي له الحبل قضية سهلة أيضاً ، لكن البطولة أن يحتار هو يحبك بقدر ما يخافك رغباً ورهباً ، فلذلك الأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ، ثم التوكل على الله وكأنها ليست بشيء .

لذلك النبي عليه الصلاة والسلام يوم هاجر هل على وجه الأرض إنسان أحق بالنصر من رسول الله ؟ سيد الأنبياء والمرسلين ، ماذا فعل ؟ أولاً انسل خفية من مكة وتوجه نحو الساحل ، لأن المطاردة نحو الشرق ، وقبع في غار ثور ثلاثة أيام ، سيدنا علي كان مكانه في السرير ، الآن هيأ من يمحو الآثار ، هيأ من يأتيه بالأخبار ، هيأ من يأتيه بالزاد ، واختار دليلاً رجح فيه الخبرة على الولاء ، ما ترك ثغرة إلا وسدها ، ما ترك احتمالاً إلا وهيأ له جواباً ، ومع ذلك ـ هنا الدقة ـ أخذ بكل الأسباب تعبداً ، ومع ذلك اقتضت حكمة الله أن يصلوا إليه ، وصلوا إلى غار ثور ، لو كان النبي الكريم قد اعتمد على

الأسباب لانهار في هذا الموقف ، لكنه اعتمد على الله ، أخذ بالأسباب تعبداً ، لكن اعتماده على الله ، فلما قال الصديق :

((لو أن أحدهم نظر إلى قدَمَيْه أَبْصَرَنَا تحت قدميه . فقال : يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أنس بن مالك]

عظمة سيرة النبي أنها منهج .

الأستاذ أحمد :

وكان من الممكن أن ينتقل من مكة إلى المدينة مهاجراً كما أعرج به بالبراق .

أكبر سبب لتخلف المسلمين أنهم تركوا الأخذ بالأسباب وتواكلوا ولم يتوكلوا :

الدكتور راتب :

أما سيدنا عمر هاجر نهاراً جهاراً ، هذا موقف شخصي ، لو أن النبي عليه الصلاة والسلام هاجر كما هاجر عمر لعدّ اقتحام الأخطار واجباً ، ولو عدّ أخذ الحيطة حراماً لهلكت أمته من بعده ، هو مشرع ، أما سيدنا عمر ممثل نفسه ، سيدنا عمر لا شيء أمام شجاعة النبي عليه الصلاة والسلام .

إذاً نأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ، ونتوكل على الله وكأنها ليست بشيء ، سيدنا عمر رأى أناساً يتكففون الناس في الحج ، قال : من أنتم ؟ قال : نحن المتوكلون قال : كذبتم ، المتوكل من ألقى حبة في الأرض ثم توكل على الله .

سيدنا عمر رأى رجلاً أعرابياً معه جمل أجرب ، قال : يا أخا العرب ! ماذا تفعل بهذا الجمل الأجرب؟ قال : أدعو الله أن يشفيه ، قال : يا أخي ! هلا جعلت مع الدعاء قطراناً .

المسلمون حينما تركوا الأخذ بالأسباب أصبحوا في مؤخرة الأمم ، وأنا أضع يدي على جرحهم ، لعل أكبر سبب لتخلفهم أنهم تركوا الأخذ بالأسباب ، وتواكلوا ولم يتوكلوا ، وظنوا أن الله عز وجل يعطيهم وينصرهم من دون أخذ بالأسباب ، مع أن الله عز وجل يقول :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

(سورة الأنفال الآية : 60)

الأستاذ أحمد :

صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان الواحد منهم يقول : إني لأثق بما عند الله عز وجل أكثر من ثقتي مما في يدي ، مثل هذه المعاني لا أقول انمحت ، بل أقول ضعفت، قلت في زمننا ، بات المتوكلون قلة وهم ممن رحم ربي ، كيف يمكن أن نثمر وأن نكرس هذا المفهوم حتى نصل بمجموع الأمة الإسلامية إلى هذه الدرجة من اليقين ؟.

المسلمون اليوم ينتظرون معجزة من الله لانتصارهم وهذا وهم كبير إن لم يأخذوا بالأسباب :

الدكتور راتب :

الأمة الآن أو بعضها ، أو معظمها ، تنتظر معجزة من الله ، وهذا وهم كبير ، الذين انتصروا في التاريخ الإسلامي لم ينتصروا وفق معجزات ، انتصروا وفق الأخذ بالأسباب ، صلاح الدين الأيوبي حينما انتصر على الفرنجة أخذ بالأسباب ، هيأ جيلاً مؤمناً ملتزماً ، أزال كل المنكرات ، وفق منهج الله، ووفق سنن الله انتصر .

فنحن ما لم نفهم التوكل هذا الفهم الصحيح الدقيق : " يا رسول الله أعقلها أم أتوكل ؟ قال : اعقل وتوكل" .

والمسلمون حينما بلغوا أطراف الدنيا ، وحينما تألقت حضارتهم ، أخذوا بالأسباب، ونحن نعتمد على معجزة متوهمة تأتي فتنهي مشكلاتنا ، وهذا غير صحيح إطلاقاً.

الأستاذ أحمد :

قول الله عز وجل أستاذي الكريم :

(وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً)

يجعلني أسألك سؤالاً بعض الناس يقولون لآخر قصدوه بخدمة : أعتمد على الله ثم عليك ، وتأتي تبعاً ، فهل في التوكل يجوز هذا الأمر أن أقول : توكلت على الله ثم عليك ، مع أن الله يقول

(وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً)

كأن المسألة لا تقبل أبداً شريكاً ولا نداً ؟.

على الإنسان أن يعلم أن الله وحده هو الفعال وأن أمره هو النافذ :

الدكتور راتب :

هي قضية نفسية ، أنت حينما تعتقد أن الله وحده هو الفعال ، وأن أمره هو النافذ، وأنه إذا أراد شيئاً أن يقول كن فيكون ، وأنه :

((ما شاءَ اللهُ كانَ ، وما لم يشأْ لم يكن))

[أخرجه أبو داود عن بعض بنات النبي صلى الله عليه وسلم]

ثم تنطلق إلى الأخذ بالأسباب ، فتتجه إلى زيد من الناس ، تجعله سبباً ، لا تجعله فعالاً ، فإن أنت اعتقدت أنه سبب ، وأن الفعال هو الله ، وأن الله لو أراد أن يحقق هذا الهدف لألهمه أن يساعدني ، فإن اعتذر لحكمة بالغة أرادها الله ، أنت مع الله ، في إنجاز الهدف أو عدم إنجازه ، هذا شيء طبيعي ،

ومشروع ، وكما كلفنا أن نأخذ بالأسباب ، أما حينما تذهب وتعتقد اعتقاداً جازماً أن هذا الإنسان الأمر بيده ، يوافق أو لا يوافق ، هذا هو الشرك ، لذلك يقول عليه الصلاة والسلام :

((إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفي ـ أما إني لست أقول إنكم تعبدون صنماً ولا حجراً ، لكن شهوة خفية ، وأعمال لغير الله ـ))

[أخرجه البزار عن عبد الرحمن بن غنم]

والشرك أخفى من دبيب النملة السمراء ، على الصخرة الصماء ، في الليلة الظلماء ، وأدناه أن تبغض على عدل ، وأن تحب على جور .

أي إنسان نصحك بأدب ، هذا الذي نُصح أخذته العزة بالإثم ، أشرك نفسه مع الله، أبى أن ينتصح ، أو أن تحب إنساناً ظالماً ، لك منه منفعة ، أن تحب على جور ، أو أن تبغض على عدل ، هذا شرك ، الحالة الأولى أشركت نفسك مع الله ، وفي الثانية أشركت هذا الإنسان مع الله عز وجل ، لذلك :

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

الشرك الخفي :

الخطر الآن لا تجد في العالم الإسلامي من يقول : هناك إله آخر ، إطلاقاً ، أما الخطورة في الشرك الخفي ، أنت حينما تعامل إنساناً كإله أنت لا تقول : هو إله ، إطلاقاً ، تقول: إنسان صديقي ، لك صديق قوي ، وأنت في أعماق أعماقك تعتقد أن سعادتك بيده وشقاءك بيده ، إن وافق أعطاك الدنيا ، وإن رفض حرمك الدنيا ، أنت حينما تعقد الآمال عليه وتنسى الله عز وجل ، تكون قد أشركت .

لذلك في حنين ما الذي جعل أصحاب النبي وهم قمم البشر ، وفيهم سيد البشر لا ينتصرون ؟ لسبب عقائدي ، في أحد هناك سبب سلوكي ، في أحد عصوا ، فلما عصوا ، لو أنهم انتصروا لسقطت طاعة رسول الله ، أما في حنين لم يعصوا لكنهم اعتقدوا وهماً أنهم لن يغلبوا من قلة .

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

(سورة التوبة)

النبي الكريم في الهجرة أعطى أروع درس في التوكل :

موضوع التوكل من أدق الموضوعات ، أنا أرجع سبب تخلف المسلمين أحياناً إلى فهم خاطئ للتوكل ، التوكل أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ، ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء ، التوكل سعي .

النبي الكريم في الهجرة أعطى أروع درس في التوكل ، أخذ بالأسباب كلها واعتمد على الله بدليل لما وصلوا إليه قال :

((يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما))

الأستاذ أحمد :

لذلك قال الله عز وجل :

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ)

(سورة الذاريات)

وهذا يذكرنا بسيدنا عمر بن الخطاب الذي ضرب بعصاه أحد الناس ممن يتواكلون وقال له : قم فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة .

الدكتور راتب :

قبل أن نختم رجاء ، رأى النبي الكريم شاباً يعبد الله وقت العمل ، سأله من يطعمك ؟ قال : أخي ، قال: أخوك أعبد منك .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - موسوعة الأخلاق الإسلامية - الدرس (18-28) : الألفة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-02-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ أحمد:

سيدي الكريم نتمنى أن نتحدث اليوم وإياكم مع خلق من الأخلاق الإسلامية ألا وهو خلق الألفة، في مثل هذا الخلق يقول سيدنا علي ـ كرم الله وجهه ـ : "فقد الأحبة غربة" وفي هذا الباب يقول سيدنا عمر الفاروق: "لقاء الإخوان جلاء الأحزان"، ويقول الإمام جعفر الصادق: "إذا أحب الله عبداً رزقه حسن الخلق"، والسؤال الآن ما هو تعريف الألفة؟.

تعريف الألفة :

الدكتور راتب:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

تعريف الألفة الجامع المانع: اجتماع مع التئام ومحبة، اجتماع النفوس مع الالتئام والمحبة، والتوافق، والانسجام، هذا تعريف يجسد بمواقف كثيرة، فأنت حينما تتمنى أن تجلس مع إنسان وقتاً طويلاً معنى ذلك أنك تألفه، وحينما يتمنى هو أيضاً أن يبقى معك معنى ذلك أنه يألفك، وعلامة الإيمان الألفة، المؤمن يألف ويؤلف، ذلك لأن المؤمن موصول بالله، فبعد أن اتصل بالله اشتق منه الكمال، فالمؤمن متواضع، المؤمن منصف، المؤمن رحيم، المؤمن يقول الحق ولا يكذب، هذه الصفات الراقية إن توافرت في إنسان آخر توافقا، فكانت الألفة هي اجتماع مع الالتئام والمحبة.

أسباب الألفة :

ولكن لا بد من الحديث عن أسباب هذه الألفة: هي حالة نفسية، شعور، انسجام نفسي، شعور لا يرى بالعين، لكن ما أسبابه؟ أنا متى أسهم في أن تألفني وأنت متى تسهم في أن آلفك؟ الحقيقة طرح السلام، الابتسامة، أن تلقى أخاك بوجه طلق، أن تزوره، أن تتفقده، أن تعاونه، أن تلبي رغبته، أن تلبي دعوته.

((من لم يجب الدعوة فقد عصى أبا القاسم))

[مسلم عن أبي هريرة]

لذلك ما من تصرف يمتن العلاقة بين المؤمنين إلا أمر النبي به، أن تطرح عليه السلام، أن تزوره في بيته، أن تلبي حاجته، بل أن تعرب له عن محبتك، فكل شيء يمتن العلاقة بين المؤمنين، كل شيء يزيد المودة بينهم، كل شيء يقلل المسافة بينهم، هذا ينبغي أن نفعله.

لذلك أسباب الألفة أن تكون كاملاً مع أخيك، وأن يكون هو كاملاً معك، أن ترعى شعوره، وأن يرعى شعورك، أن ترعى حاجاته، وأن يرعى حاجاتك، ألا تكون عبئاً عليه، وألا يكون عبئاً عليك، أن يكون ظلك خفيفاً عنده، وكذلك الأمر أن يكون ظلك خفيفاً عنده.

إذاً الألفة تحتاج إلى جهد، هي في الحقيقة شعور، راحة، انسجام، لكن هذا الانسجام، وتلك الراحة، وهذا الشعور، لهم أسباب طويلة، وجهد كبير.

لذلك أنا أقول: تصرفات ذكية، وعلمية، وواقعية، مجتمعة تشدك إليّ، وتصرف واحد أحمق غير مدروس، قد يجعلك تنفر مني، فالبطولة أن تربح أخاك الإنسان، لأنك قد تخسره بسبب تافه، لكن ربحه يحتاج إلى جهود كبيرة، ولأن تخسر الدنيا وتربح أخاك الإنسان فأنت الرابح الأول.

الأستاذ أحمد:

قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((تَبَسُّمُكَ في وجه أخيك صدقة))

[أخرجه الترمذي عن أبي ذر الغفاري]

هذا من باب الأجر وكأنه للآخرة، لكنه هل هو أيضاً باب من أبواب السعادة؟

الألفة والمحبة والانسجام والتوافق صفات تجعل من المجتمع سدّاً منيعاً لا يخرق :

الدكتور راتب:

أن تلقى أخاك بوجه طلق، أن تزحزح له إذا دخل، قد يكون المكان واسعاً، أما حينما تتحرك قليلاً تكريماً له، حينما تعبر له عن محبتك، والله إني أحبك يا فلان! يقول لك: أحبك الله كما أحببتني.

إذاً الألفة حالة، وشعور، وإحساس داخلي، لكن لها أسباب هذه الأسباب تحتاج إلى جهد واضح من كلا الطرفين حتى تكون هذه المحبة.

بالمناسبة: الألفة، والمحبة، والانسجام، والتوافق، هذه تجعل من المجتمع سداً منيعاً لا يخرق، وأية خصومة بين الناس تجعل هذا المجتمع مهلهلاً، فالألفة لها أبعاد سياسية، أنت إن أردت أن يكون هذا

المجتمع متماسكاً، محصناً، لا يخترق، لتكن الألفة بين أفراده، الألفة من سمات المجتمع المؤمن.

الأستاذ أحمد:

أستاذ الكريم أين هو توجيه القرآن الكريم لحثنا على الألفة؟.

الآية التالية تعد أصلاً في موضوع الألفة :

الدكتور راتب:

الآية التي تعد أصلاً في هذا الموضوع يخاطب الله بها النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

(لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ)

[سورة الأنفال الآية: 63]

هذه الآية فيها ملمح خطير أن الألفة بين المؤمنين من خلق الله عز وجل، هذه من صنع الله، لذلك ما كان من خلق الله لا تستطيع قوى الأرض أن تقصمه، وما كان من صنع البشر يقصم بالمال، والإغراء.

لذلك:

(لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ)

لو أنفقت مال الأرض كي تؤلف بين متضادين لا تستطيع، لكن المؤمنين خلق الله بينهم المودة والرحمة، وحينما قال الله عز وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

[سورة مريم]

بعضهم يفهم الآية أن الله عز وجل يجعل بينهم وبينه مودة، هذا معنى مقبول وصحيح، لكن هناك معنى آخر، المؤمنون يجعل الله فيما بينهم مودة ورحمة.

الأستاذ أحمد:

يؤيده الآية التي ذكرتها، وهل هناك حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم يشير ويحدث عن الألفة؟.

السمة البارزة من سمات المؤمن أنه يألف ويؤلف :

الدكتور راتب:

حديث جامع مانع:

((المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف))

[أخرجه البزار عن أبي هريرة]

السمة البارزة من سمات المؤمن أنه يألف ويؤلف، لازمة من لوازم أخلاقه الرضية، يألف ويؤلف، كما يقال عن رسول الله:

((من رآه بَديهة هَابَهُ. ومن خالطه فعرفه أحبّه))

[أخرجه الترمذي عن علي بن أبي طالب]

وكان كل صحابي يظن أنه أقرب الناس إليه، لأنه يألف ويؤلف، ومن صفات العظماء أن الكبار يألفونهم، وأن الصغار يألفونهم، فالصغار كانوا يحبون رسول الله، ويتحلقون حوله، ويتسابقون إليه، لأنه يألفهم ويألفونه.

الأستاذ أحمد:

وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ بيد الطفل الصغير، ويمشي في حاجته، لكن هل في غير سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم غير هذا القول، هل هناك على أرض الواقع من أفعال النبي عليه الصلاة والسلام ما يوجهنا للألفة؟.

تفسير الألفة بين المؤمنين :

الدكتور راتب:

أنا كنت أتمنى أن أطرح موضوعاً قبل أن أصل إلى هذه التطبيقات.

الموضوع: هل هناك تفسير علمي للألفة؟ الحقيقة أن في شخصية الإنسان سمات، وفيها خصائص، لا بد من ذكر قصة تبين وتوضح ذلك:

هناك برنامج كمبيوتري من أجل الزواج، متى تكون الألفة بين الزوجين؟ إذا كانت نقاط الاتفاق كثيرة جداً، لذلك يأتي طالب الزواج يُسأل تقريباً خمسمئة سؤال، دقائق حياته، دقائق رغباته، دقائق طباعه، دقائق أهدافه، هذه كلها تسجل في الكمبيوتر، تأتي فتاة تُسأل الأسئلة نفسها، بعد شهر تجري عملية تقاطع، فأنت إذا أردت أن تبحث عن فتاة تألفها وتألفك، لا بدّ من أن تكون نقاط الالتقاء كثيرة، هذا الجهاز وذاك البرنامج يعطيك أقرب فتاة إلى طباعك، وإلى أنماط حياتك، هذا مثل.

أما ما تفسير الألفة بين المؤمنين؟ نقاط اللقاء بين المؤمنين كثيرة جداً، لأن كلا المؤمنين توجها إلى الله، واشتقا منه الرحمة، والأناة، والحلم، والعطف، والإنصاف، والوضوح، والصدق، والعفة، فنقاط اللقاء بين المؤمنين لا تعد ولا تحصى، هذا تفسير علمي للألفة.

كلما ازدادت نقاط اللقاء بين اثنين كانت الألفة بينهما أشد :

لذلك:

(لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ)

هذا يسميه المناطقة تحصيل حاصل، لأن النقاط المشتركة بين شخصية المؤمنين كثيرة جداً لذلك هناك ألفة، هناك تطبيق عملي، قد تجلس مع إنسان لا تستطيع أن تحدثه في موضوع لأنه يتناقض أصلاً مع كل مبادئك وقيمك، تجد مساحة الحوار ضئيلة جداً، وقد تضيق ذرعاً به، وقد تجد الساعة معه سنة، وقد تجلس مع إنسان ساعات طويلة ولا تشعر، الدليل لأن هناك انسجام:

إن يطل بعدك ليلي، فلكم ... بتُّ أشكو قصر الليل معك!

***

الألفة أساسها توافق الخصائص، توافق السمات، توافق نقاط اللقاء.

إذاً أنا حينما أشترك مع أخي في مبادئه، وفي قيمه، وفي عاداته، وفي تقاليده ، وفي تصوراته، وفي طموحاته، وفي آماله، وفي آلامه، أنسجم معه.

إذاً هناك تفسير علمي يؤخذ من علم النفس ،مثلاً: أنت تألف النظيف لأنك نظيف، تألف الصادق لأنك صادق، أما الصادق لا يألف الكاذب، والنظيف لا يألف القذر، فكلما ازدادت نقاط اللقاء بين اثنين كانت الألفة بينهما أشد.

مجتمع المؤمنين أكمل مجتمع تتحقق فيه الألفة :

لذلك أكمل مجتمع تتحقق فيه الألفة مجتمع المؤمنين، لأنهم اشتقوا الكمال من الله عز وجل، هذا الذي يدهش أنك إذا زرت إنساناً في أقصى الأرض تشعر بألفة عجيبة معه لأن نقاط اللقاء كثيرة جداً، مع أنك في قارة وهو في قارة، مع أنك في بيئة وهو في بيئة، مع أنك في معطيات وهو في معطيات أخرى، لكن الإسلام جمع بينكما.

لذلك الدين عامل وحدة، وليس عامل تفرقة، أما المتاجرة بالدين عامل تفرقة، الذي لم يؤمن، ولم يطهر قلبه، ولم يشتق الكمال من الله، لكنه رفع شعار ديني، وله مصالح من هذا الشعار، طبعاً هذه المصالح إن تناقضت وتنازعت بين إنسانين تنشأ العداوة والبغضاء.

لكن ما دام الحديث عن الألفة لا بد من الحديث عن العداوة والبغضاء، الحقيقة لها قانون، والقانون في آية واحدة:

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

[سورة المائدة الآية: 14]

الأستاذ أحمد:

أستاذي الكريم أعود وأذكرك بأننا نتمنى سماع شيء عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه فيما يوثق الألفة فيما بينهم.

الألفة بين النبي الكريم و أصحابه :

الدكتور راتب:

النبي عليه الصلاة والسلام عقب معركة حنين، دانت له الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها، وبلغ أعلى قوة وصل إليها، جزيرة بأكملها خضعت للنبي عليه الصلاة والسلام، وجاء بعض أصحابه الكرام سيد الأنصار ليقول له: يا رسول الله ! إن قومي وجدوا عليك في أنفسهم، من أجل هذه الغنائم التي لم يكن لهم منها نصيب، فقال النبي الكريم لهذا الصحابي الجليل: أين أنت من قومك؟ كان صريحاً، وواضحاً، قال: ما أنا إلا من قومي، أي وأنا أيضاً وجدت عليك في نفسي، فقال النبي الكريم: اجمع لي قومك، فلما جمعهم قال:

يا معشر الأنصار، مقالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها عليّ في أنفسكم من أجل لعاعة من الدنيا، يا معشر الأنصار! أما لو إنكم لو شئتم لقلتم فلصدقتم، ولصدقتم به، أتيتنا مكذباً فصدقناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فأغنيناك، بماذا ذكرهم؟ ذكرهم بفضلهم عليه، وهو القوي، وهو الذي دانت له الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها.

أي الأقوياء لهم سلوك آخر قد ينهون حياتهم، وقد يهملونهم، وقد يعاتبونهم لمصلحة القوي، وقد يهدرون كرامتهم، ذكرهم وهو القوي بفضلهم عليه، أما إنكم لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم به، أتيتنا مكذباً فصدقناك، طريداً فآويناك، يا معشر الأنصار! ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف بين قلوبكم؟ يا معشر الأنصار! أوجدتم عليّ في أنفسكم في لعاعة تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا أنتم برسول الله إلى رحالكم؟ فبكوا حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً.

أنا أعجب من هذه القصة، أين مكانها في السيرة؟ مع رحمته؟ أم مع وفائه؟ أم مع تواضعه؟ أم مع حكمته؟ مع أنه طوق الحادثة وامتص النقمة هو حكيم، وهو ودود، وهو رحيم، وهو وفيّ.

لذلك قالوا: لعلك تبقى في مكة؟ قال: معاذ الله ! لو سلك الناس شعباً، وسلك الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار، كان في أعلى درجة من الحكمة، والرحمة، والإنصاف، والعدل، والمودة، والوفاء، النبي عليه الصلاة والسلام يكفيه أن الله قال في حقه:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

[سورة القلم]

الأستاذ أحمد:

ذكرك هذا يذكرني برأي سيدنا ابن عباس حينما رأى رجلاً فقال: إن هذا ليحبني، قالوا: وكيف علمت؟ قال: إني لأحبه، والأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف، حبذا لو نسمع منكم تعليقاً عن هذا.

الإعلان عن المحبة شيء و المحبة شيء آخر :

الدكتور راتب:

والله أنا أرى أنك إذا أحببت إنساناً في الأعم الأغلب هو يحبك، أما إذا أعلنت عن حبك لإنسان قد لا يحبك، الإعلان شيء والمحبة شيء آخر، إن أحببت إنساناً حباً حقيقياً فلابدّ من أن يحبك، لأن الحب لن يكون من طرف واحد إلا إذا كان حسياً، إذا كان طبع الحب حسياً قد يكون من طرف واحد كأن يحب دميماً جميلة مثلاً، لكن الحب بالمعنى النفسي لا بد من توافق بين المحبوبين، إلا أن الإعلان عن الحب غير الحب، هذا يتخذه بعض من يريد أن يغوي الآخرين، أما الحب الحقيقي يقابله حب حقيقي.

فلذلك النبي الكريم عندما قال له أحدهم: إني أحبه، قال: هلا أعلمته؟ أعلمه أنك تحبه، هذا مما يزيد المحبة بين المؤمنين.

الأستاذ أحمد:

والإنسان ماذا يقطف من ثمار المحبة وإن حصلت وحصّلت الألفة فما هي ثمارها المرجوة؟.

الإنسان يحب الجمال والنوال و الكمال :

الدكتور راتب:

قبل ثمارها، الإنسان ماذا يحب؟ في أصل طبعه ماذا يحب؟ يحب الجمال، يحب الكمال، يحب النوال والعطاء، تتركز اهتمامات الإنسان فيما يحب، يحب البيت الجميل، المركبة الجميلة، الإطلالة الجميلة، الزهرة الفواحة، يحب الطعام الجميل الطيب، يحب الزوجة الجميلة، يحب الطفل الجميل، هذا شيء في طبع الإنسان، يحب الجمال، ولكن للجمال مستويات وأنواع، هناك جمال روحي، فالمؤمن يحب الله مع أنه لا يراه بعينه، لكن كمالات الله عز وجل محيطة به، لذلك يحب الإنسان الجمال، يحب النوال، يحب العطاء.

((يا داود ! ذكر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها))

[ورد في الأثر]

أنت حينما تعطي الآخرين تملك قلوبهم، بالبر يستعبد الحر،

((ذكر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها))

فالإنسان يحب الجمال، ويحب النوال، ويحب الكمال، أنت أمام موقف لا علاقة لك به إطلاقاً، موقف بين إنسانين، كان أحدهما كريماً، أو كان الثاني حليماً، أو كان الأول رحيماً، أو كان الثاني شهماً، فالشهامة، والحلم، والرحمة، والإنصاف، والتواضع هذا يحبه كل إنسان، فأنت تحب الشيء الجميل بكل مستوياته، وبكل أنواعه المادي والمعنوي، أحياناً هناك فعل جميل، أحياناً قول جميل، أحياناً فكرة جميلة، تحب الجميل بكل مستوياته، وأنواعه، وتحب العطاء بكل أنواعه، وتحب الكمال، ولو لم يكن لك علاقة به.

الحب للجمال والكمال والنوال أصله عند الله :

المشكلة أن هذا الحب للجمال والكمال والنوال أصله عند الله، فلذلك يوم القيامة يقول الله عز وجل:

(وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً)

[سورة البقرة الآية: 165]

هنا القوة قوة الجمال، والكمال، والنوال، هو من أجل الجمال عصى الله، من أجل النوال عصى الله، من أجل محبته للكمال أحب إنساناً فاسقاً لكنه أعطاه، من أجل هذا عصى الله، ولو علم أن أصل الجمال عند الله، وأن أصل الكمال عند الله، وأن أصل القوة عند الله، لذلك:

(وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً)

الأستاذ أحمد:

إذاً لو سأل سائل ماذا يألف الإنسان؟ نقول: الجمال، والكمال، والنوال التي هي أصلاً من الله عز وجل.

الدكتور راتب:

إذاً ينبغي أن يحب الله.

الأستاذ أحمد:

لماذا ينبغي أن يحب الله عز وجل؟.

على الإنسان أن يحب الله عز وجل لأنه أصل كلّ شيء :

الدكتور راتب:

لأن هذا الذي يصبو إليه هو عند الله أصلاً، وكل جمال الخلق مسحة من جمال الله، وكل عطاء الخلق شيء لا يذكر أمام عطاء الله، منحك نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد ، ونعمة الهدى والرشاد، وكل الكمال البشري هو اشتقاق من كمال الله، لذلك ينبغي أن نحب الله لأنه أصل الجمال، والكمال، والنوال.

الأستاذ أحمد:

هذا عن الألفة فما هي فوائدها، وثمراتها؟.

فوائد الألفة و ثمارها :

الدكتور راتب:

لابد من بعض الأمثلة: أخطر أداة في السفينة العملاقة دفتها، لأنها توجهها، الدفة مرنة، تألف وتؤلف، إذاً هي أقوى شيء في السفينة، بينما اللوح الحديدي ليس مرناً ولا يتحرك، ولا يتقدم، لذلك لا يألف ولا يؤلف.

الشيء المرن أريد أن أعبر عن الألفة أنها مرنة، فالإنسان المرن الذي يألف ويؤلف هو قوي، الآن أقوى شيء في المركبة مقودها، لأنه مرن، لأنه مرن يقودها في أي اتجاه، إذاً هو عليه المعول. فكلما كان الإنسان مرناً، واستوعب من حوله، وأدرك مشاعرهم، وأدرك حاجاتهم، ورأى نفسه واحداً منهم، وتواضع لهم، وتفهم قضاياهم، ولم يستعل عليهم، كان مألوفاً، وكان مرناً، وكان حكيماً، وكان أقوى واحد فيهم، أقوى شيء في المجتمع هو الإنسان المرن، وأضعف إنسان هو الجامد الذي لا يعي، ولا يفهم، متشنج، متصلب، عنده نفس عدوانية، هذا أضعف إنسان، القافلة تمشي وتدعه في الطريق. فلذلك من ثمار القوة الألفة، أنت كلما كنت كثير الألفة تألف وتؤلف، احتللت موقعاً مرموقاً في المجتمع.

الأستاذ أحمد:

وهل في الألفة دليل على البراءة من النفاق؟.

المداهنة و المداراة :

الدكتور راتب:

لا النفاق موضوع ثان، النفاق على حساب مبادئك، وعلى حسابك قيمك، وعلى حساب دينك، هذا موضوع آخر، ذكاء شيطاني، المنافق ذكي شيطاني، أما المؤمن يألف ويؤلف ضمن مبادئه، ضمن قيمه.

لذلك فرقوا بين المداهنة وشيء آخر وهو المداراة، المداهنة بذل الدين من أجل الدنيا، هذا النفاق، بذل الدين.

(وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ)

[سورة البقرة الآية: 14]

هذه مرونة، لكنها مرونة شيطانية، على حساب الدين والمبادئ، بينما المؤمن لا يداهن، بل يداري، أي بذل الدنيا من أجل الدين، بذل الدين من أجل الدنيا مداهنة.

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

[سورة القمر]

بينما بذل الدنيا من أجل الدين مداراة، والمؤمن يداري، ولا خير فيمن لا يداري.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف الثبات :

الدكتور راتب:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أستاذ أحمد، من تعريف الثبات يتضح أنه المداومة على الطاعات، والمعتقدات، والخدمات، والأعمال الصالحة، وكل شيء يقرب إلى الله المداومة عليه من الثبات.

لكن الآية التي تعد أصلاً في هذا هي قوله تعالى:

(يُثَبِّتُ اللَّهُ)

[سورة إبراهيم الآية: 27]

اللهم يا مقلوب القلوب ثبت قلبي، معنى ذلك ثبات قلبي مكافأة من الله على سبب من العبد.

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)

[سورة إبراهيم الآية: 27]

الإنسان إذا قرأ القرآن الكريم، وقرأ قوله تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل الآية: 97]

هذا وعد إلهي، وزوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين إذا قرأ المؤمن قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ)

[سورة فصلت]

ما الذي يثبتني؟ أن يكون في كتاب الله آية تشجعني، وتطمئنني، وتعدني بالعطاء، وبالجنة، وبالنصر، وبالتأييد.

الحياة الطيبة شهادة الله للناس أن هذا القرآن كلامه :

الذي يثبت المؤمن كتاب الله:

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً)

[سورة النساء]

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ)

[سورة التوبة الآية: 111]

كتاب:

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ)

[سورة فصلت الآية: 42]

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ)

أي أنت حينما تكون مؤمناً، وتقيم أمر الله في بيتك، وعملك، فالله عز وجل يعدك بالحياة الطيبة، والحياة الطيبة شهادة الله للناس أن هذا القرآن كلامه.

ثبات المؤمن على إيمانه يكون بـ :

1 ـ وقوع الوعد و الوعيد في القرآن الكريم :

الحقيقة أقوى ما في القرآن وقوع الوعد والوعيد، الذي يثبت المؤمن على إيمانه أن كتاب الله إن تأملت آياته، رأيت أن الأحداث التي هي من فعل الله تصدقه، وكأن أفعال الله شهادة لنا أن هذا القرآن كلامه، مثلاً: إنسان جعل دخله دخلاً ربوياً، فبالآلات الحاسبة يزداد دخله، أما إذا محق هذا المال بكارثة، أو حريق، أو مصادرة، أو تلف، تأتي الآية الكريمة:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

[سورة البقرة الآية: 276]

فحينما يأتي فعل الله مطابقاً لوعده أو وعيده، هذا الشيء يثبتنا أضعاف ما تثبت الآيات وحدها، إذاً وقوع الوعد والوعيد يجعل لهذا القرآن مصداقية في أعلى درجة، بل إن المؤمن يرى أفعال الله تأتي مطابقة لوعوده التي في القرآن، عندئذٍ يثبت على إيمانه فأحد أسباب ثباته على إيمانه وقوع الوعد والوعيد في القرآن الكريم.

2 ـ كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه :

إذاً:

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

أنت حينما تقرأ قوله تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية]

أنت حينما ترى أن معاملة الله للمؤمن خاصة، فيها حفظ، فيها رعاية، فيها توفيق، فيها تأييد، فيها عطاء، فيها تألق، فيها محبة، فيها قوة تأثير، وأن الذي شرد عن الله عز وجل في ضيق، وفي ضنك، وفي سوداوية، وفي إحباط، وفي آلام نفسية، وفي يأس، وفي ملل، وفي سأم، حال المؤمن وحال غير المؤمن يثبت الآية الكريمة:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

أكبر شيء يثبت المؤمن كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، ووقوع وعده ووعيده، هذا الذي يثبت.

3 ـ السكينة التي تتجلى على قلبه :

شيء آخر: فكرة دقيقة جداً، ما الذي يشدك إلى الدين؟ قد تقول: أفكار الدين، صح، الدين قدّم للمؤمن تفسيراً عميقاً، دقيقاً، رائعاً، متناسقاً، متآلفاً، هذه العقيدة، أنت كمسلم معك تصور لكل شيء، تصورات متناسقة، متكاتفة، متآزرة، بعضها يؤكد بعضها الآخر، هذه نعمة كبيرة جداً.

ولكني أرى أن دقة التصور الإسلامي، وعمق التصور الإسلامي، وتناسق التصور الإسلامي، لا تكفي وحدها لشدّ الإنسان إلى الدين، ما الذي يثبته على الدين؟ عندما تتبدل معاملاته بعد أن يصطلح مع الله، بعد أن يصطلح مع الله هناك علاقات أخرى، توفيق رائع، حفظ رائع، تأييد، نصر، سعادة، تألق، سكينة، فالذي يثبت المؤمن على منهج الله المعاملة التي عامله الله بها بعد أن اصطلح معه، بل الأحوال التي تأتي إلى قلبه من السكينة، والطمأنينة، والرضا عن الله عز وجل، والتفاؤل، والحب، فالذي يثبت المؤمن كتاب الله أولاً، ووقوع وعده ووعيده ثانياً، وتلك السكينة التي تتجلى على قلبه ثالثاً، هذا معنى قوله تعالى:

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)

الأستاذ أحمد:

هذا في الدنيا، ما معنى في الآخرة؟

أي شيء وعدنا الله به نجده في الآخرة :

الدكتور راتب:

في الآخرة أي شيء وعد الله به تجده في الآخرة، الدليل:

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ)

[سورة الزمر الآية: 74]

هذه في الآخرة، لكن هناك من يقول: لا داعي لأن نتحدث عن سيرة النبي، الحقيقة إذا كان قلب سيد الحق، إذا كان قلب سيد الخلق وحبيب الحق، يزداد ثبوتاً لسماع قصة نبي دونه، فلأن نزداد إيماناً، ونزداد إقبالاً، وتألقاً بسماع قصة سيد الأنبياء والمرسلين من باب أولى، لذلك الآية الكريمة:

(وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)

[سورة هود الآية: 120]

إذاً أن نقرأ سيرة رسول الله، فكيف إذا قرأنا سيرته، شمائله، أخلاقه، كمالاته، توجيهاته، هذا يثبتنا أيضاً، هذا الذي أتمنى أن يكون واضحاً عند الأخوة المشاهدين.

الأستاذ أحمد:

رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف وجهنا؟ أو ماذا قال عن الثبات؟.

الثبات من عند الله ثمنه الصدق :

الدكتور راتب:

حينما وجه بعض أصحابه لليمن قال:

((انطلق فاقرأها على الناس فإن الله تعالى يثبت لسانك ويهدي قلبك))

[أخرجه أبو داود والترمذي وأبو يعلى والإمام أحمد علي بن أبي طالب]

أي الثبات من عند الله ثمنه الصدق، والدليل:

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا)

والدليل النبوي أكثر دعاء كان عليه الصلاة والسلام يدعوه: "اللهم يا مثبت القلوب ثبت قلبي على طاعتك".

الإنسان حينما يدفع ثمن الثبات يثبته الله عز وجل على إيمانه، وعلى عبادته.

الأستاذ أحمد:

موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أتى إليه عمه أبو طالب يساومه فيما أنك لو أردت لأعطيناك، لزوجناك، لملكناك، ثم يقول صلوات الله عليه هذه العبارة والجملة الخالدة على مدى التاريخ:

((والله يا عم ! لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ـ وهو الدين ـ ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

لم يوجه فقط أصحابه بل أعطانا نحن مثالاً عملياً تطبيقياً في فعله فماذا نفهم من هذا التصرف؟.

المؤمن لا يساوم ولا يُحسب على جهة أرضية :

الدكتور راتب:

الحقيقة النبي مبلغ، لكنه في الحقيقة الأعمق قدوة، ومعلم، يعلمنا بلسانه، وأفعاله، ومواقفه، وإقراره، وصفاته، النبي عليه الصلاة والسلام أعظم شيء في دعوته مصداقيتها لا يساوم، ليس عنده أنصاف حلول.

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

[سورة القلم]

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

[سورة القلم]

((والله يا عم ! لو وضعوا الشمس في يميني))

وهذا شأن أصحاب المبادئ، هذا شأن أصحاب الدعوات الخيرة، هذا شأن الذين عرفوا الله، المؤمن لا يساوم، هناك موضوعات لا تخضع للمناقشة.

أحياناً السياسيون في مؤتمرات يقولون: الموضوعات الفلانية ليست داخلة في جدول الأعمال، لأنها عندهم مسلمات، لذلك يقول الله عز وجل:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب الآية: 36]

قيمة الدعوة في بعدها عن وحل السياسة ومتاهات الأرض :

لذلك القضية دقيقة جداً أن المؤمن لا يساوم، ولا يُباع، ولا يُشترى، ولا يُجير لفئة، ولا يُحسب على جهة أرضية، إنه لله.

مرة التقت إذاعة في أوربا بعالم جليل من الدعاة إلى الله، رأوا إقبال الناس عليهم منقطع النظير، فسألوه في حديث إذاعي، ما هذه المكانة التي حباك الله بها؟ الحقيقة أنا أعجبت بإجابته، قال: لأنني محسوب على الله، الداعية لا يليق به أن يكون محسوباً على جهة أرضية، هو لله، بل لا يليق بك أن تكون لغير الله، بل إنك تحتقر نفسك حينما تكون لغير الله، أنت لله.

ولذلك قيمة الدعوة في بعدها عن وحل السياسة، عظمة الدعوة في بعدها عن متاهات الأرض، هي فوق المكان والزمان، وفوق الفئات، والتحزبات، والاتجاهات.

فلذلك النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((والله يا عم ! لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

الأستاذ أحمد:

رسول الله صلى الله عليه وسلم بثباته هذا علّم صحابته أيضاً أن يكونوا ثابتين، ولا أدل على ذلك من صورة سيدنا بلال بن رباح الذي يوضع على رمال الصحراء المحرقة، وهو أجرد الثياب، ويوضع فوق بطنه صخرة ينوء اثنان أو أكثر عن حملها، وما يزيد عن أن يقول في وجه أهل الكفر والطغيان والظلم: أحدٌ أحد، فهذا مثال من أمثلة فعل الصحابة رضوان الله عليهم.

عظماء أهل الأرض من أولى صفاتهم ثباتهم على مبدئهم :

الدكتور راتب:

هو ثابت وربى أصحابه على الثبات، بالمناسبة: كان عليه الصلاة والسلام فيما ترويه السيدة عائشة إذا عمل عملاً أثبته:

((وأنَّ أحبَّ الأعمال إلى الله أدْوَمُها وإنْ قلَّ))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن عائشة أم المؤمنين]

يريد كيفاً ثابتاً، لا كماً كثيراً متأرجحاً، أي لو صليت ركعتي قيام الليل بشكل ثابت أفضل ألف مرة من أن تقوم الليل كله ثم تتركه، لو تصدقت كل أسبوع بمبلغ ثابت أفضل ألف مرة من أن تقدم مبلغاً كبيراً وتنقطع.

((وأنَّ أحبَّ الأعمال إلى الله أدْوَمُها وإنْ قلَّ))

فالثبات الثبات، بالتعبير العامي الثبات نبات، بالمناسبة: عظماء أهل الأرض، القادة الكبار، الفاتحون، الدعاة إلى الله، الصادقون، المصلحون، هؤلاء من أولى صفاتهم ثباتهم على مبدئهم، بل إن الإنسان العظيم بحياته قضايا لا يساوم عليها، وليست خاضعة للبحث أو المناقشة، هذا من إيجابيات المؤمن، أما غير المؤمن يبيع ويشتري.

أعظم شيء بالمؤمن ثباته على مبدئه :

مرة أديب وضع أدبه في جهة أرضية، فلما عوتب قيل له: إنك بعت إنتاجك الأدبي لجهة أرضية، غضب أشد الغضب، وقال: أنا لم أبع إنتاجي لجهة أرضية ولكنني أجرته، هو أبلغ من ذلك.

فالمؤمن صاحب مبدأ، أعظم شيء بالمؤمن ثباته على مبدئه، الله عز وجل من حين لآخر يمتحن المؤمنين.

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

[سورة آل عمران الآية: 179]

في معركة الخندق:

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً)

[سورة الأحزاب]

لكن الله عز وجل يقول:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

[سورة الأحزاب]

هذا هو الثبات.

الأستاذ أحمد:

فوائد الثبات أستاذي الكريم على الشيء المنظور المحسوس.

فوائد الثبات :

الدكتور راتب:

لا يمكن أن يحقق هدف إلا بالثبات، ولا يمكن أن يكون النمو إلا بالثبات، والتقدم بالثبات، والتألق بالثبات، أما هذا السويعاتي المتقلب، الذي ينهار لأقل ضغط، أو ينهار لأقل إغراء، أو ينصرف عن هدفه لأقل طارئ، أو يقف أمام أصغر عقبة، هذا ليس أهلاً أن يكون مؤمناً، وداعية، ومرشداً، وكبيراً.

الأستاذ أحمد:

إذاً لا يمكن لفكرة من الأفكار أن تعيش، أو أن ترى النور، إن عشقها أصحابها، وعملوا لها ليلهم ونهارهم، وبذلوا في سبيلها الغالي والثمين.

ثبات المؤمن على إيمانه ومبادئه وحسن ظنه بربه ثمن الجنة :

الدكتور راتب:

أستاذ أحمد، أقول لك هذه الكلمة: الله عز وجل واجب الوجود، وما سواه ممكن الوجود، أليس ممكناً أن يخلق الله أعداء الدين في كوكب آخر مع بعضهم بعضاً؟ أليس ممكناً أن يكون هؤلاء في قارة أخرى؟ ممكن، أليس ممكناً أن يكون هؤلاء في حقبة غير هذه الحقبة؟ إذاً ليس هناك مشكلة، لا حروب، ولا فتن، ولا مؤامرات، ولا اجتياحات، ولا حروب أهلية، ولا حروب ثروات، تنتهي كل مشكلات الأرض لو أن أعداء الدين كانوا في كوكب، ونحن في كوكب، ولكن قرار الله، وينبغي أن نحترمه وأن نجله، أراد أن نعيش معاً على أرض واحدة، وفي كل مكان هناك إيمان وعدم إيمان، إحسان و إساءة، إيمان و كفر، رحمة و قسوة، استقامة و انحراف، إخلاص و خيانة، شاءت حكمة الله أن يكون الحق والباطل معاً في كل مكان، من نتائج هذا الاجتماع حقيقة خطيرة وهي أن معركة الحق والباطل أزلية أبدية، لماذا؟ ما حكمة ربنا عز وجل من أن تكون بين أهل الحق وبين أهل الباطل معركة أزلية أبدية؟ قالوا: لأن الحق لا يقوى إلا بالتحدي، ولأن أهل الحق لا يستحقون الجنة إلا ببذل الغالي والرخيص، والنفس والنفيس.

فثباتهم على إيمانهم، وثباتهم على مبادئهم، وثباتهم على حسن ظنهم بربهم هو ثمن الجنة، لذلك:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران]

إذاً هناك حكمة بالغة من خلق الثبات، لأن هذا الخلق هو الذي يدعم المؤمنين ويؤهلهم لجنة رب العالمين.

الأستاذ أحمد:

أستاذي الكريم بعض الناس يثبتون لكن ليس شرطاً أن يكون ثباتهم في المحن، بعضهم يثبتون على معصية من المعاصي، بعضهم يثبتون على فكرة من الأفكار، فهل منبع الثبات قناعة أم محبة أم عادة اعتادوها؟ ما هو منبع الثبات؟.

منبع الثبات :

الدكتور راتب:

والله حينما نقول: الثبات، تنطلق أذهاننا إلى الثبات على الحق، لأن هذا الثبات إيجابي وهو فضيلة، أما الإنسان الذي يثبت على الباطل هو مجرم، لأنه كان من الممكن أن يتوب، كان من الممكن أن يرجع عن خطئه، فالثابت على الباطل إنسان عنيد، وتفكيره سقيم ، ونفسه لا ترضي الله عز وجل، فالثبات على الباطل مشكلة كبيرة.

بل فضيلة الرجوع إلى الحق، فضيلة رائعة جداً، السؤال، والجواب، والحوار، لأن النبي عليه الصلاة والسلام كامل، ومعصوم، والله عصمه، إذاً لا يمكن أن يكون على باطل حتى يرجع عنه، فيكون هذا منه فضيلة، ولكن شاءت حكمة الله أن يظهر هذه الفضيلة على يد نبيه الكريم، كيف؟ حجب عنه الموقع المناسب يوم بدر، حجب عنه هذا الموقع وحياً، وإلهاماً، واجتهاداً، فجاء صحابي ـ لا أجد في أصحاب النبي أشد أدباً منه ـ قال: يا رسول الله هذا الموقع وحي أوحاه الله إليك أم هو الرأي والمشورة؟ فالنبي تكلم بصراحة، قال: بل هو الرأي والمشورة، قال: والله يا رسول الله ليس بموقع، بعد أن تأكد أن هذا ليس وحياً بل هو من اجتهاد النبي.

الآن إنسان أقل من النبي بآلاف المرات، له مكانة مرموقة، لا يسمح لأحد أن ينصحه، إذا تجاوز أحد حده معه سحقه، النبي الكريم على علو مقامه، وعلى عصمته، بكل بساطة، بكل تواضع، بكل أريحية، بكل شيء طبيعي، قال له: بارك الله بك، وأمر أصحابه وتحولوا إلى الموقع المناسب، هذا الذي ذكرته الآن إجابة لتساؤلكم أن هناك ثبات على الباطل، البطولة أن ترجع إلى الحق.

لو أن إنساناً كان يتوهم شيئاً ثم عاد إليه، عاد إلى الصواب، هذه فضيلة.

الأستاذ أحمد:

أستاذي بعض الناس كما فهمنا منكم يثبتون على الأفكار والمعتقدات، والمطلوب منا أيضاً زيادة على

ذلك أن نثبت على الطاعات، فمثلاً المداومة على صلاة الجماعة، أو الاستمرار في الإنفاق في سبيل الله، لربما أنفق نفقة لكني لا أستمر بها، هذا أمر عظيم، وهذا أمر فيه مشقة على النفس، ويحتاج إلى ثبات، كيف ننمي مثل هذا الخلق في أنفسنا إن كان لم يصل إلى هذا الحد الذي يجعلنا نستفيد فيه؟.

بطولة الإنسان أن يكون إدراكه عقلياً وخطته واضحة وخطواته ثابتة :

الدكتور راتب:

هذه مهمة الدعاة إلى الله، مهمة خطباء المساجد، مهمة الشيوخ، أن يبينوا للناس إن في مساجدهم، أو في منابر الإعلام، أن بطولة المؤمن لا في فورة ثم تخبو، البطولة في عمل منتظم، ثابت، مستمر، هذا توجيه من الدعاة إلى الله، أي يجب على الدعاة إلى الله، وعلى خطباء المساجد، وعلى المرشدين، وعلى المعلمين، وعلى كل من له عمل إرشادي، أن يقنع من حوله أن البطولة ليست بالفورة، ومن شأن بعض البلاد أنها تفور ثم تهمد، البطولة أن يكون الإدراك عقلياً، والخطة واضحة، والخطوات ثابتة، والسير وئيد، هذه البطولة.

إذاً نحن دائماً مع الثبات المبني على قناعة، وعلى تأييد الله لهذا الثبات، من قوله تعالى:

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا)

إذاً الثبات من الله بسبب من العبد، والرجوع عن الخطأ أيضاً يناقض الثبات السلبي، هذا صار ثباتاً إيجابياً، عاد إلى الصواب.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - موسوعة الأخلاق الإسلامية - الدرس (20-28) : خلق الأدب
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-02-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ أحمد:
أتمنى أستاذي أن نتحدث اليوم وإياكم عن خلق يسمى الأدب، هل الأدب هو الخلق؟ وهل الخلق هو الأدب؟ إذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو ويقول:

((اللهم حسن خلقي وخلقي))

[أخرجه الطبراني عن عبد الله بن عباس]

تعريف الأدب :

الدكتور راتب:
بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.
أستاذ أحمد، بادئ ذي بدء: الإنسان كائن متحرك، لماذا هو متحرك؟ لأن الله أودع فيه الشهوات، الشهوات دوافع، دافع إلى الطعام والشراب، دافع إلى الجنس، دافع إلى العلو في الأرض، هذه الشهوات تحركه، فهو كائن متحرك، لكن ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا جعل لها قناة نظيفة تسري خلالها.
بشكل عام الأدب هو أن توقع حركتك ونشاطك في الأرض وفق منهج الله، فتلتزم فيما أمر، وتنتهي عما عنه نهى وزجر، أي أقواله، وأفعاله، وتصرفاته، ومواقفه تنم عن كمال عظيم في الإنسان، فالأدب عنوان لمجموعة لا تعد ولا تحصى من الفضائل جمعت في كلمة الأدب، لذلك:

((أدبني ربي فأحسن تأديبي))

[ابن السمعاني في أدب الإملاء عن ابن مسعود]

والحقيقة أن الأدب هو الذي يشد الناس إليك، مرة طالبان في بريطانيا من سوريا لهم صديق بريطاني، يتحادثان باللغة العربية، فكلما دنا منهم تكلموا بالإنكليزية، هذا الموقف لفت نظره، سألهم مرة لماذا تفعلون هكذا؟ قال: لأن نبينا علمنا أننا إذا كنا ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث، فنحن إن تكلمنا العربية

أمامك نتناجى دونك، فلعل هذا يزعجك فهذا الموقف المؤدب من صديقين مسلمين لإنسان بريطاني كان سبب إسلامه.

الأدب خلق عظيم من كسب الإنسان :

الأدب خلق رفيع، بل إن أخلاقاً عديدة تجتمع في كلمة الأدب، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام آتاه الله علماً، وآتاه حكمة، وآتاه ذاكرة.

(سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى)

[سورة الأعلى]

آتاه جمالاً، آتاه طلاقة لسان، آتاه بياناً، أي صفات النبي كلها في أعلى مستوى، ومع ذلك الذي يلفت النظر أن الله ما مدحه بها إطلاقاً، تماماً لو أنك أعطيت ابنك مركبة، لا يعقل أن تقيم حفلاً تكريمياً لابنك، وقد أعطيته هذه المركبة.

هذه عطاءات من الله، تعد من وسائل الدعوة إليه، آتاه منظراً جميلاً، جمالاً، شكلاً رائعاً، آتاه بياناً، فصاحة، حكمة، علماً، فهماً، ذاكرة، ولكن الله مدحه بخلقه العظيم، فقال:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

[سورة القلم]

هذا الخلق العظيم من كسب الإنسان، تصور صحابياً سُئل: "أيكما أكبر أنت أم رسول الله؟ فقال: هو أكبر مني، وأنا ولدت قبله".

امرأة تشكو زوجها، أهملها إهمالاً كلياً، جاءت سيدنا عمر تقول له: يا أمير المؤمنين، إن زوجي صوام قوام، في الليل قائم يصلي، وفي النهار صائم، فظن سيدنا عمر لعله منشغل بقضية أخرى، قال لها: بارك الله لك بزوجك، فقال له أحد الصحابة: يا أمير المؤمنين إنها تشكو زوجها"، انظر إلى هذه الشكوى الأديبة.

امرأة أخرى جاءت النبي عليه الصلاة والسلام مبتذلة الهيئة، رقت لها السيدة عائشة، سألتها فإذا زوجها عثمان بن مظعون، صوام قوام، فأخبرت النبي عليه الصلاة والسلام، والنبي أرشده إلى إعطاء لكل ذي حق حقه، في اليوم التالي جاءت متعطرة، نضرة بحال آخر، فلما سألتها السيدة عائشة عن الذي طرأ عليها، قالت بأدب جم: أصابنا ما أصاب الناس.

الحياء شيء أساسي في الدين وهو الأدب :

أستاذ أحمد، أنا حينما أدرك جمال الأدب، مثلاً:

(أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ)

[سورة البقرة الآية : 43]

آية قرآنية، يقرأها الطفل يفهم منها شيئاً بمستوى إدراكه، لا يفكر بشيء آخر، وضع يده على يدها،

(أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ)

(فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً)

[سورة الأعراف الآية: 189]

هناك من يقول: لا حياء في الدين، والله أنا أرى أن الدين كله حياء، الحياء شيء أساسي في الدين وهو الأدب.

مرة عالم رأى طالب علم أمامه يتطاول عليه، قال له: يا بني نحن إلى قليل من أدبك أحوج منا إلى كثير من علمك.

أحياناً الإنسان يصمت بدافع أدبه أمام أستاذه.

الأستاذ أحمد:

لذلك قيل: "المرء بفضيلته لا بفصيلته، وبكماله لا بجماله، وبآدابه لا بثيابه"، لماذا فضل الناس الأدب على العلم؟ بل قالوا لكل طالب علم أراد أن يتعلم: "الأدب قبل العلم".

تفضيل الناس الأدب على العلم :

الدكتور راتب:

العلم قد تأخذه من شريط، ومن قرص، ومن كتاب، لكن الأدب لا يكون إلا من الرجال، أنت حينما تصاحب الصالحين تأخذ من أدبهم أضعاف ما تأخذ من علمهم، لأن الأدب يقربك من الله عز وجل، ومن الناس معاً، فالمؤدب محبوب عند الله وعند الناس، أحياناً هناك كلمة نابية، نظرة مستعلية، غطرسة، استعلاء، سخرية، استهزاء، مثلاً: هناك مدرسون كثيرون إذا جاء السؤال سخيفاً صبّ على الطالب وابل سخريته، هذا الطالب الذي سأل سؤالاً مستفهماً منعه من السؤال، لن يعيد هذه التجربة، أما حينما تصغي إلى السائل، وتهتم بسؤاله ولو كان بالنسبة إليك سخيفاً لكن الطالب يسأل، فمن الأدب أن تحترم السائل.

أنا أذكر قصة تروى كثيراً، لكن لها شاهد معاصر، قاض يجلس على قوس المحكمة، جاءته امرأة في أثناء وصولها إليه كان هناك درجة، صدر منها صوت مزعج جداً، مؤلم جداً، احتقن وجهها بالدم، لأنها رأت أنها سقطت من عين القاضي، فقالت لأختها: لعله سمعنا، فلما وصلت إليه قال: ما اسمك يا أختي؟ قالت له اسمها، قال: لم أسمع أنا سمعي ضعيف، فلما رفعت صوتها، قال: لم أسمع أيضاً، فقالت لأختها: معنى هذا لم يسمعنا، ما هذا الأدب!.

هناك مواقف رائعة جداً، من معلم، من قاض، من مدير عام، من وزير، من صديق، فالمؤمن كلما اتصف بالكمال اتصف بالأدب، كلما كان شديد الصلة بالله كان متأدباً مع الآخرين، والذي يجلب الناس إليك أدبك قبل علمك.

الأستاذ أحمد:

أستاذي قيل لا ميراث كالأدب، وكأنه هو الذي يأتي بالمال، وبكل الخير، فهل يكتسب الأدب اكتساباً أم يتعلم إن كان من الأب، أو من الأستاذ، هل هو مجموعة عادات يمكن تعلمها؟.

من كان شديد الصلة بالله اكتسب الكمال الحقيقي :

الدكتور راتب:

سؤال لطيف جداً، مكارم الأخلاق إما أن تكون بسبب ذكاء حاد اجتماعي ـ الذكاء أنواع، ذكاء تحصيلي، إنسان قد يتابع دراسته إلى أعلى شهادة، وهو الأول على الجامعة، لكن في تصرفاته غير أديب إطلاقاً، هذا اسمه ذكاء تحصيلي، وهناك ذكاء فطري، و ذكاء اجتماعي ـ أنا أتصور أن الأدب من الذكاء الاجتماعي، فمن تمتع بقدرات عالية بذكائه الاجتماعي كان أديباً، لكن هذا الأدب يبتغي منه السمعة والدنيا، وأن يكون عالياً عند الناس، ومحبوباً لكي ينتزع بهذا الأدب إعجابهم.

لكني أعتقد ثانية كشأني في بعض الحلقات أنه حينما تكون شديد الصلة بالله تكتسب الكمال الحقيقي، الضابط في التفريق بين الكمال الحقيقي والكمال الناتج عن الذكاء هو حينما تمس مصالحك، فحينما تُمَس مصالحك، أو تمس كرامتك، أو تُتحدى، أو تُستفز، فكل هذا الكمال الصنعي يزول، تماماً الكمال الصنعي كالمكياج على وجه امرأة دميمة يحسن وجهها، لكن الأدب الحقيقي الذي أساسه اتصال بالله هو الجمال الطبيعي، ولا شيء يعلو عليه.

الأدب هو الكمال في السرّ والعلانية :

لذلك المؤدب مؤدب في السر والعلانية، أحياناً أحاديث داخلية محدودة فيها كلمات بذيئة جداً، أما أمام

الناس له كلام منضبط، الأدب هو الكمال في السر والعلانية، في الرضا والغضب، في الغنى والفقر، قبل المحنة وبعدها، وفي أثنائها، فمن كان أدبه أصيلاً أساسه اتصال بالله عز وجل، فهذا الأدب لا يتأثر بالظروف، لا بالظروف المعطاءة، ولا بالضيقة، بينما المؤدب كمكياج خارجي عندما تمس مصلحته، أو حينما يُستفز، يكون وقحاً بأشد أنواع الوقاحة.

الأستاذ أحمد:

قال أحدهم: "الأدب صورة في العقل فصور عقلك كيف شئت"، رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

((أدبني ربي فأحسن تأديبي))

[ابن السمعاني في أدب الإملاء عن ابن مسعود]

تأديب الله للرسول صلى الله عليه وسلم هل هي خاصة له لنبوته ورسالته، أم منحة من الله لا يمكن أن تحل على أي من الناس؟.

الآيات المتعلقة بالنبي للمؤمن منها نصيب بقدر طاعته وإنابته :

الدكتور راتب:

أنا أعتقد أن كل الآيات المتعلقة بالنبي عليه الصلاة والسلام للمؤمن منها نصيب بقدر طاعته، وإنابته، وإخلاصه، مثلاً:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح]

رفع الذكر من خصوصيات النبي، وكل مؤمن بقدر إخلاصه يرفع الله له ذكره، فالأدب من صفات النبي، لكن أي مسلم اتصل بالله، واقتفى أثر النبي هو مؤدب، فالأدب درجات، أعلاها علم النبي. لكن للتقريب: هناك تعليمات مفصلة للنبي عليه الصلاة والسلام هي في مجموعها الأدب النبوي، أي إذا كنت تمشي في طريق سلّم على من هو جالس، إذا دخلت إلى مجلس اجلس حيث ينتهي بك المجلس، إذا ألقي عليك السلام عليك أن ترد السلام، هناك توجيهات كثيرة جداً، إذا كان الابن مع أبيه ينبغي ألا يمشي أمامه، وينبغي ألا يسبقه بالقول، وينبغي أن يحترمه، هناك توجيهات كثيرة طبعاً لا تتسع لها حلقة، توجيهات اجتماعية كثيرة جداً.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ)

[سورة الحجرات الآية: 11]

إنسان أصيب بمصيبة، ينبغي ألا تشمت به، ينبغي أن تترفق بحاله، الذنب شؤم على غير صاحبه، إن ذكره فقد اغتابه، وإن رضي به فقد شاركه في الإثم، وإن عيّر ابتلي به، فهناك توجيهات كثيرة جداً

للآباء، والأبناء، والزوجات، والأزواج، والمتعاملين، ولمن يجلس في الطريق، الأمر بغض البصر، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

كان إذا دخل بيته لفّ ثوبه، كان إذا دخل بيته يبش بأهله، يقول: " أكرموا النساء فوالله ما أكرمهن إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم".

لا أستطيع بعجالة أن أسوق لك كل الآداب التي جاء بها النبي عليه الصلاة والسلام لكل الفئات والأعمار.

((التَّاجِرُ الأمينُ الصَّدُوقُ مع النَّبِيِّينَ))

[أخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري]

الجار المؤمن الذي يأمن جاره بوائقه مع النبيين، هناك أدب الجوار، أدب الحرفة، أدب الطريق، أدب البيت، أدب في العلاقات الزوجية، أدب مع الأبناء، أدب الأبناء مع الآباء.

الإدراك العام والكمال العام يدعوان الإنسان إلى أن يكون أديباً :

نحن في إسلامنا كم كبير جداً من التوجيهات النبوية في الآداب، هذه توجيهات مكتوبة، بإمكانك أن تأخذ بها فتكون أديباً، أضيف إليها أنك باتصالك بالله المحكم، والصادق، والمخلص، تشتق كمالاً يجعلك تتصرف بهذه الآداب التي جاءت بها الأحاديث الشريفة بشكل عفوي، أنت معك توجيهات، ومعك إدراك عام، الإدراك العام والكمال العام يدعوك إلى أن تكون أديباً.

مثلاً إنسان جالس مع أناس كبار، ليس من الأدب أن يمد رجله، ذوقه العام يمنعه أن يمد رجله، الآن لو إنسان درس السيرة، وقرأ من شمائل النبي أنه ما رئي ماداً رجليه قط، فصار الأدب إما أنه يؤخذ من الذوق العام، من كمال النفس، من اتصالها بالله، وإما أن يؤخذ من تعليمات مكتوبة، لكن المحصلة واحدة، سواء أنفذت التعليمات المكتوبة التي تعلمتها من حديث النبي الكريم، أو أملاها عليك ذوقك واتصالك بالله فالمؤدى واحد.

الأستاذ أحمد:

ما ذكرتموه أستاذنا الكريم من أنواع للآداب إنما هي آداب بين الإنسان وبين بقية الناس من الخلق، لكن لا بد أن هناك أنواع للآداب إن كانت مع الله أو مع غيره، ما هي أنواع الآداب؟

أنواع الآداب :

1 ـ الأدب مع الله عز وجل :

الدكتور راتب:

الحقيقة الآداب الأولى مع الله عز وجل، الأدب مع الله أن تصون عملك من التقصير، أو المبالغة، أو الشرك، أحياناً المتنطع لا ظهراً أبقى، ولا أرضاً قطع، أحياناً هناك مبالغة في الطاعات إلى درجة تؤذي الآخرين، كان عليه الصلاة والسلام إذا صلى بالناس أخف الناس صلاة، هناك من يصلي ويطيل، فيؤذي من خلفه.

إذاً العمل مع الله أن يكون وفق منهج رسول الله من دون زيادة، أو تقصير، هذه صيانة العمل مع الله هو من الأدب مع الله عز وجل.

من الأدب مع الله أيضاً: أن يصون القلب من أن يلتفت إلى غير الله.

(مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ)

[سورة الأحزاب الآية: 4]

حينما يمتلئ القلب حباً لله، وحينما يطلع الله عليه فلا يرى في قلبه إلا محبته، أما إذا رأى فيه شركاء، وحظوظ من الدنيا، وميول، وغرائز، وشهوات، وتوق إلى المعاصي، هذا الإنسان ليس متأدباً مع الله، أن يصون عمله من أن يكون فيه تقصير، أو فيه مبالغة، وأن يصون قلبه من غير الله عز وجل، هذا من الأدب مع الله عز وجل، ثم أن يصون إرادته أن تميل لغير الله، إلهي أنت مقصودي، ورضاك مطلوبي، هذا هو الأدب مع الله.

2 ـ الأدب مع رسول الله :

أما الأدب مع رسول الله: فألا تقدم بين يديه تشريعاً غير تشريعه، هناك من يقول: هذا الحديث لا يصلح لهذا الوقت، هو النبي بكل الأمكنة والأزمنة هو:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم]

فلمجرد أن ترد بعض توجيهاته، أو أن تقترح عليه اقتراحات نابعة من مصلحة، فأنت لم تكن متأدباً مع رسول الله.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

[سورة الحجرات الآية: 1]

الأستاذ أحمد:

لذلك وجدنا البعض يتطاول على أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام، وإذا ما قلنا له هذا الحديث ثبتت صحته في كتب الصحاح يقول: صحيح عندهم، ضعيف عندي، ضعفه لأنه قدم عقله على النقل الذي ورد إليه.

الدكتور راتب:

يقولون هذا عندنا غير جائز فمن أنتم حتى يكون لكم عندُ

***

هذا من سوء الأدب مع رسول الله، وقمة البشر في الكمال، هو مشرع، وشرعه ليس من بيئته، ولا من اجتهاده، ولا من معطياته، ولا من ثقافته، الشرع الذي جاء به النبي الكريم وحي يوحى:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

فمن سوء الأدب مع رسول الله أن تقلل من قيمة توجيهاته العامة، والاجتماعية، أو أن تردها، أو أن تقترح عليه شيئاً آخر ، هذا هو الأدب مع الرسول.

3 ـ الأدب مع المؤمنين :

أما الأدب مع المؤمنين فأن تحبهم، وألا تسخر منهم، وألا تستعلي عليهم، وألا تشمت بهم، وألا تتمنى أن يصيبهم شيء لا يرضي الله عز وجل، هذا أدب مع المؤمنين.

4 ـ الأدب مع الخلق :

أما الأدب مع الخلق أن تعطي كل ذي حقٍّ حقه، رأى النبي رجلاً يذبح شاة أمام أختها فغضب، فقال: هلا حجبتها عن أختها، أتريد أن تميتها مرتين؟.

فهناك أدب مع الله، ومع رسوله، ومع المؤمنين، لا يغتب بعضكم بعضاً، المؤمن لا يغتاب أخاه، ولا يسخر منه، ولا يسفهه، ولا يتمنى أن يصيبه شر، كلها أحاديث كثيرة جداً لو قرأناها وتتبعناها لعرفنا مجمل آداب المؤمن مع أخوانه، الآن مع الخلق جميعاً.

5 ـ الأدب مع المخلوقات الأخرى :

الآن مع الحيوانات.

((فإذا قتلتُم فأحسِنُوا القِتلة، وَإذا ذبحتُم فأحْسِنُوا الذَّبحَ، وليُحدَّ أحدُكم شَفرَته، وليُرِحْ ذبيحَته))

[أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن شداد بن أوس]

إذاً هناك أدب مع الله، مع رسوله، مع المؤمنين، مع الخلق من بني البشر، مع المخلوقات الأخرى.

6 ـ الأدب مع الأم و الأب :

هناك أدب مع الأم والأب.

(فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً)

[سورة الإسراء]

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً)

[سورة لقمان الآية: 15]

لو تتبعنا القرآن والسنة لكنا أمام كمّ كبير جداً من الآداب مع كل الأطراف، وفي كل المستويات.

الأستاذ أحمد:

بعض الآداب أستاذنا الكريم مثلاً آداب الطعام، أو آداب النوم، الإنسان ربما يكون نائماً وحده ومع ذلك يلتزم بسنن وآداب النوم، هذه الأبواب وهذه الفصول تندرج تحت أي نوع من أنواع الآداب؟.

خلق الأدب يدور مع الإنسان في كل أحواله :

الدكتور راتب:

أستاذ أحمد، تصور مثلثاً، فيه أربعة خطوط عرضية، المثلث الأعلى العقيدة، والشبه المنحرف الثاني هو العبادات، والشبه المنحرف الثالث هو المعاملات، والشبه المنحرف الرابع الآداب، كما تفضلت آداب الإنسان في طعامه، آدابه في اغتساله، آدابه مع زوجته، آدابه مع أولاده، آدابه في هندامه، آدابه مع العالم، آدابه في المسجد، آدابه في العمل، آدابه مع زبائنه، هذا الموضوع خلق الأدب يدور مع الإنسان في كل أحواله، مثلاً خلق العفو منحصر مع من أساء إليك، أما خلق الأدب يشمل كل المراحل، وكل المناحي، وكل الأوقات، وكل الأزمان، وكل الأمصار، خلق واسع جداً أن تقف الموقف الكامل قولاً، وفعلاً، وموقفاً من الطرف الآخر.

الأستاذ أحمد:

حُكي أن رجلاً تكلم أمام المأمون فأعجب المأمون بكلامه فقال له: ابن من أنت؟ فقال: ابن الأدب يا أمير المؤمنين، فقال: نعم النسب انتسبت إليه، أهذا يدل على أن الأدب مصدر لكثير من الأخلاق الجميلة، الآن رسول صلى الله عليه وسلم أمرنا ألا نرفع صوتنا فوق صوته عندما كان صحابة رسول

الله صلى الله عليه وسلم بقربه، هل هذا باب من أبواب الأدب أيضاً مع رسول الله؟.

الأدب مع رسول الله مستمر في كل العصور :

الدكتور راتب:

والله هذا الأدب الذي اختص به الصحابة الكرام لأنهم عاصروه، أنا أراه ينسحب على كل العصور، لا ترفع صوتك فوق رسول الله، لا تدلي برأي وتذيعه بين الناس وهو يخالف السنة، هذا من سوء الأدب، لا ترى أن لك رأياً يفوق رأي رسول الله، إذا أمر النبي بشيء ينبغي أن تكون متبعاً له.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب الآية: 36]

مستحيل، إذاً الأدب مع رسول الله مستمر، لذلك:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

[سورة الأنفال الآية: 33]

الآية واضحة، لكن بعد موته ما معنى الآية؟ أي يا محمد ما دامت سنتك قائمة في حياتهم، في بيوتهم، في أعمالهم، في كسب أموالهم، في إنفاق أموالهم، في أفراحهم، في أتراحهم، هم في مأمن من عذاب الله، إذاً ما يصيب الأمة الآن بسبب عدم اتباع منهج رسول الله

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

نحن في بحبوحة طاعة رسول الله، في بحبوحة أخرى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

[سورة الأنفال الآية: 33]

فإذا استغفرنا فنحن في مأمن آخر من الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - موسوعة الأخلاق الإسلامية - الدرس (21-28) : خلق الشجاعة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-02-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ أحمد:

أستاذي الله عز وجل يقول في محكم تنزيله:

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ)

[سورة البقرة الآية: 216]

ويوجه نبيه صلى الله عليه وسلم في آية أخرى فيقول له:

(أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ)

[سورة الأنفال الآية: 65]

فهل هذا التحريض هو الشجاعة، نريد اليوم أن نتحدث وإياكم عن خلق الشجاعة فما هي طريقة استنبات وخلق مفهوم الشجاعة في نفوس الناس ؟.

سلوك الإنسان انعكاس لتصوراته :

الدكتور راتب:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

أستاذ أحمد، لا يمكن أن نفصل بين أخلاق الإنسان وبين معتقداته، هناك علاقة متينة وشيجة بينهما، لأن سلوك الإنسان انعكاس لتصوراته، فالذي يؤمن بالآخرة يؤمن أنه مخلوق للآخرة، له سلوك، والذي يؤمن أنه مخلوق للدنيا فقط له سلوك، والدليل الله عز وجل يقول:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

هناك ترتيب معين بين هذه الكلمات، هو صدق أنه مخلوق للجنة، الحسنى هي الجنة:

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

[سورة يونس الآية: 26]

لأنه صدق أنه مخلوق للحسنى اتقى أن يعصي الله، فاستقامة المؤمن أساسها أنها بعض ثمن الجنة، إذاً يستقيم حرصاً منه على بلوغ الجنة،

(أعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

أعطى بنى حياته على العطاء، لمجرد أن المؤمن نقل اهتماماته إلى الدار الآخرة، لأن هذه الحياة الدنيا أولاً قصيرة، وتنتهي بالموت، ولا يليق بعطاء الله عز وجل أن يكون منقطعاً بالموت، لو كنت أغنى الأغنياء، وأقوى الأقوياء، وانغمس الإنسان في كل شهوات الدنيا، ثم جاء الموت أنهى كل شيء، لأن الموت ينهي قوة القوي، وضعف الضعيف، وغنى الغني، وفقر الفقير، ينهي وسامة الوسيم، ودمامة الدميم، ينهي صحة الصحيح، ومرض المريض، فالموت ينهي كل شيء، لا يليق بكرم الله وعطائه أن يكون محدوداً في الدنيا، فالمؤمن انطلق من أن الله سبحانه وتعالى خلقنا لجنة عرضها السماوات والأرض.

أفضل عمل يقوم به الإنسان أن يبذل حياته في سبيل الله :

لذلك يحضنا دائماً ويقول:

(وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى)

[سورة الضحى]

فلأن المؤمن آمن أنه مخلوق لجنة عرضها السماوات والأرض فيها:

((ما لا عين رأتْ، ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

(وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

فاتقى أن يعصي الله، وبنى حياته على العطاء، مطلق العطاء، يعطي ماله، يعطي وقته، يعطي علمه، يعطي جاهه، يعطي حياته، لأنه آمن أنه مخلوق للجنة، فأعلى عمل يقوم به أن يبذل حياته في سبيل الله، وهذا المعنى لا يمكن أن يستوعبه الآن الطرف الآخر، هم عاشوا للدنيا، هذا النموذج

(أعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

أي إنسان آمن بالدنيا يستغني عن طاعة الله لأن طاعة الله قيود له :

هناك نموذج آخر:

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

أي كذب أنه مخلوق للجنة، آمن بالدنيا، الدنيا هي كل شيء، هي منتهى آماله ومحط رحاله، لذلك أي إنسان آمن بالدنيا يستغني عن طاعة الله، لأن طاعة الله قيود له، وبنى مجده على الأخذ لا على العطاء، فلذلك

(بَخِلَ وَاسْتَغْنَى)

كذب أنه مخلوق للجنة، وصدق أنه مخلوق للدنيا فاستغنى عن طاعة الله، وبنى حياته على الأخذ.

أي عقيدة يعتقدها الإنسان تنعكس على سلوكه انعكاساً واضحاً :

لذلك يمكن أن نجمع قمم البشر في زمرتين، أقوياء وأنبياء، الأنبياء لأنهم صدقوا بالحسنى أعطوا ولم يأخذوا، الأقوياء لأنهم كذبوا بالحسنى أخذوا ولم يعطوا، والناس جميعاً تبع لقوي أو نبي.
أنا لا أستطيع أبداً أن أفصل سلوك الإنسان عن معتقده، فأي عقيدة تعتقدها لابدّ من أن تنعكس على سلوكك انعكاساً واضحاً، الإنسان أحياناً حينما يتوهم أن هناك شفاعة للنبي بالمفهوم الساذج لا يطيع الله عز وجل، أما يتجاهل قول النبي الكريم لابنته فاطمة:

((يا عباس عم رسول الله، يا فاطمة بنت محمد، أنقذا نفسيكما من النار، أنا لا أغني عنكما من الله شيئاً))

[مسلم عن أبي هريرة]

((من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه))

[أحمد عن أبي هريرة]

((لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم))

[أحمد عن أبي هريرة]

لا يمكن أن نفرق بين سلوك الإنسان وبين معتقده، سلوك الإنسان انعكاس دقيق جداً لما يعتقد، فالمؤمن إذا اعتقد أنه مخلوق للجنة، طبعاً يكون شجاعاً، بل إن الجود بالنفس أقصى غاية الجود.

الشجاعة تنشأ من إيمان الإنسان اليقيني أنه مخلوق للجنة :

الشجاعة تنشأ من إيمانك اليقيني الحتمي أنك مخلوق للجنة، وأن هذه الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر، والآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك عادل.
أما أن يكون التسابق في الدنيا تسابقاً أحمقاً، تصور مكاناً للتسابق، طريق طويل جداً ينتهي بحفرة سحيقة ما لها من قرار، فأول سيارة سقطت، والثانية سقطت، أي يجمع المال إلى أن يبلغ المليارات،

يأتي الموت فينهي هذا المال، يبلغ أعلى منصب تأتي جلطة دماغية تجعله في سبات فينتهي هذا المنصب، ينجب أولاداً كثيرين يفتخر بهم يأتي الموت فيلغي هذه المتعة.
فلذلك الإنسان لن يكون شجاعاً إلا إذا آمن بالله، واليوم الآخر، وما من ركنين من أركان الإيمان تلازما كالإيمان بالله واليوم الآخر.

قيمة الإنسان لا فيما يأخذ بل فيما يعطي :

لذلك حينما تؤمن باليوم الآخر إن لم تنعكس مقاييسك مئة و ثمانين درجة فالإيمان باليوم الآخر فيه خلل، أنت حينما تؤمن بالآخرة تبني حياتك على العطاء، تسعد بالعطاء، تسعد ببذل الجهد، وحينما تؤمن بالدنيا فقط تبني حياتك على الأخذ، هناك تناقض بينهما، هناك إنسان يسعده العطاء، بل إن الإنسان قيمته لا فيما يأخذ بل فيما يعطي، لذلك الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا، والأقوياء أخذوا ولم يعطوا، الأنبياء ملكوا القلوب، والأقوياء ملكوا الرقاب، الأنبياء عاشوا للناس، والأقوياء عاش الناس لهم.
إذاً مستحيل وألف ألف مستحيل أن تفهم خلقاً من دون أصل عقدي له، الشجاع مؤمن بالآخرة، بينما الجبان مؤمن بالدنيا.
لهذا حينما تكون المعارك بين المؤمنين وبين غير المؤمنين نجد عند المؤمنين بطولات مذهلة، سببها الإيمان بالآخرة، بينما غير المؤمنين يحتمون بالدروع، يحتمون بالتقنية الحديثة، لكنهم ينهارون حينما يقاربون الموت.
إذاً ملخص هذا الكلام: لا يمكن أن نفصل بين خلق ما وبين الأصل العقدي له، أنت حينما تؤمن بالآخرة تكون إنساناً آخر، وحينما تؤمن بالدنيا تستغني عن طاعة الله، وتبني حياتك على الأخذ، فلذلك بقدر طاعتنا لله نكون شجعاناً، وبقدر بعدنا عن الله نكون جبناء.
الأستاذ أحمد:
أستاذي، الله عز وجل عندما يقول:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران]

هذا هو مصداق قولك عندما تقول: إن الشجاعة لابدّ لها من الإيمان

(إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

الله عز وجل عنده من العطاء ما يفوق الدنيا وما فيها :

الدكتور راتب:

الله عز وجل يقول:

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ)

[سورة إبراهيم الآية: 27]

حينما قال الله عز وجل:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

[سورة آل عمران]

نحن في الدنيا لو أن إنساناً في خصومة مع إنسان آخر على مبالغ فلكية مئات الملايين، ثم اكتشف فجأة أن هناك اجتهاد لمحكمة النقد، وهذا الاجتهاد لصالحه، فحينما يقرأ هذا الاجتهاد الذي لصالحه يختل توازنه من الفرح، يكاد يرقص، لماذا ؟ هي خمس كلمات بالتعبير الدارج حبر على ورق، لماذا أدخل هذا الحبر على الورق كل هذه السعادة إليه؟ لأن هذا كلام ملزم.

الآن أنت عندما تقرأ القرآن الكريم يقول الله عز وجل:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل الآية: 97]

هذا كلام يملأ النفس طمأنينة، أما حينما يقول الله عز وجل:

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ)

[سورة آل عمران]

(وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

[سورة الزخرف]

الله عز وجل أخبرك أن عندي من العطاء ما يفوق الدنيا وما فيها، فلذلك لن تجد شجاعاً حقيقة إلا إذا كان مؤمناً بالله، وباليوم الآخر، وهذه قوة الإنسان المقاوم، وضعف الإنسان المقاوم أنه مؤمن بالدنيا فقط، فلذلك يخاف عليها من هنا يظهر جبنه أحياناً.

الأستاذ أحمد:

رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفه سيدنا أنس بن مالك فقال: كان أحسن الناس، وأشجع الناس، وأجود الناس، هل من مثال على شجاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتب السيرة ؟.

النبي الكريم جمع الكمال البشري كله لذلك هو سيد البشر :

الدكتور راتب:

كنا إذا حمي الوطيس نلوذ برسول الله، كان أشجع أصحابه، مرة سمعوا خبراً أو حركة مريبة فانطلقوا من بيوتهم ليتفحصوا الخبر فإذا بالنبي قد سبقهم، ورجع وقال:

((لَنْ تُرَاعُوا لَنْ تُرَاعُوا))

[البخاري عن أنس]

بشكل عام كل إنسان له أخلاق معينة، لكن يتميز بخلق لكن النبي عليه الصلاة والسلام جمع كل الكمالات، الشجاعة، مع الكرم، مع الحكمة، مع الحلم، مع الرحمة، مع الصبر، لذلك النبي الكريم جمع الكمال البشري كله، لذلك هو سيد البشر، وقمة البشر، وقد أقسم الله بعمره الثمين، كان أشجع أصحابه.

بالمناسبة أستاذ أحمد، إن لم تكن متفوقاً في كل الصفات لن تستطيع أن تخضع من حولك، لو فرضنا طبيب مستشفى، معلوماته محدودة، وعنده طبيب على مستوى علمي عال جداً، لن يستطيع هذا الطبيب ذو المعلومات المحدودة أن يهيمن على هذا العالم الكبير.

ما لم يكن النبي عليه الصلاة والسلام قمة البشر في كل شيء، لن يكون في هذا المقام العلي.

الله تعالى متكفل أن يضع الإنسان في ظرف معين فيكشف حقيقته :

إذاً قضية الشجاعة قضية مقطوع بها، لن تجد إنساناً بعيداً عن الله، مؤمناً بالدنيا، كافراً بالآخرة شجاعاً، لكن يدّعي الشجاعة.

مثلاً المتنبي قال:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمـم

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويخـتصم

الخيل و الليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

***

كلام هذا؟ و عندما واجه عدواً ولى هارباً، فقال له غلامه: ألست القائل: الخيل والليل ؟ قال له: قتلتني قتلك الله.

الإنسان يتكلم كثيراً، أما العبرة بأن يأتي سلوكه مطابقاً لكلامه، فأنا سهل جداً أن أدّعي الشجاعة، أن أدّعي الكرم، لذلك أنا حينما أُقيّم الناس من أقوالهم أكون مخطئاً خطأً فادحاً، الإنسان لا يقيّم إلا من

أفعاله، بل إن الله سبحانه وتعالى تكفل أن يحجم كل إنسان، تكلم ما شئت، تحدث عن شجاعتك، تحدث عن كرمك، الله عز وجل متكفل أن يضع الإنسان في ظرف معين، فيكشف حقيقته.

الإنسان حينما يكون على منهج الله الصحيح تأتي أقواله في مستوى أفعاله :

لذلك أنا أخشى ما أخشاه أن يتباهى الإنسان بشيء، وليست الحقيقة بمستوى هذا الشيء، فالله عز وجل لابد من أن يكشفه، قال تعالى:

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

[سورة آل عمران الآية: 179]

لذلك الإنسان حينما يكون على منهج الله الصحيح تأتي أقواله في مستوى أفعاله.

الأستاذ أحمد:

من أمثلة شجاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً أنه عندما تحتد المعركة يقف على بغلته وينادي في أحد المعارك ويقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

***

وكأنه يشير إلى الكفار من أراد منكم النزال فليأت إليّ فأنا محمد.

الدكتور راتب:

والذي قال: أين محمد لا نجوت إن نجا؟ فأبى النبي إلا أن يبارزه بنفسه فأمسك رمحه ووكزه وكزة فولى هارباً، ولى هارباً يصيح، فلما قيل له ماذا حصل ؟ قال: والله لو بصق علي لقتلني.

أساساً لا يمكن أن يكون القائل إلا في أعلى مستوى ممن حوله، فصحابته قمم وهو على قمة القمم.

الأستاذ أحمد:

عن أنواع الشجاعة وأمثلتها ما هي؟.

أنواع الشجاعة :

الدكتور راتب:

والله أنا أعتب على بعض الناس حينما لا يفهم الشجاعة إلا في الحرب، هناك مئات المواقف في حياتنا اليومية تقتضي الشجاعة، الاعتراف بالخطأ شجاعة.

بالمناسبة أستاذ أحمد، هناك فضيلة اسمها الرجوع إلى الحق، هذه الفضيلة لا يمكن أن تظهر من رسول الله، إنه معصوم، ولا يخطئ، لكن شاءت حكمة الله أن يظهرها عليه، فحجب عنه الموقع المناسب في بدر، حجبه عنه وحياً، واجتهاداً، وإلهاماً، لم يأته الوحي بالموقع المناسب، ولم يلهمه، ولم يجتهد، وكان الموقع غير مناسب، جاءه صحابي يذوب من الأدب، يكاد يقطر أدباً، قال: يا رسول الله ! هذا الموقع وحي أوحاه الله إليك؟ أي إذا كان كذلك لا أتكلم ولا كلمة، قال له: لا، بل هو الرأي والمشورة، قال: والله يا رسول الله ليس بموقع.

نحن أحياناً لا يقبل شيخ عادي من تلميذه أن يراجعه أبداً، يسحقه، فالنبي عليه الصلاة والسلام بكل بساطة، وبكل طيب نفس، قال له: جزاك الله خيراً، وأمر أصحابه أن يتحولوا.

مثلاً أن تعترف بالخطأ شجاعة، وأن تعتذر شجاعة، أحياناً الإنسان ببيته هو السيد، هو الذي لا يخطئ كما يوهم من حوله، يرتكب خطأ كبيراً، لا يعترف أبداً، أنا أقول: أنت حينما تقول لزوجتك: لقد أخطأت فسامحيني فأنت بطل، فالاعتذار شجاعة، الاعتراف بالخطأ شجاعة، أن تنطق بالحق أمام إنسان جائر شجاعة، النفاق سهل جداً، أما أن تقف موقفاً صحيحاً فهذه هي الشجاعة بعينها.

لذلك الحسن البصري أدى مرة واجب العلماء في التبيين، فالحجاج غضب وقال لمن حوله: يا جبناء والله لأروينكم من دمه، وأمر بقتله، بكل بساطة، فجيء به ليقتل، والسياف واقف، والنطع قد مدّ، لما دخل الحسن البصري على مجلس الحجاج حرك شفتيه لم يفهم أحد ماذا قال، فإذا بالحجاج، هذا الإنسان الغاضب، الحاقد، يستقبله، ويقول: أهلاً بأبي سعيد، أنت سيد العلماء، وما زال يقربه، ويقربه حتى أجلسه على سريره، وسأله، واستفتاه، وضيفه، وعطره، وشيعه إلى باب مركز حكمه، السياف صعق، السياف جيء به ليقطع رأسه، الحاجب صعق، تبعه الحاجب، قال: يا أبا سعيد ! لقد جيء بك لغير ما فعل بك، فماذا قلت بربك؟ قال له: قلت لربي لما رأيت السياف واقفاً وعلمت مصيري: يا ملاذي عند كربتي، يا مؤنسي في وحشتي، اجعل نقمته علي برداً وسلاماً كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم.

المؤمن حينما يعتقد أن إنهاء حياة الإنسان بيد الواحد الديان، ولا يمكن أن تعطى هذه الصلاحية لغير الله تعالى، ولا يمكن أن تعطى هذه الصلاحية لإنسان، هذا ثمن الشجاعة أما حينما أرى أن مصيري بيد فلان، هو يميتني أو يحييني، هو يمنعني أو يعطيني، إذاً لا بد من النفاق، والانبطاح، والاستخذاء، والخضوع، والذل، لذلك:

((من دخل على غنى فتضعضع له ذهب ثلثا دينه))

[شعب الإيمان عن ابن مسعود]

ارتباط الشجاعة بالإيمان بالله و اليوم الآخر :

أستاذ أحمد، لا يمكن أن تفهم مكارم الأخلاق إلا في ضوء العقيدة، من دون عقيدة كما ترى، نفاق مستشرٍ، خضوع، استخذاء، تذلل، أما حينما أرى أن الله بيده كل شيء، وأن حياتي بيده، ورزقي بيده، ولن يستطيع أحد أن ينهي حياتي، هذا ثمن الشجاعة.

لذلك عندما وقف سعيد بن الزبير أمام الحجاج قال له: سأقتلك، فقال له: والله لو علمت أن حياتي بيدك لعبدتك، ولكن حياتي بيد الله، قال له: سأقتلك، قال: إذاً تفسد علي دنياي، وأفسد عليك آخرتك.

أحياناً تجد الواحد كألف، وتجد الألف كأف، الشجاعة مرتبطة بالإيمان بالله واليوم الآخر.

لذلك البطولات التي تظهر من المؤمنين، والتي يصعق لها الأقوياء من هذا القبيل.

مرة إنسان دخل إلى فلسطين المحتلة بعهد موشي ديان، وعمل عملاً فدائياً كبيراً، فلما دخل وزير الدفاع إلى الكنيست قامت الدنيا ولم تقعد، يلومونه، فقال ببرود: ماذا أفعل بإنسان جاء ليموت؟ أنا أقصى ما أملكه من تهديد أن ألوح له بالقتل، هو أراد أن يموت مختاراً.

هذا الذي لا يخشى على شيء أن يفقده يعلم علم اليقين أن بعد الحياة دار الآخرة فيها:

((ما لا عين رأتْ ولا أذن سمعتْ، ولا خطر على قلبِ بَشَرْ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

هذا يكون شجاعاً، إذاً لا يمكن أن نفصل الشجاعة عن العقيدة.

الأستاذ أحمد:

مصطلحات نسمعها وتتكرر على مسامعنا، الشجاعة، التهور، الجبن، ما الفرق بين المفردات الثلاثة ؟.

الشجاعة والتهور والجبن :

الدكتور راتب:

أستاذ أحمد، دائماً الفضيلة وسط بين طرفين، الجبن مذموم، والتهور مذموم، ليس المخاطر محموداً ولو سلم، أنا حينما ألقي بنفسي بثمن بخس، أو بلا ثمن، وأتهور أنا لست شجاعاً، أنا أقول دائماً كما أن الأمة الإسلامية والعربية في أمس الحاجة إلى من يموت في سبيل الله، هي في أمس الحاجة أيضاً ألف مرة إلى شاب يعيش في سبيل الله، أنا أكبر الذي يموت في سبيل الله، بل أصغر أمامه، لكنني في أشد الحاجة إلى شاب يعيش في سبيل الله، يسهم في بناء أمته، هذا الشاب الذي دغدغ مشاعرنا حينما استشهد لساعة أو ساعتين، أو يوم أو يومين، لكننا فقدناه، فقدنا طاقة، فقدنا شاباً، أما أنا الآن أتمنى أن

يعيش الشباب في سبيل الله، نحن بحاجة إلى هذا، وإلى هذا، ولكن من أجل بناء أمتنا نحن بحاجة إلى شاب يعيش في سبيل الله يتفوق باختصاصه، يضع اختصاصه في خدمة أمته.

الأستاذ أحمد:

وذاك المضحي بنفسه والاستشهادي أليس أيضاً يضحي لبناء أمته ؟.

الدكتور راتب:

طبعاً، لكن كل واحد له دور، نحن الأدوار تختلف، على كلٍّ كما تفضلت نحن بحاجة إلى شابين شاب يموت في سبيل الله، وشاب يعيش في سبيل الله.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - موسوعة الأخلاق الإسلامية - الدرس (22-28) : الرابط بين الأخلاق وبين التوحيد

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-02-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ أحمد:

أكرمك الله، أستاذي الكريم ونحن نخوض عُباب بحر الأخلاق الإسلامية استوقفتني آيات من ذكر الله الحكيم، يقول فيها الله عز وجل:

(ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

[سورة القلم]

فبعد أن يرد الله عن رسوله صلى الله عليه وسلم الدعوات التي أكيلت عليه واتهمها، أنه عراف، وساحر، ومجنون، أتى ليثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم على

(خُلُقٍ عَظِيمٍ)

فرسول الله متجه اتجاه إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد والبلاد، لإقامة رسالة التوحيد، ويثبت الله عز وجل لنبيه أنه

(لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

فما الرابط بين الأخلاق وبين التوحيد، وكلنا يعلم أن التوحيد هو أصل باب العقائد؟.

التوحيد كلمة الإسلام الأولى :

الدكتور راتب:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

أستاذ أحمد، بادئ ذي بدء: ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، والتوحيد كلمة الإسلام الأولى، وهو في حقيقته ألا ترى مع الله أحداً، أن ترى أن الله وحده، هو المعطي، وهو المانع، هو الرافع، وهو الخافض، هو المعز، وهو المذل، هو الرازق، كل أحوال الإنسان منوطة بأفعال الله عز وجل، فحينما

تتوحد الوجهة إلى الله عز وجل يكون العبد قد اقترب من التوحيد، سأوضح هذه الحقيقة بمثل: لو أنك أردت أن تسافر، وتحتاج إلى تأشيرة، ودخلت إلى دائرة الهجرة والجوازات، وقيل لك: إن الموافقة على هذا الجواز، وبهذا المكان بالذات من صلاحية المدير العام وحده، وفي هذا البناء آلاف الموظفين، فهل يمكن أن تبذل ماء وجهك لغير المدير العام؟ إطلاقاً، وإلا التصرف أحمق.

فحينما توقن يقيناً أن صلاحية الموافقة على السفر إلى هذا البلد منوطة بيد المدير العام وحده، إذاً لا تتضعضع أمام غيره، ولا تبذل ماء وجهك أمام غيره، بل تتجه مباشرة إلى من بيده الأمر، هذا مثل للتوضيح.

علاقة الإنسان مع الله فقط :

أنت حينما توقن أن أمرك بيد الله، أن حياتك بيد الله، أن إنهاء الحياة بيد الله، أن الرزق بيد الله، أن الذين هم فوقك بيد الله، أن أعداءك بيد الله، أن من هم دونك بيد الله، أن أقرب الناس إليك بيد الله، حينما ترى أن الله سبحانه وتعالى:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

[سورة الزمر]

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

[سورة الأعراف الآية: 54]

(ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

[سورة الكهف]

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

[سورة الزخرف الآية: 84]

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا)

[سورة فاطر الآية: 2]

حينما توقن أن كل شؤون حياتك، وكل من حولك، وكل من فوقك، وكل من دونك، بيد الله عز وجل، إذاً أنت علاقتك مع الله، اعمل لوجه واحد تكفك الوجوه كلها.

((من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله هم دنياه))

[أخرجه الحاكم عن عبد الله بن عمر]

علاقتك مع واحد إن أرضيته أرضى عنك الجميع، وإن أسخطه أسخط عنك الجميع، إن أقبلت عليه أنت في قمة السعادة، وقد تقول من أعماق نفسك: يا رب ماذا فقد من وجدك؟ وماذا وجد من فقدك؟ وإذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟

الإيمان الإبليسي إيمان لا يقدم و لا يؤخر :

الحقيقة أستاذ أحمد، من السهولة بمكان أن تؤمن بالله خالقاً، هذا الإيمان آمن به إبليس.

(خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

[سورة ص]

أن تقول إبليس قال:

(فَبِعِزَّتِكَ)

[سورة ص الآية: 82]

(أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

[سورة الأعراف]

أما أن ترى أن يد الله تعمل وحدها، وأنه لا إله إلا الله، لا رافع، ولا خافض، ولا معز، ولا مذل، ولا معطي، ولا مانع، ولا رازق إلا الله، إذاً كل أمرك متعلق به.

علاقة التوحيد بالأخلاق :

تفضلت وسألت ما علاقة التوحيد بالأخلاق؟ أنت حينما ترى أن أمرك بيد الله لا تنافق لأحد، ولا تكذب، ولا تتضعضع أمام قوي، ولا أمام غني، أحد الأنبياء الكرام قال:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً)

[سورة هود الآية: 55]

متحدياً.

(ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة هود]

إنسان أمام وحوش كاسرة، لكن هذه الوحوش مربوطة بأزمة قوية، بيد جهة عليمة، رحيمة، عادلة، فأنت علاقتك ليست مع الوحوش، بل مع من بيده أزمتها، فإن رضي الله عنك حجزها عنك، وإن أراد أن يؤدبك أطلق بعضها، فالبطولة أن ترى الفعال الحقيقي، البطولة أن ترى من بيده الأمر. لذلك أن تؤمن بالله خالقاً شيء، وأن تؤمن بالله واحداً، ومتصرفاً، وأن لا إله إلا الله، ولا شيء يقع في الكون إلا بأمره، لذلك أقول: كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

إذاً هذه المقولة على إيجازها يمكن أن تلقي ضوءاً على كل ما يجري في العالم.

المؤمن يرى أن أفعال الله كلها حكمة ورحمة وعدل :

المؤمن متوازن، المؤمن يرى أن أفعال الله حكمة كلها، رحمة كلها، عدل كلها، مصلحة كلها، خير كلها، التوحيد مريح، والدليل أن معظم الأمراض النفسية تتأتى من الشرك، قال تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

[سورة الشعراء]

أنت من خوف الفقر في فقر، من خوف المرض في مرض، توقع المصيبة مصيبة أكبر منها، أنا لا أصدق أن يصاب مؤمن بمرض نفسي، كيف يمرض؟ من بيده الأمر؟ ربنا، يسمعه، يناجيه، يدعوه، يرجوه، يبتهل إليه، هو معنا أينما كنا.

مثلاً: هل من مصيبة على وجه الأرض عبر التاريخ أكبر من أن إنساناً يجد نفسه فجأة في بطن حوت، إنسان ضعيف، ماذا يفعل؟ سيدنا يونس دخل إلى بطن الحوت، فالتقمه الحوت، وكان في ثلاث ظلمات، ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة بطن الحوت.

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنبياء]

وانتهت القصة، الآن جاء التعقيب الذي قلبها إلى قانون قال:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

هذه الآية إلى أبد الآبدين، هذه الآية لكل المؤمنين، في كل زمان، في كل مكان.

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

[سورة طه]

أنت حينما ترى أنك بمعية الله تشعر بأنس دائم.

معية الله معيتان ؛ عامة و خاصة :

ولكن لا بدّ من وقفة، معية الله معيتان، الله مع كل إنسان، يؤكد هذا قوله تعالى:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد]

معكم بعلمه، أما إذا قال الله عز وجل: إن الله مع المؤمنين، مع الصادقين، هذه معية خاصة، أي معهم بالتوفيق، معهم بالتأييد، معهم بالحفظ، معهم بالنصر، المشكلة الأولى في العالم الإسلامية ضعف التوحيد، الإيمان بالله متوافر، بل إن إبليس بمعنى أو بآخر مؤمن، لأنه قال ربي:

(فبعِزَّتِكَ)

أقرّ بالله، بالربوبية.

ولكن حينما ترى أن الأمر كله بيد الله، فأنت موحد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، بل قالوا: نهاية العلم التوحيد، ونهاية العمل التقوى، فمن وحّد الله واتقاه حقق الهدف من وجوده، بل إن فحوى دعوة الأنبياء من دون استثناء توحيد وعبادة.

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

[سورة الأنبياء]

حينما تؤمن أن الإله واحد، وأنه لا بدّ من أن تنصاع له، فقد حققت الهدف الأكبر من وجودك في الدنيا.

الأستاذ أحمد:

قول الله عز وجل:

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

[سورة الجمعة]

تعليم الآيات ثم التزكية، حبذا أستاذنا الكريم لو نعرف أقسام التوحيد وتفصيلاته.

أقسام التوحيد :

الدكتور راتب:

الحقيقة أقسام التوحيد أن ترى أولاً أن المتصرف في الكون واحد، هذا توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية ترى أن أمرك كله بيد الله، لذلك التوحيد ألا ترى مع الله أحداً، الإنسان أحياناً يتجه إلى الله، وإلى غير الله، هذا نوع من الشرك، أحياناً يعتقد أن الله فعال، وأن في الأرض أقوياء يفعلون، هذا نوع من الشرك، حينما تعتقد اعتقاداً جازماً أن الفعال هو الله، وتوحد الوجهة إلى الله، وتوحد الإخلاص لله، بين اعتقاد، وبين وجهة، وبين إخلاص هنا أقسام التوحيد، أو أنواع التوحيد، توحيد عقيدة، توحيد وجهة، توحيد إخلاص، فأنا حينما أوحد الله عز وجل أتجه إليه، ولا أتجه لغيره.

النبي عليه الصلاة والسلام سأل أحد أصحابه وهو معاذ وكان رديفه على الدابة:

((قال: يا معاذ ! هل تدري ما حقُّ الله على العباد؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، ـ سأله ثانية وثالثة بأسلوب المربي الحكيم ـ قال معاذ: فإن حقَّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، فسأله

ثانية: قال: هل تدري ما حقُّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ ـ سأله ثانية وثالثة ثم أعطاه الجواب الرائع ـ قال: ألا يعذّبهم))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن معاذ بن جبل]

نعمة الأمن مختصة بالمؤمن وهي من ثمار التوحيد :

لذلك هناك ما يسمى بالخلاص والسلامة، وهناك ما يسمى بالأمن، الفرق بينهما كبير، الإنسان قد لا يصاب بمكروه فهو في سلامة، لكنه مضطرب نفسياً، أما ألا يتوقع المكروه هذا أرقى من السلامة، هذه نعمة الأمن، قال تعالى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام]

لم يقل الله عز وجل أولئك الأمن لهم، لو أن الآية كذلك لكان الأمن لهم ولغيرهم، أما

(أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ)

فيها القصر، والحصر، الأمن لهم وحدهم، لذلك لا يمكن أن ينعم إنسان بالأمن إلا إذا كان مؤمناً، بنص هذه الآية، لكن الذي خرج عن منهج الله، وكان قوياً وكان غنياً، ينعم بالرفاه، ينعم بالقوة، ولكن لا ينعم بالأمن.

والدليل أن الإنسان حينما يشرك يقذف الله في قلبه الخوف.

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

[سورة آل عمران الآية: 151]

من لوازم الشرك الرعب والخوف، ولو كان المرء قوياً، ولو كانت دولة قوية، من لوازم الشرك الرعب، من لوازم الإيمان الأمن، لذلك قال تعالى يمتن على عباده المؤمنين:

(الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

[سورة قريش]

وحينما يغضب على أمة:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

[سورة النحل]

نعمة الأمن مختصة بالمؤمن، هذه من ثمار التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

الأستاذ أحمد:

في حديث النبي عليه الصلاة والسلام الذي بنى فيه الإسلام على خمسة أعمدة ومحاور، جعل الشهادة محوراً، وبقية العبادات محاور أخرى، لكن الذي يلفت النظر إلى ما أريد قوله أن الصلاة إقامتها تحتاج إلى مثابرة، وإلى مصابرة، وقال الله عز وجل:

(وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ)

[سورة البقرة]

هذه الصلاة، أما الصوم فهو أيضاً فيه مجاهدة، أداء الزكاة فيه مكاسرة للنفس ومغالبة للهوى، والحج سفر وقطعة من العذاب، فما بال الشهادة والتوحيد قرنت مع هذه العبادات وهي كلمة تقال لكنها هي الحد الفاصل؟.

العبادات لا تصح ولا تقبل إلا إذا صحّ التوحيد :

الدكتور راتب:

لأن هذه العبادات لا تصح، ولا تقبل إلا إذا صحّ التوحيد، أنت حينما تدخل في الصلاة تقول: الله أكبر، أكبر من كل شيء، أكبر من كل قوي، أكبر من كل متجبر، أكبر من الدنيا، أكبر من شهوات الدنيا، لولا التوحيد لما انعقدت الصلاة.

في الصيام يمتنع الإنسان عن سائر المفطرات، وعن كل معصية وإثم، لولا التوحيد لما امتنع، العبادات الشعائرية لا تصح إلا بالتوحيد، لماذا؟ لأن الإنسان حينما يؤمن بالله خالقاً، ومربياً، ومسيراً، وحينما يؤمن بالله موجوداً، وواحداً، وكاملاً، وحينما يؤمن بالله، بأسمائه الحسنى، وصفاته الفضلى، الآن توحدت عقيدته، وتوحدت وجهته، وتوحدت نيته، كما شرحت قبل قليل أنواع التوحيد، فإذا صحّ توحيده صحت صلاته، وصيامه، وحجه، وزكاته، بل إن كل خلل في عقيدة الإنسان أو في سلوكه دليل على ضعف التوحيد، حينما يخاف الإنسان من جهة قوية يكون هذا الخوف بسبب ضعف التوحيد.

لذلك النبي عليه الصلاة والسلام وهو في غار ثور قال أبو بكر:

((نظرتُ إلى أقدام المشركين ونحن في الغار على رؤوسنا. فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى قدَمَيه أبْصَرَنَا تحت قدميه. فقال: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أنس بن مالك]

أي إذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟

الأستاذ أحمد:

من تعريجك أستاذنا الكريم على سيرة النبي عليه الصلاة والسلام كلنا يرى ويعلم أن القرآن الكريم منهاج كامل وهداية، وأن معلمنا الأول رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي نستقي منه الترجمة

الحرفية لتوجيهات القرآن الكريم، حبذا لو نسمع منكم شيئاً عن اصطباغ حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعاني التوحيد، وهذا الخلق العظيم.

اصطباغ حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعاني التوحيد :

الدكتور راتب:

في طريق الهجرة أهدر دمه، ووضع مئة ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، وهو مع الصديق في الصحراء، احتمال القبض عليه، أو قتله كبير جداً، تبعه سراقة، القصة طويلة، لكن بالنهاية قال له: يا سراقة ! كيف بك إذا لبست سواري كسرى؟ ـ أي إن صحّ أن للخط البياني للدعوة نهاية دنيا في أثناء الهجرة، كان الخط البياني للدعوة المحمدية في النهاية الدنيا ـ كأنه يقول: أنا سأصل سالماً، وسأؤسس دولة، وسأحارب أكبر دولتين في العالم، وسأنتصر عليهما، وسوف تأتيني كنوز كسرى، ولك يا سراقة سوار كسرى، لأنه يرى الله وحده، ولا يليق بألوهية الإله أن يقع في ملكه ما لا يريد.

وهذا الإيمان يمنح المؤمن الطمأنينة والثقة، أحياناً نهزم من الداخل، والهزيمة من الداخل خطيرة جداً، أعظم هزيمة أن تتضعضع ثقتك بالله، أن تشعر بالكآبة، بالإحباط، أن المسلمين قد انتهوا، لا، أحياناً يسوق الله لعباده امتحاناً صعباً جداً يقوي الطرف الآخر، يقويه، يقويه، يقويه، إلى أن يتوهم ضعيف الإيمان أنه فعال لما يريد، لذلك يقول متى نصر الله؟ بل يقول أين الله؟ امتحان صعب جداً، والمسلمون الآن يمرون فيه، حتى يقول ضعيف الإيمان أين الله؟ ثم يظهر آياته، فتختل موازين القوى، حتى يقول عدو الإسلام: لا إله إلا الله.

التوحيد يعطي الإنسان قوة و ثقة :

ألم يقل فرعون وهو يغرق:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

[سورة يونس الآية: 90]

كان الامتحان امتحاناً صعباً جداً.

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

[سورة آل عمران الآية: 179]

لذلك في معركة الخندق مرّ الصحابة الكرام في امتحان صعب جداً.

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً)

[سورة الأحزاب]

أحياناً معامل الإسمنت كل طبخة يصنع منها مكعبات، هذا المكعب يوضع في جهاز بسيط جداً، يمسك المكعب من أعلاه، وأسفله مرتبط بميزان، توضع الأثقال تباعاً في أي وزن انكسر هذا المكعب، هذه قوة تماسك هذه الطبخة.

وكل مؤمن ينكسر بضغط معين، أو بإغراء معين، فكلما قوي توحيده أصبح ممتنعاً عن أن ينهار، التوحيد يعطي الإنسان قوة.

الصلح مع الله و الطاعة له ثمن النصر و الثبات :

سيدنا يونس

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ)

النبي الكريم في الغار:

((فقال: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما))

سيدنا موسى:

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

[سورة الشعراء]

أي احتمال النجاة صفر، فرعون بجيشه، بحقده، بقوته، بجبروته، بأتباعه، بجنوده، وراء شرذمة قليلة معها سيدنا موسى، والبحر أمامها،

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

(قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

[سورة الشعراء]

لذلك التوحيد يهب الإنسان قوة كبيرة جداً، يروي التاريخ أن سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه كان يواجه في آسيا خصومه، وكانوا ثلاثمئة ألف، ومعه ثلاثون ألفاً، فطلب المدد من سيدنا الصديق، فأرسل له رجلاً واحداً، هو القعقاع بن عمر، فقال له: أين المدد؟ قال: أنا، قال: أنت؟! قال: أنا، ومعه كتاب، فتح الكتاب يقول فيه الصديق: يا خالد ! والذي بعث محمداً بالحق إن جيشاً فيه القعقاع لا يهزم. فالإنسان بالتوحيد يغدو الواحد بألف، بمليون، ومن دون توحيد يغدو المليون بأف، لذلك حينما نبتعد عن التوحيد، ونؤله القوى الكبيرة، ونسترضيها على حساب ديننا، وننبطح أمامها تضعف هذه الأمة.

لذلك التوحيد قوة، الله موجود، والأمر بيده، وهو الذي ينصر، فعلينا أن ندفع ثمن النصر، الصلح معه والطاعة له.

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد الآية: 11]

وما من شيء يحتاجه المسلمون اليوم أكثر من التوحيد.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - موسوعة الأخلاق الإسلامية - الدرس (23-28) : التأمل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-02-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم :

الأستاذ أحمد :

سيدي الكريم ، نتمنى أن نقف اليوم معكم عند خُلق جديد من الأخلاق الإسلامية ، ألا وهو خلق التأمل، خلق التأمل يدلنا عليه قول الله عز وجل :

(وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)

(سورة البقرة)

مما يبعث على تقوى الله عز وجل أن يحرك الإنسان ذهنه ، وعقله ، ولبَّه ، وفكره ، من هذا قالوا : التفكر باعث على الإيمان ، والإيمان باعث على استقامة السلوك ، وهذا سبب اختيارنا اليوم لهذا الموضوع ، ليكون خلقاً من الأخلاق الإسلامية ، فكيف يكون التأمل بادئ ذي بدء ؟

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

التأمل :

1 – النبيُّ أمِر بالتأمل :

أستاذ أحمد ، ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((أمَرَنِي رَبِّي بِتِسْعٍ : خَشْيَةِ اللهِ في السِّرِّ والعلانية ، وكلمة العدل في الغضب والرضى ، والقصد في الفقر والغنى ، وأن أصِلَ مَنْ قطعَنِي ، وأعطي مَنْ حَرَمَنِي وأعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَنِي ، وأن يكون صَمْتي فِكْرًا ، ونُطقِي ذِكْرًا ، ونظري عبرة))

[زيادات رزين عن أبي هريرة ، وانظر الترغيب والترهيب]

2 – الوقوف عند آيات الأمر والنـهي عملاً وتطبيقًا :

لكن هناك أصل كبير جداً في التأمل هو : أنك إذا قرأت القرآن الكريم ، وقرأت آية فيها أمر ينبغي أن تأتمر بها ، وأيّ آية ينبغي أن يكون لك موقف منها ، هذه آية أمر ينبغي أن تأتمر ، وإذا قرأت آية فيها نهي ينبغي أن تنتهي ، قرأت آية فيها وصف لمشاهد أهل الجنة ينبغي أن تسعى إلى الجنة ، قرأت آية فيها وصف لأهل النار ينبغي أن تتقي النار ، ولو بشق تمرة ، قرأت آية فيها قصة أمم غابرة كفروا فأهلكهم الله عز وجل ينبغي أن تتعظ .

أين التأمل في القرآن ؟ 1300 آية تتحدث عن الكون ، والإنسان والمخلوقات ، ما يزيد على سدس القرآن .

قبل قليل قلت : أيّ آية لك منها موقف ، هذه الآيات ما الموقف منها ؟ هو التأمل والتفكر .

3 – آياتٌ قرآنية أصلٌ في التأمل :

الأصل في الموضوع :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(سورة آل عمران)

هذه الآية أصل في التأمل ، الآن :

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس الآية : 101)

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

(سورة عبس)

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

(سورة الطارق)

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى)

(سورة الليل)

(وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ)

(سورة الفجر)

(وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى)

(سورة الضحى)

آيات القرآن الكريم الكونية ، والتكوينية ، والمتعلقة بالإنسان ، وبالمخلوقات رؤوس موضوعات للتأمل، من أجل معرفة الله ، فإذا عرفنا الله أولاً ، ثم عرفنا أمره تفانينا في طاعة الآمر ، أما إذا عرفنا الأمر ، ولم نعرف الآمر تفننا في معصية الآمر .

الأستاذ أحمد :

هذا يجعل إذا أننا عرفنا الآمر أولاً امتثلنا ، وقلنا : سمعنا وأطعنا ، أما لو أوتي لنا بالأمر مجرداً من غير إيمان بالله عز وجل لتفلتنا ، وسارعنا بالهروب من هذا .

الدكتور راتب :

معرفة الآمر قبل معرفة الأمر :

المجنَّد في قطعة عسكرية ، قال له زميله : ازحف ، لا يزحف ، قال له عريف : ازحف ، ربما لا يزحف ، قال له اللواء : ازحف ، يزحف ، الأمر واحد .

حينما تعرف مَن هو الآمر ، ماذا ينتظرك لو عصيته ، ماذا ينالك لو أطعته ، لذلك أنا أقول : إن عرفنا الآمر ، ثم عرفنا الأمر تفانينا في طاعة الآمر ، والمشكلة الكبرى في العالم الإسلامي أن الأمر معروف، لكن هناك ضعف شديد في معرفة الآمر ، هذا الضعف انعكس تقصيراً وتجاوزاً وانحرافاً .

الأستاذ أحمد :

رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما كان يذهب ، ويتعبد في الغار الليالي ذوات العدد ، لم تكن الرسالة بعد قد نزلت عليه صلوات الله عليه ، ولم يؤمر بعبادات وطاعات ، فهل كانت عبادته هناك عبارة عن أدعية ؟ أم كانت تأملاً ، وتفكراً ؟

الدكتور راتب :

4 – التأمل والتفكر عبادة :

كانت تأملاً ، العبادة الأولى هي التأمل ، لأن الله عز وجل يقول :

(وَيَتَفَكَّرُونَ)

التفكر مستمر ،

(وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

ودليل آخر :

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة الزمر الآية : 67)

فالإنسان يرقى في معرفة الله عن طريق التأمل .

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآَيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

(سورة الجاثية)

إذاً التفكر هو العبادة الأولى ؛ عبادة معرفة الله .

الأستاذ أحمد :

وكيف تكون وظيفة التأمل ؟

الدكتور راتب :

من خلال الأمثلة نكتشف هذه الوظيفة ، وهي بكلمة موجزة : ينبغي أن ينتهي بك المتأمل إلى معرفة الله ، إن عرفته عرفت كل شيء ، وإن فاتك فاتك كل شيء .

هذا ما يحدث عند دوران الأرض حول الشمس :

مثلاً : الأرض تدور حول الشمس في مسار بيضوي إهليلجي ، في أثناء حركتها من القطر الأكبر إلى القطر الأصغر بحسب قانون الجاذبية ، الجاذبية تتأثر بالمسافة طولاً وقِصراً ، فإذا قلّت المسافة ازدادت الجاذبية ، وحينما تتجه الأرض في مسارها حول الشمس من القطر الأصغر ، وكانت في القطر الأكبر فهناك احتمال كبير أن تنجذب الأرض إلى الشمس ، وإذا انجذبت إلى الشمس احترقت في ثانية واحدة ، وانتهت الحياة ، هذه يد من ؟ علم من ؟ قدرة من ترفع سرعتها لينشأ من رفع السرعة قوة نابذة تكافئ القوة الجاذبة ، فتبقى على مسارها .

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

(سورة فاطر الآية : 41)

الآن وصلت إلى القطر الأصغر ، ولأن سرعتها ارتفعت نشأت قوة نابذة تكافئ القوة الجاذبة :

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

تابعت سيرها ، وصلت إلى القطر الأطول ، سرعتها عالية ، السرعة العالية مع ضعف الجاذبية هناك احتمال أن تتفلت من جاذبية الشمس ، وتنطلق في الفضاء الكوني ، عندئذٍ تصبح حرارة الأرض 170 درجة تحت الصفر ، وهو الصفر المطلق ، وعندئذٍ تنتهي الحياة كلياً من على الأرض .

ما الذي يحصل ؟ تخفض الأرض سرعتها ، هذه ن ؟ علم من ؟ قدرة من ؟ تقدير من ؟ من هذا الانخفاض تنشأ قوة نابذة أقلّ ، لتكافئ القوة الجاذبة الأقل ، فتبقى في مسارها :

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

لا بد من إله عظيم ، لا بد من حكيم قدير غني ، لذلك التفكر في خلق السماوات والأرض يضع الإنسان أمام عظمة الله .

لو فرضنا أن هذه الأرض تفلتت من جاذبية الشمس ، وأردنا أن نعيدها إلى الشمس ، فإننا نحتاج إلى مليون مليون حبل فولاذي ، قطر كل حبل خمسة أمتار ، وهذا الحبل يتحمل قوى شد تساوي مليوني طن ، بشكل أو بآخر قوة جذب الشمس إلى الأرض تساوي مليون مليون ضرب مليونين ، مليوني مليون مليون طن ، كل هذه القوة من أجل أن تحرف الأرض 3 ميليمترات في الثانية ، تسير الأرض على مسار 3 ميليمترات في الثانية تشكل في المجموع مسارا إهليلجيا .

لو غرزنا هذه الحبال على سطح الأرض المقابل للشمس ، المفاجأة أن بين كل حبلين خمسة أمتار ، نحن أمام غابة من الحبال ، لا زراعة ، ولا صناعة ، ولا بناء ، ولا قطار ، ولا طريق ، ولا طيران ، ولا شيء ، يأتي قوله تعالى :

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد الآية : 2)

أي رفع السماوات بعمد لا ترونها ، هي القوة الجاذبية ، هذه آية تدل على الله عز وجل .

سرعة الضوء :

إنشتاين عملاق العلماء ، الفيزيائيين ، الذي جاء بالنظرية النسبية ، وله قول إيماني رائع ، هو يقول : " كل إنسان لا يرى من هذا الكون قوة هي أقوى ما تكون ، عليمة هي أعلم ما تكون ، رحيمة هي أرحم ما تكون ، هو إنسان حي ، ولكنه ميت " .

كيف اكتشف هذا العالم الكبير أن السرعة المطلقة في الكون هي سرعة الضوء ، 300 ألف كم تقريباً، وأن كل جسم سار مع الضوء أصبح ضوءاً ، وأن كل جسم سبق الضوء تراجع الزمن ، ويمكن حينئذ افتراضاً لو ركبنا مركبة أسرع من الضوء لرأينا الرومان وهم في الشام ، ورأينا موقعة بدر وأحد والخندق ، إذا سبق الإنسان الضوءَ تراجع الزمن ، فإذا سار معه توقف الزمن .

لو تصورنا طائرة أقلعت من سدني إلى أمريكا ، أمستردام في هولندا ، وفي وواشنطن في أمريكا ، وسرعتها كانت 1600 كلم ، مع سرعة حركة الأرض مع الشمس ، مع سرعة الأرض حول نفسها ، ينطلق من سدني الساعة الخامسة صباحاً ، ويصل إلى واشنطن الساعة السابعة صباحاً في نفس اليوم ، سار مع الأرض .

إذاً : لو سرنا مع الضوء لتوقف الزمن ، هذه الندوة لو أنه يصدر منها إشعاعات ، وسرنا معها لرآها الناس إلى أبد الآبدين ، ولو قصرنا عن الضوء لتراخى الزمن .

فهذه النظرية دقيقة جداً ، أعطت الزمن البعد الرابع ، أما أن نجد هذه النظرية في القرآن فهذا شيء غريب جداً ! قال تعالى :

(وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)

(سورة الحج)

العرب تعدّ السنة القمرية ، القمر يدور حول الأرض دورة كل شهر ، إن أخذنا مركزه ومركز الأرض، ووصلنا بينهما بخط ، هذا الخط هو نصف قطر الدائرة ، التي هي مسار القمر حول الأرض ، القمر والشمس ، المركز والمركز ، وصلنا بخط ، هذا الخط نصف قطر الدائرة التي هي مسار القمر حول الشمس ، لو ضاعفنا هذه المسافة ، و ضربنا القطر في البي ـ 14 ، 3 ـ المحيط ، لو ضربنا بـ 12 بالسنة بالألف ، بالألف سنة ، طالب من طلابنا بإمكانه أن يحسب كم يقطع القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام ، لو قسمنا هذا الرقم على ثواني اليوم ، 60 بـ 60 ، بـ 24 ، المفاجأة الصاعقة لو قسمنا ما يقطع القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام على ثواني اليوم لكانت سرعة الضوء الدقيقة ، 299752 ، والتقريبية 300 ألف ، ما معنى ذلك ؟ أي أن ما يقطعه القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام يقطعه الضوء في يوم واحد :

(وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)

هذه التأملات ترى أن الله عظيم ، وأن خالق الأكوان هو الذي أنزل هذا القرآن ، هذا تأمل أيضاً .

الأستاذ أحمد :

حينما يقول الله عز وجل :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ)

(سورة العنكبوت الآية : 20)

ثم نرى كثيراً من العلماء والباحثين ، إن كان في الطبيعة أو في الحيوان ، أو في أعماق البحار ، أو أطباء يصلون ببحثهم ، وعلمهم إلى أن لهذا الكون خالقاً ، أو يداً تنظم هذا الكون ، الذي يلفت أنظارنا إلى أن البعض يقول لك : تأملت ، وبعد التأمل خرجت بنتيجة مفادها أن ليس لهذا الكون إلهاً ، وأن الصدفة التي أوجدت هذا الكون ، أو أن الطبيعة أوجدت نفسها بنفسها ، فهل يصدق هذا الرجل في أنه بعد التأمل خرج بهذه النتيجة ، أم أنه رجل مكابر ؟

الدكتور راتب :

لا وجود للصدفة :

لا ، هو مكابر ، هل تصدق أن نأتي إلى مطبعة فيها الآلات ، وفيها الحبر ، وفيها الحروف ، وفيها

الورق ، ونأتي بمتفجرة ضخمة جداً ، ونفجر هذه المطبعة ، النتيجة قاموس لاروس ، مستحيل ! .

إذا أتينات إلى مصنع حديد ، وفجرناه ، هل تكون النتيجة طائرة جانبو ، أو 777 ، مستحيل ، ومبدأ الصدفة ألغي ، من أجل أن تسحب عشر ورقات من كيس بالتسلسل ، حالة واحدة من عشرة آلاف مليون لعمل بسيط جداً ، ولا قيمة له أن تضع عشر وريقات في كيس مرقمة من واحد إلى عشرة ، وأن تسحب عشوائياً إلى أن تخرج هذه برقم واحد ، ثم اثنين ، ثم ثلاثة ، وأربعة وخمسة ، وستة ، وسبعة ، وثمانية ، وتسعة ، وعشرة ، هي حالة من عشرة آلاف مليون حالة .

أما ذرة الحمض الأميني الذي في خلية الإنسان فلا تكفي ذرات الكون لوجوه صدفة ، فموضوع الصدفة موضوع لا وجود له ، قال تعالى :

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ)

(سورة المدثر)

لا يمكن أن يكون الإلحاد عن علم ، قال تعالى :

(وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ)

(سورة المؤمنون الآية : 117)

مستحيل أن يكون الكفر مبرهناً عليه .

الأستاذ أحمد :

بعض الناس قال : إن مجال التفكر أربعة ، تفكر بالطاعات ، وتفكر بالمعاصي ، وتفكر بالمهلكات ، وتفكر بالمنجيات ، وجعل التفكر بالطاعات والمعاصي كأنه عنوان أنه بالجوارح ، وأما التفكر بالمهلكات والمنجيات فيتعلق بالنفس ، الجوارح فهمناها ، تفكرت في معصية فعلتها ، أو أتفكر في عبادة قمت بها ، فهل التفكر في المهلكات والمنجيات هي أمثال الغيبة ، والنميمة ؟

الدكتور راتب :

التفكر في المهلكات والمنجيات :

الكبائر الباطنة أخطر من الكبائر الظاهرة ، الكبائر الظاهرة يتاب منها ، ولكن الكبائر الباطنة قلّما يتوب الإنسان منها ، لأنه يتوهم أنه هو على صواب ، لذلك أخطر شيء في حياة الإنسان الكبائر الباطنة ، الكبر ، والاعتداد بالنفس ، والشعور بالتفرغ والتوحد ، والشعور بالفوقية ، والاستعلاء ، هذه الأمراض مهلكة .

الأستاذ أحمد :

هل تنسحب على الجوارح ؟.

الدكتور راتب :

طبعاً .

الأستاذ أحمد :

أستاذي الكريم ، سيدنا بشر الحافي قال : " لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله " ، فهل التأمل وحده كافٍ أن يعصم الإنسان عن المعاصي .

الدكتور راتب :

التأمل سبيل لعصمة الإنسان من المعاصي :

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر الآية : 28)

حينما تتفكر في خلق السماوات والأرض تقف أمام عظمة الله .

تأمَّل كيف في آلية مواجهة الإنسان للخطر :

أنا ذكرت مرة أن الإنسان قد يمشي في بستان ، فيرى أفعى ، ما الذي يحصل ؟ صورة الأفعى تنطبع على شبكية العين إحساساً ، هذه الصورة تنقل إلى الدماغ بآلية معقدة جداً ، كآلية نقل الصورة عبر التلفزيون ، العصية والمخاريط فيها مواد كيماوية ، تتأثر بالضوء ، ينشأ من هذا التأثر تيار كهربائي متفاوت الشدة ، هذا يشحن إلى الدماغ ، وترسل الصورة التي كانت على شبكية العين ، الدماغ معه مفهومات ، الأفعى لها صورة ، لكن الطالب الذي درس الأفعى ، وأن لدغتها قاتلة ، هذا مفهوم ، هناك تقرأ الصورة في ضوء المفهومات ، الدماغ ملك الجهاز العصبي ، يدرك الخطر ، فيأمر بمواجهة الخطر ، وهناك ملِكة اسمها الغدة النخامية هي ملكة الجهاز الهرموني ، وكأن الدماغ كملك يلتمس من الغدة كملكة أن تواجه الخطر ، النخامية أوامرها هرمونية ، بينما الدماغ أوامره كهربائية ، الغدة النخامية ترسل أمراً إلى الكظر ، هي غدة فوق الكلية ، الكظر بدوره يوجه أربعة أوامر ، أمرا إلى القلب ، يرفع وجيب القلب من 80 ضربة إلى 180 ضربة ، لأن الخائف يحتاج إلى جهد عضلي ، ليهرب أو ليواجه ، والجهد يحتاج إلى دم ، والدم يمشي بطيئاً بالنبض النظامي ، وإذا أسرع النبض سار الدم سريعاً فلبى حاجة العضلات .

الآن حتى ينجح القلب في تصفية الدم عبر الرئتين لا بد من وجيب مرتفع ، فيذهب أمر ثان من الكظر إلى الرئتين ، يرفع وجيب الرئتين ، فالخائف يلهث ، والخائف ضربات قلبه سريعة .

بعد ذلك يأتي هرمون يضيق لمعة الأوعية المحيطية ، الإنسان عنده أوعية دموية محيطية ، وداخلية ، محيطية هي الأوردة ، والداخلية الشرايين ، لذلك لونه وردي ، أما إذا ضاقت هذه الأوعية مال لونه إلى الصفار ، فالخائف يصفر لونه ، لأنه جاءه أمر ضيق لمعة الأوعية الشعرية ، لأن الخائف لا يحتاج إلى وجه متورد ، يحتاج إلى سلامته ، هذا ترتيب من ؟ صنع من ؟ قدرة من ؟ .

الأمر الرابع : يذهب إلى الكبد ، ليحرر كمية سكر إضافية ، تكون وقوداً لطاقة الجسم ، فلو فحصنا دم خائف لوجدنا فيه السكر مرتفعا ، ثم إن الخائف يحتاج إلى دم أقرب إلى اللزوجة منه إلى السيولة ، لو تلقى ضربة بسكين ، وكان دمه مائعاً لسال الدم كله في دقائق ، لذلك ينطلق هرمون من الكبد إلى الدم فيلقي فيه هرمون التجلط ، وإذا فحصنا دم خائف نجد دمه لزجاً ، والقلب نبضه سريع ، والرئة وجيبها سريع ، واللون أصفر ، هذه كلها احتياطات لمواجهة الخطر ، يد من ؟ وقدرة من ؟ وعلم من ؟ وحكمة من ؟.

(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ)

(سورة لقمان الآية : 10)

الأستاذ أحمد :

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - موسوعة الأخلاق الإسلامية - الدرس (24-28) : التوبة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-02-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، وعلى آل وصحبه أجمعين .

تقديم وترحيب :

الأستاذ أحمد :

سيدي الكريم ، نتمنى لو نتحدث اليوم وإياكم عن خُلقٍ من الأخلاق جديد ، ألا وهو خلق التوبة ، والتوبة تستوقفنا بها آيات عدة ، أتمنى أن أسألك عن الرابط بينها ، ألا وهي قوله تعالى :

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة النور الآية : 31)

ويقول في آية أخرى :

(وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ)

(سورة ق)

ويقول تعالى في آية ثالثة :

(نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

(وسورة ص)

ففي الآية الأولى استعمل تعالى :

(وَتُوبُوا)

وفي الثانية تحدث عن الإنابة ، وفي الثالثة تحدث عن الأوّاب ، فما الرابط بين التوبة والإنابة والأوبة؟

الدكتور راتب :

مقدمة:

1 – الإنسان مركَّب من عقل وشهوة :

بادئ ذي بدء ، بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

أستاذ أحمد ، رُكّب الإنسان من عقل وشهوة ، ورُكّب الملك من عقل بلا شهوة ، ورُكّب الحيوان من شهوة بلا عقل ، و رُكّب الإنسان من كليهما ، ففيه نفخة من روح من الله ، وفيه قبضة من تراب الأرض ، فيه ميولٌ عليا ، وفيه حاجات دنيا ، ركب الإنسان من عقل وشهوة ، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة ، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان .

الإنسان كائن مزدوج الاهتمامات ، له حاجات نحو معرفة الحقيقة ، ومعرفة الله وطاعته ، والتقرب منه ، وفيه غرائز وشهوات ، فمنهج الله ينسق بين حاجاته ، وبين قيمه ومطالب الدنيا ، ومطالب الآخرة ، بين حاجات الجسد وحاجات النفس .

إن الإنسان أحياناً تزلّ قدمه ، وتضعف نفسه أمام شهوة ، ويضعف أمام ضغط ، ويضعف أمام إغراء، فتزل قدمه ، ويقع في خطأ ، ما الحل ؟

الإنسان يأكل ويشرب ، وقد يأكل أكلة لا تفيده فيمرض ، ما الحل ؟ المعالجة .

2 – طبيعة الإنسان تقتضي الخطأ :

إن طبيعة الإنسان تقتضي الخطأ .

((كُلُّ بَنِي آدمَ خطَّاءٌ ، وخيرُ الخَطَّائينَ التَّوابونَ))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك]

لأن فيه شهوة أودعها فيه ، وسمح له أن يتحرك من خلالها 180 درجة ، وأن الشرع جاء بمساحة محدودة ، له أن يتحرك فيها ، فحينما تزل قدمه ينتقل من المنطقة المباحة إلى المنطقة المحرمة فيقع في الذنب ، إنْ في كسب المال ، أو في العلاقة بالنساء ، فلذلك لا بد من نظام يرمم الخطأ .

3 – الخطأ خروجٌ عن منهج الله :

الخطأ هو الخروج عن منهج الله ، الخطأ التحرك بخلاف منهج الله ، بل إن هناك معنىً دقيقا جداً ، قال تعالى :

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص الآية : 50)

المعنى المخالف : أنه لو اتبع هواه وفق هدى الله فلا شيء عليه ، فالإنسان ركّب من عقل يدرك ، وقلب يحب ، وجسم يتحرك ، العقل له حاجات ، والنفس لها حاجات ، والجسم له حاجات ، أحياناً تتناقض حاجات الجسم مع حاجات النفس فيكون الذنب ، الذنب يأتي من حركة أساسها الاختيار بدافع

من شهوة ، بعيداً عن منهج الله ، هذا هو الذنب ، لو أن كل شيء في حركة الشهوة كان مباحا لما كانت ذنوب إطلاقاً .

أما في موضوع المرأة فهناك منطقة مباحة ومنطقة محرمة ، وفي كسب المال منطقة مباحة بالكسب المشروع ، ومنطقة محرمة بالكسب المحرَّم ، فما دام هناك شهوات ، فهي قوى دافعة ، وفي الإنسان حرية اختيار ، وله منهج ، فحينما أتجاهل المنهج ، أو أتحرك بلا منهج أقع في المعصية ، المعصية يكشفها الإنسان ذاتياً ، والتوافق بين الفطرة والمنهج توافق حتمي .

إنّ أيَّ إنسان خرج عن منهج الله عن علم أو عن غير علم يشعر بالكآبة ، يشعر بالذنب ، سَمِّ هذا الشيء شعورا بالنقص ، أو شعورا بالذنب ، أو خطيئة ، أو معصية ، أو كآبة ، كلها أسماء لمسمى واحد ، إنسان تحرك في الحياة بدافع من شهوته بعيداً عن منهج الله ، فوقع في الخطأ .

الأستاذ أحمد :

هذا يجعلني أسألك عن التوبة ، وعن قيمتها ، و ثمرتها .

الدكتور راتب :

التوبة :

1 – الحلُّ الوحيد للذنب التوبةُ منه :

إن رحمة الله متمثلة في أن هذا العبد حينما يضطرب ، حينما يتحرك بخلاف منهج الله ، حينما يندفع بشهوته ، ولا يراعي حدود الله ، يقع في الذنب ، هل يعقل أن خالق السماوات والأرض ، الإله العظيم، الرب الرحيم ، ليس عنده حل لهذه المشكلة ؟ الحل الرائع هو التوبة .

لذلك التوبة كأنها صمام أمان ، لئلا يكون الانفجار ، والآن في بعض أوعية الضبط منطقة بلاستيكية ضعيفة ، لو زاد الضغط كثيراً لئلا ينفجر الوعاء هذه النقطة الضعيفة تسيح ، وينطلق البخار .

التوبة صمام أمان ، التوبة حبل نجاة ، حبل نعتصم به ، التوبة قارب نجاة ، فإذا كنا في بحر من الذنوب كانت التوبة قاربَ النجاة ، وإذا كنا غرقنا فالتوبة حبل نعتصم به ، وإذا كنا على وشك الانفجار فالتوبة صمام أمان ، لذلك جعل الله التوبة طريقاً لترميم الخطأ ، لذلك قال الله عز وجل :

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً)

(سورة النساء)

2 – الله يريد التوبة على العبد ويحبُّها منه :

بالعكس أقول :

(إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

(سورة البقرة)

أبلغ من الإرادة ، أنت تريد شيئًا بحاجة إليه ، لكن أحياناً تحب هذا الشيء ، فبادئ ذي بدء :

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

الآية الثانية :

(إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

ولكن أحياناً :

((تابوا فتاب الله عليهم))

[أخرجه البزار عن أبي هريرة]

3 – توبةُ الله على العبد قبولُه بَعْدَ الذنب :

جاءت توبتهم قبل توبة الله عز وجل ، ما معنى التوبة من الله إذا جاءت بعد توبة العبد ؟ أي أنه قبل التوبة ،

((تابوا فتاب الله عليهم))

إذا جاءت توبة الله بعد توبة العبد فمعناها أنه قبل هذه التوبة .

لذلك ، إذا قال العبد : يا رب وهو راكع ، قال الله له : لبيك يا عبدي ، فإذا قال : يا رب وهو ساجد ، قال الله له : لبيك يا عبدي ، فإذا قال : يا رب وهو عاصٍ ، قال الله : لبيك ، ثم لبيك ، ثم لبيك .

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

(إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

4 – مهما عظُم الذنب فإن التوبة تمحوه :

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الزمر)

لو أن الذنوب ملأت السماء والأرض ، ثم جاء العبد ربه تائباً غفر الله له ما كان منه .

لذلك ما مِن موقف أروع من وصف النبي عليه الصلاة والسلام لفرح الله عز وجل بتوبة عبده ، فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ ، فَأَيِسَ مِنْهَا ، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا ، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ : اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي ، وَأَنَا رَبُّكَ ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ))

[مسلم]

فذكر لنا في الحديث أعرابياً كان يركب ناقة ليجتاز بها الصحراء ، أصابه التعب ، نزل ليستريح ، استراح قليلاً ، فأفاق فلم يجد الناقة ، أيقن أنه هالك لا محالة ، جلس يبكي ، ثم يبكي ، ثم يبكي حتى أدركه النعاس ، فنام قليلاً ، فاستيقظ فرأى الناقة ، اختل توازنه ، قال :

((اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي ، وَأَنَا رَبُّكَ ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ))

نطق بالكفر دون أن يشعر ، من شدة فرحه ، يقول عليه الصلاة والسلام :

((لله أفرح بتوبة عبده من ذلك البدوي بناقته))

بل إن بعض الأحاديث تقول :

((لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد ، والعقيم الوالد ، والظمآن الوارد))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة بسند فيه ضعف]

وإذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض : أن هنِّئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله .

وإذا تاب العبد توبة نصوحًا أنسى الله حافظيه ، والملائكة ، وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه .

لذلك الله عز وجل يريد أن يتوب علينا ، ويحب أن نتوب إليه ، يحبنا إذا تبنا إليه .

الأستاذ أحمد :

ذكرتم الآن فضيلة أستاذنا التوبة النصوح ، وجعلتم للتوبة ميزة ، أو خاصية أن فيها توبة نصوحا ، ما شروط التوبة النصوح ؟

الدكتور راتب :

أركان التوبة :

الحقيقة أن التوبة لها أركان ، أركانها ثلاثة ، علم ، وحال ، وعمل .

لا بد مِن مثلٍ لكل ركن :

1 – العلمُ :

ضغط الدم المرتفع ، هذا اسمه القاتل الصامت ، لأن أعراضه غير موجودة ، وقلّما يكون للضغط المرتفع أعراض ، لكنه فجأة يصيب الإنسان بالعمى أحياناً ، أو بخثرة في الدماغ ، أو بالشلل ، فتكون هي القاضية ، أقول : متى نعالج الضغط المرتفع ؟ بحالة واحدة ، حينما نعلم أن ضغطنا مرتفع .

إذاً : ما لم تطلب العلم ، حتى تعرف ما الحلال ، وما الحرام ، ما ينبغي وما لا ينبغي .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ لَا يَرَى بِهَا بَأْسًا - من سَخَط الله - يَهْوِي بِهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا فِي النَّارِ))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي ومالك]

القتّات ؛ النمام لا يدخل الجنة ، فما لم نطلب العلم ، ما لم نتعرف إلى الحلال والحرام ، إلى الخير والشر ، إلى ما ينبغي وما لا ينبغي ، ما لم نطلب العلم فلن نعرف أخطاءنا .

فلذلك طلب العلم شرط لأن يبدأ الإنسان بمشروع التوبة ، وأنا أقول دائماً : إذا طلب الإنسانُ العلم تأتيه القناعات ، كأن شهوته خمسة كيلو ، في كفة ، حضر خطبة ، عشرة غرامات ، خطبة ثانية ، سمع درسا ، قرأ كتابا ، سمع شريطا ، كلما ازدادت قناعاته بدأت الكفة الأولى كفة الإيمان تزيد ، فإذا بلغت قناعاته خمسة كيلوات دخل في الصراع ، أفعل لا أفعل ، فإذا أصبحت قناعاته أكبر بكثير من شهواته استقام على أمر الله .

فلابد من طلب العلم حتى أكشف الخطأ ، وما لم أطلب العلم فلن أقتنع .

مثلاً : أحيانا يكون الكسب غير مشروع ، أو علاقة ربوية ، أو علاقة آثمة ، أو لقاء آثم ، أو فرح غير إسلامي ، وهناك أعمال كثيرة تقطعنا عن الله عز وجل ، عن شعور وعن غير شعور .

الأستاذ أحمد :

لذلك سيدنا عمر نهى من لم يتفقه في أمر السوق أن يبيع فيه .

الدكتور راتب :

لأنه يأكل الربا شاء أم أبى ، إذاً : مِن أركان التوبة طلب العلم ، و أحد العلماء الاجتماعيين له كلام رائع جداً في علاقة الإنسان بالمحيط ، كإنسان دخل إلى بستان ، رأى أفعى ، هنا قانون : إدراك ، انفعال ، سلوك ، رأى أفعى أدرك أنها خطيرة ، ولدغتُها قاتلة ، لا بد من أن يضطرب ، علامة صحة إدراكه اضطرابه ، وعلامة صحة اضطرابه حركته ، فإما أن يقتلها ، وإما أن يهرب منها ، هذا قانون قطعي .

2 – الندم :

علاقتي في الحياة مع ما حولي ، فقد يقع الإنسان بذنب ، إذا أدرك أنه وقع في ذنب فلا بد من أن يندم، فإن لم يندم فإدراكه للذنب غير صحيح ، إنسان مالُه حرام ، ثم بقي عاديًا !!! فإدراكه غير صحيح .

لو قلت لرجلٍ : على كتفك عقرب ، ثم بقي هادئاً ، متوازناً ، مبتسماً ، التفت نحوك ، وقال لك : جزاك الله خيراً على هذه النصيحة الثمينة ، وأرجو الله أن يمكّنني أن أرد لك الجميل ، هل فهمَ ما قلت له ؟ قطعاً لا ، لو فهم ما قلت له لخرج من جلده ، وخلع ثوبه ، ونفضه .

إذاً : إن لم يكن هناك ندم فليس هناك إدراك للذنب ، لذلك ذنب المنافق كأنه ذبابة ، وذنب المؤمن كأنه جبل جاثم على ظهره .

إذا صح إدراكه للذنب ، وعرف مع من أخطأ ، أخطأ مع خالق السماوات والأرض ، ولا تنظر إلى صغر الذنب ، ولكن انظر على من اجترأت ، إذا أدرك أنه أخطأ ، وهذا الخطأ سيسبب له متاعب كثيرة في الدنيا والآخرة ، أخطأ مع العظيم ، لذلك الله عز وجل وصف أهل الدنيا الذي لم يقوَ إيمانهم ، يوم القيامة :

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

(سورة الحاقة)

التركيز على العظيم ، آمن بالله إيماناً محدوداً ، لم يحمله إيمانه على الطاعة ، لكن لم يؤمن بالله العظيم:

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

فهذا المؤمن حينما يدرك حقيقة الذنب الذي وقع فيه ، إذاً يضطرب ، يتألم ، يبكي ، قال تعالى :

(لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ)

(سورة القيامة)

إذاً : صحة الانفعال والندم دليل أن الإدراك للذنب ، وأن العلم به كان صحيحاً .

بالمناسبة عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :

((النَّدَمُ تَوْبَةٌ))

[أخرجه ابن ماجه وأحمد]

قال شارحو الحديث : الندم لا بد له من علم هو سببُه ، ومن عملٍ عَقِبه ، جاء بعده ، كأن النبي أشار إلى أركان التوبة بشكل موجز .

3 – الإقلاع والإصلاح والعمل الصالح وعدم العودة :

هذا الندم ، هذا الألم النفسي إلى ماذا يفضي ؟ يفضي إلى ثلاثة مواقف ، موقف متعلق بالماضي ، موقف متعلق بالحاضر ، موقف متعلق بالمستقبل ، أما الموقف المتعلق بالماضي فهو الإصلاح ، تكلم بكلمة ، يستسمح مِن الذي قالها فيه ، له دخل حرام يوقف هذا الدخل ، ويجعل ما مضى صدقة ، فأيٌّ ذنب وقع في الماضي فلا بد من إصلاحه ، إذا كان متعلقاً بحقوق العباد ، إذاً : الإصلاح ، تابوا وآمنوا، وعملوا الصالحات :

(إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة الأعراف)

بعد التوبة ، والعمل الصالح ، وإصلاح الخطأ الذي ارتكب :

(إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

هذه واحدة ، هذا موقف متعلق بالماضي ، الإصلاح ، أما الموقف المتعلق بالحاضر فهو الإقلاع الفوري عن الذنب ، أما الموقف المتعلق بالمستقبل أن يعقد العزيمة على ألا يعود إلى هذا الذنب ، هذه أركان التوبة .

الأستاذ أحمد :

أركان التوبة ، علم ، وحال ، وعمل ، والعمل .

الدكتور راتب :

والحال لا يصح إلا إذا صح الإدراك ، والعمل لا يصح إلا إذا صح الحال ، والعمل متفرع بين الماضي والحاضر والمستقبل ، في الماضي تصلح الخطأ ، وفي الحاضر تقلع عن الذنب ، وفي المستقبل تعزم على ألا تعود إليه .

الأستاذ أحمد :

أستاذنا الكريم ، أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجل من بني إسرائيل أنه قتل 99 نفساً ، ثم أراد التوبة ، وقصد رجلاً عالماً ، فسأله فقال له : وكيف يتوب الله عليك ؟ أو بما معناه ، فأكمل به المئة وقتله ، ثم عاد فندم ، وسأل آخر وقال : ومن أغلق باب التوبة أمامك ؟ باب التوبة مفتوح ، إلا أنه طلب من هذا الرجل أن يترك القوم والناس الذين معه ، وأن يغادر إلى قوم يعبدون الله عز وجل ، الشاهد ، أو محط حديثنا ، مسألة تكرار التوبة ، بعض الناس يخجل من الله عز وجل ، فيقول : أنا أذنبت فتبت ، ثم أذنبت فتبت ، حتى بتُّ أخجل من الله عز وجل ، فهل كلامه هذا منطقي ؟ أم نحضه على التوبة ولو تكررت ؟

الدكتور راتب :

تَكرارُ التوبة بتكرار الذنب :

الحقيقة : ورد في بعض الآثار القدسية ، فعَن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : قالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :

((يَا ابْنَ آدَمَ ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي ، يَا ابْنَ آدَمَ ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً))

[الترمذي]

وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ

بل الله عز وجل يقول :

(وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)

(سورة الأعراف الآية : 156)

أليس الإنسان شيئاً ، أليست ذنوبه التي بلغت الفضاء الكوني شيئًا ؟ كل شيء دون الله عز وجل :

(وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)

لذلك :

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)

(سورة الزمر الآية : 53)

لا يقنط من رحمة الله إلا الكافر ، فلذلك باب التوبة مفتوح .

أثر البيئة صلاحًا وفسادًا في التوبة :

ولكن الثاني الذي سُئل أرشد التائب إلى أن يغادر البلد الذي هو فيه ، هذا هو الفقيه ، ما دمت في بيئة فيها معاصي ، وآثام لن تتوب ، لا بد من أن تكون في بيئة صالحة ، قال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

(سورة التوبة)

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

(سورة الكهف)

إذاً : لا بد من أن تحاط بجو إيماني ، لا بد من أن تكون مع المؤمنين ، لا بد من أن تكون مع الصادقين ، هذا أحد شروط التوبة ، لذلك العالم الآخر كان فقيهاً حينما أنبأه أن الله يقبل توبته ، ولكن بشرط أن يغادر هذا المكان إلى مكان يعبد الله فيه .

الأستاذ أحمد :

قوله تعالى :

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً)

(سورة النور الآية : 31)

تستوقفنا كلمة :

(جَمِيعاً)

لماذا قال الله عز وجل :

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً)

الدكتور راتب :

استنباط من آيات قرآنية :

1 – وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً

بارك الله بك لهذا السؤال ، لا بد من مثل :

أنت معك جهاز هاتف ، ولك خمسون صديقًا ، ليس مع أحدهم هذا الجهاز ، ما قيمة جهازك ؟ لا قيمة له إطلاقاً ، أما لو أن الخمسين معهم أجهزة كجهازك صار لجهازك قيمة .

حينما أعيش في مجتمع مؤمن ، فيه صدق ، وأمانة ، ما فيه غش ، ولا كذب ، عندئذٍ ألمس بيدي نتائج منهج الله عز وجل ، حينما أعيش في مجتمع النساءُ فيه محتشمات ، ألمس منهج الله في احتشام المرأة ، أما حينما أعيش في مجتمع متفلت ، وأنا تائب مستقيم ، أجاهد نفسي ، لعلي أنجو ، ولكن لن أضع يدي على ثمار هذا المنهج العظيم .

تصور مجتمع فيه صدق ، فيه أمانة ، فيه عفة ، هذا المجتمع في راحة كبيرة جداً ، فيه شعور بالنجاح، وشعور بالود بينك وبين مَن حولك ، إذاً : كأن الله عز وجل يريد أن ينبئنا أنكم إذا أردتم أن تقطفوا ثمار هذا المنهج ، وأن تسعدوا به فلتكن توبتكم جميعاً .

هناك صف مدرسي ، كل الطلاب فيه مجتهدون ، هناك تفوق ، وتنافس ، أما إذا كان معظم الطلاب كسالى جداً فهذا المجتهد تضعف همته ، أما إذا كان هناك تفوق فالمجتهدون يتفوقون ويحرصون على التفوق .

2 – الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً

ملمح دقيق آخر ، قال تعالى :

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

(سورة الملك الآية : 2)

كأن النجاح بديهي ، لكن الاختبار لترتيب الناجحين فقط ، أما الامتحان الذي أراده الله ليس فهو لفرز الناجحين عن الراسبين :

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

فكلمة :

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً)

إذا تبنا أفرادا فلعل الله يقبلنا ، لكن لن نقطف ثمارها إلا إذا تبنا جميعاً .

3 – تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا

وفي بعض الآيات ملمح دقيق :

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

(سورة التوبة الآية : 118)

هذه آية عجيبة ، تابوا ، فتاب الله عليهم ، تابوا إلى الله فقبل الله توبتهم ، لكن الآية :

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

ساقَ لهم من الشدائد ما حملهم بها على التوبة ، لذلك :

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)

(سورة البقرة)

لذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

((عَجِبَ اللَّهُ مِنْ قَوْمٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ))

[أخرجه البخاري]

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

(سورة السجدة)

فباب التوبة مفتوح ، والموضوع كبير جداً ، لكن هو بكلمة مختصرة :

أب عنده أولاد عدة ، معظمهم منضبط ، إلا ولد واحد منحرف ، وشارد ، وعاق ، قلب الأب عند هذا العاق ، فإذا رجع العاق إلى أبيه كانت فرحته لا توصف ، لذلك ورد في بعض الآثار : " لو يعلم المعرضون انتظاري لهم ، وشوقي إلى ترك معاصيهم ، لتقطعت أوصالهم من حبي ، ولماتوا شوقاً إلي، هذه إرادتي في المعرضين فكيف بالمقبلين ؟ إن تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب " .

الله عز وجل يريد أن يتوب علينا ، ويحبنا إذا تبنا إليه .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - موسوعة الأخلاق الإسلامية - الدرس (25-28) : صاحب الفضل لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-02-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ أحمد :

سيدي الكريم عندما يقول الله عز وجل واصفاً طبيعة الإنسان :

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)

(سورة الفجر)

وكأن في هذه الآية تصوير لجحود بعض البشر من الناس ، فهل الإنسان بطبعه جحود ؟ أم أنه بطبعه معترف بالفضل لذي الفضل ؟ .

التكريم عند الله لمن أطاعه لا لمن كان غنياً :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين .

أستاذ أحمد ، لا يمكن أن يكون في أصل خلق الإنسان نقص ، لكن الإنسان له فطرة ، والفطرة لا تعني أنه كامل ، ولكن تعني قطعاً أنه يحب الكمال ، أما حينما يتصل بالله عزّ وجل تكون له الصبغة ، فالصبغة تعني الكمال ، أما الفطرة تعني أن تحب الكمال .

فلذلك

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ)

طبعاً شيء طبيعي وبديهي ، أن يقول :

(رَبِّي أَكْرَمَنِ)

لكن متى يظهر ضعفه البشري ؟

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)

جاء الجواب ردعاً لا نفياً ، قال :

(كُلّاً)

(سورة الفجر الآية : 17)

يعني يا عبادي ليس عطائي إكراماً ، ولا منعي حرماناً ، عطائي ابتلاء وحرماني دواء ، فالتكريم عند الله لمن أطاعه ، لا لمن كان غنياً ، والذي يحرمه بعض الشيء لعله كما قال عليه الصلاة والسلام : كيف أن الراعي الشفيق يحرم غنمه من مراتع الهلكة بهذا المعنى ، لكن هذا الخلق الاعتراف بالفضل دقيق جداً ، لأن الاعتراف بالفضل يوسع دوائر الفضل في المجتمع ، وجحود الفضل يضيق دوائره .

الاعتراف بالفضل ينمي الفضل ويوسع دوائره و جحود الفضل يضيق الفضل و يلغيه :

نحن إذا ألفنا أن كل إنسان أسدى إلينا معروفاً أن نعترف بهذا المعروف ، وأن نثني على صاحب المعروف ، وأن نشير إليه ، يتشجع هو ومن حوله لفعل المعروف ، أما حينما نجحد المعروف ، تضيق دوائر المعروف .

هذا الذي كان يركب حصاناً رأى رجلاً في أيام الصيف ، والصحراء شديدة الحر رجل ينتعل رمال الصحراء المحرقة ، دعاه إلى ركوب الخيل رحمة به ، لكن هذا الإنسان أحد لصوص الخيل ، ما اعتلى متن الخيل وراء صاحبها حتى دفعه إلى الأرض وعدا بها لا يلوي على شيء ، فصاح صاحب الفرس: يا هذا لقد وهبت لك هذه الفرس ، ولن أسأل عنها بعد اليوم ، ولكن إياك أن يشيع الخبر في الصحراء فتفقد الصحراء أجمل ما فيها ، إنها المروءة ، إياك أن يشيع الخبر في الصحراء .

لذلك الاعتراف بالفضل ينمي الفضل ، ويوسع دوائره ، والجحود جحود الفضل يضيق الفضل ، بل يلغي الفضل أحياناً ، لذلك من هم الذين يمنعون الماعون ؟ هم الذين لا يعترفون بالفضل بل يسيؤون إلى صاحب الفضل .

تنمية المعروف لا تكون إلا بالثناء على صاحبه و إكرامه :

لذلك هناك خطورة كبيرة أن يكون الناس من اللؤم بحيث إذا أسدي إليهم معروف أن يردوا عليه بالإساءة ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((وَمَنْ صَنَعَ إليكم معروفا فكافئوه . فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادْعُوا له))

[أخرجه أبو داود والنسائي عن عبد الله بن عمر]

يعني أن تقول لكل واحد أسدى لك معروفاً جزاك الله خيراً هذا غير مقبول ، إذا كنت قادراً على أن ترد المعروف بمعروف ، والهدية بالهدية ، والخدمة بالخدمة فافعل ، أما حينما تعجز لك أن تقول : جزاك الله خيراً ، هذا إذاً ينمي المعروف .

ومن عاداتنا التي ينبغي أن توسع كثيراً أي معروف قُدم إليك ، أي خدمة قدمت لك ، أي معونة جاءتك، ينبغي أن تبادر إلى شكرها بلسانك ، أو بالهاتف ، أو برسالة ، أو بتصريح بالجريدة ، لابدّ من أن تشجع الناس على فعل الخير ، لذلك إذا كان الدال على الخير كفاعله المشجع عليه كفاعله ، والتشجيع بالمعروف أن تثني على صاحب المعروف .

الأستاذ أحمد :

كأني فهمت من كلامكم أن تعريف الاعتراف بالفضل هي أن يقرّ الإنسان بالفضل وألا يجحده ، ولا يتناساه ، فلذلك قال تعالى :

(وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ)

(سورة البقرة الآية : 237)

ما المعنى من هذه الآية ؟

من ضيّق دوائر المعروف منع الخير :

الدكتور راتب :

هذه الآية أصل ، يعني إذا إنسان قدم لإنسان شيئاً ، قدم له مساعدة مالية ، أو مساعدة علمية ، مساعدة في خبرته ، مساعدة في جهده ، مساعدة في ماله ، هذا الذي قُدمت له المساعدة ، إذا شكره عليها ، ولم ينسها ، ونوهَ بها ، فهذا الذي قدم المساعدة يتشجع بحكم طبيعته الإنسانية ، الإنسان يحب أن يُشكر على عمله ، أما إذا جحدت هذا المعروف فقد ضيقت دوائر المعروف حتى كنت السبب في منع الخير .

الأستاذ أحمد :

كثيراً من الناس يضع في صدر متجره عبارة ، وقول الله عز وجل :

(هذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي)

(سورة النمل الآية : 40)

فهل فعل هذا إشارة منه إلى أن يرجع الأمر والفضل والمنة لله عز وجل ؟ .

من آمن بالله و شكره حقق الهدف الذي خُلق من أجله :

الدكتور راتب :

أستاذ أحمد ، يجب أن نعلم جميعاً أن الإيمان نصف شكر ، ونصف صبر ، بل إن علة وجودك في الدنيا أن تؤمن به ، وأن تشكره ، والدليل :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

(سورة النساء الآية : 147)

أنت حينما تتعرف إلى الله ، وحينما تشكره على أنه منحك نعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، ونعمة الهدى والرشاد ، حققت الهدف من وجودك ، لأن الكون سُخر لك تسخير تعريف وتكريم ، ردّ فعل التعريف أن تؤمن ، وردّ فعل التكريم أن تشكر ، كيف ؟ فرضاً للتقريب :

لو قدم لك صديق هاتفاً من اختراعه ، له خدمات كثيرة جداً ، يعني في إجابة آلية ، في معرفة الرقم الذي اتصل بك ، في ميزات كبيرة جداً ، قدم لك هذا الهاتف هدية بلا مقابل ، ثم إن هذا الهاتف من صنعه ، أنت تنتابك مشاعر ، أحد هذه المشاعر إعجاب بهذا المنتج ، شعور آخر امتنان منه .

فلأن الله سخر لنا هذا الكون تسخير تعريف ، وتخسير تكريم ، ردّ فعل التعريف أن نؤمن ، وردّ فعل التكريم أن نشكر ، فلمجرد أننا آمنا وشكرنا حققنا الهدف الذي من أجله خلقنا ، إذاً تتوقف المعالجة ، قال تعالى :

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ

والعذاب معالجة

(إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

(وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

(سورة النساء)

الاعتراف بالفضل قمة الإيمان :

إذاً الاعتراف بالفضل قمة الإيمان ، بل إنه إذا كان متوجهاً إلى الله عز وجل هو الشكر ، والشكر أستاذ أحمد ، له مراحل ، أحد أركان الشكر أن تعلم علم اليقين أن هذا الفضل من الله ، لمجرد أن تعزو ما أصابك من خير إلى الله ، فهذا أحد أنوع الشكر ، ومعنى آخر لمجرد أن يمتلئ القلب امتناناً لله عز وجل فهذا نوع أرقى من الشكر ، لكن أرقى أنواع الشكر أن ترد عليه بخدمة الخلق ، قال تعالى :

(اعْمَلُوا آَلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)

(سورة سبأ)

الأستاذ أحمد :

أو لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

((مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّه))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

مَنْ لَمْ يشْكُر النَّاسَ لَمْ يشْكُر اللّه :

الدكتور راتب :

أستاذ أحمد ، أحياناً أستمع إلى كلمات فيها غلظة ، أنه أنا ما من أحد له فضل عليّ إلا الله ، هذا توحيد، ولكن توحيد مع غلظة ، الأب الذي كان سبب وجودك ، الأم التي رعتك لسنوات عديدة ، هذا الشريك الذي يعمل معك ، والذي يعفيك من مسؤوليات كثيرة ، هذا الابن الذي يقدم لك كل وده ، وكل خدمته .

((مَنْ لَمْ يشْكُر النَّاسَ لَمْ يشْكُر اللّه))

لماذا ؟ هذا الذي خدمك من بني البشر إنسان مخير خدمك باختياره ، إذاً يشكر على اختياره ، لكنك تشكر الله على أنه سمح له أن يقدم لك هذه الخدمة ، وألهمه إياها ، بل مكنه منها .

إذاً الشكر لله أولاً ، وثانياً لمن جاءت هذه الخدمة على يده ، أما هذا الذي يتبجح ويقول أنا لا أشكر إلا الله هذا كلام ليس واقعياً ، وليس منطقياً ، إذاً كما قال عليه الصلاة والسلام :

((مَنْ لَمْ يشْكُر النَّاسَ لَمْ يشْكُر اللّه))

وأول الناس الذين يُشكرون الأب والأم لأنهما سبب وجودك .

الأستاذ أحمد :

ثانيهما لأن الأب والأم كانا قادرين أن يتخليا عن الطفل في أول ولادته ويتركانه عند دار للأيتام على سبيل المثال ، ولا يتكلفان عناء ومشقة تربيته ، ومع ذلك ينسى كما قال تعالى :

(إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

ويقول ليس لأحد فضل عليّ في حياتي .

من عمل عملاً عظيماً عليه أن يعزوه إلى الإسلام ليرفع شأنه :

الدكتور راتب :

بل إنني أرى أن الإنسان أحياناً يقوم بعمل عظيم ، لكن بخطأ في عقيدته ، أو في سلوكه يعزوه إليه ، أو إلى تربيته ، أو إلى ثقافته ، أنا أتمنى أنك إذا عملت عملاً عظيماً بسبب إيمانك بالله ، وخوفك منه ، وابتغاء رضوانه ، أن تقول : إنني من المسلمين ، قال تعالى :

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة فصلت)

أحياناً يدعى إلى شرب خمر من أصدقاء يجهلون تدينه ، يقول معي قرحة ، لا قل أنا مسلم ، هذا شراب محرم في الإسلام ، بيّن عظمة هذا الإسلام ، هناك من يقف موقفاً أخلاقياً ولكن بغطاء علماني ،

أو بغطاء تربوي ، لا ، ينبغي أن تقف الموقف الأخلاقي ، وأن تعزوه إلى دينك ، وإلى إسلامك لترفع شأن هذا الدين .

الأستاذ أحمد :

كأنه يخجل من الإسلام ، أو الانتماء إليه ، بينما لو علم أنه يكبر في عيون هؤلاء الناس لو أنه نسب الأمر إلى الدين .

من لم يكن متفوقاً في دنياه لن يُحترم دينه :

الدكتور راتب :

لكنني لي ملاحظة هنا الوقت مناسب لها : ما لم تكن متفوقاً في دنياك الآن لا يحترم دينك ، لذلك إن أردت أن تقول أنا مسلم يجب أن تكون متفوقاً في علمك ، وفي سلوكك ، وفي انضباطك ، وفي إتقان عملك ، وفي دقة مواعيدك ، وفي رحمتك بالناس عامة ، أنت تقول أنا مسلم حينما تقدم للناس نموذجاً رائعاً ، لذلك قيل : " استقيموا يُستقم بكم " .

أنت حينما تكون مطبقاً لمنهج الله دون أن تكون داعية تعد عند الله أكبر داعية ، لأن الاستقامة وحدها دعوة ، الأمانة وحدها دعوة ، النبي عليه الصلاة والسلام بماذا جاء ؟ جاء بالخُلق .

((حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا إلى الله لتوحيده، ولنعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء))

[أخرجه ابن خزيمة عن جعفر بن أبي طالب]

فالنبي دعوته أخلاقية .

الأستاذ أحمد :

الله عز وجل يقول في الحديث القدسي :

((أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي ومالك عن زيد بن خالد الجهني]

تتمة هذا الحديث وشرحه حبذا لو تعرجون عليه .

الإنسان لولا معونة الله عزّ وجل ما كان شيئاً فوجوده كله من فضل الله تعالى :

الدكتور راتب :

الحقيقة هناك من يعترض على أن تقول كافر ، الحقيقة الكافر صفة وليست تقييماً فالمؤمن كافر ،

كيف؟ قال النبي الكريم فيما يرويه عن ربه :

((أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مُطِرْنا بفضل الله ورحمته : فذلك مؤمن بي ، كافر بالكواكب . وأما من قال : مُطِرْنا بنَوْءِ كذا وكذا : فذلك كافر بي ، مؤمن بالكواكب))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي ومالك عن زيد بن خالد الجهني]

لذلك الإيمان والكفر إيمان بجهة ، وكفر بجهة ، فالإنسان حينما يعزو الأمطار إلى فضل الله ورحمته فهو مؤمن بالله ، أما إذا قرأ النشرة الجوية ، وتوهم أن هناك منخفضاً باتجاه الشرق الأوسط ، يأتي بعد يومين ، ويحمل كمية أمطار كبيرة جداً فلا يذكر أن هذا المنخفض هو من أثر رحمة الله عز وجل ، بل هو من فضل الله على الناس يعزوه إلى تطورات جغرافية ، ومناخية ساقت هذا السحاب إلى بلاد عطشى فسقتها ، هذا كافر بالله مؤمن بالكواكب .

لذلك المؤمن الصادق الورع دون أن يشعر على كلمة يقولها ، يقول هذا من فضل الله عليّ مكنني أن أنال شهادة عليا ، مكنني من هذا الزواج ، رزقني هذه الزوجة ، أكرمني بهذا البيت ، ليس هذا من باب الأدب ، هذا من باب الحقيقة ، فالإنسان لولا معونة الله عزّ وجل ما كان شيئاً ، بل إن وجوده كله من فضل الله عز وجل .

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً)

(سورة الإنسان)

الأستاذ أحمد :

بماذا تقيدون كلمتكم أن المؤمن كافر ، كافر بماذا ؟.

الله عز وجل مسبب الأسباب فمن اعتقد غير ذلك فقد ابتعد عن منهج الإيمان الصحيح :

الدكتور راتب :

حياة الكواكب ، أنا حينما أكفر بما سوى الله ، أنا أكفر بما سوى الله ، أؤمن بالله عزّ وجل ، طبعاً هذا تقييم ، مفهوم البداهة ، أنا حينما أقول أنا مؤمن بالله كافر الكواكب ، أنا لا أرى أن الأمطار تأتي من دون معونة الله عز وجل ، بل في موضوع آخر ، أنا حينما أفهم الزلزال فهماً علمياً جغرافياً محضاً اضطراب في القشرة الأرضية ، ولا أفهمه فضلاً عن فهمه العلمي أنه من فعل الله عز وجل ، أرسله تأديباً لخلقه ، أنا حينما أفهم كل شيء فهماً أرضياً شركياً محضاً ، وأنسى أن مسبب الأسباب هو الله عز وجل أنا عندئذٍ أكون قد ابتعدت عن منهج الإيمان الصحيح .

الأستاذ أحمد :

عندما قيل حينما فُعل معك معروف فلا تنسه أبداً ، إذا فعلت أنت معروفاً فانسه فوراً .

من كمال الأدب مع الله إذا أسديت لإنسان خدمة ألا تمننه بها :

الدكتور راتب :

هذا من كمال الأدب مع الله ، إذا أسديت لإنسان خدمة الله عز وجل تفضل عليك وسمح لك أن تقوم بهذا العمل ، وهذا العمل له عند الله أجر كبير ، فلا تمتن عليه من حين إلى آخر ، هناك من يقول لبعض الناس : إن لحم كتفك من خيري ، هذا تطاول ، إذا فعلت مع إنسان معروفاً يجب أن تنساه كلياً ، فيه قلة أدب ، وفيه إساءة ، وفيه شرك ، من أنت ؟ أنت الذي تعطي الناس المال ؟ كان من الممكن أن يجعلك الله عز وجل تتسول هذا المال .

أنا أقول دائماً من باب التقريب : بستان فيه شجر تفاح ، البستان الرابع في هذه المنطقة ، التفاحة السادسة ، الغصن السابع ، التفاحة الرابعة ، هذه لفلان ، فلان يمكن أن يأكلها شراءً بماله ، ويمكن أن يأكلها هدية ، أو ضيافة ، أو تسولاً ، أو سرقة ، طريقة وصولها إليك باختيارك ، أما هي لك ، فأنت حينما تعزو الفضل إلى الله تكون قد أصبت ووفقت .

الأستاذ أحمد :

رسول الله صلى الله عليه وسلم حدث زوجته بحديث عُرف بحديث أم زرع وأبي زرع ، وقصّ عليها القصة بتمامها ، غير أنه في نهاية الحديث قال لها : غير أني لا أطلقك ، ما الحكمة المستوردة من هذا الحديث ؟.

الحكم المستوردة من حديث أبي زرع و أم زرع عديدة أهمها :

النبي عليه الصلاة والسلام كان يصغي إلى زوجاته و يجلس معهن :

الدكتور راتب :

أولاً هناك حكم كثيرة ، الحكمة الأولى أن النبي عليه الصلاة والسلام على عظم شأنه ، وعلى خطورة دعوته ، وعلى أنه الإنسان الأول ، هذا ما كان يمنعه أن يجلس مع زوجاته ، وأن يفضي إليهم ، وأنا أهمس في أذن الأزواج : ما لم تجلس مع زوجتك لوقت ما وتصغي إليها ، لن تكون العلاقة بينك وبينها طيبة ، فقد علمنا النبي الأدب مع الزوجة ، قد يكون لك أفق أكبر بكثير ، قد يكون لك اهتمامات كبيرة جداً ، لكنها زوجتك ، وشريكة حياتك ، ومن حقها عليك أن تستمع إليها ، عليه الصلاة والسلام كان يصغي إلى زوجته .

مرة حدثته حديثاً طويلاً عن رجل كان نموذجياً ، رائعاً ، وفياً ، كريماً ، شهماً ، بطلاً ، فحدثته حديثاً طويلاً عن أبي زرع ، وكيف عامل أم زرع ، لكن في نهاية المطاف تأسفت أشد الأسف لأن أبا زرع طلق أم زرع ، فقال عليه الصلاة والسلام بأدب جم ، بلطف رائع ، قال : أنا لك كأبي زرع لأم زرع غير أني لا أطلقك ، هذا من أدبه مع زوجته .

الأستاذ أحمد :

و عليه الصلاة والسلام اعترافه بالفضل ، حبذا لو نسمع شيئاً عن هذا الخلق عند رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حاله مع أخته من الرضاعة أو ما أشبه ذلك .

الإنسان الفاضل من يعرف الفضل لغيره :

الدكتور راتب :

دخل سيدنا الصديق على مجلس رسول الله ، فكان إلى جانبه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، لما رأى علي أبا بكر قد دخل على النبي الكريم فقام من مكانه ، وآثر به أبا بكر ، ابتسم النبي ، وقال كلمة رائعة جداً :

((لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل))

يعني بيّن النبي أن الذي يعرف الفضل هو إنسان فاضل ، كأنه شجع الناس ، مثلاً : لو وقف شاب في مركبة عامة لشيخ كبير ، ماذا قال النبي الكريم ؟ قال :

((ما أكرم شاب شيخا لِسنِّه إلا قيَّضَ اللهُ لهُ مَن يُكرمهُ عندَ سِنِّه))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك]

أن تقف أمام عالم بأدب ، أن تقف أمام أب ، أن تمشي وراء الأب ، ألا تسبقه ، ألا تتكلم قبله ، ألا تشوه شمعته ، هذا من الأدب ، أن تتأدب مع من علمني حرفاً ، كنت له عبداً ، هناك في طريق الصحابة أمثلة كثيرة جداً على أدب رفيع بين الصحابة الكرام ، بل بينهم وبين النبي عليه الصلاة والسلام .

الأستاذ أحمد :

وقصته صلوات الله عليه مع أخته من الرضاعة ؟.

عظمة النبي الكريم تتجلى في أخلاقه وأدبه مع الناس جميعاً :

الدكتور راتب :

التقى بها (الشيماء)، أولاً رحب بها ترحيباً يفوق حدّ الخيال ، مد لها رداؤه ، أثنى عليها ، دعاها إلى أن تقيم عنده ، فلما أصرت على أن تذهب إلى بيت أهلها أكرمها بعطايا وهدايا ، هذا أدبه مع أخته ، ووفاؤه .

عظمة النبي تتجلى في أخلاقه ، أستاذ أحمد بشكل عام البشر لهم قمم ، زمرة من هذه القمم الأنبياء ، وزمرة أخرى الأقوياء ، الأنبياء ملكوا القلوب ، بأدبهم ، ورحمتهم والأقوياء ملكوا الرقاب ، الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا ، الأقوياء أخذوا ولم يعطوا ، الأنبياء عاشوا للناس ، الأقوياء عاش الناس لهم ، الأنبياء يمدحون في غيبتهم ، الأقوياء في حضرتهم والناس جميعاً تبع لقوي أو لنبي .

الأخلاق الحسنة تجذب الناس إلى الدين أكثر من الأقوال :

لذلك أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام منهج لأتباعه من بعده ، فكان عليه الصلاة والسلام متواضع بحيث دخل عليه أعرابي إلى مجلسه ما عرفه ، سأل أيكم محمد ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : أنا ، تصور واحد من أصحابه ، ما له مكان متميز ، ما له ثياب متميز بها إطلاقاً ، هذا من أدبه ، دخل عليه رجل أصابته رعدة ، قال له : هون عليك إنما أنا ابن امرأة من قريش ، كانت تأكل القديد بمكة ، صحابي رأى على ثوب النبي ريشة ، فأخذها ، فرفع يديه إلى السماء وقال : جزاك الله خيراً .

أدبه ، تواضعه ، كان إذا مرّ بالصبيان يسلم عليهم ، مرة تسابق مع الصبيان ، مرة دعاهم إلى ركوب ناقته ، تواضعه ، أنسه ، حياؤه ، أدبه ، هو الذي جذب الناس إليه والحقيقة أن الذي يدعو إلى الله يتأثر الناس بأخلاقه أضعاف ما يتأثرون بأقواله .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - موسوعة الأخلاق الإسلامية - الدرس (26-28) : الإحسان وأنواعه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-02-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ أحمد :

سيدي الكريم روى سيدنا عمر بن الخطاب أن رجلاً دخل إلى النبي عليه الصلاة والسلام وهو جالس بين أصحابه، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ ثم قال: أخبرني عن الإيمان؟ ثم سأله عن الإحسان، وختمها وقال: أخبرني عن الساعة وأماراتها؟ وكان النبي عليه الصلاة والسلام يجيب عن كل هذه الأسئلة، فيقول هذا الرجل في نهاية كل جواب صدقت، وكان هذا الرجل سيدنا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم.

الذي أريد أن أسأل عنه الآن أن السؤال الأول كان يتعلق بالإسلام وكلنا مسلمون، والسؤال الثاني يتعلق بالإيمان، وهو فيه خاصية أضيق وأقل، فليس كل مسلم مؤمناً حقاً، ثم سأل بعد ذلك عن الإحسان، وكأني فهمت أن الإحسان هو أدق وأعمق من الإيمان ومن الإسلام، فهل فهمي هذا صحيح؟

للإحسان مستويات وأعلى مستوياته أن تعبد الله كأنك تراه :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

بادئ ذي بدء المصطلحات لها مستويات، فأحياناً الشكر مستواه الأول أن أعرف أن هذه النعمة من الله، المستوى الثاني: أن يمتلئ قلبي شكراً لله عز وجل، شعور، الأول معرفة و الثاني شعور، المستوى الأرقى أن أبادر هذه النعم بخدمة الخلق:

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً)

[سورة سبأ الآية : 13]

أكثر الفضائل لها مستويات، والإحسان له مستويات، أعلى مستوياته أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، سماه بعض علماء القلوب: حال المراقبة، وأفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث

كان، هذا معنى للإحسان، لكن المعنى الشائع والواسع والذي يغطي أكبر شريحة من المسلمين أن الإنسان لماذا هو في الدنيا؟ لو سافرت إلى بلد غربي وقلت أين أذهب؟ سؤال عجيب، نسأله نحن : لماذا أتيت إلى هنا ؟ إن جئت طالب علم اذهب إلى المعاهد والجامعات، وإن جئت سائحاً اذهب إلى المقاصف والمتنزهات، وإن جئت تاجراً اذهب إلى المعامل والمؤسسات، أي لا تصح حركتك في مكان ما إلا إذا عرفت سرّ وجودك، وغاية وجودك، أنا حينما أعلم أنني في الدنيا من أجل أن أؤمن بالله خالقاً ومربياً ومسيراً، موجوداً وواحداً وكاملاً، خلقني لجنة عرضها السماوات والأرض، وجاء بي إلى الدنيا لأدفع ثمن الجنة، وهو العمل الصالح، العمل الصالح هو الإحسان بأوسع مفهوماته، وهو ثمن الجنة، والدليل الإنسان حينما يأتيه ملك الموت ماذا يقول؟ كما في القرآن الكريم:

(رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ)

[سورة المؤمنون الآيات : 99-100]

لا يندم الإنسان حين مغادرة الدنيا إلا على العمل الذي هو علة وجوده في الدنيا، أليس كذلك؟ إذاً العمل الصالح هو بعد أن تؤمن بالله الإيمان الصحيح، والدقيق، والعميق، والذي يحملك على طاعة الله، العمل الصالح هو أن تتقرب إلى الله بعمل يكون زادك إلى الآخرة.

الأستاذ أحمد :

إذاً علة وجود الإنسان في الدنيا بعد أن يدرك ويؤمن أن يعمل صالحاً.

الإحسان علة وجود الإنسان في الدنيا ليكون ثمناً للآخرة :

الدكتور راتب :

لذلك المؤمن يبني حياته على العطاء لا على الأخذ، الشارد عن الله، الغافل، يظن أنه كلما أخذ من الناس يكون أذكى، بينما المؤمن يرى أنه كلما أعطاهم يكون أذكى، لذلك الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا، بينما الأقوياء أخذوا كل شيء ولم يعطوا شيئاً، الأنبياء عاشوا للناس، الأقوياء عاش الناس لهم، الأنبياء ملكوا القلوب، الأقوياء ملكوا الرقاب، الأنبياء يمدحون في غيبتهم ، الأقوياء يمدحون في حضرتهم، فلذلك الإحسان علة وجود الإنسان في الدنيا ليكون ثمناً للآخرة، ولكن لن يكون الإحسان إلا بعد الإيمان، إذاً تؤمن فتحسن فتسعد.

الأستاذ أحمد :

هذا لمن هو مدرك، أو راشد، أو كبير، لكنا أساتذتنا حينما كنا صغاراً وشرحوا لنا قول النبي عليه الصلاة والسلام عندما سئل عن الإحسان قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، ضربوا لذلك قصة معبرة فيها شيء من الرمزية، من أن أستاذاً طلب من طلابه أن يذبح كل منهم عصفوراً في

مكان لا يراه فيه أحد، وأتى في اليوم التالي جميع الطلاب، وقد ذبحوا ما طلب منهم الأستاذ إلا طالباً واحداً كان جوابه لأستاذه: أنني كلما ذهبت لمكان ظننت أن هذا المكان لا يراني فيه أحد رأيت أن الله يراني، فهل الإحسان فطرة في الإنسان إن قلنا أن هذه القصة صحيحة؟

الإحسان أعلى مرتبة تنقلك إلى الشعور الدائم أنك مع الله :

الدكتور راتب :

لا هو إدراك، أنت حينما تدرك أن جهة ما تراقبك دون أن تشعر تنضبط أشد الانضباط، تنتبه لكلماتك على الهاتف، في الطريق تنتبه لحركتك، أما حينما تعلم علم اليقين أن خالق السماوات والأرض لا تخفى عليه منك خافية:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ)

[سورة غافر الآية : 19]

طبيب يعالج امرأة، ومن حقه أن يرى موضع المرض من جسمها، لو نقل نظره إلى عضو آخر لا تشكو منه شيئاً، أية جهة في الأرض تستطيع أن تكشف هذه المخالفة؟ إلا الله:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر الآية : 19]

إذاً الإنسان في الدنيا تحت بصر الله، الإنسان إذا تحرك فالله يراه، إذا تكلم فالله يسمعه، إذا أضمر شيئاً فالله يعلم، يعلم ما تضمر، ويرى حركتك، ويرى عملك، إذاً الإنسان تحت المراقبة، لمجرد أن تشعر أنك مراقب تستقيم على أمر الله، سأضرب مثلاً: تركب مركبة الإشارة حمراء، والشرطي واقف، وهناك شرطي آخر مع دراجة نارية، وهناك نقيب في السيارة، وأنت مواطن عادي لا يمكن أن تتجاوز الإشارة، علمك أنك مراقب، وعلمك أن واضع القانون تطولك قدرته، وعلمك أن واضع القانون تطولك رؤيته وعلمه تلتزم، لذلك إذا قلنا إحساناً، أنت حينما تعلم أن الله يراقبك مستحيل أن تعصيه، أما حينما تغفل من أن الله معك، أو تتوهم أن الله في السماء وليس في الأرض، يمكن أن تكون المعصية، إذاً الإحسان أعلى مرتبة تنقلك إلى الشعور الدائم أنك مع الله، وأن الله معك، وهو يراقبك كأنك تراه وهو يراك.

الأستاذ أحمد :

هذه المرتبة مرتبة عظيمة ومرتبة مطلوبة، لكن الله عز وجل عندما يقول:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى)

[سورة النحل الآية : 90]

فهو فيه أمر، هل يستطيع كل الناس من كان إسلامه جديد عهد، ومن راقب نفسه سنوات طويلة ـ وهو فيه أمر ـ هل هو مرتبة واحدة أم للإحسان أنواع؟

الإحسان أنواع :

الدكتور راتب :

أولاً العدل قسري، والإحسان طوعي، والمشكلات أحياناً لا تحل بالعدل بل بالإحسان، لذلك الإنسان مأمور بالإحسان كما هو مأمور بالعدل،

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ)

لكن الإحسان واسع جداً، الحقيقة أحد أنواع الإحسان أن تأتمر بما أمر الله، أمرك أن تكون صادقاً، أن تدلي بشهادتك، أن تقول الحق، أن تنتهي وأن تأتمر من الإحسان، الآن حينما تتقرب إلى الله لخدمة عباده هذا من الإحسان، أي انصياع لأمر، وتجنب نهي، ثم مبادرة لعمل صالح، لعلك تصلح إنساناً، تعين إنساناً، تخدم إنساناً، تنقذ مخلوقاً، تسقي كلباً، تطعم هرة، أية خدمة إلى أي مخلوق هو الإحسان، لذلك قال تعالى:

(مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً)

[سورة البقرة الآية : 245]

أي عمل صالح تقوم به هو بمثابة قرض لله عز وجل، والله يكافئك عنه، إذاً الإحسان يبدأ من أن تأتمر بما أمر، يثني من أن تنتهي عما عنه نهى، يثلث في أن تتقرب إلى الله بخدمة خلقه، أي بعيداً عن الأمر النصي والنهي النصي أطعمت هرة، سقيت كلباً، أنقذت جريحاً، تعاهدت أرملة، أطعمت جائعاً، كسوت عارياً، أنصفت مظلوماً، نفست كرباً عن مسلم، شفعت في زواج، أقرضت مالاً، أعنت إنساناً، نصحت مسلماً، علمت العلم، هذا كله إحسان، أبواب الإحسان لا تعد ولا تحصى، بل إن الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق.

الإحسان وسيلة التقرب إلى الله عز وجل :

بل إن الإحسان هو الوسيلة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ)

[سورة المائدة الآية : 35]

أي الوسيلة كي تتقرب إليه، مرة قلت: مجند غر أقل رتبة في الجيش، التحق لتوه بالخدمة الإلزامية، هناك فرقة على رأسها أعلى رتبة هي لواء، هذا الجندي الغر لا يستطيع أن يقابل هذا اللواء، غير

مسموح له أن يقابل اللواء في كل أنحاء العالم، لأن قبله عشرات الرتب، هناك حالة واحدة يستطيع أن يدخل عليه من دون استئذان، إن رأى ابن هذا اللواء يسبح فكاد يغرق فألقى بنفسه وأنقذه، فيقابله من دون إذن، هذه الرتبة العالية ترحب به، تقول له كلمات معسولة، ويرحب به، ويجلسه إلى جانبه، ويأتيه بالضيافة، هذا معنى قوله تعالى:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا)

[سورة الكهف الآية : 110]

أنت حينما ترى أن كل هذه المخلوقات مخلوقات الله عز وجل، وأن أحبّ الناس إلى الله أنفعهم لمخلوقاته، يكون الإحسان ديدنك ومنهجك في الحياة.

الأستاذ أحمد :

عندما كتب الله عز وجل الإحسان كما ورد: إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته، إذاً الإحسان ليس خاصاً بالتعامل مع البشر.

الإحسان ليس خاصاً بالتعامل مع البشر :

الدكتور راتب :

مع كل المخلوقات من دون استثناء، لو قتلت عقرباً ينبغي أن تقتله بضربة واحدة، رأى النبي إنساناً يذبح شاة أمام أختها فغضب، قال له: هلا حجبتها عن أختها ؟ أتريد أن تميتها مرتين؟ إن الله كتب الإحسان على كل شيء.

الأستاذ أحمد :

وهذه المرأة البغي التي دخلت الجنة في كلب سقته.

الدكتور راتب :

العلماء علقوا على هذا الحديث بأن الإخلاص كان ملابساً لهذه السقية، لأنها في الصحراء لا ترجو ثواباً، ولا عقاباً، ولا أحد يراها، إنما لرحمة في قلبها سقت هذا الكلب فغفر الله لها.

الأستاذ أحمد :

فهل من مثال تطبيقي عملي لرسول الله صلى الله عليه و سلم، كيف كان إحسانه مع أصحابه؟ مع أهل بيته؟ حبذا لو تحدثنا بشيء.

مثال تطبيقي عن إحسان النبي مع أصحابه و أهل بيته :

الدكتور راتب :

النبي عليه الصلاة والسلام كان في خدمة أصحابه، دخل عليه أعرابي، قال : أيكم محمد؟ كان في خدمة أصحابه، كان أصحابه الكرام يفتدونه بأرواحهم، لأنه عدّ نفسه واحداً منهم، لأنه يعنيه ما يعني أصحابه، لذلك سيدنا ربيعة خدمه، قال النبي عليه الصلاة والسلام: سلني حاجتك يا ربيعة؟ لو أن هناك إنسان على وجه الأرض يستحق أن تخدمه بلا مقابل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك رأى خدمة ربيعة ديناً عليه، إذاً النبي عليه الصلاة والسلام كان يحسن مع هرة، يصغي لها الإناء، كان يكنس داره، يرفو ثوبه، يحلب شاته، كان في مهنة أهله، كان يقول:

((أكرموا النساء ، والله ما أكرمهن إلا كريم ، وما أهانهن إلا لئيم))

[ورد في الأثر]

كان النبي عليه الصلاة والسلام الإنسان المحسن الأول في كل شيء، دخل على بستان فرأى جملاً ذرفت عيناه، فاقترب منها ومسح ذفريه وقال:

((من صاحب هذا الجمل؟ قال فتى من الأنصار: هو لي يا رسول الله، قال له النبي الكريم: ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها فإنه شكا إلي أنك تجيعه وتدئبه))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

كان شفافاً، حتى حينما خطب على المنبر حنّ إليه الجذع كان يضع يده على الجذع تكريماً له، إذاً كان محسناً في كل مستويات الإحسان.

الأستاذ أحمد :

لخصتم لنا الإحسان فقلتم إنه العمل الصالح، و كلنا يعلم أن الأعمال بالنيات، فالإحسان إيجابي دائماً.

قيمة الإحسان في نيته :

الدكتور راتب :

قيمة الإحسان في نيته، بل إنما تفيد القصر والحصر، أي يقيّم الإحسان دائماً بنيته:

((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ))

[متفق عليه عن عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ]

هناك إنسان أحب امرأة حباً جماً، اسمها أم قيس، فاشترطت عليه كي توافق على الزواج منه أن يهاجر إلى المدينة فهاجر، سماه الناس مهاجر أم قيس، أضرب مثلاً: إنسان غني كبير، صاحب أراض كثيرة،

جاء من همس في أذنه أنك إذا تبرعت بأرض لبناء مسجد اضطرت البلدية أن تنظم أرضك، وأن تجعلها مقاسم، وإذا جعلت مقاسم تضاعف ثمنها، فقدم أرضاً لتكون مسجداً، هل له أجر بهذا المسجد؟ إطلاقاً، هو أراد مضاعفة أسعار أرضه، فلذلك:

((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى))

لكن هذه النية لا يمكن أن تكون مفتعلة، هي كسعر العملة محصلة اقتصاد الأمة، الآن النية محصلة إيمان المؤمن، واستقامته، وجهاده، وعمله الطيب، ومتابعته، وأداء عباداته، محصلة كل نشاطاته تكون في نيته.

الأستاذ أحمد :

العمل هو ملخص عن الإحسان، هل العمل يتوقف على الدنيا أم يستمر إلى ما بعد الدنيا؟

العمل الصالح يُقيّم في قوة التأثر وعمقه ونوعه واتساع رقعته :

الدكتور راتب :

أولاً: العمل أنواع، هناك عمل رقعته واسعة جداً، الإسلام انتشر في الآفاق، لذلك أكبر دعوة شملت معظم بلاد الأرض الإسلام، لذلك رقعة هذا العمل كبيرة جداً، أحياناً امتداد أثره، أي من ألف وأربعمئة عام والدين مستمر ويتوسع، هذا مؤشر على امتداد الأمد، واتساع الرقعة، وعمق التأثير، حينما تكون الدعوة متغلغلة في أعماق الإنسان، في فكره، في طباعه، في علاقاته، في بيته، في عمله، في تجارته، في أعماق أعماق قلبه، هذه دعوة بليغة جداً، إذاً العمل الصالح الذي أنجزها عمل عظيم، فالعمل الصالح يُقيّم في قوة التأثر، وعمق التأثير، ونوع التأثير، وامتداد أمد التأثير، واتساع رقعة التأثير.

الأستاذ أحمد :

هل هذا هو المقياس؟

الدكتور راتب :

هذه مقاييس، لذلك هذا الذي قرأ تاريخ البشرية، واختار منها الآلاف، ثم قرأ تاريخ الآلاف، واختار منها مئة، وجعل النبي عليه الصلاة والسلام على رأس المئة من حيث قوة التأثير، ونوع التأثير، وامتداد أمد التأثير، واتساع رقعة التأثير.

الأستاذ أحمد :

لكي يكون الإحسان إحساناً لا بدّ أن يكون متعلقاً بالعمل ذو النية الصالحة، إذاً لابد أن يكون الإحسان خالصاً لوجه الله عز وجل، هل يشترط أن يكون أيضاً صواباً؟

العمل الصالح لا يقبل عند الله إلا إذا كان خالصاً وصواباً :

الدكتور راتب :

قبل ذلك، العمل الصالح لا يقبل عند الله إلا إذا كان خالصاً، وصواباً، خالصاً ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة، لذلك لو أن العمل وراؤه نية صالحة، أما شكله على خلاف السنة، أي لو أقمنا حفلاً غنائياً ساهراً، يرصد ريع هذا الحفل للأيتام، النية صالحة أما الشكل غير صالح. فنحن نرى أن الله عز وجل حينما قال في الدعاء القرآني:

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ)

[سورة النمل الآية : 14]

الله عز وجل لا يرضى عن العمل إلا إذا كان خالصاً، بمعنى ما ابتغي به وجه الله، وصواباً ما وافق السنة. إذاً شروط قبول العمل أن يكون صواباً، وأن يوافق السنة.

حجم الإنسان عند الله بحجم عمله الصالح :

لكن تجاوزنا شيئاً، الأعمال الصالحة منها ما ينتهي عند الموت، ومنها ما يستمر بعد الموت:

((إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ، إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

أو أي عمل يستمر بعد موت صاحبه، أنشأت مستشفى، أنشأت ميتماً، أنشأت معهداً شرعياً، ألفت كتاباً، أنجبت ولداً صالحاً، هذه الأعمال الصالحة قال الله عز وجل عنها:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ)

[سورة الطور الآية : 21]

إذاً: العمل الصالح بطولة صاحبه أن يكون مستمراً، هناك عمل ينتهي بعد ساعة، أطعمت جائعاً، أكل وشبع، وبعد أربع ساعات جاع ثانية، لكن هناك أعمال مديدة، أنت قد تطعم فقيراً، لكن قد تهيئ له عملاً يقتات منه، ويرفع رأسه، ويشعر أنه لا يأخذ صدقة، يأخذ أجراً، أن تطعم الفقير مرة واحدة أو أن تطعمه بشكل مستمر؟ أن تهيئ له عملاً، إذاً العمل الصالح يتفاوت، لكن حجم الإنسان عند الله بحجم عمله الصالح.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - موسوعة الأخلاق الإسلامية - الدرس (27-28) : التعاون
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-02-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ أحمد :

سيدي الكريم حبذا لو نتحدث اليوم عن خلق من الأخلاق الإسلامية ألا وهو خلق التعاون، والتعاون يظنه كثير من الناس بأنه منحصر بصورة واحدة ألا وهي مساعدة الأخ لأخيه في قطع طريق، أو حمل شيء، لكن هذا الخلق العظيم تندرج تحته الكثير من الصور، فعلى سبيل المثال المساعدة بالجسم هي صورة من الصور، لكن المعونة المادية أيضاً هي صورة، بل إن المعاونة في الفكر وما أشبه هي صورة، بل إن هناك نوعاً من التعاون هو التعاون النفسي أو الوجداني، فعندما أشارك أخي المسلم في أفراحه، في أتراحه، في حزنه، هذه أيضاً صورة، ولذلك نرى أن التعاون ينسحب على كثير من صور حياتنا، فالسؤال الآن: هل التعاون هو خلق وفقط أم أن له خلفية عقدية؟

التناقض بين الطبع والتكليف سبب دخول الجنة :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

أستاذ أحمد أولاً الإنسان معه طبع ومعه تكليف، وقد ذكرت هذا كثيراً، الطبع يقتضي أن تتابع النوم، والتكليف يقتضي أن تستيقظ لتصلي، الطبع تناقض مع التكليف، الطبع يقتضي أن تأخذ المال، والتكليف يقتضي أن تنفق المال، وهنا تناقض الطبع مع التكليف، الطبع يقتضي أن تخوض في فضائح الناس - شيء ممتع - والتكليف يقتضي أن تصمت، الطبع يقتضي أن تملأ العين من محاسن المرأة التي لا تحل لك، والتكليف يقتضي أن تغض البصر، يتضح أن مع الإنسان طبعاً، ومعه تكليفاً، هذا التناقض بين الطبع والتكليف هو سبب دخول الجنة:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

[سورة النازعات الآيات :40-41]

لأن التكليف سمي تكليفاً لأنه ذو كلفة، فيه جهد:

((ألا إنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ ، ...إنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

[أحمد عن ابن عبَّاس]

من اتبع التكليف الإلهي اقترب من الله عز وجل :

التكليف فيه كلفة وهو ثمن الجنة، ألا إن سلعة الله غالية، وأي إنسان توهم أن الجنة تكون بركعتين ودرهمين فهو واهم، ألا إن سلعة الله غالية، أنا حينما أتبع طبعي أبتعد عن ربي، وحينما أتبع التكليف الإلهي أقترب من الله، الآن الطبع فردي والتكليف تعاوني، لو عدت إلى طبعي، أتمنى أن أكون وحدي، أن آكل وحدي، أن أستمتع بالحياة وحدي، أن تكون الأموال كلها لي لا لغيري، هذا الطبع، فالإنسان يكون فردياً ويؤثر مصلحته على حساب مصالح الآخرين حينما يبتعد عن ربه، فأي إنسان بعيد عن الله عز وجل فردي، مصلحته فوق كل شيء، قد يبني مجده على أنقاض الآخرين، قد يبني حياته على موتهم، قد يبني غناه على فقرهم، قد يبني عزه على ذلهم، قد يبني حياته على موتهم، أما أي إنسان يتبع منهج الله عز وجل يتعاون.

التعاون هو السمة الأساسية البارزة للمؤمنين :

التعاون له سمات عميقة في الإنسان، هذه السمات لها اتصال بفهمه بحقيقة الدنيا، وحقيقة الدين، له جانب عقدي، أنا حينما أؤمن أن الله لا يدخلني الجنة التي وعد بها المؤمنين إلا إذا تعاونت مع أخي، لذلك السمة الأساسية البارزة للمؤمنين التعاون، والسمة الأساسية البارزة للشاردين هي التنافس، فالمجتمع المتعاون مجتمع مؤمن، وقد يكون مجتمعاً ذكياً لأن الذكاء يلتقي مع الإيمان في النتائج، يختلف معه بالبواعث، بمعنى لو راقبنا مدير مؤسسة، ينطلق من إيمانه العميق، ومن طاعته لله، ودرسنا تصرفاته خلال فترة من الزمن، ثم راقبنا مدير مؤسسة يحمل أعلى شهادة في إدارة الأعمال، المفاجأة الصاعقة أن كلا الرجلين متشابهان في تصرفاتهما لكن باعث الأول طاعة الله عز وجل واستحقاق الجنة، بينما باعث الثاني امتلاك الدنيا فقط، لذلك الأول يعطي الدنيا والآخرة، والثاني ليس له في الآخرة من خلاق.

التعاون خلق جماعي و الطبع خلق فردي :

العمل العبادي والعمل الذكي العلمي يلتقيان في النتائج ويختلفان في البواعث، معنى ذلك أن كل إيجابيات الغرب إسلامية، لا لأنهم مؤمنون بالله، مؤمنون بالمال، بالمصالح، بالدنيا، المادة تقتضي أن

تكرم الإنسان، أن تعطيه حقه، أن تكون عادلاً، طبعاً في مجتمعاتهم فقط، مع المجتمعات الأخرى لهم شأن آخر، ليسوا إنسانيين لكنهم عنصريون، لذلك العمل الذكي العلمي يلتقي مع العمل العبادي في النتائج ويختلف معه في البواعث، فمثلاً النموذج الأرفع في العالم الغربي ما يسمى بفريق العمل، الآن لا يقبل موظف في مؤسسة، في معمل، في دائرة، إلا إذا كان صالحاً للعمل ضمن فريق، هذه توضع في شروط القبول، هناك إنسان لا يتعاون، متفوق، له إنجاز كبير، لكنه لا يتعاون، فردي، يريد أن يبني مجده شخصياً، بينما الإنسان الآخر يتعاون مع أخيه، مثلاً معمل فيه نزعة فردية، لو أخطأ بعض العمال عشرات العمال يذهبون إلى المدير خلسة، ويشتكون على هذا، يشفون صدورهم منه، في مجتمع التعاون إذا اخطأ العامل توجه عشرات إليه ينصحونه فيما بينه وبينهم، التعاون إسلامي، لكن أنا أتعاون بقدر طاعتي لله، وأتنافس بقدر معصيتي لله، لن تجد مؤمناً صادقاً يحمل همّ المسلمين، يبتغي وجه الله عز وجل، إلا ويتعاون مع أخوانه، أما التفرد والتوهم أن الحق معي وحدي، وأن الله لي وحدي، وأن الجنة لي وحدي هذا فهم سخيف، وساذج، وشيطاني، من أجل إثارة الفرقة بين المسلمين.

الأستاذ أحمد :

وهذا معنى قولك بأن التعاون خلق جماعي وأن الطبع خلق فردي.

الدكتور راتب :

الملخص أنا أتعاون مع أخي المؤمن ومع مجتمعي بقدر طاعتي لله، وأتنافس مع أخي بقدر معصيتي لله.

الأستاذ أحمد :

الغربيون ـ كما تفضلتم ـ عندهم مفهوم التعاون متبنى مع أنهم أقوياء، ومع أنهم قد قطعوا أشواطاً في التقدم العلمي والتكنولوجي وغير ذلك، فلماذا يصرون على مفهوم التعاون لأنهم قطفوا ثماره أم لأنهم يعلمون أن المركب لا يمكن أن يسير؟ حتى اليوم نرى أن مراكز الدراسات والبحوث الضخمة في دولهم لا تخرج تقارير ودراسات إلى الناس إلا بعد أن تكون من فريق باحثين لا بفكر شخص واحد فقط.

التنافس تخلف و ضعف :

الدكتور راتب :

السؤال معكوس قلت: هم أقوياء، هم أقوياء لأنهم تعاونوا، بل لأنهم يخططون لأجيالهم الصاعدة ليتعاونوا بدءاً من سن السادسة، لعبهم فيها تعاون، معظم اللعب التي يمارسها الصغار لا تنجح إلا

بالتعاون، كأن في دمهم كرية بيضاء وكرية حمراء وكرية تعاون، وكأن في دم المتخلفين كرية بيضاء وكرية حمراء وكرية تنافس، التنافس تخلف، والتنافس ضعف، قال تعالى:

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

[سورة الأنفال الآية : 46]

تطاوعا ولا تنافسا وصية النبي عليه الصلاة والسلام.

الأستاذ أحمد :

سيدي هل هناك آية تعد أصلاً في خلق التعاون؟

الآية التالية تعد أصلاً في التعاون :

الدكتور راتب :

هناك آيات كثيرة ولكن أحياناً تكون آية واحدة كما تفضلت تعد أصلاً في التعاون، قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا)

[سورة المائدة الآية : 2]

كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب ، على ماذا تعاونوا؟

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

[سورة المائدة الآية : 2]

قال العلماء :

(الْبِرِّ)

صلاح الدنيا،

(وَالتَّقْوَى)

صلاح الآخرة. لأنك مؤمن يجب أن تتعاون لحل مشكلة الأمة، تأمين سكن للشباب، تأمين فرص عمل، حل مشكلة البيئة، المجتمع الراقي إيمانياً أو الراقي حضارياً متعاون، هذه الأرض أرضي، هذا الوطن وطني ، هذه البيئة بيئتي، ينبغي أن أعيش براحة فيها، لذلك أنا أقيس مقياس التقدم الحضاري أو الديني من التعاون.

الأستاذ أحمد :

هذا التعاون على البر في الدنيا والتعاون على التقوى للآخرة كيف يكون؟

النصيحة أساس التعاون على البر في الدنيا والتعاون على التقوى للآخرة :

الدكتور راتب :

بالنصيحة أنا حينما أرى أخي قد انحرف أنصحه، لا أقول: مالي وماله، لا، هذا موقف غير أخلاقي، أنا حينما أتخلى عن أخي المؤمن فهذا موقف غير أخلاقي، لا بد من أنصحه، بل تكون النصيحة أحياناً ضرورة، وهؤلاء الذين كانوا في سفينة أراد أحدهم أن يخرقها، قال: فإن أخذوا على يديه نجا ونجوا وإن تركوه هلك وهلكوا.

الأستاذ أحمد :

ظن أنه حر في الجزء الذي يقف عليه.

الدكتور راتب :

التعاون فريضة الآن، التعاون ضرورة، التعاون حضارة، التعاون دين، التعاون إيمان، لذلك هناك نقطة دقيقة جداً هذا الدين توقيفي، يجب أن يستمر كما بدأ، لا يقبل أن تضيف عليه شيئاً، كما أنه لا يقبل أن تحذف منه شيئاً، إنك إن أضفت عليه جعلت المسلمين شيعاً، وأحزاباً، وفرقاً، ومذاهب، وطوائف، وكان بأسهم بينهم، وتعطل تقدمهم، وقوي عليهم عدوهم، أما إذا حذفت منه جعلتهم في المؤخرة، بالإضافة يتقاتلون ويضعفون، لذلك:

((تركت فيكم شيئين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدهما : كتاب الله وسنتي))

[أخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة]

لا بدّ من التعاون.

التجديد أن ننزع عن الدين كل ما علق فيه مما ليس منه :

أما ما يطرح الآن من نغمات التجديد في التعريف الجامع المانع الدقيق هو: أن ننزع عن الدين كل ما علق فيه مما ليس منه، الدين توقيفي:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

[سورة المائدة الآية : 3]

الأستاذ أحمد :

لا أن نجدد الدين بما يوافق هوانا.

الدكتور راتب :

التجديد أن ننزع عن الدين كل ما علق فيه مما ليس منه، فالتعاون والتدين صنوان، والتنافس والتخلف

صنوان.

الأستاذ أحمد :

هذا يذكرني بعنوان كتاب اسمه "تجديد في المسلمين لا في الإسلام"، والآية التي ذكرتها سيدي الكريم:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

أردفها تعالى بقوله:

(وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

إذاً التعاون ليس دائماً خلقاً إيجابياً، كأنه كما ذكرتم في حلقات سابقة هناك أخلاق حدّية، أيضاً هناك من يتعاون على الإثم والعدوان، ما هي أمثلة هذا التعاون على الإثم والعدوان؟

أمثلة عن التعاون على الإثم والعدوان :

الدكتور راتب :

الإنسان إذا انحرف في سلوكه الوظيفي وجاء موظف آخر انضم إليه، تعاونا على الإثم والعدوان، العدوان على مصالح الأمة، فأنا حينما أكون طرفاً في مشكلة تصيب الأمة أنا متعاون تعاوناً سلبياً، الله عز وجل أمر ونهى،

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

البر صلاح الدنيا، والتقوى صلاح الآخرة،

(وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

أحياناً هناك معاصٍ ليس فيها عدوان، لو أن إنساناً دخل إلى غرفته وشرب الخمر، أو جلس مع أخيه يشربان الخمر، لم يؤذوا أحداً هذا إثم، وهناك تعاون على العدوان، لذلك سيدنا عمر يقول: "لو أن أهل بلدة ائتمروا على قتل واحد لقتلتهم به جميعاً"، لذلك قال الله عز وجل:

(فَعَقَرُوهَا(157))

[سورة الشعراء]

ما قال: عقرها واحد، الذي عقرها واحد، لكن هؤلاء ائتمروا على عقرها فنسب الفعل إليهم جميعاً.

الأستاذ أحمد :

كفار قريش حينما حاولوا أن يفتكوا برسول الله فجمعوا له حتى يضيع دمه بين القبائل، قوله تعالى:

(أرأيت الذي يكذب بالدين(1)فذلك الذي يدع اليتيم(2)ولا يحض على طعام المسكين(3)فويل للمصلين(4)الذين هم عن صلاتهم ساهون(5)الذين هم يراءون(6)ويمنعون الماعون(7))

منع الماعون هل فيه تعاون على الإثم والعدوان؟

منع الماعون تعاون على الإثم والعدوان :

الدكتور راتب :

تعاون سلبي، مثلاً: إنسان أعارك كتاباً، ينبغي أن ترده إليه مجلداً، من أجل تعزيز قيمة التعاون، أما تأخذه تضعه في بيتك أشهراً وسنوات حتى ينساه، تنساه في مركبتك ومعه بضاعة مهربة فتصادر المركبة، الآن الشيء الذي يحصل أن إنساناً يخشى أن يعاون أحداً في ركوب مركبته، يخشى أن يكون مهرباً، أن يكون مخالفاً للقانون، لذلك رجل كان يركب حصاناً، رأى رجلاً في أيام الصيف، والصحراء شديدة الحر، و رجل ينتعل رمال الصحراء المحرقة، دعاه إلى ركوب الخيل رحمة به، لكن هذا الإنسان أحد لصوص الخيل، ما اعتلى متن الخيل وراء صاحبها حتى دفعه إلى الأرض، وعدا بها لا يلوي على شيء، فصاح صاحب الفرس: يا هذا لقد وهبت لك هذه الفرس، ولن أسأل عنها بعد اليوم، ولكن إياك أن يشيع الخبر في الصحراء فتفقد الصحراء أجمل ما فيها.

الأستاذ أحمد :

ضحى بفرسه مقابل ألا يكرس عند الناس مفهوم قطاع الطرق. هذا يجعلني أن أسأل عن خلق التعاون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هي أمثلته أو بعض صوره؟

خلق التعاون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم :

الدكتور راتب :

النبي صلى الله عليه وسلم كان مع أصحابه في سفر، أرادوا أن يعالجوا شاة، فقال أحدهم: عليّ ذبحها، وقال الثاني: عليّ سلخها، وقال الثالث: عليّ طبخها، فقال عليه الصلاة والسلام: وعليّ جمع الحطب، قالوا: نكفك ذلك، قال: أعلم أنكم تكفونني، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه .

في بدر الصحابة كانوا ألف صحابي وثلاثمئة راحلة، هو قائد الجيش، وزعيم الأمة، ورسول الله، ونبي الأمة، قال: كل ثلاثة على راحلة، وأنا وعلي وأبو لبابة على راحلة، سوى نفسه مع أقل جندي، ركب الناقة فلما جاء دوره في المشي توسلا صاحباه أن يبقى راكباً قال: ما أنتما بأقوى مني على السير ولا أنا بأغنى منكما عن الأجر .

هذا تعاون النبي عليه الصلاة والسلام، وكان في مهنة أهله.

الأستاذ أحمد :

التعاون هل هو خلق مجرد أم فيه قهر وإجبار؟

الإنسان إما أن يتعاون فيعلو عند الله وإما أن يتنافس فيسقط :

الدكتور راتب :

أستاذ أحمد، حينما سمح الله للإنسان أن يتقن شيئاً واحداً أو شيئين، وهو بحاجة إلى ملايين الأشياء، أنت بحاجة إلى معطف، إلى ثياب، إلى قميص، بحاجة إلى طبيب، إلى مدرس، بحاجة إلى صانع، إلى خياط، حلاق، خطاط، أنا لا أبالغ أنت بحاجة إلى مليون حاجة، هذا الزر الذي في القميص له معامل، له خبراء، أنت بحاجة إلى قميص له أزرار، فأنت تتقن عملاً واحداً، أنت مدرس لكن بحاجة إلى طعام، بحاجة إلى رغيف خبز، هناك مئات الألوف يزرعون، ويسمدون، ويسقون، ويحصدون، ويطحنون، ويخبزون، هناك مشاركة في الخبرات، لذلك أنت مقهور أن تعيش مع أخوانك، ممر إجباري، فإما أن تتعاون فتعلو عند الله، وإما أن تتنافس فتسقط، لذلك أنا مقهور أن أكون في مجتمع.

الأستاذ أحمد :

هدف التعاون وأن أعلو مع الله يجعلني أسألك هل هناك واجب في الدعوة إلى الله أن يتعاون أهلها فيما بينها؟

الإنسان حينما يتعاون مع أخيه الإنسان يؤكد إيمانه و إخلاصه :

الدكتور راتب :

أستاذ أحمد أقول لك من أعماق قلبي: الدعوة إلى الله دعوتان؛ دعوة إلى الله خالصة، ودعوة إلى الذات مغلفة بدعوة إلى الله ، الدعوة إلى الله الخالصة من خصائصها التعاون، والدعوة إلى الذات من خصائصها التنافس، الدعوة إلى الله الخالصة من خصائصها الاتباع، الدعوة إلى الذات من خصائصها الابتداع، الدعوة إلى الله الخالصة من خصائصها قبول الآخر، أن تعرف قيمته، ما عنده من إيجابيات، والدعوة إلى الذات من خصائصها إلغاء الآخر، رفض الآخر، بناء مجدك على أنقاض الآخر، فلذلك كل من تعاون في الدعوة إلى الله أكّد إخلاصه لله، أكّد انصياعه لأمر الله، النبي عليه الصلاة والسلام ـ وهو قمة في العلم والحكمة ـ بحكمة بالغة حجب الله عنه الموقع المناسب يوم بدر، حجب عنه الموقع وحياً، وإلهاماً، واجتهاداً، فجاء صحابي جليل الحباب بن المنذر، قال يا رسول الله : هذا الموقع وحي أوحاه الله لنا أم هو الرأي والمشورة؟ قال له: هو الرأي والمشورة ، قال له: والله ليس بموقع، قمة العلم والحكمة بكل بساطة وتواضع، قال: أين الموقع المناسب؟ فدله عليه، فأمر أصحابه بالتحول إليه، الرجوع إلى الحق فضيلة، وقد أراد الله عز وجل من النبي عليه الصلاة والسلام أن يُظهر به هذه

الفضيلة حينما حجب عنه الموقع المناسب وحياً، وإلهاماً، واجتهاداً، الإنسان حينما يتعاون مع أخيه الإنسان يؤكد إيمانه، يؤكد إخلاصه، يؤكد أنه حضاري بالمفهوم الحديث.

الأستاذ أحمد :

رسول الله صلى الله عليه وسلم يوجهنا فيقول: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، وهذه فيها صور من صور التعاون، ثم يسأل أحد الصحابة فيقول: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً كيف إذا كان ظالماً؟ قال: بأن تأخذ على يده، كيف هي صورة الأخذ على يد الظالم؟

التعاون هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

الدكتور راتب :

أحد أسباب هلاك الأمم :

(كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ)

[سورة المائدة الآية : 79]

((إنَّما أهلك الذين قبلكم: أنَّهمْ كانوا إذا سَرقَ فيهم الشَّريفُ تَرَكُوه، وإذا سَرَقَ فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ. وَأيْمُ اللَّهِ لَوْ أنَّ فاطمة بنْتَ محمدٍ سَرَقت لقطعتُ يَدَهَا))

[أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن عائشة أم المؤمنين]

لذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((كيف بكم إذا لم تأمروا بالمعروف، ولم تنهوا عن المنكر، قالوا : أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال: وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر، ونهيتم عن المعروف، قالوا : أو كائن ذلك يا رسول الله؟ قال : وأشد منه سيكون، قالوا: وما أشد منه؟ قال: كيف بكم إذا أصبح المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً؟))

[ابن أبي الدنيا وأبو يعلى الموصلي في مسنده عن أبي أمامة]

الحقيقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو التعاون، هو تعاون الإنسان مع أخيه الذي ظلم، لذلك:

((من أعان ظالما سلطه الله عليه))

[أخرجه ابن عساكر عن ابن مسعود]

((من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة لقي الله يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله))

[أخرجه ابن ماجه عن أبي هريرة]

الأستاذ أحمد :

عندما يقول الله عز وجل

(والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا)

واستثنى منهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات هذه كأنها فردية، إيمان وعمل للصالحات،

(وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)

هل التواصي بالحق والتواصي بالصبر فردي؟

التواصي بالحق ربع النجاة وفرض عين على كل مسلم :

الدكتور راتب :

التواصي بالحق ربع النجاة، بل هو فرض عين، لذلك التواصي بالحق ربع النجاة وفرض عين على كل مسلم، أما:

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

[سورة الأنفال الآية : 25]

معنى ذلك أنا حينما لا أهتم بمصالح المؤمنين، أنزوي في بيتي، أنا أرتكب ذنباً كبيراً، أنا صالح لكن لست مصلحاً وقد قال الله عز وجل :

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

[سورة هود]

إن كانوا صالحين يهلكون، لأنهم قصروا في التعاون.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - موسوعة الأخلاق الإسلامية - الدرس (28-28) : الشهوة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-02-2008

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ أحمد :

سيدي الكريم كنا قد تحدثنا عن مقوم من مقومات التكليف، ألا وهو مقوم الفطرة، وحبذا أن نعرج على مقوم آخر، ألا وهو مقوم الشهوة، وأول ما يستوقفنا في استعراضنا اليوم قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)

[سورة النور الآية : 19]

فهل هناك أناس يعملون لإشاعة الفاحشة ونشرها ويخالفون فطرتهم التي فطرهم الله عز وجل عليها؟

الشهوات ليست سبب هلاك الإنسان بل سبب تقربه من الله عز وجل :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.

أستاذ أحمد قبل أن نجيب عن هذا السؤال لا بد من مقدمة، الله عز وجل في قرآنه الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يقول:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة آل عمران الآية : 14]

أي أن الله أودع في الإنسان الشهوات، الشهوة ميل الإنسان، يميل إلى الطعام والشراب لأن الله خلق فيه الحاجة إلى الطعام والشراب، الإنسان يميل إلى المرأة لأن الله عز وجل خلق فيه الحاجة إلى الجنس، الإنسان يميل إلى أن يؤكد ذاته إلى العلو في الأرض لأن الإنسان يحتاج إلى أن يكون شخصاً مهماً في الحياة، فهناك شهوات أودعها الله في الإنسان، والحقيقة أن هذه الشهوات قد يتوهم بعض الناس أنها سبب الهلاك، والحقيقة عكس ذلك، أقول كلمة أستاذ أحمد: لولا الشهوات التي أودعها الله فينا ما ارتقى الإنسان إلى رب الأرض والسماوات، أي الله عز وجل الذات الكاملة، خالق السماوات والأرض،

رب العالمين، الرحمن الرحيم، كل الخير في الإقبال عليه، كل السعادة في التوجه إليه، كل الطمأنينة في الاحتماء به، ولكن كيف نصل إليه؟ كيف نَتَقرب إليه؟ كيف نحث الخطا إلى بابه الكريم؟ لا بد من ثمن، ما هو الثمن؟ حينما نضبط شهواتنا، لولا الشهوات التي أودعها الله فينا ما ارتقى الإنسان إلى رب الأرض والسماوات، هذه حقيقة أولى ليست الشهوات سبب هلاكنا بل الشهوات سبب عروجنا إلى الله، لا بدّ من أن أتقرب إلى الله، هناك شخص بيده كل شيء ـ ملك ـ ما السبيل إليه؟ لا بدّ من طريق سالكة إليه، لا بدّ من وسيلة أصل إليه، لا بدّ من خطة أنتهجها فأكون على بابه، الله عز وجل هو الذات الكاملة، هو خالق السماوات والأرض، الرحمن الرحيم، كيف أسعد به؟ كيف أتقرب منه؟ كيف ألوذ به؟ لا بد من وسائل، أحد أكبر الوسائل أن الله أودع فينا الشهوات كي نرقى بها تارة صابرين، وتارة شاكرين، إلى رب الأرض والسماوات.

الإنسان حينما يأخذ الجانب المسموح به يحقق الشهوة ويرقى إلى الله :

بشكل أو بآخر أودع الله فينا شهوة ولتكن شهوة المال، بإمكانك أن تأخذ المال بألف طريق وطريق، تأخذ المال ـ لا سمح الله ـ سرقة، واحتيالاً، وسلباً، ونهباً، وغشاً، وكذباً، وقهراً، أو بالكسب المشروع، فأنت مخير أن تمارس هذه الشهوة مئة وثمانين درجة، جاء الشرع الحكيم أعطاك حيزاً محدوداً، سمح لك بالكسب المشروع، وحرم عليك السرقة، والغش، والاحتكار، والكذب، والتدليس، والنهب، والسلب وما إلى ذلك.

أولاً: ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها، أي في الإسلام حرمان؟ الطرف الآخر يتوهم أن الإنسان إذا تدين أصبح محروماً، أقول بالدقة التامة: ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة تسري خلالها، فالإنسان حينما يأخذ الجانب المسموح به يحقق هذه الشهوة، ويرقى إلى الله، فإذا أخذ الجانب الممنوع يدمر نفسه ومن حوله، تماماً كالوقود السائل في المركبة إن وضع في المستودع المحكم، وسال في الأنابيب المحكمة، وانفجر في الوقت المناسب، ولّد حركة نافعة ، أقلتك أنت وأهلك إلى مكان جميل، فالبنزين الذي في المركبة حيادي، يمكن إذا صبّ هذا الوقود على المركبة ، وأصابته شرارة، أحرق المركبة ومن فيها، ويمكن إذا وضع في المستودع المحكم، وسار في الأنابيب المحكمة، ولّد حركة نافعة.

الشهوات حيادية :

إذاً الحقيقة الأولى في هذا اللقاء الطيب أن الشهوات حيادية، يمكن أن تكون سلماً نرقى بها، أو دركات

نهوي بها، حيادية، الشهوة حيادية لذلك الله عز وجل قال:

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)

[سورة الفجر]

جاء الجواب مع الردع :

(كَلَّا)

[سورة الفجر]

أي يا عبادي ليس عطائي إكراماً في الدنيا، ولا منعي حرماناً، عطائي ابتلاء وحرماني دواء، هل يعد المال نعمة؟ الجواب: هو نعمة ونقمة، هو نعمة إذا أنفق وفق منهج الله، ونقمة إذا أنفق لإفساد البشر، الشهوات حيادية يمكن أن تكون سلماً نرقى بها، أو دركات نهوي بها، الشهوة حيادية السبب لأن الإنسان بالأصل مخير، كل شيء في حياته حيادي، خصائصه حيادية، حظوظه، آتاه الله ذكاءً، علماً، طلاقة لسان، قوة إقناع، كل حظوظه حيادية، وكل شهواته حيادية، وكل خصائصه حيادية.

الأستاذ أحمد :

بما أن هذه الشهوة التي تحدثت عنها فضيلتك حيادية، إذاً ليس صحيحاً ما كان يظنه كثيراً من الناس من أن الشهوة هي سبب شقاء الإنسان، تجد كثيراً من الذين يهوون في المعاصي يقولون: إن الشيطان هو السبب، أو إن المعصية الفلانية هي السبب، أو إن إغراء النساء هو السبب، إذاً الشهوة حيادية إما أن يرتقي الإنسان بها، أو يهوي بها.

الشهوة حيادية إما أن يرتقي الإنسان بها أو يهوي بها :

الدكتور راتب :

لا بد من تعليق:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ)

[سورة إبراهيم الآية : 22]

الشهوة حيادية ، يمكن أن تكون سلماً ترقى بها إلى أعلى عليين، والشهوة نفسها يمكن أن تكون دركات تهوي بها إلى أسفل سافلين، فالمال ليس نعمة وليس نقمة، هو نعمة إذا كان في الخير، ونقمة إذا كان في الشر.

الأستاذ أحمد :

سيدي إذا كان الأمر كذلك لماذا يقول الله عز وجل:

(زين للناس حب الشهوات)

الشهوة موجودة لماذا تزين؟ هذه زيادة على الحيادية، كأن الصورة هكذا.

الأشياء الأساسية الموجودة بالإنسان ليحافظ على بقائه :

الدكتور راتب :

الإنسان لماذا يأكل؟ ليعيش، هل تتصور أن يصدر قانون في بعض الدول يلزم المواطن بتناول الطعام؟ مستحيل، لأن الحاجة إلى الطعام فطرية مودعة في أصل كيان الإنسان، فالإنسان يأكل ليحافظ على وجوده، لماذا يتزوج؟ ليحافظ على نوعه، لماذا يحب تأكيد ذاته؟ ليحافظ على بقاء ذكره، هذه أشياء أساسية؛ يأكل ليحافظ على وجوده، يتزوج دون أن يشعر ليحافظ على نوعه، يؤكد ذاته ليحافظ على ذكره.

الأستاذ أحمد :

سيدي هذا السؤال يستدعي سؤالاً آخر لو أن الحياة الدنيا لم يكن فيها شهوات، على سبيل المثال الإنسان خلق بشهوة وأمر بأن يوجه هذه الشهوة، لكن الملائكة أساس خلقتها وفطرتها أنها لا تعصي الله ما أمرها، ولذلك كان للإنسان تميزاً على الملائكة، فهل الحياة يمكن أن تستقيم أو أن تكون مقبولة أو يكون الإنسان مساوياً للملائكة؟

من اتبع هواه وفق هدى الله عز وجل لا شيء عليه :

الدكتور راتب :

هل تتصور حياةً بلا شهوات؟ لا ترى شيئاً، لا ترى بيتاً، ولا ترى بناءً، ولا ترى مدرسة، ولا مستشفى، ولا اختراعاً، ولا جسراً، لا ترى شيئاً، لماذا أتحرك؟ لا أشتهي شيئاً، هذه الطاولة هل يمكن أن تبدع؟ لا تحتاج إلى شيء لو أبقيتها آلاف السنين تبقى على ما هي عليه، الإنسان يحتاج أن يأكل إذاً يعمل، إذاً يتقن عملاً، إذاً يبني بيتاً، إذاً يخترع، إذاً يطلب العلم، ما من شهوة إلا هي سبب لبناء الأمة، لولا الشهوات لما رأيت شيئاً، النقطة الدقيقة في قوله تعالى:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

[سورة القصص الآية : 50]

أنا قلت قبل قليل: الشهوة حيادية، المعنى المخالف أنه من اتبع هواه وفق هدى الله عز وجل لا شيء عليه، وأنت في أعلى درجات القرب من الله تتزوج، وتلتقي مع زوجتك، وتأكل، وتشرب، الشيء الذي يحجب عن الله أن تمارس الشهوة بخلاف منهج الله، الشهوة يمكن أن تمارسها بمستوى مئة وثمانين درجة، بينما منهج الله سمح لك بمئة درجة، فهناك منطقة مسموح بها، وهناك منطقة عندها خط أحمر، من هو المؤمن؟ الذي أوقع حركته في الحياة ضمن المنطقة المسوح بها، ضمن الحيز المشروع، لذلك هو يأكل، ويشرب، ويدرس، ويؤسس عملاً، ويحمل دكتوراه، ويأخذ أهله نزهة، ويأكل أطيب الطعام، وهو في أعلى درجات القرب من الله عز وجل، لأن الشهوات التي أودعها فينا حيادية، فيها جانب خير جانب مسموح به.

من خرج عن منهج الله عز وجل لابدّ من أن يعتدي على الآخرين :

بالمناسبة لو تعمقنا قليلاً؛ الإنسان حينما يخرج عن منهج الله في ممارسة الشهوات لا بد من أن يعتدي على الآخرين، أي أنت حينما تكسب المال المشروع، أنت مرتاح مع الله، أما حينما تخرج عن منهج الله، سوف تأخذ ما ليس لك، سوف تبني مجدك على أنقاض الآخرين، سوف تبني غناك على إفقارهم، سوف تبني عزك على ذلهم، لمجرد أن تخرج عن منهج الله لا بد من أن تعتدي على الآخرين:

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ)

[سورة المؤمنون الآية :74]

الشهوات حيادية.

الأستاذ أحمد :

لذلك قال الله عز وجل:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

[سورة النازعات]

ثمن الجنة هو التناقض بين الطبع والتكليف :

الدكتور راتب :

هنا الكلام يحتاج إلى شرح، كيف؟ الإنسان جسمه يحتاج إلى النوم، التكليف أن يستيقظ ليصلي الفجر، التكليف يناقض الطبع، طبعه يميل إلى النوم، بينما التكليف يدعوه إلى الاستيقاظ، تناقض، الآن الجسم يحتاج إلى المال لأنه مادة الشهوات، التكليف أن ينفق المال، الجسم يميل على أن يملأ الإنسان عينيه من محاسن النساء، والتكليف أن يغض البصر، الآن من هذا التناقض بين الطبع والتكليف يكون ثمن

الجنة، ويؤكد هذا الآية الكريمة:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

[سورة النازعات]

الجنة هي ثمرةُ دفع الثمن وهو مخالفة الهوى، إذاً الشهوات نرقى بها مرتين، نرقى بها شاكرين و نرقى بها صابرين، كالمنشار تماماً، أنت حينما تتعفف عن مال لا يحل لك ترقى إلى الله صابراً، حينما تتعفف عن امرأة دعتك إلى شيء لا يرضي الله ترقى إلى الله صابراً، وحينما تتزوج ترقى إلى الله شاكراً، حينما تأخذ المال الحلال ترقى إلى الله شاكراً، فالإنسان يرقى بالشهوات مرتين، يرقى إذا ترك الجانب المحرم منها، ويرقى إذا أخذ الجانب الحلال، هي حيادية ترقى بها إلى أعلى عليين، أو يهوي بها الإنسان إلى أسفل سافلين.

ثانياً: ترقى بها مرتين؛ إن أخذت ما هو مشروع ترقى، وإن عففت عما هو غير مشروع ترقى، الرقي مرتان.

الأستاذ أحمد :

دكتور إذا عدنا إلى قوله تعالى:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة آل عمران الآية : 14]

هل هذه هي الشهوات فقط أم أن هناك شهوات أخرى؟ هل هناك شهوات كبرى وشهوات صغرى؟

اللذة و السعادة :

الدكتور راتب :

كلمة متعة تعني لذة طارئة، ليس لها أثر مستقبلي، مثلاً لو إنسان كان مغرماً أن يجلس في حوض ماء ساخن، لو جلس متى يكون طبيباً؟ لو أمضى وقتاً مديداً في حوض فيه ماء فاتر يرتاح له هل يكون تاجراً كبيراً؟ المتعة لذة آنية ليس لها أثر مستقبلي، أما حينما تدرس تكون طبيباً، حينما تفكر في إنجاز عمل علمي تكون عالماً، لذلك الشهوات تقابلها المتع:

(ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

المتعة لذة آنية وهذا يقودنا إلى شيء آخر، إلى المتعة والسعادة، المتعة حسية طبيعتها حسية، المتعة تناول طعام طيب، أو الاقتران بامرأة بارعة الجمال، أو أن تنظر إلى منظر جميل، أو أن تقتني مركبة فارهة، المتع كلها حسية، تأتيك من الخارج، بينما السعادة نفسية تنبع من الداخل، المتع تحتاج إلى

أموال طائلة، المال مادة الشهوات، ولحكمة بالغة جعل الله اللذة حسية، وتحتاج إلى أموال، وتحتاج إلى وقت، وتحتاج إلى صحة، والشيء المؤلم أن أحد هذه العناصر دائماً مفقود، ففي بداية الحياة الوقت موجود، الصحة طيبة لكن ليس هناك مال، في منتصف الحياة المال موجود والصحة موجودة لكن لا يوجد وقت، في خريف العمر الوقت موجود والمال موجود لكن لا يوجد صحة.

الأستاذ أحمد :

هذه من حكم الله عز وجل.

الدكتور راتب :

هذه اللذائذ، بينما السعادة لمجرد أن تعمل عملاً صالحاً:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

[سورة الكهف الآية : 110]

لمجرد أن تعمل عملاً صالحاً تتصل بالله، والاتصال بالله هو السعادة.

من جاءت حركته موافقة لهدفه سلم و سعد في الدنيا و الآخرة :

لذلك الإنسان متى يسعد؟ إذا جاءت حركته موافقة لهدفه، التاجر متى يشعر بالسرور؟ بالبيع الشديد، أما إذا لم يكن هناك بيع، جالس بالمكتب، ومرتاح، وصحف، ومجلات، وقهوة، وشاي، لكن يتألم أشد الألم، الإنسان يسعد حينما تأتي حركته مطابقة لهدفه، فكلمة:

(ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

أن هذه المتع ليس لها أثر مستقبلي، أنت جالس بحوض ماء ساخن في الحمام، هذا العمل لعله يريح أعصابك لكن ليس له أثر مستقبلي، أما إذا جلست على طاولة، والكتاب أمامك، وقرأت بحثاً وفهمته، والكتاب مقرر، هذا الكتاب ساهم بنيل شهادة، العبرة أن هناك أعمالاً ليس لها أثر مستقبلي، لذلك يقولون في قوله تعالى:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ)

[سورة العصر الآيات : 1-2]

لماذا يخسر؟ لأن مضي الزمن يستهلكه.

الوقت إما أن ينفق استهلاكاً أو استثماراً :

الإنسان بضعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منه، هذا الزمن إما أن ينفق استهلاكاً في أعمال ليس لها أثر مستقبلي، أو أن ينفق استثماراً، ينفق استهلاكاً كما يفعل معظم الناس يأكلون،

ويشربون،ويتمتعون، ويفاجؤون بالموت، وعندئذ ليس معهم عمل صالح، بينما الوقت إذا أنفق استثماراً قال تعالى:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

[سورة العصر]

إذا بحثت عن الحقيقة، وتحركت وفقها، ودعوت إليها، وصبرت عن البحث عنها، والعمل بها، والدعوة إليها، أنت لم تستهلك الوقت بل استثمرته، فهذا الإنسان ناج من الخسارة، إذاً :

(ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

تعني أن المتع ليس لها أثر مستقبلي، بينما الإيمان بالله، والعمل الصالح، والدعوة إلى الله، والصبر على هذه المتاعب، لها أثر مستقبلي، وما من إنسان تألق في حياة الناس إلا بسبب جهد كبير بذله بوقت ما.

الأستاذ أحمد :

سيدي هذا يذكرنا بخبر أخبرتنا به السنة النبوية:

((جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا ، فَقَالُوا : وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ ، قَالَ أَحَدُهُمْ : أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا ، وَقَالَ آخَرُ : أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ ، وَقَالَ آخَرُ : أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ، فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ : أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا ؟! أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

[البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

هذا الحديث يجعلنا نتساءل لو أن إنساناً اعتزل، ونأى بشعب، أو ببيته، وترك الناس، هل من الممكن أن يكون من المفلحين؟

الإسلام دين الحياة ليس فيه رهبانية :

الدكتور راتب :

أنا قلت في وقت سبق من هذا اللقاء: أن الشهوات حيادية، وأنها قوة إيجابية، وقلت قوله تعالى:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

[سورة القصص الآية : 50]

المعنى المخالف أنه من اتبع هواه وفق هدى الله عز وجل لا شيء عليك، وذكرت في مطلع هذا اللقاء الطيب أن الإسلام دين الفطرة، أي أنت مخلوق في الدنيا من أجل العمل الصالح، فلو اعتزلت الناس أين العمل الصالح؟ لو لم تتزوج، أبواب العمل الصالح في رعاية الزوجة، وتربية الأولاد، وإنجاب عناصر نافعة للمجتمع ـ الولد الصالح صدقة جارية يدعو لك من بعدك ـ كل هذه الأعمال توقفت، أنت إن لم تطلب العلم لا تكون عالماً، إن لم تطلب المال لا تكون غنياً، الذي معه المال، أو العلم، أو القوة، فرص العمل الصالح أمامه لا تعد ولا تحصى، لذلك ليس في الإسلام رهبانية، الإسلام دين الحياة، كنت أقول دائماً: نحن في أمس الحاجة إلى إنسان يعيش في سبيل الله، كما أننا نصغر أمام إنسان مات في سبيل الله، إننا في الوقت نفسه في أمس الحاجة إلى إنسان يعيش في سبيل الله، فحينما تتزوج تحل مشكلة امرأة، تنجب ولداً صالحاً يدعو لك من بعدك، يسهم في بناء أمته، حينما تتاجر معك المال تطعم الفقراء والمساكين، حينما تتسلم منصباً رفيعاً تحق الحق وتبطل الباطل، أي أنت مخلوق في الدنيا للعمل الصالح، فإن انسحبت من الحياة، واعتزلت كل شيء، توقف عملك، ليس هذا من السنة، فلذلك نحن نقول، ليس الفقير الصابر بأعظم أجراً من الغني الشاكر، وفرص العمل الصالح لا تعد ولا تحصى إذا كانت وفق منهج الله عز وجل، وبسبب الإقبال على الدنيا بمنظومة قرآنية.

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - الرد الجميل - الدرس (1-4) الإسلام والعقل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-01-01

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ راضي :

أستاذنا الكريم تباينت حوله الرؤى ، واختلفت وجهات النظر ، مفهوم العقل من وجهة نظر الدكتور محمد راتب النابلسي ، وموقع العقل بالنسبة إلى الإنسان ؟

موقع العقل بالنسبة إلى الإنسان :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق ، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين ، وعلى صحابته الغر الميامين ، أمناء دعوته ، وقادة ألويته ، وارضَ عنا وعنهم يا رب العالمين ، اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم ، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات .



أستاذ راضي جزاك الله خيراً ، على وجه الأرض ستة آلاف مليون إنسان ما منهم واحد إلا وهو قد جبل على حبّ وجوده ، وعلى حبّ سلامة وجوده ، وعلى حبّ كمال وجوده ، وعلى حبّ استمرار وجوده ، سلامة الوجود باتباع تعليمات الصانع ، لهذا الكون خالق عظيم ، وهذا الخالق له شرع حكيم ، وكأنها تعليمات الصانع ، والجهة الصانعة هي الجهة الوحيدة التي ينبغي أن تتبع تعليماتها لأنها الجهة الخبيرة :

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر)

فسلامة الإنسان تتحقق باتباعه لمنهج رب العالمين ، أما سعادته تتعلق بالاتصال به ، والاتصال به يحتاج إلى عمل صالح :

(فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً (110))

(سورة الكهف)

أما استمرار الإنسان فيتحقق بتربية أولاده ليكونوا استمراراً له ، فما من مخلوق من بني البشر على سطح الأرض إلا وهو حريص على سلامة وجوده ، وكمال وجوده ، واستمرار وجوده ، ينبغي أن يعلم هذه الحقيقة ، إذاً يطلب العلم من أجل سلامة وجوده ومن أجل كمال وجوده ومن أجل استمرار وجوده، ينبغي أن يطلب العلم ، والإنسان في حقيقته عقل يدرك ، وقلب يحب ، وجسم يتحرك ، وغذاء العقل العلم ، وغذاء القلب الحب ، وغذاء الجسم الطعام والشراب ، فالبطل هو الحريص أن يزود عقله بالعلم اليقيني لا بالأوهام والترهات والأباطيل وأشياء لم يتحقق منها .

الأستاذ راضي :

عفواً سيدي ما المقصود بالعلم اليقيني ؟

العلم اليقيني :

الدكتور راتب :

أي :

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ)

(سورة التكاثر)

العلم الحقيقي لا يعتريه الشك أبداً ، بينما هناك أفكار لم ترقى إلى مستوى العلم اليقيني ، هذه فيها أخذ ورد :

(بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ(9))

(سورة الدخان)

أحياناً الإنسان المعاصر لا يدري من أين أتى وإلى أين يذهب ؟ هذا الواقع المتشتت ، المؤمن على حقائق يقينية :

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ)

(سورة التكاثر)

فعلم اليقين شيء مهم جداً في حياة الإنسان،



فالإنسان حينما يغذي عقله بالعلم اليقيني القطعي ، أستاذ راضي هناك وهم ، وهناك شك ، وهناك ظن ، الوهم ثلاثون بالمئة ، الشك خمسون بالمئة ، الظن تسعون بالمئة، أما القطع مئة بالمئة ، فالبطولة أن تكون الحقائق التي أغذي بها عقلي يقينية تجاوزت الوهم والشك والظن ، إذاً غذاء العقل العلم ، أما القلب غذاؤه الحب ، وبطولة الإنسان أن يغذي قلبه بالحب الذي يسمو به لا بالحب الذي يهوي به ، هناك حب في الله وهناك حب مع الله عز وجل ، الحبّ في الله عين التوحيد والحبّ مع الله عين الشرك، فالبطولة أن تغذي قلبك بحب هو من نوع الحب في الله ، وهذا الحب يسمو بالإنسان ، بالمناسبة القرآن الكريم خاطب قلب الإنسان وخاطب عقله ، بل في آية واحدة خاطب قلبه وعقله معاً :

(يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ)

(سورة الانفطار الآية : 6)

خاطب قلبه :

(الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ)

(سورة الانفطار)

وأية دعوة إلى الله تخاطب العقل وحده دعوة عرجاء ، وأية دعوة إلى الله تخاطب القلب وحده دعوة عرجاء ، ينبغي كما خاطب القرآن الكريم الإنسان خاطب قلبه وعقله ينبغي أن نخاطب عقول الناس وقلوبهم ، الإنسان يحتاج إلى حقيقة يقينية ، ويحتاج إلى مشاعر سامية ، فالإنسان كما قلت عقل يدرك وقلب يحب وجسم يتحرك ، وينبغي أن يغذي جسمه بالطعام المفيد ، وقد درسنا في الجامعة أنه من أحدث أبحاث الذكاء أن هناك علاقة بين الذكاء والغذاء ، هناك غذاء لا يفيد الإنسان بل يضره ، إذاً غذاء العقل العلم ، وغذاء القلب الحب ، وغذاء الجسم الطعام والشراب .

الأستاذ راضي :

وكأني بالسادة المشاهدين كلام فضيلتك ما شاء الله رقائق ذهبية ، ربنا يفتح عليك فتوح العارفين ، نود أن نخفف ونبسط المعلومة للسادة المشاهدين ، سؤالي الثاني هذا الجهاز الرباني الذي أودعه الخالق سبحانه وتعالى هل له مبادئ ؟ أنا قلت لفضيلتك هل لهذا المخلوق العجيب الذي أودعه ربنا في عبده ليفكر ويتدبر ويتذكر في مخلوقات الله هل له مبادئ يسير عليها ؟

للعقل مبادئ يسير عليها :

الدكتور راتب :

أستاذ راضي بادئ ذي بدء ، الإنسان إن لم يعمل عقله هبط عن مستوى إنسانيته إلى مستوى لا يليق به، مبادئ العقل كما لو أنك تحمل في جيبك اليمنى جهاز كشف العملات المزيفة وفي جيبك اليسرى

أرقام العملات المزيفة ، فإنسان باع بيته بعملة ولم يستخدم جهاز كشف العملة المزيفة التي في جيبه ولا أرقام العملات المزيفة ، لم يستخدم لا عقله ولا الشرع، العقل جهاز لا يفهم شيئاً حوله إلا وفق مبادئ ثلاث :

1- مبدأ السببية :

مبدأ السببية : لا يفهم شيئاً بلا سبب ، لو أن إنساناً سافر إلى مكان جميل وأطفأ الكهرباء في البيت بيده ، وليس مع أحد آخر مفتاح للبيت ، فلما عاد من السفر وجد المصابيح متألقة ، يضطرب أشد الاضطراب لأن عقله لا يقبل أن هذه المصابيح تألقت بذاتها ، لا بد من إنسان دخل إلى البيت وأشعل المصابيح ، فالعقل لا يفهم شيئاً من دون سبب ، فالله عز وجل جعل لكل شيء سبباً ، وهذا القانون من خلق الله عز وجل ، هذا القانون من خلق الله لأنه جعل من كل شيء سبباً ، تسأل من أين جاءت البيضة؟ من الدجاجة ، والدجاجة من البيضة ، ثم ينتهي بك الطواف عند من خلق الدجاجة الأولى ، إلى الله عز وجل ، كأن الله من خلال مبدأ السببية أرادنا أن نصل إليه بلطف ورفق ، فهو مسبب الأسباب ، لكن هناك حقيقة دقيقة هي أن السبب لا يخلق النتيجة ، خالق النتيجة هو الله ، وقد يأتي السبب قبل النتيجة ، أما النتيجة الحقيقية يخلقها الله عز وجل، لذلك لئلا نؤله الأسباب كما فعل الغربيون ، في الحقيقة تعليق دقيق جداً أن الغرب أخذ بالأسباب واعتمد عليها ، وألهها فوقع في وادي الشرك ، بينما الشرق لم يأخذ بها ، وقع في وادي المعصية ، الموقف الكامل أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ، ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء ، عندي سفر أراجع المركبة مراجعة دقيقة جداً ، العجلات ، المحرك ، الزيت ، كل شيء أراجعه ، ومن أعماق أعماق قلبي أقول أنت المُسَلِّم وأنت الحافظ . أستاذ راضي سهل جداً أن يكون الإنسان متطرفاً ، أن يأخذ بالأسباب ويعتمد عليها ، وسهل أيضاً ألا يأخذ بها ، ولكن البطولة أن تأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء ، ثم تتوكل على الله وكأنها ليست بشيء . وما من درس يحتاجه العالم الإسلامي اليوم كهذا الدرس ، أن نأخذ بالأسباب ، لذلك النصر الذي يطمح إليه كل مسلم بل كل عربي يحتاج إلى إيمان بالله يحملنا على طاعته وأخذ بالأسباب ، لم نكلف المستحيل ، لم نكلف أن نعد ـ أخذاً بالأسباب ـ العدة المكافئة ، بل كلفنا الله عز وجل أن نعد العدة المتاحة ، نأخذ بالأسباب ونتوكل على الله ، إذاً كل شيء له سبب ، ونظام الكون نظام السببية ، وأروع ما في الموضوع أن مبادئ العقل متوافقة توافقاً تاماً مع مبادئ الكون ، العقل لا يفهم شيئاً بلا سبب ، والكون صمم على أساس أن لكل شيء سبباً ، وأن الله عز وجل مسبب الأسباب ، وهذا المبدأ من مبادئ العقل يقودنا إلى معرفة الله عز وجل .

2- مبدأ الغائية :

المبدأ الثاني كل شيء له غاية ، أنت أحياناً ترى شاحنة تمشي في الطريق وهناك سلسلة في آخرها ، لا علاقة لك بالشحن إطلاقاً ، لكن عقلك يحتاج إلى فهم لمَ هذه السلسلة ؟ من أجل أن تمتص الصاعقة ، فالإنسان أحياناً بعد أن يفهم السبب يحتاج إلى أن يفهم الغاية ، الإنسان لا يفهم شيئاً بلا سبب ، ولا يفهم شيئاً بلا غاية ، مثلاً هذه الفواكه ، هذه المحاصيل ، هذه الأمطار ، هذه الأنهار ، هذا الهواء ، كله خُلِق للإنسان :

(وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ(10))

(سورة الرحمن)

فكما أن العقل البشري لا يفهم شيئاً بلا سبب في الوقت نفسه لا يفهم شيئاً بلا غاية مبدأ السببية مبدأ الغائية ، مبادئ في العقل وقوانين في الكون في آن واحد ، فالإنسان حينما يرى أن الله عز وجل أعطاه عينين من أجل أن يرى البعد الثالث ، بعين واحدة ترى الطول والعرض فقط ، بالعينين ترى العمق ، أعطاه أذنين من أجل أن يعرف جهة الصوت .

أستاذ راضي يوجد في دماغ الإنسان جهاز بالغ التعقيد ، هذا الجهاز يحسب تفاضل وصول الصوتين إلى الأذنين ، مركبة أطلقت بوقها ، فهذا الصوت دخل إلى هذه الأذن قبل هذه الأذن ، التفاضل بينهما واحد على ألف وستمئة وعشرين جزءاً من الثانية ، يوجد في الدماغ جهاز يكشف التفاضل فيكتشف أن جهة الصوت من اليمين ، فالإنسان إذا استمع إلى صوت بوق سيارة وأخبره أن السيارة في اليمين يتجه نحو اليسار :

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36))

(سورة القيامة)

وقال :

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4))

(سورة التين)

يوجد أجهزة في الإنسان بالغة الدقة ، فكل شيء له سبب .

الأستاذ راضي :

سبحان الخلاق العظيم ، القائل :

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

(سورة الذاريات)

علاقة الإسلام بالعقل هذه العلاقة صار حولها الجدل الكثير ، لكن سنتعرف ماذا عن طبيعة هذه العلاقة؟ أستاذنا من القضايا التي كثر الجدل حولها علاقة الإسلام بالعقل ، ماذا عن طبيعة هذه العلاقة ؟

علاقة الإسلام بالعقل :



الدكتور راتب :

سأجيب عن هذا السؤال لكن لا بد من تعليق متعلق بالفقرة السابقة ، ما دام غذاء العقل هو العلم ، وغذاء القلب هو الحب ، وغذاء الجسم هو الطعام والشراب ، إذا غذى الإنسان عقله وقلبه وجسمه معاً تفوق ، فإذا اكتفى بواحدة تطرف ، وفرق كبير بين التفوق وبين التطرف ، الحقيقة التوازن وتلبية حاجات العقل والقلب والجسم معاً أحد أسباب التفوق ، وأتمنى على الأخوة المشاهدين أن ينتبهوا لهذه الناحية ، قد ينمو العقل نمواً كبيراً على حساب القلب ، قال بعضهم : أوربا عقلها من ذهب وقلبها من حديد ، قد ينمو العقل ولا ينمو معه القلب ، وقد ينمو القلب ولا ينمو معه العقل ، والفرق الإسلامية عبر التاريخ هناك من اهتم بالعقل وأهمل القلب والصلة بالله ، وهناك من اهتم بالقلب وأهمل العقل ، فالبطولة في التوازن لا في التطرف، فإذا لبينا حاجة العقل والقلب والجسم معاً تفوقنا ، وإذا لبينا حاجة تطرفنا .

الأستاذ راضي :

هذه النقطة سيدي أليس هذا لحكمة إلهية يعلمها الله عز وجل ، عندما ننظر إلى أوربا تفوقت في التكنولوجيا والعلوم الحديثة ، لكن غذاء الروح غير متواجد ، لدينا نحن المسلمين غذاء الروح ، ما شاء الله متوافر لكن التقدم إلى حد ما قليل ، ألا تدخل فيها حكمة إلهية ؟

الفضيلة وسط بين طرفين :

الدكتور راتب :

ألا ترى معي أنك إذا رأيت إنساناً طيباً جداً ، لطيفاً جداً ، متسامحاً ، لكنه ضعيف الثقافة هذا لا ينتزع إعجابك ، أو رأيت إنساناً متفوقاً في الذكاء لكنه قاسي القلب أيضاً هذا لا ينتزع إعجابك ، لكن الإنسان

الذي ينتزع إعجابك هو الذي تحبه بقدر ما تحترمه ، تحبه لكماله بقدر ما تحترمه لعقله ، فلذلك البطولة في التوازن لا في التطرف . الله عز وجل قال :

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

(سورة الرحمن)

بقدر ما تجله تحبه ، والأب ينبغي أن يحبه أولاده وأن يخافوا منه في الوقت معاً، أما إذا أحبوه من دون خوف تطرفوا ، وإن خافوا منه من دون حب ابتعدوا عنه ، فدائماً الحالة الوسط هي الكاملة ، والفضيلة وسط بين طرفين ، فكلما جمعت بين الطرفين بوضع متوازن كنت من المتفوقين .

الأستاذ راضي :

وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ، نعود إلى سؤالنا من القضايا التي ثار حولها جدال كثير طبيعة العلاقة بين الإسلام والعقل .

تتمة لطبيعة العلاقة بين الإسلام والعقل :

الدكتور راتب :

الحقيقة عندنا وحي نسميه النقل ، منقول عن خالق السماوات والأرض ، مشروح من شرح المعصوم ، القرآن الكريم وحي السماء ، والسنة شرح النبي عليه الصلاة والسلام ، فهذا الجانب هو الوحي النقل ، والعقل جانب آخر ، وهناك الفطرة ، والواقع ، الحقيقة الفطرة مقياس نفسي ، أنت جبلت على حب الخير ، الفطرة تعني أن تحب الخير ، أن تحب العدل ، أن تحب الكمال ، أن تحب الإنصاف لا أن تكون منصفاً ، شيئاً آخر أن تكون منصفاً صبغة ، هناك فطرة وهناك صبغة ، محبة الكمال فطرة ، وهذه الفطرة فطر الناس عليها جميعاً :

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)

(سورة الروم الآية : 30)

صار عندنا فطرة ، مقياس نفسي يكشف لك خطأك :

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

(سورة القيامة)


العقل التبريري يُجمل القبيح لهوى أو مصلحة

وقال :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

(سورة الشمس)

هذه الفطرة ، والواقع في عندنا واقع ملموس ، وفي عندنا عقل ، وفي وحي السماء النقل ، أنا أؤمن أن الحق دائرة تتقاطع فيها أربعة خطوط ، خط النقل الصحيح ، وخط العقل الصريح ، وخط الفطرة السليمة ، وخط الواقع الموضوعي ، وقد وصفت كل كلمة بصفة ، العقل الصريح هناك عقل تبريري ، هذا العقل التبريري يغطي كل الانحرافات ، قد تأتي دولة تحتل بلاد ، تنهب الخيرات ، تقول جئنا من أجل الحرية ، هذا فكر تبريري ، في عندنا عقل تبريري وعقل صريح، في عندنا نقل صحيح ونقل غير صحيح ، أحاديث موضوعة أو فهم للآيات غير صحيح ، فالنقل الغير صحيح إما تأويلاً أو وضعاً .

الأستاذ راضي :

التأويل أن يفسر الآية على خلاف ما أرادها الله عز وجل .

النقل الغير صحيح إما أن يكون تأويلاً أو وضعاً :


القلق نتيجة الإنحراف

الدكتور راتب :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً (130))

(سورة آل عمران)

يقول لك ضعف واحد ما في مشكلة .

الأستاذ راضي :

لكن النقل صحيح .

الدكتور راتب :

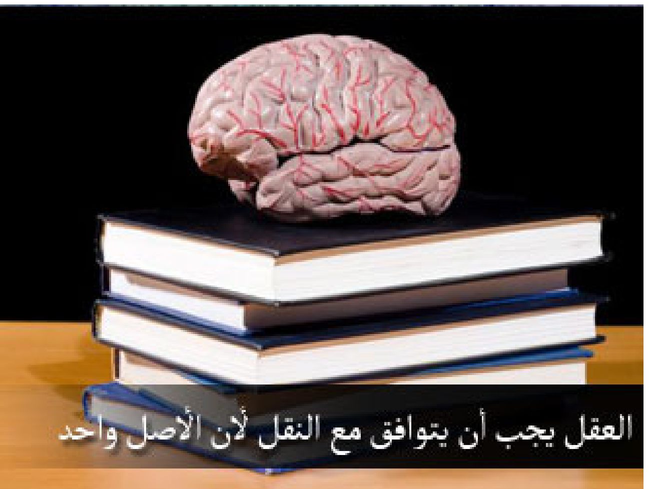
التأويل غير صحيح ، أو حديث موضوع :

كل الناس هلكى إلا العالمون ، والعالمون هلكى إلا العاملون ، والعاملون هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم . هذا حديث وضعته الزنادقة ، من أجل التيئيس ، فقد يكون النقل موضوعاً لا أصل له ، وقد يكون النص صحيحاً كالقرآن لكنه أُوِّل تأويلاً فاسداً، أهم شيء بالنقل أن يكون صحيحاً أصلاً وتأويلاً ، والعقل الصريح ليس عقلاً تبريرياً ، والفطرة السليمة لا الفطرة المنطمسة ، الإنسان إذا استمر في الانحراف طويلاً تنطمس فطرته الفطرة مقياس نفسي ، في ألمانيا فندق كتب على السرير : " إن لم تنم هذه الليلة فالعلة ليست في فرشنا إنها وثيرة ولكن العلة في ذنوبك إنها كثيرة " . الإنسان إذا ارتكب انحراف خطير تقلق نفسه والدليل :

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7)فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8))

(سورة الشمس)

الفطرة والعقل والنقل والواقع من عند الله فهي متكاملة فيما بينها :



صار في عقل ، ونقل ، وفطرة ، وواقع ، أنا أؤمن أن الحق ما جاء به النقل الصحيح وقبله العقل الصريح وارتاحت له الفطرة السليمة وأكده الواقع الموضوعي ، وهناك عقل ونقل وفطرة وواقع ، فهذا مكان العقل من الإنسان ، ومن الدين الدين نقل ، لكن هذا الدين الذي هو نقل يتوافق مع العقل لماذا ؟ إذا توافقت أشياء عدة مع جهة واحدة فهي فيما بينها متوافقة ، من خلق العقل ؟ هو الله ، من أنزل الوحي ؟ هو الله ، من جبل هذا الإنسان على فطرة سليمة؟ هو الله ، من خلق هذا الواقع ؟ هو الله ، فالفطرة والعقل والنقل والواقع من عند الله من جهة واحدة ، إذاً هي فيما بينها متكاملة ، بل إن العالم الجليل ابن القيم رحمه الله عز وجل يؤكد تأكيداً قطعياً أن النقل لا يختلف مع العقل أبداً إلا في حالة واحدة أن يكون النقل غير صحيح ، أو أن يكون العقل غير صريح ، قد تظهر نظرية لم تثبت بعد قد تتناقض مع القرآن الكريم ، قد يفهم إنسان آية فهماً خاطئاً يتناقض هذا مع العلم ، فإذا جاء النقل صحيحاً والعقل صريحاً لا يختلفان إطلاقاً لأنهما من مصدر واحد، هذا شيء عظيم في ديننا، الدين الإسلامي يتوافق مع العقل مئة بالمئة ، شيء آخر ، بالخمسين سنة الماضية التطور البشري من آدم إلى قبل خمسين سنة يكافئ التطور الذي حدث من خمسين إلى الآن ، مع ذلك لم يظهر في العالم

اكتشاف أو حقيقة خالفت القرآن الكريم ، بالعكس المسلمون يعيشون حالة رائعة جداً هي الأمن العقدي ، في دينهم الربا محرم ، انهيار النظام العالمي يؤكد دينهم ، كل الأحداث التي تجري في العالم تؤكد الدين الإسلامي ، أنفلونزا الخنازير تؤكد دينهم مثلاً ، أنت لو تتبعت الأحداث تجد أن كل حدث كبير يؤيد هذا الدين ، أنت بحالة اسمها أمن عقدي ، الأمن العقدي شيء رائع، صار العقل معه نقل وفطرة ومعه واقع ، واحد من أربعة أشياء .

الأستاذ راضي :

ننتقل إلى نقطة إن شاء الله ستكون تمهيداً لتبسيط المعلومة للسادة المشاهدين بعد هذا الشرح الكريم من فضيلتك ، بنظرة إحصائية إلى عدد الآيات القرآنية الدالة على العقل نجدها ما يزيد عن الخمسين موضوعاً وردت كلمة العقل بصيغة المضارع لعلكم تعقلون ، لعلكم تتفكرون ، بالإضافة إلى المعاني الأخرى وردت بمعاني مختلفة كلمة التذكر والتفكر ، كما قلت في المقدمة هذه هل لها من دلالات معينة؟

في حياتنا كمسلمين دوائر ثلاث:

الدكتور راتب :

أنا اذكر أن عدد الآيات التي تتحدث عن العقل ومشتقاته تقترب من ألف آية هذا العدد الكبير يؤكد أن العقل له دور .

الأستاذ راضي :

أنا ذكرت ما ذكر صراحة خمسين .

الدكتور راتب :

الحقيقة الدقيقة أن في حياتنا كمسلمين دوائر ثلاث ، والموضوع دقيق جداً :

1- الدائرة الأولى هي دائرة المحسوسات :

الدائرة الأولى هي دائرة المحسوسات ، أداة اليقين بها الحواس الخمس ، واستطالتها كالميكروسكوب استطالة للعين ، والتليسكوب استطالة ، هذا كأس ماء ، هذا قلم ، هذه طاولة ، هذا ضوء متألق ، دائرة المحسوسات أداة اليقين بها الحواس الخمس ، هذه الدائرة ليست مشكلة هي قاسم مشترك في العالم كله، في طاولة ، في مصباح متألق ، في بيت ، في جبل ، في بحر ، في حصان ، أشياء تراها بعينك ، وقد

تسمع صوتها ، وقد تشم رائحتها ، فأداة اليقين بالمحسوسات الحواس الخمس ، أقصد بالمحسوسات شيء ظهرت عينه وآثاره .

2- الدائرة الثانية دائرة المعقولات :

حينما تختفي عين الشيء وتبقى آثاره ، سيارة مارة في طريق ترابي واختفت لكن بقيت آثارها، فالشيء إذا غابت عينه وبقيت آثاره أداة اليقين به العقل ، هذا هو دور العقل في هذا المجال فقط ، شيء غابت عينه وبقيت آثاره ، وأعظم موضوع في العقل أن الذات الإلهية غابت عنا ذاتها وبقيت آثارها ، الكون كله ينطق بوجود الله ووحدانيته وكماله ، فالكون كله مظهر لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى ، فلذلك يمكن أن نؤمن بالله من خلال الكون والدليل الآيات التي تحدثت عن الكون والإنسان تقترب من ألف وثلاثمئة آية .

أستاذ راضي لو قرأت آية تتحدث تأمرك بأمر معين ؛ موقفك منها أن تأتمر ، آية أخرى قرأتها فيها نهي ؛ الموقف الكامل منها أن تنتهي ، آية في وصف للجنة والنار ؛ أن تسعى بها إلى الجنة وأن تبتعد عن النار ، آية عن أمة سابقة عصت ربها فأهلكها الله ؛ أن تتعظ ، كل آية في القرآن ينبغي أن يكون لك منها موقف ، ما موقفك من ألف وثلاثمئة آية تتحدث عن الكون ؟ التفكر :

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190)الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191))

(سورة آل عمران)

يقول النبي عليه الصلاة والسلام : الويل لمن لم يتفكر بهذه الآية ، فمعناها الآيات الكونية هي دلائل على وجود الله ووحدانيته وكماله وأسماءه الحسنى وصفاته الفضلى ، إذاً العقل دوره من الذات الكاملة غابت عنها وبقيت آثارها ، بقي خلقها ، بقيت السماوات والأرض ، فلذلك الدائرة الثانية أداة اليقين بها العقل ، لكن العقل لا عمل له إلا بحالة واحدة أن تغيب عين الشيء وأن تبقى آثاره .

3- الدائرة الثالثة دائرة الإخباريات :

الثالثة أصل الشيء غاب عنا وغابت عنا آثاره ، العقل ليس له دور إطلاقاً ، الجنة ، النار ، الجن ، الملائكة ، الماضي السحيق ، المستقبل البعيد ، هذه الموضوعات أخبرنا الله عنا والعقل ليس له دور

فيها إطلاقاً ، بهذا أنا أتمنى على كل أخوتي الدعاة ألا يطرحوا موضوعاً إخبارياً لإنسان إيمانه في الله مهزوز .

الأستاذ راضي :

ما قصدك يا أستاذ ؟

الدكتور راتب :

لو فرضنا أردت أن تقنع إنساناً أن يستقيم ، تقول له : في ملَكين ، يقول لك : أين الملَكين ؟ إذا إيمانه بالله مهزوز المَلَك ليس له دليل ، دليله الوحيد إخباري ، الله أخبرنا بالملائكة ، فكل شيء الله أخبرنا فيه هذا قسم إخباري ، صار في عندنا دائرة المحسوسات أداة اليقين بها الحواس الخمس ، ودائرة المعقولات أداة اليقين بها العقل ، والدائرة الثالثة دائرة الإخباريات ، أنت زرت صديقك وجدت عنده خزانة مهما كنت ذكياً لا تعلم ما فيها إلا أن يخبرك عنها ، في عندنا قسم إخباري في الدين ؛ الماضي السحيق ، المستقبل البعيد ، ذات الله عز وجل ، الصفات الإلهية ، الأسماء الحسنى ، الجنة ، النار ، الصراط ، كل شيء أخبرنا الله عنه في الآخرة ، هذه لا تعطى للإنسان إلا بعد أن يؤمن بالله وكتابه ورسوله .

الأستاذ راضي :

إذاً نخلص من كلام فضيلتك أن الشريعة الإسلامية آخت بين الإسلام والعقل حقيقة ولذلك جعلتهم مناط التكليف .

الشريعة الإسلامية آخت بين الإسلام والعقل و جعلتهم مناط التكليف :

الدكتور راتب :

طبعاً ، لكن هناك نقطة دقيقة جداً ، لو أيقظنا إنساناً من قبره قبل خمسين عاماً وأعطيناه قرصاً مدمجاً فيه خمسة عشر ألف كتاب مضبوطة بالشكل ، سيتهمنا بالجنون ، لأن العقل مربوط بالواقع ، أما الوحي مرتبط بخالق السماوات والأرض .

الأستاذ راضي :

إذا كانت الحقيقة أن الإسلام يحترم العقل ويعمل على تحريكه في مجالات الحياة المختلفة ، لماذا يثير العقلانيون حوله الشبهات ؟

رسالة من أخت مروة ،أرجو مناقشة موضوع المرأة التي لا ترتدي غطاء الرأس ، وعندما أستعمل عقلي أعلم أن الله عز وجل واحد ، نرجع إليه في الآخرة ، كيف ألقى الله عز وجل ؟ وكيف أغير

حياتي إلى الأفضل باستخدام العقل ؟

كيفية تغيير حياتنا إلى الأفضل باستخدام العقل :

الدكتور راتب :

الحقيقة أن الإنسان حينما يستخدم عقله يتساءل سؤالاً دقيقاً ؛ لمَ أنا على سطح الأرض ؟ لو ذهب شخص إلى باريس ونزل في أحد الفنادق ، وفي صبيحة اليوم الأول سأل : إلى أين أذهب ؟ نقول له : عجيب هذا السؤال ، لماذا جئت إلى هنا ؟ إن جئت طالب علم اذهب إلى المعاهد والجامعات ، وإن جئت سائحاً اذهب إلى المقاصف والمتنزهات ، وإن جئت تاجراً اذهب إلى المعامل والمؤسسات . يعني هذا الكلام أنه لا تصح حركتك في مكان ما إلا إذا عرفت سرّ وجودك ، وغاية وجودك ، أنا حينما أطرح هذا السؤال الكبير لماذا أنا على وجه الأرض ؟ لماذا أنا في الدنيا ؟ أين كنت ؟ ماذا بعد الموت ؟ ماذا قبل الموت ؟ ما علة بقائي ؟ ما علة وجودي ؟ هذه أسئلة كبيرة ، لذلك قالوا : ما كل ذكي بعاقل ، الذكاء متعلق بالجزيئات ، تحمل أعلى شهادة في الفيزياء النووية ، لكن العاقل من عرف الله وعرف سر وجوده وغاية وجوده ، فما كل ذكي بعاقل ، فأي إنسان يجب أن يلبي أسئلة دقيقة جداً لماذا أنا في الدنيا ؟ ماذا بعد الموت ؟ الموت نهاية حياة أو بداية حياة ثانية ، هذه أسئلة كثيرة لكن صدق ولا أبالغ مستحيل وألف ألف ألف مستحيل ، بل زوال الدنيا أهون على الله من أن يبحث إنسان عن الحقيقة صادقاً ولا يصل إليها :

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69))

(سورة العنكبوت الآية : 69)

إذاً أنا عندما أبحث عن سر وجودي وعن غاية وجودي الله عز وجل يهديني لأن الله تولى هداية البشر:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(سورة الليل)

من يبحث عن الحقيقة يصل إليها :

والله أستاذ راضي لو واحد في ألاسكا وبحث عن الحقيقة مستحيل وألف ألف ألف مستحيل إلا أن يجمعه الله بمن يعلمه الحقيقة ، هذا شيء ثابت في القرآن الكريم ، الآية الكريمة الدقيقة :

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال الآية : 23)

أي إنسان ينطوي على رغبة في معرفة الحقيقة لا بد من أن يصل إليها ، إذاً الإنسان حينما ينال دكتوراه أو ماجستير ، ينال شهادة علمية ، شهادة يعمل بها ، يعيش منها ، هذا موضوع حرفة ، لكن يجب أن يعرف لماذا خلقه الله ؟ ما علة وجوده ؟ ما سر وجوده ؟ بل إن الحركة في الحياة لا تصح إلا إذا عرفت سر الوجود .

الأستاذ راضي :

رسالة صغيرة في عجالة لأختنا مروة .

الدكتور راتب :

بارك الله بها حينما تبحث عن الحقيقة في مراكز إسلامية في كل أنحاء العالم ، النبي عليه الصلاة والسلام قال :

((ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار))

[من حديث أبي ثعلبة الخشني مرفوعاً أخرجه الحاكم وصححه ورده الذهبي]

لماذا كانت بعثة النبي عليه الصلاة والسلام آخر البعثات وكتاب القرآن الكريم آخر الكتب ؟ لأن الله علم هذا التواصل بين البشر ، الأرض كانت خمس قارات الآن قارة ، ثم بلد ، ثم مدينة، ثم بيت ، ثم غرفة ، والآن سطح مكتب ، كنت في مالبورن أقصى مدينة في الجنوب ، فيها إذاعة إسلامية ، وقرآن ، وحديث ، ودروس أينما ذهبت ، فحينما تبحث الأخت عن الحقيقة مستحيل وألف ألف مستحيل إلا وأن تصل إليها ، ونحن في خدمتها ، لي موقع في الانترنيت .

من يبحث عن الحقيقة يصل إليها

الأستاذ راضي :

نعود إلى لب الموضوع ، إلى حقيقة الموضوع وقدر الإسلام أن يكون موضع السهام المسمومة ، هناك تيارات فكرية يطلقون على أنفسهم العقلانيون ، نود أن نتعرف عليهم قبل أن نفند هذا الافتراء الذين يدعونه كذباً على الإسلام ؟

من هم العقلانيون ؟

الدكتور راتب :

قديماً المعتزلة اعتمدوا العقل على انه أداة وحيدة لمعرفة الحقائق ، وهؤلاء لهم أتباع في كل عصر ، أي إنسان يعتمد على العقل وحده في معرفة الحقائق من دون أن يعتمد على الوحي ، أستاذ راضي لك

عين ما قيمة هذه العين من دون ضوء ؟ لا شيء ، لو جلس اثنان الأول بصير والثاني أعمى في مكان مظلم هما سواء ، إذاً كما أن الضوء ضروري للعين الوحي ضروري للعقل ، علاقة الضوء بالعين علاقة أساسية ، وعلاقة الوحي بالعقل علاقة أساسية ، فنحن بحاجة إلى أن يكون العقل مهتدياً بالوحي ، هذه نقطة ، النقطة الثانية العقل علاقته مع النقل خطيرة جداً ، العقل له مهمتان ؛ مهمة قبل النقل ومهمة بعد النقل ، المهمة قبل النقل أن يتأكد من صحة النقل ، وبعد النقل أن يفهم النقل ، دون أن يكون العقل حكماً على النقل ، العقلانيون جعلوا العقل حكماً على النقل ، أما الأصل فهو العقل لفهم النقل .

العقل يحتاج لنور الوحي لُيبصر الحقائق

الأستاذ راضي :

يحكموا العقل على الواقع أم على الآيات ؟

الدكتور راتب :

يحكموا العقل في فهم النقل بالفهم لا بإلغاء النقل .

الأستاذ راضي :

إذا كان العقل أشار إليهم بشيء حتى ولو كان مخالفاً للحقيقة ؟

الدكتور راتب :

أبداً ، الوحي أعمق ، كما قلنا قبل قليل الوحي من عند الله عز وجل ، والعقل مربوط بالواقع ، كلما ظهر شيء في المستقبل الآن نستنكره ، مثلاً كانت تنتقل الرسالة خلال شهرين من المدينة إلى الكوفة ، الآن بثوان تنتقل الرسالة ، لو أنا عرضنا لإنسان قبل ألف سنة ما يجري الآن لا يصدق ، معنى ذلك أن العقل مربوط بالواقع ، فأنا أقول العقل مهمته قبل النقل التأكد من صحة النقل ، ومهمته بعد النقل فهم النقل ، ولن يكون العقل حكماً على النقل ، فإذا كان العقل حكماً على النقل انحرفنا كالمعتزلة .

الأستاذ راضي :

أستاذي الكريم ، إذا كان الإسلام يعمل العقل ، ويفتح أمام العقول آفاقاً بعيدة للتطلع والتأمل والنظر والبحث ، كيف نوائم بين جنوح العقل وحكمة الشرع الحنيف ؟

المواءمة بين جنوح العقل وحكمة الشرع الحنيف :

الدكتور راتب :

الدين توقيفي بمعنى أنه لا يطور ولا يعدل ولا يبدل ، حتى التجديد في الدين له معنى واحد أن ننزع عن الدين كل ما علق فيه مما ليس منه .

الأستاذ راضي :

كلام فضيلتك أين هو من فقه الواقع المعمول به ؟

الدكتور راتب :

هذا القرآن الكريم كلام الله ، هناك أدلة مذهلة في أنه كلام الله ، مادام هو كلام خالق السماوات والأرض هو العليم هو الحكيم ، فأنا كمسلم أتبع ما في القرآن الكريم لأنه كلام خالق الأكوان ، وأنا مع طبيب يحمل دكتوراه وبورد بالقلب يعطيني نصائح لا أناقشه أبداً لي ثقة بعلمه ، هذا كلام خالق السماوات والأرض ، فالعقل من أجل التأكد من صحة النقل ، ثم لفهم النقل ، ولن يكون العقل حكماً على النقل ، لأن هذا النقل هو كلام خالق السماوات والأرض ، فالعقلانيون أو المعتزلة هم الذين حكموا العقل بالنقل فردوا بعض النصوص لأن العقل لم يتوافق معها ، والعقل مربوط بواقع معين .

الأستاذ راضي :

في نصيحة للسادة المشاهدين ، ما هي المناطق التي يبتعدون عنها من حيث التفكير ؟ أنا إنسان مدعو للتفكر ، بشطحاته ، بعقلانيته .

الدكتور راتب :

أريد أن أقول كلمة دقيقة ، أنت مكلف أن تقلد في الدين وأن تبتدع في الدنيا ، أن تحسن مستوى المعيشة، أن تهيأ سكن للشباب ، أن تزوج الشباب ، أن تحل مشكلات الأمة .

الأستاذ راضي :

لا نطلق عليها ابتداع ولكن سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام يقول : أنتم أدرى بشؤون دنياكم .

الدكتور راتب :

نحن مكلفون أن نطور حياتنا بالعقل ، والنقل توقيفي ، النقل كلام خالق السماوات والأرض لا يقبل التطوير ولا الزيادة ولا الحذف ولا التعديل إطلاقاً ، فالدين توقيفي ، والدنيا تحتاج إلى إعمال عقولنا ، فالمسلمون قلدوا في دنياهم وابتدعوا في دينهم ، هذه هي المشكلة .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - الرد الجميل - الدرس (2-4) : فقه الأولويات

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 02-01-2000

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ راضي :

فقه الأولويات هذا المصطلح يتردد كثيراً على الألسنة والأقلام ونقرأ عليه كثيراً في الصحف والمجلات، ما المقصود بفقه الأولويات ؟

المقصود بفقه الأولويات :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق ، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين ، وعلى صحابته الغر الميامين ، أمناء دعوته ، وقادة ألويته ، وارضَ عنا وعنهم يا رب العالمين ، اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم ، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات .



أستاذ راضي جزاك الله خيراً ، أريد أن أعرض على الأخوة المشاهدين مثل حي، إنسان نزل بمظلة قد يجهل شكلها بيضوي ، دائري ، مستطيل ، قد يجهل عدد حبالها ، قد يجهل نوع حبالها من خيوط صناعية أم طبيعية ، ولكن شيئاً واحداً إذا جهله نزل ميتاً ، طريقة فتحها ، فأيهما أولى ؟ أن يعلم وأن يبحث بطريقة فتحها ، لأن سلامته متعلقة بمعرفة طريقة فتحها ، إذاً مبدئياً المجتمع يعاني ما يعاني ، عنده هموم ، هناك تحديات ، هناك واقع مرير ، هناك مشكلة عويصة ، هناك خطر داهم ، فقه الأولويات يعني أن يأخذ من الدين ما يغطي هذه الحاجات الأساسية وما يحل هذه المشكلات

المستعصية، لأن الدين واسع جداً ، ففقه الأولويات أن نأخذ من الدين ما نحن في أمس الحاجة إليه ، وهذا التعريف دقيق جداً وله شروح طويلة ، إنشاء الله سنأتي عليها بالتفصيل .

الأستاذ راضي :

إذا كان الأمر كما عرفت فضيلتك فأيهما المهم وأيهما الأهم ، أيهما أولى أن نأخذ أنفسنا به ؟

المهم والأهم :

الدكتور راتب :

الحقيقة أي موضوع في الدين إذا أخذناه وبحثنا فيه واختلفنا حوله وهو لا يؤكد واقعاً نعيشه فهذا موضوع غير مهم ، الأهم أن نبحث في موضوع نعاني منه ما نعاني ، مثلاً كما تفضلت إنسان يحج كل عام ، وابنه في أمس الحاجة إلى الزواج ، والفريضة أداها وأدى مجموعة نوافل ، لكن زواج الابن مهم جداً ، فالأولى أن يبدأ بزواج ابنه ، وأن يقلل قليلاً من الحجج النوافل ، هذه أولوية ، نحن بحاجة إلى تصنيع ، فالتأكيد على تصنيع ثرواتنا أولى من المناقشات الفارغة في موضوعات في الدين لا تقدم ولا تؤخر ، نحن حينما نأخذ من الدين ما يغطي حاجاتنا ويطور حياتنا ويرقى بنا في كل المجالات نكون قد أخذنا من الدين الأولويات التي نحن في أمس الحاجة إليها ، الدين واسع جداً ، أحياناً ترد نصوص أن سيدنا آدم طوله ستين متراً ، إن كان ستين أم متر هذا ماذا يقدم وماذا يؤخر ؟ في موضوعات لا يبنى عليها حكم شرعي ، مرة النبي عليه الصلاة والسلام دخل إلى المسجد فرأى إنساناً تحلق الناس حوله، فقال : من هذا ؟ كسؤال عارف ، قالوا : هذا نسابة ، قال : وما نسابة ؟ قال : هو يعلم أنساب العرب ، قال : ذاك علم لا ينفع من تعلمه ولا يضر من جهل به .

الأستاذ راضي :

عفواً هذا الرجل كان متخصصاً بأنساب العرب ، على دراية بأنساب العرب .

في أولويات الدين ينبغي أن نهتم بالقضايا التي تحل مشكلاتنا ويبنى عليها حكم شرعي:

الدكتور راتب :

قال : هو يعلم أنساب العرب ، قال : ذاك علم لا ينفع من تعلمه ، ولا يضر من جهل به ، أنا حينما أبحث آخذ من الدين ما تحل به مشكلاتي ، مشكلات أمتي ، مشكلات مجتمعي ، هناك عدو يتربص بنا ، هناك تخلف اقتصادي ، هناك أزمة عمل ، هناك بطالة عالية ، هناك عنوسة عالية ، هناك أمية ، هناك فقر ، هذه مشكلات كبيرة ، هناك شباب يرون الطريق أمامهم مسدوداً ، لا أمل عندهم لا في بيت

ولا زواج ، وهؤلاء الشباب هم المستقبل فإن لم نهتم بشؤونهم نحن أمام قنبلة موقوتة ، فأنا حينما أهتم بالمشكلات التي نعاني منها لأن الإنسان حينما يحل مشكلاته يتوجه إلى ربه :

(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (7)وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8))

(سورة الشرح)

أنا أرى أن في موضوعات في الدين كبيرة جداً ، مثلاً هذه الموضوعات كيف نتعاون ؟ التعاون حضارة ، التعاون فريضة ، فإذا كان هناك تنافس ، بالمناسبة الإنسان حينما يجهل يتنافس والتنافس يضعف الطرفين ، نحن في أولويات الدين ينبغي أن نهتم بالقضايا التي تحل مشكلاتنا ، ويبنى عليها حكم شرعي ، وتجمعنا .

الأستاذ راضي :

ولا نشغل بسفاسف الأمور .

الدكتور راتب :

أستاذ راضي ، صدق ولا أبالغ يمكن أن تدعو إلى الله خمسين عاماً في الأمور المتفق عليها والتي توحدنا وتدفعنا إلى أن نتعاون ، وممكن أن نعالج قضايا مضت نأخذها من التاريخ تشتتنا وتفرقنا ، تضعفنا ، البطولة أن تختار الموضوع الذي يرقى بنا ، الموضوع الذي يوحدنا ، أن نتجاوز عن الموضوعات الخلافية ، أنا والله أرى الآن أن معالجة أية قضية خلافية الآن يعد في حق الإسلام جريمة ، لماذا ؟ لأن الغرب وضعنا جميعاً في سلة واحدة ، فينبغي أن نقف جميعاً في خندق واحد ، أنا سافرت إلى أوربا ، إنسان دعاني إلى مكتبه في سويسرا ، والغداء في بيته في إيطاليا ، لا يوجد حدود ، بين فرنسا وألمانيا ليس هناك حدود ، بين ألمانيا وهولندا لا يوجد حدود ، كنا في سويسرا في مطعم بفرنسا ذهبنا إليه ، شيء رائع جداً ، لا يوجد حدود ، لا يوجد سدود ، وعملة واحدة



، وبينهما حروب لا يعلمها إلا الله .
المشكلة الدقيقة جداً ، الطرف الآخر يتعاونون وبينهم خمسة في المئة قواسم مشتركة ، والمسلمون يتقاتلون وبينهم تسعون في المئة قواسم مشتركة ، هذه وصمة عار في حق الأمة ، آن الأوان أن نأخذ من الدين ما يوحدنا وأن ندع ما يفرقنا ، والدين واسع جداً ، أساسه أن تعرف الله ، وأن تقبل عليه ، وأن تحسن إلى أخيك الإنسان ، في آيات دقيقة جداً ، من معاني هذه الآية :

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً)

(سورة مريم)

حركة نحو الخالق ؛ معرفة وعبادة وطاعة وتقرباً ، وحركة نحو المخلوق بالإحسان إليه ، هذا أصل الدين ، أما دخلنا في متاهات ، وفي خلافات ، واقتتلنا ، والدماء سالت ونحن بعيدون عن جوهر الدين ، لذلك الآن الوعي الديني مطلوب بشكل كبير جداً لأن هناك اتجاهات تفرقنا ، اتجاهات تجعلنا فريقين متخاصمين متقاتلين ، هناك أشياء تضعفنا ، لذلك في علم السياسية نقول : هذا الحادث من فعله ؟ يقولون : من انتفع منه ، المنتفع منه هو الذي فعله ، وأنا أرى خلافاتنا لا ينتفع منها إلا الأعداء ، وكأن الأعداء هم الذين أرادوا أن نختلف .

الأستاذ راضي :

إدراك الأهم فالمهم هل له ضابط شرعي ؟ هل له سند من الشرع أم الأمر متروك لتقدير الفرد بنفسه ؟ بمعنى أوضح حتى نفهم فقه الأولويات ، كيف أحكم بعقلي وبنفسي على أن هذا الأهم وهذا المهم أيهما أقدم ؟ هل لهذا سند شرعي أم متروك للعقل ؟

إدراك الأهم فالمهم هل له سند شرعي أم متروك للعقل :

الدكتور راتب :

القرآن الكريم فيه كليات الدين ، والسنة فيها التفاصيل ، فإذا كان هناك واقع يتناقض مع القرآن الكريم ، قال تعالى :

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً)

(سورة مريم)

والواقع أن هناك اختلافات ، وهذه أولوية ، الاعتصام بحبل الله جميعاً من أولى أولويات الدين ، أن نكون متوحدين ، لذلك لأولي الأمر من المؤمنين أن يلغوا نافلة أدت إلى ترك واجب ، في واجبات أساسية ، القرآن الكريم يحدد الأشياء الأساسية ، فإذا كنا في وضع يتناقض مع القرآن هذه مشكلة كبيرة ، الله عز وجل يأمرنا ويقول :

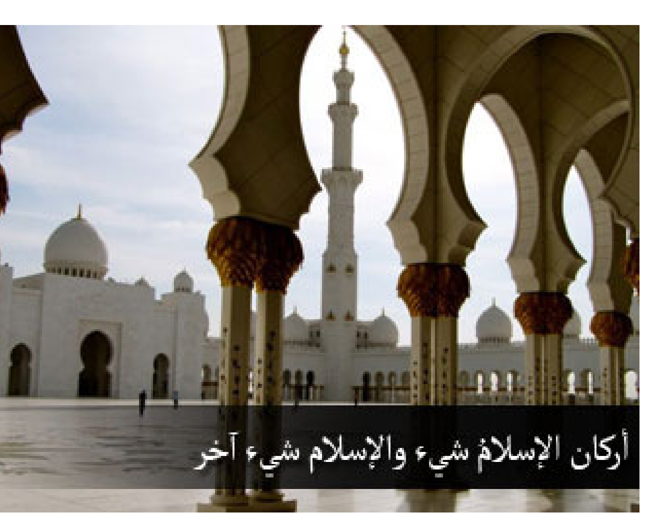
(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

(سورة المائدة الآية : 2)

فالتعاون فريضة ، نحن نتوهم أن الدين خمس عبادات ، والله لا أبالغ الدين خمسمئة ألف بند ، تبدأ هذه التوجيهات من فراش الزوجية وتنتهي بالعلاقات الدولية ، منهج كامل ، النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((بُنِي الإسلامُ على خَمْسٍ))

[أخرجه البخاري وابن خزيمة عن عبد الله بن عمر]



الإسلام شيء ، والخمس شيء آخر ، الإسلام بناء أخلاقي ، الإسلام قيم أخلاقية ، الإسلام علاقات ، لذلك أقول هناك عبادة شعائرية كالصلاة والصيام والحج والزكاة ، وهناك عبادة تعاملية ، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام حينما سأل النجاشي سيدنا جعفر رضي الله عنه ، حدثني عن الإسلام

، قال :

((أيُّهَا الْمَلِكُ ، كُنَّا قومَاً أهْلَ جَاهِلِيَّةٍ ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولاً مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ ، وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ ، وَنَعْبُدَهُ ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ ، وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ))

[أحمد عن أم سلمة]

العبادات الشعائرية لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادات التعاملية :

فالإسلام بناء أخلاقي فأنا حينما أتعامل مع مسلم بالكذب أحياناً ، وعدم الأمانة ، والغش وأصلي ؟!! نقول النقطة التي أتمنى أن تكون واضحة وضوحاً جلياً لدى الأخوة المشاهدين أن العبادات الشعائرية لا تقطف ثمارها إلا إذا صحت العبادات التعاملية ، أوضح الأمثلة ، النبي عليه الصلاة والسلام :

((أَتَدْرُونَ مَنْ الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ لَا لَهُ دِرْهَمَ وَلَا دِينَارَ وَلَا مَتَاعَ ، قَالَ : الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ يَأْتِي بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ عِرْضَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا ، فَيُقْعَدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))

[مسلم عن أبي هريرة]

إذاً أنا حينما أصلي ولا أؤدي ما علي من واجبات ، أنا حينما أصلي وأسيء للمسلمين لن أستطيع أن أنتفع من صلاتي ، هذه الصلاة :

((لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَاماً مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضاً ، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُوراً ، قَالَ ثَوْبَانُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، صِفْهُمْ لَنَا ، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ ، قَالَ : أَمَا إِنَّهُمْ أَخوانكُمْ ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ ، وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

[ابن ماجة عن ثوبان]

الصيام أستاذ راضي :

((مَن لم يَدَعْ قولَ الزُّور والعملَ به ، فليسَ للهِ حاجة في أن يَدَعَ طعَامَهُ وشَرَابَهُ))

[أخرجه البخاري وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة]

الحج :

((من حج بمال حرام فقال : لبيك اللهم لبيك ؛ قال الله عز وجل : لا لبيك ولا سعديك وحجك مردود عليك))

[رواه الشيرازي وأبو مطيع عن عمر]

الزكاة :

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

(سورة التوبة)

الأولويات أن هذا الدين مجموعة مبادئ أخلاقية :

الأولويات أن هذا الدين مجموعة مبادئ أخلاقية ، ابن القيم رحمه الله تعالى قال : " الإيمان هو الخلق ، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الإيمان " .

أنا لا أريد أن يبقى الدين خمس عبادات شعائرية تؤدى شكلاً ، المشكلة كبيرة ، لأنه ورد في بعض الأحاديث :

((... وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ))

[أبو داود عن ابن عباس]

والله أنا أعتقد كما تعتقد جنابك أن زوال الكون أهون على الله من ألا يحقق وعوده للمؤمنين ، الله عز وجل يقول :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ)

(سورة النور الآية : 55)

والله نحن لسنا مستخلفين .

(وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

(سورة النور الآية : 55)

هل نحن ممكنون ؟ لا والله .

(وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

(سورة النور الآية : 55)

الأولويات أن نقدم لله الأشياء التي تعد عند الله سبباً للنصر :

عندنا خلل خطير ، الأولويات أن نقدم لله ما يسمح لنا أن ننتصر ، أن نقدم لله الأشياء التي تعد عند الله سبباً للنصر :

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

(سورة محمد الآية : 7)

لأن الله عز وجل يقول :

(وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ)

(سورة الأنفال الآية : 10)

ثم :

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ)

(سورة آل عمران الآية : 160)

في النهاية :

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

(سورة محمد الآية : 7)

نريد أن نقدم لله الأسباب التي وضعها كي ننتصر ، هذه أولوية في الدين ، خمس دول إسلامية محتلة ، ثرواتنا تنهب ، شبابنا يقتلون ، أرضنا تحتل ، هذه مشكلة كبيرة ، إذاً هذا الدين ؛ دين القوة ، دين المنعة، دين العزة والكبرياء .

الأستاذ راضي :

هذا الكلام يأخذني إلى نقطة هامة جداً ، أين الخلل في عدم تحقيق نصر الله عز وجل لنا رغم وضوح الرؤيا ؟ إن تنصروا الله ينصركم ، هل نصرنا الله عز وجل في أنفسنا؟ هل نصرنا الله عز وجل على أرضنا ؟ هل نصرنا الله عز وجل فيما بيننا ؟ أرجو التعليق ، وكلمة ستسأل عنها أمام الله سبحانه وتعالى وأحسبك من الصالحين ، الدعاة الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله .

نصر الله عز وجل للمؤمنين :

الدكتور راتب :

أستاذ راضي جزاكم الله خيراً ، أنا أتوقع ما دامت أزمة أهل النار بالنار هي أزمة جهل:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

(سورة الملك)

الإنسان لأنه مفطور على حب وجوده وعلى حب سلامة وجوده وعلى حب كمال وجوده

أزمة أهل النار بالنار هي أزمة جهل

وعلى حب استمرار وجوده ، لماذا الشقاء ؟ من الجهل ، الجهل أعدى أعداء الإنسان ، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به ، إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم ، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم ، والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك ، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً ، ويظلّ المرء عالماً ما طلب العلم ، فإذا ظنّ أنه قد علم فقد جهل . المشكلة في الأول والآخر مشكلة علم ، لأنك أنت تحب وجودك .

الأستاذ راضي :

عفواً سيدي الكريم كلام فضيلتك ملأ القلب وعلى العين والرأس ، لكن إذا أذنت لي فضيلتك الكل يعلم ، الحكام يعلمون ، الشعوب تعلم أين الخلل ، أنا أقصد في لب الموضوع.

الإنسان في النهاية إما أن يؤثر المبادئ أو المصالح :

الدكتور راتب :

الخلل في الإرادة ، أحياناً أعلم ولا أملك إرادة ، أو لا أريد أن أفعل ما أعلمه ، والنقطة مهمة جداً ، أحياناً الإنسان يعلم أن هذا العلم خطأ لكن هذا العمل يحقق له شهوة، فالإنسان في النهاية إما أن يؤثر الحق أو شهوته ، يؤثر المبادئ أو المصالح، فنحن في عصر مصالح ، عصر شهوات ، عصر استمتاع بالدنيا .

الإنسان عليه أن يختار بين المبادئ أو المصالح

الأستاذ راضي :

سيدي الكريم أليس في الأمة الإسلامية رجل رشيد يعلن انتماءه لله بدل أن يعلن انتماؤه لأمريكا وغير أمريكا ، ألا يوجد في الأمة الإسلامية رجل رشيد يعلنها صراحة أنه لله، ونتصافح ونتعاون ونتكاتف ونكون أمة واحدة .

الدكتور راتب :

ولكن هذا يحقق له نجاحاً فردياً ، الإنسان الرشيد حينما ترشد أفكاره ويتعرف إلى ربه ويطبق منهج ربه يسعد بهذا الاتجاه ، وهذا الالتزام ، وهذا العمل الصالح ، ولكن أن تنهض أمة بأكملها تحتاج إلى أن يكون التعليم ممتازاً .

الأستاذ راضي :

هذا هو لب الحلقة فقه الأولويات .

يجب أن يكون الإعلام والمدرسة والأسرة متناغمة مع بعضها بعضاً :



الدكتور راتب :

أن تكون الأسرة منضبطة ، أن يكون الإعلام منضبطاً ، التغذيات تأتي من الأسرة ، ومن المدرسة ، ومن الإعلام ، فما لم يكن الإعلام والمدرسة والأسرة متناغمة مع بعضها بعضاً لن يحقق هذا فهماً صحيحاً لهذا الجيل ، فالجيل أحياناً يدخل إلى الصف العاشر يتعلم من أستاذ الديانة أن آدم أبو البشر ، يدخل أستاذ الطبيعيات الإنسان أصله قرد ، هذا الطالب تمزق ، الصراعات المستمرة تسبب اللامبالاة ، يعني يسمع شيئاً من خطيب المسجد لا يراه في أبيه ، يسمع شيئاً من المعلم لا يراه عند أخوته ، ما دام هناك تناقضات ، هناك أشياء تطرح بشكل جيد غير مطبقة .

الأستاذ راضي :

سيدي الكريم لو أذنت أنا لا أحب أن أقاطع ضيفي لكن بما عهدناه فيكم من سعة صدر ورجاحة عقل وفكر مستنير ومعين لا ينضب ربنا يبارك فيكم ، يقول أحد الفقهاء الأجلاء : إصلاح فساد الراعي خير من إصلاح فساد الرعية ، أنا كان سؤالي واضح لفضيلتك : ألا يوجد في الأمة رجل رشيد يدعو الحكام ويدعو الشعوب لتتألف وتتوحد وتعتصم بحبل الله كما أراد الله عز وجل

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً)

الدكتور راتب :

والله أنا الذي أعلمه أن الدعاة لا يقصرون ويتحدثون .

الأستاذ راضي :

من وجهة نظر فضيلتك أن الدعاة يقومون بدورهم .

صفات الداعية :

الدكتور راتب :

إلا بعضاً منهم آثر أن يكون مجاملاً لمن هو قوي ، أما الأصل الداعية يجب أن ينصح ، وهذه مهمته ، والدليل :

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب الآية : 39)

هؤلاء لهم صفات كثيرة أغفلها الله جميعاً ، ترك صفة واحدة :

(وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

فلو أن الله الداعية خشي غير الله فسكت عن الحق خوفاً منه ، أو تكلم بالباطل إرضاءً له ، انتهت دعوته، فما لم تكن الكلمة صادقة ، ما لم تكن النصيحة دقيقة واضحة في عندنا مشكلة :

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب الآية : 39)

الأستاذ راضي :

إذاً لن ندرك دورنا الغائب ونسترد وعينا المفقود طالما العلماء أو بعضهم كما تفضلت فضيلتك يداهنون الحكام .

الدكتور راتب :

هذه مشكلة كبيرة جداً وأي حاكم يجد حوله من يثني عليه ، هذه مشكلة :

((الدِّينُ النَّصِيحَةُ))

[مسلم عن تميم الداري]

الأستاذ راضي :

أستاذنا كما يقال اللحن المكرر يسئم ، أنا أنتقل بفضيلتك لنقطة أخرى ، على مستوى المجتمعات الإسلامية والعربية في بلادنا الإسلامية والعربية نجد أكثر التناقضات موجودة ونلمسها في المجتمعات، سأكتفي هنا بما أحسبه أكثر شيوعاً ، هناك من يحج كل عام ، كل عام يحج ، كل عام يعتمر ، هناك من ينفق ببذخ وإسراف شديد على رحلاته الترفيهية ، هناك من يستبدل سيارته كل عام طبقاً للموديل ، أي أمور كثيرة جداً تجعل الإنسان يقف مع نفسه ، أين أنا من إسلامي ؟ أي أنا من فقه الأولويات ؟ وفي

نفس الوقت لا ننكر على هؤلاء الذين أنعم الله عليهم أن يتنعموا ، ولكن ننظر بعين الرحمة والرأفة والأخوة الإسلامية إلى المحرومين ، ما أكثر المرضى ، ما أكثر الجوعى ، ما أكثر العرايا ، فقه الأولويات ، أين العلماء من فقه الأولويات ؟ أنا أريد من فضيلتك أن تتحدث ولا تخشى في الله لومة لائم.

موقف العلماء من فقه الأولويات :

الدكتور راتب :

هذه المشكلات التي طرحتها أنا أراها أعراضاً لمرض واحد هو الإعراض عن الله ، ما لم ينجح الخطاب الديني ، فيعرف الإنسان بسر وجوده وبغاية وجوده ، أعراض الإعراض لا تعد ولا تحصى ، مثلاً الطبيب الناجح لا يعالج ارتفاع الحرارة في المريض بخافض حرارة ، هذا الارتفاع وراءه التهاب فما لم يعالج الالتهاب لا يكون طبيباً ، فنحن حينما نرى مشكلات كثيرة وقد تكون كثيرة جداً ، ونعددها، ونصيح بضرورة حلها ، ولا نعالج أسباب هذه المشكلات ، أنا أرى أن أكثر هذه المشكلات هي أعراض طبيعية جداً لإنسان أعرض عن الله ، فما لم يكن الخطاب الإسلامي ناجحاً ، يغذي عقله ، يغذي قلبه ، هناك قصص لا تقدم ولا تؤخر ، هناك تجاوزات للواقع العلمي ، هناك شطحات ، هناك خرافات ، هناك كرامات ، هناك منامات ، فإذا كان الخطاب الديني شطحات ومنامات وخرافات هذا الدين مرفوض عند الناس ، فإذا رفض الدين إنسان بلا منهج في عنده شهوات والشهوة قائمة وفعالة أنا أرى أن أحد أكبر أسباب شرود الناس عن الله عدم نجاح الخطاب الديني .

الأستاذ راضي :

عدم النجاح سببه تقاعس العلماء أم المؤسسات والهيئات أم الشعوب أم الحكام ؟

الدكتور راتب :

والله أنا ما ألفت أبداً في حياتي أن أعزو مشكلة كبيرة جداً إلى جهة واحدة ، ألفت أن المشكلات الكبيرة جميعاً نحن مسؤولون عنها ، العلماء والحكام والشعوب والطبقة الدنيا ، كلنا مسؤولون .

الأستاذ راضي :

عدنا إلى الحلقة التي تربط بيننا وبين العلماء ، الكل يعول على دور العلماء ، نحن نحب الفن الهادف ، الإسلام ليس ضد الفن ، لكن عندما تقيم الدول العربية والإسلامية التي يرتفع فيها الآذان الله أكبر مهرجانات وجوائز لدعاة الفن الهابط ، أين رصد الجوائز والعلماء والباحثين والمفكرين إذا أردنا أن ننهض بالأمة ؟ لكن هنا دور العلماء يبرز كما تفضلت فضيلتك .

دور العلماء في النهوض بالأمة :

الدكتور راتب :

أنا أرى أن هناك تطور رائع جداً في الدعوة إلى الله ، بدأ يظهر علماء مخلصون يضعون أيديهم على جراحات الأمة ، يضعون الحلول ، الحقيقة دورة الحق أطول من عمر الإنسان ، لكن الوعي الديني الآن أقوى بمئة مرة من الوعي قبل خمسين عاماً ، في التزام ، المشكلة الآن أنه هناك حق أرمز له باللون الأبيض الناصع ، وهناك باطل أرمز له باللون الأسود القاتم ، بينهما خط رمادي كبير جداً ، أنا أرى الآن المنطقة الرمادية اختفت ، هناك حق صريح وباطل قاتم ، إنسان إباحي أو ولي ، الحالة الوسط التي عشناها قبل خمسين عاماً اختفت الآن ، تجد إنساناً ملتزماً صادقاً أميناً ورعاً ، وإنساناً متفلتاً يأخذ ما ليس له ، يتكلم بما ليس قانعاً به ، المشكلة يجب أن ننجح الخطاب الديني ، والخطاب الديني أقول إذا إنسان قرأ قصة سخيفة ثمانمئة صفحة يقرأها ويتثاءب وينام ، قد يقرأ رسالة لصفحة واحدة تبدأ متاعبه ، حينما ينجح الخطاب الديني تنتهي من سماع هذه الخطبة ، من سماع هذا الدرس ، تشعر أنك ضيعت سر وجودك وغاية وجودك ، تشعر أن السعادة الحق في الاتصال بالله ، في طاعته ، حينما ينجح الخطاب الديني من العلماء الصادقين المخلصين فالإنسان يؤثر ما يبقى على ما يفنى ، يمكنني أن أذكر لك آلاف الأمراض الاجتماعية ، أنا أراها وأنا واثق من قولي أن هذه الأمراض هي أعراض لمرض واحد هو الإعراض عن الله عز وجل ، أحياناً الخطاب الديني لا ينجح ، خطاب تقليدي ، خطاب قصصي ، خطاب خرافي ، أحياناً في قصص وفي تجاوزات ، أما حينما يكون الخطاب الديني متماسكاً ، قوياً ، مبنياً على قاعدة صلبة ، يؤكده العلم ، الإنسان أحياناً يدخل في صراع يجد العلم في وادي والدين في وادي ، مع أن العلم والدين متوافقان ، فبطولة الداعية أن يربط الحديث بالقديم ، والعلم بالدين بالواقع ، أنا أعول أهمية كبيرة على خطاب ديني ناجح يصل إلى أعمق ما في الإنسان ، يجعله ملتزماً ، الآن تجد إنساناً شرد عن الله شرود البعير ، فبعد سماع خطاب ديني ناجح يعود إلى الله ، ويستقيم على أمر الله ، أنا أرى أن المشكلات التي نعاني منها أعراض مرض واحد هو الإعراض عن الله ، فإذا استطعنا أن نعرف الإنسان بسر وجوده وغاية وجوده عندئذ

حملناه على الطريق المستقيم ، أما أن نعالج قضية قضية ، أنا أرى كلما عالجنا قضية ظهرت أخرى ، المعالجة يجب أن تكون في بنية الإنسان والآية الدقيقة جداً :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد الآية : 11)

الآية الكريمة تؤكد أن التغيير ينبغي أن يبدأ من الداخل ، لماذا أنا موجود ؟ والإنسان يحب وجوده ، يحب سلامة وجوده ، يحب غاية وجوده ، حينما يؤمن أن هناك آخرة المؤمن ينتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة كما ينتقل الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا ، العطاء كبير جداً ، نحن في أمس الحاجة إلى خطاب ديني ناجح ، لكن خطاب ديني تتبناه وسائل الإعلام .

الأستاذ راضي :

إذا كان الإعلام ليس له أهداف ، إبعاد الناس وإقصاء الناس عن الإسلام ، القائمين على بعض وسائل الإعلام في بلادنا العربية والإسلامية إما تجده علماني ، أو ماسوني ، أو له مآرب أخرى ، الحل ماذا ؟

كيفية توجيه وسائل الإعلام :

الدكتور راتب :

الحل أن نسعى بالتوفيق بين الجهات التي تملك القرار ، إن الله يذع بالسلطان ما لا يذعه بالقرآن ، أصحاب القرار هم مسؤولون بالدرجة الأولى ، فإذا وجهوا الإعلام توجيهاً صحيحاً ، وجهوا المناهج توجيهاً صحيحاً ، وجهوا الأسر توجيهاً صحيحاً ، يصبح تقدم مع أن التقدم لا يتم بليلة وضحاها ، التقدم يحتاج إلى أمد طويل لكن حينما نبدأ بالحركة الصحيحة .

الأستاذ راضي :

أصحاب القرار لن يتقدموا ولن يصلحوا إلا إذا تحرك العلماء ، شيخنا الجليل نعود إلى العلماء على مستوى الدعوة ، نجد بين الحين والآخر من يواجهنا من بعض المنتسبين للعلم ويمكن بعضهم ليس له من بضاعة الفقه بشيء ، يتحدث عبر الفضائيات في أمور ثانوية ، شغلوا وشغلوا الناس معهم بالفروع وليس


يجب أن يوجه الإعلام توجيهاً صحيحاً

بالأصول ، بالجزئيات وليس بالكليات هناك من يثير موضوعات تحدث بلبلة بين الناس ، وما أكثرها ، يمكن فضيلتك تعلمها ، ماذا يقول الدكتور محمد راتب النابلسي لهؤلاء ؟ لنرقى بأنفسنا بدءاً من الخطاب الديني المتمثل في العلماء .

كيفية الارتقاء بالخطاب الديني المتمثل في العلماء :

الدكتور راتب :

الذي أقوله كما قلت قبل قليل : هناك قيم أخذ بها الطرف الآخر الغرب ، فكان قوياً جداً بها ، وهذه القيم أصل في ديننا ، فتحدثت عن العمل ، وعن إتقان العمل ، وعن تطوير العمل ، وعن إدارة الوقت ، وعن إدارة الذات ، أن أهتم بعلاقتي مع ربي ، إدارة الذات ، ومع أسرتي ، ومع عملي ، ومع صحتي ، شيء آخر العمل المؤسساتي هذا عمل يستمر ، نحن في الدول النامية العمل شخصي ، أما التقدم يقتضي أن يكون العمل مؤسساتي ، فيه نظام ، فيه مبادئ أكبر من الأشخاص ، فكلما تخلف النظام كبر الشخص ، وكلما كبر الشخص تخلف النظام ، أما الأصل أن هناك مبادئ ثابتة تحكم المجتمع كله ، هذه واحدة ، في شيء ثاني فريق العمل ، كنت مرة في بلد أجنبي قرأت إعلان في صحيفة عن وظيفة لإنسان الأشياء كلها مألوفة عندنا ؛ الشهادات والعمر ، لكن لفت نظري بند : أن يصلح للعمل ضمن فريق ، نحن لا نتعاون ، نتنافس ، من خصائص تخلفنا التنافس ، لأن الإنسان حينما يعرف الله يتعاون مع أخوته المؤمنين ، والأمر واضح فالتعاون حضارة ، والتعاون يؤدي إلى فريق عمل ، أما أي شركة ، أي مؤسسة ، كل واحد ضد الآخر ، كل واحد يصل إلى المدير ليشتكي على زميله ، هذه مشكلة خطيرة ، يصبح هناك تخلف ، إذاً نظام فريق العمل ، العمل المؤسساتي ، الالتزام بالمواعيد الوقت ثمين جداً ، شيء آخر العمل ضمن الإمكانات المتاحة يمكن أن نستغل ما عندنا من مواد أولية ، من أوضاع ، أما هناك من يستورد كل شيء ، الكتلة النقدية ذهبت إلى الغرب ، في ترشيد الاستهلاك ، يمكن أن تنتهي أزمتنا كلها بترشيد الاستهلاك ، ليس عندنا وعي إطلاقاً .

كيف حال الإنسان حين يقوم الليل ؟ تأتيه نشوة إيمانية ، حين يدفع صدقة ؟ تأتيه نشوة إيمانية ، أنا أرى أنه ينبغي للدعاة أن يؤكدوا للناس أن إتقان العمل يجب أن ينتهي بك إلى نشوة إيمانية ، تطوير العمل ، إدارة الذات ، إدارة الوقت ، ترشيد الاستهلاك ، والله هذه القيم وحدها تنقلنا نقلة نوعية من وضع متخلف إلى وضع متقدم ، أيام ورقة كبيرة هي صممت وطبعت من أجل أن تكتب فيها كتاب ، تنشف بها الأيدي بعد الغسيل ، كلفت مبلغاً ضخماً ، لا يوجد استهلاك مرشد ، لا يوجد استهلاك حكيم ، هذه القيم الغربية من حيث الانضباط ، من حيث ترشيد الاستهلاك ، من حيث الالتزام بالوقت ، إدارة

الوقت، إدارة الذات ، العمل المؤسساتي ، الإسراع للعمل ، الالتزام بالمواعيد ، الوقت أثمن شيء في حياة الإنسان ، أتمنى أن نأخذ من الدين هذه القيم التي قوي بها الطرف الآخر ، وأن نجعلها ضمن الخطاب الديني ، حتى يحس الإنسان بالقرب من الله وهو يتقن عمله ، عدم الإتقان له مضاعفات خطيرة جداً ، فأتمنى إذا تحدثنا عن الأولويات ، هذه القيم الحضارية التي هي أصل في ديننا ينبغي أن تكون موضوعاً لخطابنا الديني .

توجيه الخطاب الديني لحلّ مشكلاتنا الاقتصادية والاجتماعية :

النبي الكريم توضأ من قعب ، إناء ماء توضأ منه فضلت فيه فضلة ، قال : ردوها في النهر ينفع الله بها قوماً آخرين . وقف أمام قبر الذي حفر القبر ما أتقنه ، قال له : إن هذا لا يؤذي الميت ولكنه يؤذي الحي :

((إن الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه))

[الجامع الصغير عن عائشة]

تجد لقطات رائعة جداً ، سيدنا عمر رضي الله عنه دخل إلى قرية فرأى معظم الفعاليات فيها من غير المسلمين ، فعنفهم تعنيفاً شديداً ، قالوا : قد سخرهم الله لنا ، فقال سيدنا عمر : كيف بكم إذا أصبحتم عبيداً عندهم ؟ هذا الخليفة العملاق أدرك قبل ألف وأربعمئة عام أن المنتج قوي والمستهلك ضعيف . أحياناً نبيع الصوف يعود لنا قماشاً بألف وسبعمئة وخمسين ضعف ، يعني نشتري أشياء مصنعة بأسعار تفوق حد الخيال ، قطعة سيارة ثلاثمئة ضعف عن ثمنها ، هنا يأخذون أموالنا إذا باعونا وإذا اشتروا منا لضعف تصنيعنا ، في بلاد كثيرة كل شيء مستورد ، فنحن يجب أن نوجه الخطاب الديني لحل مشكلاتنا الاقتصادية والاجتماعية ، في عنوسة عالية جداً مشكلة كبيرة ، أنا سألت مرة قاضي شرعي ، قال لي : كان الطلاق في سوريا خمسة عشر بالألف ، صار خمسة عشر بالمئة ، صار خمسين بالمئة ، في تطورات سلبية خطيرة جداً فلا بد من صحوة ، لا بد من وقفة متأنية ، لا بد من عودة إلى هذا الدين، هذا الدين منهج الله عز وجل ، يعني بالتعبير المختصر : الإنسان آلة معقدة جداً ، ولهذه الآلة صانع حكيم ، ولهذا الصانع الحكيم تعليمات التشغيل والصيانة ، والبطولة من أجل سلامة هذه الآلة وحسن مردودها أن نطبق تعليمات الصانع .

الأستاذ راضي :

في ظل ما نعانيه من أزمة حقيقة بين واقع الأمة وأفراد الأمة كيف نصل بالمسلم البسيط إلى إيقاظ الوعي ؟

إيقاظ الوعي عند المسلم البسيط :

الدكتور راتب :

قد يشتري إنسان أمي لا يقرأ ولا يكتب مكيف ، يضغط المفتاح يأتيه الهواء البارد، وقد يشتري أستاذ اختصاصه علم التكييف في الجامعة مكيف ، يضغط الزر يأتيه هواء بارد ، قالوا : الانتفاع في الشيء ليس أحد فروع العلم به ، فهذا الأمي غير المتعلم يكفي أن أقنعه أن يتوب ، أن يصدق ، أن يتقن عمله ، من دون تعليلات ، من دون فلسفات ، من دون تحليلات ، عظمة هذا الدين أنه هواء للأمة ، هذا الدين تسعد به ولو طبقته فقط ، وتسعد به ولو طبقته عن علم ، هناك إنسان يحلل تحليلات عميقة يأتي بالأدلة والبراهين ، الدين ممكن أن ينتفع منه كل الطبقات ، في شيء دقيق جداً بالدين أنه دين جماعي وفي الوقت دين فردي فإذا طبقته وحدك قطفت كل ثماره ، وإن طبقته الأمة قطفت ثماره كلها ، لذلك أنا أتمنى هذا الدين أن يكون الخطاب موجهاً لكل الطبقات بكل المستويات ، وبكل وسائل الإعلام ، وأنا أرى أن مصلحة الأمة في أن تعود إلى ربها ، لأنه وكما رأيت هناك حلول كثيرة لم تنجح ، هناك واقع خطير ما لم نرجع إلى سبب تفوقنا وهو الدين ، فالطريق ليس واضحاً تماماً أمام الأمة ، أحياناً نأخذ من عند هذا منهج ، ومن عند هذا منهج ، هذه مناهج هجينة علينا ، لا تنتمي إلينا ، فأنا أتمنى أن يكون الخطاب الديني خطاباً علمياً أولاً يربط بين الماضي والحاضر ، وخطاباً واقعياً ، وخطاباً يحل مشكلاتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، إذا كان الخطاب في هذا المستوى كان الحل في الخطاب الديني ، وما أعظم الخطاب الديني إذا نهض بالأمة .

الأستاذ راضي :

كما هو معلوم أن السلبية لا تعلي همة ولا توقظ أمة ، الشباب هم رجال الغد وهم الصحوة والأمل الكبير ، كيف نبني قلاع الإيمان في نفوس الشباب لدينا ؟

بناء قلاع الإيمان في نفوس الشباب :

الدكتور راتب :

أرى أن الشباب موضوع خطير جداً لأنهم المستقبل ، والشباب قنبلة موقوتة ، يعني إذا رأى هذا الشاب أن طريق العمل مسدود ، وبالتالي طريق الزواج مسدود ، وطريق السكن مسدود ، لا في سكن ، ولا في زوجة ، وطريق الشهوات مفتوح على مصراعيه ، والخطاب الديني ما نجح ، فهؤلاء الشباب أنا أرى ما لم يبادر المجتمع بكل قواه لحل مشكلاته هناك مشكلة كبيرة جداً هذا الشاب يضيع ، وإذا ضاع انحرف ، والحقيقة أن الشباب اليوم بين تطرفين ، تطرف تفلتي وتطرف تشددي ، التفلتي إلغاء القيم

كلها ، والإباحية ، والتشددي التكفير ثم التفجير ، الشباب بين تطرفين ، تطرف تفلتي وتطرف تشددي ، التفلتي الإباحية ، لا يبالي ، يفعل ما يشاء ، ما في قيم ، ولا مبادئ ، ولا رادع ، والتشددي يجتمع بحلقات مغلقة بعيدة عن وسطية الدين ، ويعتقد أشياء غير صحيحة ، ويترجمها إلى عمل يبدأ بالتكفير وينتهي بالتفجير ، ما لم تبادر الأمة بكل قواها ، بكل مستوياتها ، بكل أفرادها إلى حل مشكلة الشباب ، أنا أرى أن الشاب يحتاج إلى بيت وزوجة وفرصة عمل ، فالأمة ينبغي أن تنهض لحل مشكلات الشباب ، تأمين بيوت سكن ، تأمين فرص عمل ، لذلك سافر إنسان إلى ألمانيا لإقامة مصنع ، الشيء العجيب أنه طُلِب منه وثيقتين ، أعطي أرضاً مجاناً أجرتها مارك للدونم ، وتصريحين ؛ أن لا يلوث البيئة ، ويؤمن فرص عمل للناس ، الأمر حينما يتضح أمام أولي الأمر ، فالشباب أخطر شيء بحياتنا ، لا بد من تأمين أعمال لهم ، وزواج ، وبيوت، أما إذا اهتممنا كما تفضلت بالولائم ، والإنفاق الاستهلاكي ، والبذخ ، والرحلات ، والإنفاق على شيء لا يقدم ولا يؤخر ، ماذا أقول ؟ أحياناً من أجل موضوع فني هناك ستة وثمانين مليون اتصال خلال عشرين يوماً ، من أجل موضوع فني بعد سقوط بغداد ، في بالأمة مشكلة يجب أن نرتقي بهذه الأمة ، أحد الشعراء قال :

أكاد أومن من شك ومن عجب هذه الجماهير ليست أمة العرب

* * *

يتألم الإنسان ألم شديد .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - الرد الجميل - الدرس (3-4) : الإعجاز العلمي في القرآن والسنة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 2000-01-03

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ راضي :

أستاذنا الكريم بداية نود أن نتعرف إلى مفهوم المعجزة ، وهل هناك فرق بين الإعجاز والمعجزة ؟

مفهوم المعجزة :

الدكتور راتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق ، وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين ، وعلى صحابته الغر الميامين ، أمناء دعوته ، وقادة ألويته ، وارضَ عنا وعنهم يا رب العالمين ، اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم ، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات .



الحقيقة الأولى أن كمال الخلق يدل على كمال التصرف ، فهذا الكون معجزة ، فيه حكمة ما بعدها حكمة ، فيه علم ما بعده علم ، فيه قدرة ، فيه غنى ، بل إن بعض كبار العلماء قال : كل إنسان لا يرى في هذا الكون قوة هي أقوى ما تكون ، عليمة هي أعلم ما تكون ، رحيمة هي أرحم ما تكون ، حكيمة هي أحكم ما تكون ، هو إنسان حي ولكنه ميت .

لذلك هذا الكون ينطق بكل تفاصيله بوجود الله ووحدانيته وكماله ، وكمال الخلق يدل على كمال التصرف ، ومن كمال أفعال الله أنه أرسل الأنبياء والمرسلين ، بعثهم هداة للبشر ، ولكن حينما يأتي إنسان ويقول للناس : أنا رسول الله ، هناك من يكذبه ، لأن الإنسان يألف أن يتحرك وفق شهواته

ومصالحه ، فإذا جاء منهج يقيم حركته بكلمة افعل ولا تفعل ، في شيء حلال ، في شيء حرام ، هذا المنهج الذي يحد من حركته يشعره بالنفور ، لذلك هناك من يكذب النبي :

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً)

(سورة الرعد الآية : 43)

المعجزات التي أنزلت على نبينا محمد معجزات علمية أما بقية الرسل فمعجزاتهم حسية :

السؤال الآن كيف السبيل إلى أن يشهد الله أن هذا الإنسان رسوله ؟ فلا بد أن يشهد له بطريقة أو بأخرى ، الطريقة التي شهد الله لأنبيائه السابقين أنهم أنبياؤه المعجزات الحسية ، سيدنا موسى :

(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (107)وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (108))

(سورة الأعراف)

سيدنا موسى ضرب البحر بعصاه فإذا هو طريق يابس ، هذه المعجزات الحسية كتألق عود الثقاب ـ كما تفضلت ـ تتألق ثم تنطفئ ، تصبح خبراً يصدقه من يصدقه ويكذبه من يكذبه ، وشيء طبيعي جداً لأن كل نبي لقومه ، أما النبي عليه الصلاة والسلام لكل الأمم أجمعين ، هو خاتم الأنبياء والمرسلين ، وكتابه خاتم الكتب ، إذاً ينبغي أن تكون المعجزة ـ وهي شهادة الله لعباده أن هذا الإنسان رسوله ـ أن تكون علمية ، ولا تكون علمية إلا إذا كانت ضمن القرآن الكريم ، فالقرآن فيه ما يزيد عن ألف وثلاثمئة آية تتحدث عن الكون ، والشيء الذي يلفت النظر أن النبي عليه الصلاة والسلام في أي موضوع تعبدي له مئات الأحاديث ، هذه الآيات الكونية لم يرد في شرحها حديث واحد ـ وكأن هذا توجيه من الله عز وجل ، لأنه لو شرح هذه الآيات الكونية شرحاً مبسطاً يفهمه أصحابه لأنكرنا عليه نحن الآن ، بل لو شرحه شرحاً مفصلاً بحسب ما أراه الله من آياته الكبرى لأنكر عليه أصحابه ، لذلك أنا أتصور إما بتوجيه من الله أو باجتهاد منه لم يتطرق النبي عليه الصلاة والسلام إلى هذه الآيات ، بل ترك كل آية لعصرها ، فإذا تقدم العلم كشف عن بعض هذه الآيات ، هذه الآيات الكونية التي فيها إشارات علمية إلى بعض الحقائق هي في الحقيقة شهادة الله لعباده أن الذي خلق الأكوان هو الذي أنزل

القرآن الكريم ، يعني الإنسان حينما يرى كتاباً فيه حقائق اكتشفت الآن وقد أشار إليها النبي عليه الصلاة والسلام قبل ألف وأربعمئة عام هذا دليل قاطع مفحم على أن الذي خلق الأكوان هو الذي أنزل هذا القرآن الكريم .

ظواهر أكتشفت الآن أشار القرآن إليها قبل ألف وأربعمئة عام :

فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ

حينما صعد الإنسان إلى القمر ، والمركبة انطلقت من الأرض وقطعت خمسة وستين ألف كيلو متر هي طبقة الهواء ، فإذا رائد الفضاء يصيح بأعلى صوته لقد أصبحنا عمياناً ، لماذا ؟ لأن في الأرض ظاهرة اسمها أشعة انتثار الضوء ، لأن أشعة الشمس حينما تسلط على الهواء ذرات الهواء تعكس بعض الأشعة على ذرات أخرى ، لم تصبها أشعة الشمس ، في الأرض شيء اسمه ضياء ، وشيء اسمه أشعة ، هذه الظاهرة اسمها انتثار الضوء ، هذه لا تكون إلا في طبقة الهواء ، فلما تجاوز رائد الفضاء هذه الطبقة انقطعت هذه الظاهرة الفيزيائية ، فنحن أمام جو مظلم هالك ، لقد أصبحنا عمياناً لا نرى شيئاً ، هذه في أول مركبة أرسلت إلى الفضاء ، نفتح كتاب الله يقول الله عز وجل :

(وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (14)لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ)

(سورة الحجر)

هذه الآية تشير إلى ظاهرة لم تعرف إلا بعد أن ارتاد الإنسان الفضاء الخارجي ، فآية تأتي قبل ألف وأربعمئة عام تشير إلى حقيقة اكتشفت قبل ثلاثين عام هي انتثار الضوء ، هذه واحدة ، في آية أخرى يقول الله عز وجل :

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37)فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (38))

(سورة الرحمن)

وكالة ناسا الفضائية عرضت قبل عشر سنوات صورة لوردة جورية ، لا يشك لثانية واحدة أنها وردة جورية .

الأستاذ راضي :

ما المقصود بالوردة الجورية ؟

آيات أخرى تبين الإعجاز في القرآن الكريم :

الدكتور راتب :

يعني أوراقها حمراء داكنة ، ووريقات خضراء زاهية ، كأس أزرق في الوسط ، الوردة نبات جميل الصورة ، فهي وردة حمراء ، لكن هذه الصورة التي عرضت في موقع ناسا الفضائي ، وردة جورية ، بوريقاتها الحمراء الداكنة ووريقاتها الخضراء الزاهية وكأس أزرق في الوسط ، كتب تحتها صورة انفجار نجم اسمه عين القط ، يبعد عنا ثلاثة آلاف سنة ضوئية ، قال تعالى :

(فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37)فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (38))

(سورة الرحمن)

لا تجد شرحاً لهذه الآية كهذه الصورة ، بل إن الإمام علي رضي الله عنه يقول : " في القرآن آيات لما تفسر بعد ".

أنت تركب أحدث طائرة في العالم ، وبالدرجة الأولى ، وصنعها حديث جداً ، والمقعد وثير ، تفتح القرآن الكريم ، يقول الله عز وجل :

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً (8))

(سورة النحل)

لو أن الآية انتهت هنا ليس هذا الكلام كلام الله عز وجل ، في قوله تعالى :

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (8))

(سورة النحل)

هذه تغطي الطائرة ، والقطار ، والحوامة ، هذا كلام خالق الأكوان ، لذلك :

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

التفكر في خلق السماوات والأرض أقصر طريق إلى الله:

أستاذ راضي جزاكم الله خيراً ، الإنسان حينما يتأمل في ملكوت السماوات والأرض يرى عظمة الله عز وجل وجهاً لوجه ، بل إن التفكر في خلق السماوات والأرض أقصر طريق إلى الله وأوسع باب ندخل منه على الله ، لأن الإنسان إذا تفكر في خلق السماوات والأرض يرى وجهاً لوجه عظمة الله عز وجل ، فلذلك الإنسان إذا عرف الآمر عن طريق التفكر في آياته ، عن طريق التفكر في آياته الكونية

وآياته التكوينية وآياته القرآنية ، آيات الله عز وجل هي الدلائل على عظمته ، هناك آيات كونية خلقه ، وهناك آيات تكوينية أفعاله ، وهناك آيات قرآنية كلامه ، التفكر في خلق السماوات والأرض أقصر طريق إلى الله وأوسع باب ندخل منه على الله .

بين الأرض وبين أقرب نجم ملتهب إليها أربع سنوات ضوئية فقط ، الضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثين ألف كم ، كم يقطع في الدقيقة ؟ ضرب ستين ، في الساعة ضرب ستين ، في اليوم ضرب أربع وعشرين ، بالسنة ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين ، أربع سنوات ضرب أربعة ، بين الأرض وبين أقرب نجم ملتهب أربع سنوات ضوئية ، الضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثين ألف كم .

هذا الرقم ابنك الصغير يحصل عليه خلال دقائق بآلة حاسبة ، لو تصورنا طريقاً لهذا النجم ، راكبين مركبة إلى هذا النجم سرعتها مئة ، كم ساعة تستغرق هذه الرحلة ؟ وإذا قسمنا الرقم على أربعة وعشرين كم يوم ؟ على ثلاثمئة وخمسة وستين كم سنة ؟ هل تصدق أن رحلتنا تحتاج إلى أن نصل إلى أقرب نجم ملتهب خمسين مليون عام ، ما معنى أربع سنوات ضوئية ؟ لو أن هناك مركبة ولهذا النجم طريق سالك ، وركبنا هذه المركبة ، لاحتجنا إلى خمسين مليون عام ، السؤال متى نصل إلى نجم القطب الذي يبعد عنا أربعة آلاف سنة ضوئية؟ ومتى نصل إلى مجرة المرأة المسلسلة التي تبعد عنا مليوني سنة ضوئية ؟ ومتى نصل إلى نجم أكتشف حديثاً ، بعده عنا أربعة وعشرون ألف مليون سنة ضوئية ؟ مع أن النجم الأقرب إلينا بعده عنا أربع سنوات ضوئية يستغرق الوصول إليه خمسين مليون عام ، الآن نفتح القرآن الكريم :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75)وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76)إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77))

(سورة الواقعة)

أدلة أخرى عن أشياء ورد ذكرها في القرآن الكريم تمّ اكتشافها حديثاً :

إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم ، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم ، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم :

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر الآية : 28)

النقطة الدقيقة جداً بين الأرض والشمس مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر ، يقطعها الضوء في ثماني دقائق ، الشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة ، أي جوف الشمس يتسع لمليون وثلاثمئة ألف أرض ، والمسافة بينهما مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر ، قال الله عز وجل :

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

(سورة البروج)

في برج العقرب نجم صغير متألق أحمر اللون اسمه قلب العقرب ، يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما ، أهذا الإله العظيم يُعصى ؟ ألا يخطب وده ؟ ألا ترجى جنته ؟ ألا تخشى ناره ؟

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمري فـــي المقال شنيع

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن الــــمحب لمن يحب يطيع

* * *

الآن قال تعالى :

(وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47))

(سورة الحج)

قد لا يصدق المستمع أن النظرية العملاقة ـ النظرية النسبية التي جاء بها اينشتاين ـ هذه النظرية مدرجة في عدة كلمات في القرآن الكريم ، هذا الموضوع عرض في مؤتمر للإعجاز العلمي الخامس في موسكو ، وأصله مئة صفحة أنا أشرحه شرحاً مبسطاً .

نظرية أينشتاين النسبية التي قلبت مفاهيم الفيزياء وردت في القرآن الكريم في بضع كلمات :

القمر أستاذ راضي ، القمر يدور حول الأرض دورة كل شهر ، نأخذ مركز الأرض ومركز القمر نصل بينهما بخط ، هذا الخط هو نصف قطر الدائرة التي هي مسار القمر حول الأرض ، ونعرف هذا الطول من نصف قطر الأرض مع نصف قطر القمر مع المسافة بينهما ، إذا وصلنا بين مركز الأرض ومركز القمر بخط ، هذا الخط هو نصف قطر الدائرة التي هي مسار القمر حول الأرض ، هذه الدائرة يقطعها القمر كل شهر ، ضرب اثني عشر شهر بالسنة ، ضرب ألف ، ألف سنة ، الآية الكريمة :

(وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47))

(سورة الحج)

لو قسمنا هذه المسافة التي يقطعها القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام ، نصف قطر الدائرة ـ مأخوذ من نصف قطر الأرض مع نصف قطر القمر مع المسافة بينهما ـ ضرب اثنين تساوي القطر ، ضرب 3,14 هو المحيط ، ضرب 12 في السنة ، ضرب ألف بألف سنة ، في رقم يعني عدد الكيلو مترات التي يقطعها القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام ، لو قسمنا هذا الرقم على ثوان اليوم لكانت سرعة الضوء الدقيقة هي (299752)، لو قسمنا ما يقطعه القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام على ثوان اليوم لكانت سرعة الضوء الدقيقة يعني (299752)، الآية الكريمة :

(وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47))

(سورة الحج)

أي المسافة التي يقطعها القمر حول الأرض في ألف عام يقطعه الضوء في يوم واحد ، هذه نظرية أينشتاين النسبية التي قلبت مفاهيم الفيزياء ، والتي جعلت حركة الضوء هي الحركة المطلقة في الكون، وأن الشيء إذا سار مع الضوء توقف الزمن ، فإذا سبقه تراجع الزمن ، فإذا قصر عنه تراخى الزمن ، هذه النظرية العملاقة وردت في القرآن الكريم في بضع كلمات :

(وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (47))

(سورة الحج)

الأستاذ راضي :

قال تعالى :

(سَنُرِيهِمْ آَيَاتِنَا فِي الْآَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (53))

(سورة فصلت)

أستاذنا الكريم جزاكم الله خيراً ، نخلص من كلام فضيلتك أن القرآن الكريم معجزة عقلية لها الخلود لدوام تأثيرها في العقل على مر العصور ولا ترتبط بعصر النزول ، كما تفضلت فضيلتك ، نعود إلى

تساؤل هل هناك فرق بين المعجزة والإعجاز ؟

الفرق بين المعجزة والإعجاز :

الدكتور راتب :

فرق كبير جداً ، المعجزة خرق لنواميس الكون ، يعني البحر أصبح طريقاً يبساً هذه معجزة ، سيدنا إبراهيم ألقي في النار فلم يحترق :

(يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

(سورة الأنبياء)

الله عز وجل ألغى خصائص النار ، بل بعض العلماء يقول : لو أن الله عز وجل قال

(كُونِي بَرْداً)

لو لم يقل

(وَسَلَاماً)

لمات من البرد ، ولو لم يقل

(عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

لألغي مفعول النار إلى أبد الآبدين ،

(كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

فالمعجزة خرق لنواميس الكون :

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً)

(سورة الإسراء الآية : 1)

الإسراء والمعراج خرق لنواميس الكون ، إحياء الموتى لسيدنا عيسى خرق لنواميس الكون ، أن تظهر ناقة من الجبل خرق لنواميس الكون ، الأنبياء معهم المعجزات الحسية ، وهذه أمروا أن يتحدوا بها من حولهم ، ملموسة ويراها الناس ، هذه المعجزات الحسية ، كما قلت ظهرت وانتهت أصبحت خبراً يصدقه من يصدقه ويكذبه من يكذبه ، فهذه خرق لنواميس الكون ، أما الإعجاز شيء آخر ، الإعجاز العلمي سبق علمي ، يعني حقيقة وفق نواميس الكون لكنها كشفت الآن ، في أمثلة كثيرة جداً ولنختار مثال من السنة ، النبي صلى الله عليه وسلم له توجيه في ذبح الدابة ينبغي أن نذبح الدابة من أوداجها فقط دون أن نقطع رأسها ، ولا يمكن أن يوجد في الأرض مركز علمي قادر أن يعلل هذا التوجيه ، بالمناسبة كلام النبي صلى الله عليه وسلم ليس من خبرته ولا من معطيات عصره ، إن كلام النبي صلى الله عليه وسلم وحي يوحى ، النبي نهى أن يقطع رأس الدابة أثناء ذبحها بل تقطع أوداجها فقط .

الأستاذ راضي :

العلة ؟

الحكمة من ذبح الدابة من أوداجها :

الدكتور راتب :

شرح دقيق جداً ، اكتشف علماء الطب أن القلب ينبض ثمانين نبضة بأمر ذاتي ، لأنه جهاز خطير جداً تتوقف عليه الحياة ، يتلقى أمراً بالنبض من ذاته ، ليس له علاقة بالشبكة الكهربائية العامة ، عنده مولد كهربائي خاص ، هناك مركز ثاني لو تعطل الأول لعمل الثاني ، هناك مركز ثالث لو تعطل الثاني لعمل الثالث ، والآن هذا المركز قد يتعطل في بطارية للإنسان ، أحياناً الإنسان يصعد درج ، يهرب من عدو ، يحتاج إلى مئة وثمانين ضربة ، كيف يرتفع النبض ؟ هنا المشكلة .

سوف أوضحها بمثل ، تمشي في بستان ، رأيت ثعباناً ، ما الذي يحصل ؟ الذي يحصل أن صورة الثعبان تنطبع على شبكية العين ، الصورة بالشبكية لا تقرأ ، لا يوجد ملفات للثعبان حتى تقرأ من خلالها ، تنتقل الصورة إلى الدماغ ، إلى مركز الرؤية ، في مركز الرؤية تقرأ الصورة في ضوء ملفات الثعبان ، من أين جاءت هذه الملفات ؟ من الدراسة ، من قصص سمعتها ، من مشاهدات شاهدتها ، مجموع المشاهدات والمعلومات والخواطر تمثلت بملف الثعبان ، هذا الملف يقرأ الصورة ، والدماغ يدرك الخطر ، الدماغ ملك الجهاز العصبي ، يلتمس من ملكة عنده اسمها الغدة النخامية ، ملكة الجهاز الهرموني ، يلتمس الدماغ وهو ملك الجهاز العصبي من الغدة النخامية وهي ملكة الجهاز الهرموني أن تواجه هذه الملكة الخطر ، هذه الملكة عندها وزير داخلية اسمه الكظر يقبع فوق الكليتين، تأمره أن يواجه الخطر ، الكظر يرسل أمراً إلى القلب يرتفع النبض إلى مئة و ثمانين نبضة ، ورسالة ثانية إلى الرئتين يرتفع وجيبهما ، ويصدر أمراً ثالثاً إلى الأوعية الدموية المحيطة بالجلد تضيق لمعتها، ليتوافر الدم إلى العضلات ، رسالة رابعة إلى الكبد يطلق كمية سكر إضافية ، فلو فحصنا دم الخائف لكان السكر ثلاثمئة مليمتر ، وأمر خامس إلى الكبد يفرز هرمون التجلط ، فالإنسان إذا خاف بلمح البصر ، الخائف يزداد نبض قلبه ، ووجيبه رئتيه ، ويصفر لونه ، ويزداد السكر في دمه ، ويصبح دمه لزجاً ، هذا موقف الإنسان حينما يواجه الخطر .

الدابة لو قطعنا رأسها لانقطع الأمر الاستثنائي في نبض القلب ، بقي الأمر النظامي ثمانين نبضة ، ثمانين نبضة تُخرج ربع الدم فقط ، أما إذا بقي الرأس موصولاً يعمل الأمر الاستثنائي فيخرج كل دمها، لأن القلب صار نبضه مئة وثمانين نبضة ، هذه الحقيقة العلمية الدقيقة كشفت قبل عشرين سنة

تقريباً ، والنبي وجهنا إليها قبل ألف وأربعمئة سنة ، هذا يؤكد أن كلام النبي صلى الله عليه وسلم فيه دلائل نبوته ، نحن نقول في القرآن الكريم إعجاز علمي وفي السنة دلائل نبوة النبي صلى الله عليه وسلم .

هناك آيات واضحة جداً في نصوص الكتاب والسنة .

الأستاذ راضي :

بارك الله فيكم ، دكتور بعد هذا العطاء الطيب ننتقل إلى الأنفس :

(وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4)حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (5))

(سورة القمر)

نأتي إلى قول الله تعالى :

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21))

(سورة الذاريات)

موضوع هذه الآية يدعونا إلى النظر في أنفسنا لنرى ونلمس آيات الله على عباده، ما الآيات ؟ نود أن نذكر السادة المشاهدين بهذه الآيات في النفس .

آيات وردت في القرآن الكريم في النفس:

الدكتور راتب :

أستاذ راضي جزاكم الله خيراً ، الله عز وجل يقول :

(الرَّحْمَنُ (1)عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2)خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)



الله عز وجل يقول :

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21))

(سورة الذاريات)

الله عز وجل يقول :

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4))

(سورة التين)

بعض الأمثلة ؛ الإنسان إذا سافر إلى بلاد الشمال ، إلى فلندة مثلاً ، الحرارة تسعة وستين تحت الصفر ، طبعاً يضع قبعة على رأسه ، وقفازات في يده ، ويرتدي ثياباً صوفية ، العين هل بإمكانه أن يغطيها ؟ العين فيها ماء ، والماء

يلامس جو حرارته سبعين تحت الصفر ، أي إنسان يسكن في هذه البلاد يجب أن يفقد بصره ، ما الحل؟ أودع الله في ماء العين مادة مضادة للتجمد ، يد من ؟ قدرة من ؟ حكمة من ؟ أهذا الإله يعصى **!** أودع في ماء العين مادة مضادة للتجمد .

الإنسان ينطوي على معجزات مذهلة :

أعلى آلة تصوير احترافية رقمية في كل ميليمتر مربع عشرة آلاف مستقبل ضوئي ، لكن في العين في الميليمتر المربع من الشبكية مئة مليون مستقبل ضوئي ، من أجل أن نفرق بين ثمانية ملايين لون ، ولو درج اللون إلى ثمانمئة ألف درجة لأدركت العين البشرية الفرق بين درجتين :

(أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ)

(سورة البلد)

هذه من آيات الله الدالة على عظمته . والله أستاذ راضي لو فكر الإنسان بجسمه لخشع قلبه ، الإنسان ينطوي على معجزات مذهلة ، العين معجزة :

(أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ)

(سورة البلد)



ترى الصورة بحجمها الحقيقي وبألوانها الدقيقة ، العين البشرية تفرق بين ثمانية ملايين لون ، وفيها مادة مضادة للتجمد ، في الميليمتر المربع من الشبكية مئة مليون مستقبل ضوئي ، بينما أعلى آلة تصوير احترافية رقمية في كل ميليمتر مربع عشرة آلاف مستقبل ضوئي ، فالعين من آيات الله الدالة على عظمته .

الإنسان أحياناً يأكل طعام ، يقول : يوجد في الطعام المادة الفلانية ، في منكهات أحياناً ، في مواد حريفة ، يقول لك : في كمون ، في نعنع في

الشاي، فما الذي يحصل ؟ العصب الشمي مؤلف من عشرين مليون عصب ، كل عصب ينتهي بسبعة أهداب ، كل هدب مغمس بمادة ، تتفاعل هذه الأهداب مع الرائحة ، ينتج من هذا التفاعل شكل هندسي هو رمز هذه الرائحة ، هذا الشكل ينتقل إلى الدماغ إلى مركز الشم وهناك الذاكرة الشمية ، يعرض هذا الرمز على الذاكرة الشمية ، فإذا توافق الشكلان تكتشف أن في الطعام نعناع ، تقول : يوجد في الأكل كمون ، المادة الفلانية ، هذه الدقة :

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)

(سورة التين)

الإنسان يتبدل كل خمس سنوات إلا الدماغ والقلب لا يتبدلان لحكمة بالغة :

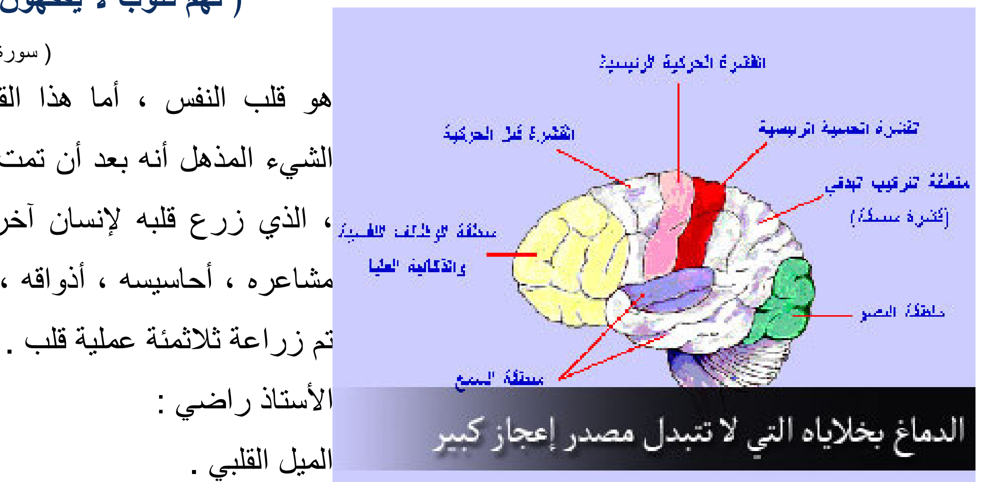
الحقيقة في أشياء في الجسم عجيبة جداً ، هذا القلب يضخُّ في اليوم الواحد ثمانية أمتار مكعَّبة ، بل إن قلب إنسان عاش ستين عاماً يملأ أكبر ناطحة سحاب في العالم ، تعمل بلا كلل وبلا ملل ، والله الذي لا إله إلا هو لو نظر الإنسان إلى جسمه ، هذا الشعر ، لكل شعرة وريد ، وشريان ، وعصب ، وعضلة ، وغدة دهنية ، وغدة صبغية ، لكن لا يوجد عصب حسي ، لو كان هناك عصب حسي لاضطر الإنسان إلى دخول المستشفى لإجراء عملية حلاقة . أما سبحان الله الأظافر والشعر ما فيها أعصاب حسية ، موضوع توزع الأعصاب الحسية شيء مذهل ، القلب يضخُّ في اليوم الواحد ثمانية أمتار مكعَّبة ، يملأ أكبر ناطحة سحاب في العالم ، العظام ، الحركة ، بل الآن في كشف جديد أن الإنسان يتبدل كل خمس سنوات ، تبدل كلي كل خمس سنوات ، أقصر خلية عمرها ثلاث ساعات خلايا الجلد ، وفي خلية عمرها يومين خلايا الأمعاء ، والعظم أطول خلية عمرها خمس سنوات ، فالإنسان يتبدل كلياً كل خمس سنوات ، شيء عجيب ، أنت قبل خمس سنوات جسم آخر بكل معاني هذه الكلمة .

إلا أن الدماغ والقلب لا يتبدلان لحكمة بالغة بَالغة ، لو تبدل الدماغ لنسي الإنسان اختصاصه ، يقول لك: كنت طبيباً ، لنسي خبراته ، قدراته ، معارفه ، ذاكرته ، لكن الدماغ لا يتبدل فهذا شيء ثابت

قديماً، لكن مع الدماغ الذي لا يتبدل هو القلب ، شيء محير ، أنا منذ ثلاثين سنة أقول القلب الذي ذكره الله في القرآن الكريم :

(لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا)

(سورة الحج الآية : 179)



هو قلب النفس ، أما هذا القلب مضخة ، الشيء المذهل أنه بعد أن تمت زراعة القلب ، الذي زرع قلبه لإنسان آخر ينتقل للآخر مشاعره ، أحاسيسه ، أذواقه ، في قصص تم زراعة ثلاثمئة عملية قلب .

الأستاذ راضي :

الميل القلبي .

القلب مركز الإيمان:

الدكتور راتب :

حتى الإيمان ، حتى الكفر ، حتى المعارف ، حتى الأذواق ، حتى الأحاسيس ، حتى المشاعر ، شيء مذهل بحث طويل إن شاء الله في لقاء آخر أشرحه ، تبين أن العقل بالقلب هذا الصنوبري :

(لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا)

(سورة الحج الآية : 179)

القلب الآن فيه خمسين ألف خلية عصبية تأمر الدماغ ، الدماغ يأتمر بالقلب ، الآن طبعاً هذا الموضوع معالج معالجة مستفيضة في أبحاث علمية دقيقة ، أنا عرضته بشكل مفصل ، الآن العلم اقترب من أن يرى أن القلب فيه خلايا عصبية قدرتها خمسة آلاف ضعف عن خلايا الدماغ ، وهي توجه خلايا الدماغ، الآن يوجد في القرآن مئة وأربعة وخمسين آية عن القلب ، كل هذه الآيات نفهمها فهماً آخر بعد هذا الكشف :

(لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا)

(سورة الحج الآية : 179)

القلب مكان العقل ، ومكان الفهم ، ومكان الإدراك ، ومكان الذوق ، ومكان الإيمان ، ومكان الكفر ، بل إن هناك أبحاث تؤكد أن الإنسان إذا زرع له قلب صناعي ينسى كل معارفه ، ينسى أولاده ، ينسى أحفاده ، ينسى إيمانه ، فلذلك القلب مركز الإيمان ، بالقلب يؤمن ، وبالقلب يكفر ، وبالقلب يحس ،

بالقلب يتذوق الأحاسيس والمشاعر والأذواق مع خلايا عصبية توجه بكم أستاذ راضي جزاكم الله خيراً، أنا لا أثني على الدين أبداً إذا وافق العلم ، أنا أثني على العلم إذا وافق الدين .

الأستاذ راضي :

الموضوع ذا سعة ونحن في شوق عارم لنستزيد من العلم . كان سابقاً يفهم أن القلب مجرد مضخة ليس إلا ، الآن اكتشف أنه مركز الإدراك والعلم والإيمان والفهم وهذا يتوافق مع قوله تعالى :

(لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا)

(سورة الحج الآية : 179)

نسمع أيضاً في الفترة الماضية عن ما يسمى بالغشاء العاقل ، فماذا عن هذا الغشاء وأين موضعه من القلب ؟

الغشاء العاقل يقوم بأعمال تعجز عنها العقلاء :

الدكتور راتب :

أستاذ راضي جزاكم الله خيراً ، المرأة الحامل عقب الولادة ينزل مع الجنين قرص لحمي ، اسمه المشيمة ، في هذه المشيمة يوجد غشاء عاقل ، سماه الأطباء غشاءً عاقلاً لأنه يقوم بأعمال يعجز عنها العقلاء . المشيمة تجتمع فيها دورة دم الأم مع دورة دم الجنين ، ودم الجنين زمرة ، ودم الأم زمرة ، ولا يختلطان ، ومن بديهيات الطب أن الإنسان إذا أعطي دماً من زمرة غير زمرته لمات فوراً بانحلال الدم ، الشيء العجيب أن دم الأم والجنين يجتمعان وبينهما الغشاء العاقل لا يختلطان ، يقوم هذا الغشاء بأعمال يعجز عنها العقلاء ، هي يد الله عز وجل ، ماذا يفعل هذا الغشاء ؟ يأخذ من دم الأم الأوكسجين يضعه في دم الجنين ، يأخذ من دم الأم السكر يضعه في دم الجنين ، يأخذ من دم الأم الأنسولين يضعه في دم الجنين، صار في دم الجنين سكر ، أوكسجين ، أنسولين ، يحترق السكر بالأوكسجين عن طريق الأنسولين فيولد طاقة ، الطفل حرارته في بطن أمه سبعة وثلاثين ، من أين جاءت هذه الحرارة ؟ من العملية المعقدة . الغشاء العاقل يأخذ عوامل المناعة من الأم يضعها في دم الجنين ، فجميع الأمراض التي أصيبت بها الأم الجنين محصن أن يصاب بها .



الغشاء العاقل يعلم بالضبط ما يحتاجه من المواد ، البروتين ، والمواد الدسمة ، والسكريات ، والنشويات ، والمعادن ، وأشباه المعادن ، بالآلاف ، هذا الغشاء العاقل ينفذ حاجة الجنين من الغذاء ، قبل قليل قلت : لما أخذ الغشاء العاقل الأوكسجين والسكر والأنسولين وضعها في دم الجنين صار في احتراق ، نواتج الاحتراق ثاني أكسيد الكربون غاز الفحم ، يأخذه الغشاء العاقل من دم الجنين يضعه في دم الأم ، نفس الأم جزء منه نفس جنينها .

الآن لما انتقل إلى دم الجنين كل المواد الغذائية وتم الاستقلاب في ناتج آخر هو حمض البول ، يأتي الغشاء العاقل يأخذ حمض البول من دم الجنين يضعه في دم الأم فيخرج مع بولها ، يقوم هذا الغشاء بشيء معجز ، أحياناً الجنين تنقصه مادة معينة فكيف يخبر أمه ؟ ما تشتهيه الأم في أثناء الحمل متعلقة بحاجة الجنين ، لو في نقص بوتاس ، الأم تشتهي طعام فيه بوتاس ، شهوة الأم للطعام أثناء الحمل تعبير عن حاجة الجنين لهذه المادة ، فهذا الغشاء العاقل سماه العلماء الغشاء العاقل لأنه يقوم بأعمال تعجز عنها العقلاء وهي الحقيقة الدقيقة ، إنها يد الله تعمل في الخفاء :

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4))

(سورة التين)

عناية الله عز وجل بالإنسان :



قال : لو تركت وظائف الغشاء العاقل إلى مجموعة أطباء في قمة التفوق لمات الجنين في ساعة واحدة . هي عناية الله عز وجل ، هذا الغشاء العاقل يقع في المشيمة ، والمشيمة قرص لحمي تجتمع فيه دورة الأم مع دورة الجنين ، ولا يختلطان ، ويقوم بهذه الوظائف ، يقوم بوظائف الجهاز الهضمي ، جهاز تنفسي ، والبنكرياس ، كل الوظائف يقوم بها هذا الغشاء العاقل ، يعني في الجنين لا يوجد دورة دم صغرى لأنه لا يوجد هواء ، فالرئتان معطلتان في الجنين ، الله عز وجل يفتح ثقب بين الأذينين كشفه عالم فرنسي اسمه بوتال ، هذا الثقب ينقل الدم من أذين إلى أذين ، عند الولادة تأتي جلطة تغلق هذا الثقب ، فإن لم تغلق يصاب الطفل بمرض اسمه الزرق يموت بعد سنوات،

الأذينان فتح ثقب بينهما ، والطفل في رحم الأم الدم ينتقل ، وانتقل الدم من القلب إلى الرئتين ، يد من تتدخل لإغلاق هذا الثقب عند الولادة ؟ يد الله عز وجل .

وأنت نائم يتجمع اللعاب في فمك ، تذهب رسالة من الفم إلى الدماغ كثر اللعاب ، يأتي أمر من الدماغ إلى لسان المزمار يغلق ، تغلق القصبة الهوائية يفتح المري ، تدفع بلعابك إلى المعدة وأنت مستغرق في النوم ، شيء لا يصدق ، الآن في آلية معقدة جداً جِداً يملكها الطفل حينما يولد آلية المص ، منعكس المص هذا الشيء يضع شفتيه على حلمة ثدي أمه ويحكم الإغلاق ويسحب الحليب .

الأستاذ راضي :

كيف لعلمائنا استخدام الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في مخاطبة الغرب ، ولم يتبقَ لنا إلا دقائق معدودة؟

البعوضة أحقر مخلوق في حياة الإنسان وهي من آيات الله الدالة على عظمته :

الدكتور راتب :

سيدي هل تصدق أن الله عز وجل ذكر البعوضة وهي أحقر مخلوق في حياة الإنسان ، النبي صلى الله عليه وسلم أكد هذا المعنى قال :

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[رواه الترمذي عن سهل بن سعد]



هذه البعوضة وردة في القرآن الكريم :

(إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

(سورة البقرة الآية : 26)

الآن بعد أن اكتشف المجهر الإلكتروني الذي يكبّر الشيء مئات ألوف المرات تبين بعد وضعها تحت المجهر أن في رأسها مئة عين ، وفي فمها ثمانية وأربعون سناً ، ولها ثلاثة قلوب ، قلب مركزي وقلب لكل جناح ، وتملك البعوضة جهاز لا تملكه الطائرات جهاز استقبال حراري ، ترى الأشياء بحرارتها فقط ، وحساسية هذا الجهاز واحد على ألف من الدرجة المئوية ، مع البعوضة جهاز تحليل دم ما كل دم يناسبها ، معها جهاز تمييع ، جهاز تخدير ، وفي خرطومها ست

سكاكين ، أربع سكاكين لإحداث جرح مربع وسكينان تلتئمان على شكل أنبوب ، وللبعوضة محاجم إذا وقفت على سطح أملس ومخالب إذا وقفت على سطح خشن ، الآن نقرأ الآية :

(إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

(سورة البقرة الآية : 26)

هذا هو الإعجاز العلمي ورد في البعوضة في القرآن الكريم ، فلما اكتشف الإنسان المجهر الإلكتروني الذي يكبر أربعمئة ألف مرة ، أصبح للبعوضة في رأسها مئة عين وفي فمها ثمانية وأربعون سناً ، ولها ثلاثة قلوب ، قلب مركزي ، وجهاز استقبال حراري ، وجهاز تمييع ، وجهاز تخدير ، وجهاز تحليل للدم شيء مذهل .

والحمد لله رب العالمين

ندوات تلفزيونية - قناة اقرأ - الرد الجميل - الدرس (4-4) : مقومات التكليف
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-01-2000

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الأستاذ راضي :
أستاذنا بداية نود أن نتعرف عن الكون كيف يكون الكون أحد مقومات التكليف التي كلفنا بها الخالق تبارك وتعالى؟

وصول الدعوة الإسلامي إلى كل بقاع الأرض بفضل القنوات الإسلامية :

الدكتور راتب :
بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد، وعلى آله وأصحابه الطيّبين الطاهرين، أمناء دعوته، وقادة ألويَتِه، وارضَ عنّا وعنهم يا ربّ العالمين، اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم، إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وُحول الشهوات إلى جنّات القربات.



أستاذ راضي قبل أن أجيب على سؤالك الكريم أود أن أقول: إنه ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم: "يبلغ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار"، وكأن النبي يريد أن يبلغنا أن هذه الدعوة الإسلامية سوف تصل إلى كل بقاع الأرض، يبلغ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار وأسأل الله عز وجل أن تكون القنوات الإسلامية بعامة، وقناة اقرأ بخاصة، أحد هذه الوسائل التي تنقل هذه الدعوة الإسلامية إلى كل أرجاء الأرض، وقد علمت أن هذه القناة وصل بثها إلى القارات الخمسة، لذلك لا يسعني إلا أن أهنئها على هذا الإنجاز أو القفزة النوعية، في اتساع رقعة البث، وهذا مما يؤكد قول النبي عليه الصلاة والسلام:" يبلغ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار".

الإنسان هو المخلوق الأول رتبة لأنه قبل حمل الأمانة :



شيء آخر وسامحني قبل أن أجيب عن سؤالك الكريم لا بد من أن أقول: إن الإنسان هو المخلوق الأول رتبة، يقول سيدنا علي رضي الله عنه: رُكّب الملك من عقل بلا شهوة، وركّب الحيوان من شهوة بلا عقل، وركّب الإنسان من كليهما، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان".

يؤكد هذا القرآن الكريم:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا)

[سورة الكهف الآية : 107]

الآية الثانية تؤكد أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)

[سورة البينة الآية : 7]



إطلاقاً:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)

[سورة البينة الآية : 7]

الإنسان هو المخلوق الأول رتبة لأنه قبل حمل الأمانة:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ)

[سورة الأحزاب الآية : 72]

هو المخلوق الأول رتبة وقد يصل مقامه إلى ما فوق الملائكة إذا عرف الله، لكن الحالة الثانية صعبة:

(ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)

[سورة التين الآية : 5]

فإذا ضيع الأمانة، ولم يتعرف إلى ربه، وانغمس في شهواته، كان أسوأ مخلوق على وجه الأرض، هذه واحدة.

الإنسان هو المخلوق المكرم والمكلف :



أما الثانية؛ الإنسان هو المخلوق المكرم، لقوله تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء الآية : 70]

والإنسان هو المخلوق المكلف، كلفه الله عبادته، قال تعالى :

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات]

الله عز وجل أراد أن تكون علاقة عباده به علاقة حبّ لا إكراه :



من أدق تعريفات العبادة أنها طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية. هي طاعة، الأقوياء يطاعون قسراً، لكن الله عز وجل ما أراد أن تكون علاقته بخلقه علاقة إكراه :

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)

[سورة البقرة الآية : 256]

أراد أن تكون علاقة عباده به علاقة حب:

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

[سورة المائدة الآية : 54]

(وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ)

[سورة البقرة الآية : 165]



هي طاعة طوعية، لكن ممزوجة بمحبة قلبية، العلماء قالوا: ما عبد الله من أحبه ولم يطعه، وما عبد الله من أطاعه ولم يحبه، إذاً طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية.

أصل الدين معرفة الله :



هناك جانب أصل في هذا التعريف هو السلوك، فما لم نلتزم، ما لم نستقم، لن نقطف من ثمار الدين شيئاً، إن لم نستقم على أمر الله أصبح الدين ثقافة، أصبح خلفية، أرضية، نزعة، اهتماماً، أما الدين حتى نقطف ثماره كلها ينبغي أن نستقيم على أمر الله، فالأصل في هذا التعريف الالتزام، يسبق هذا الالتزام أن نعرف الله، يقول سيدنا علي:" أصل الدين معرفة الله"، نتائج هذا الالتزام السعادة الأبدية.

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لما وليت عنا لغيرنا

ولو سمعت أذناك حسن خطابنا خلعت عنك ثياب العجب وجئتنا

ولو ذقت من طعم المحبة ذرة عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنا

* * *

ولو نسمت من قربنا لك نسمة لـمت غريباً واشتياقاً لقربنـا

ولو لاح مـن أنوارنا لك لائح تـركت جميع الكائنات لأجلنـا

* * *

فما حبنا سهل و كل من ادعى سهولته قلنا له قد جهلتنــا

فأيسر ما في الحب للصب قتله وأصعب من قتل الفتى يوم هجرنا

***

من استقام على أمر الله ضمن استقامته و سعادته :

إذاً الإنسان المخلوق الأول لأنه قبل حمل الأمانة، فكرمه الله:

(وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ)

[سورة الجاثية الآية : 13]

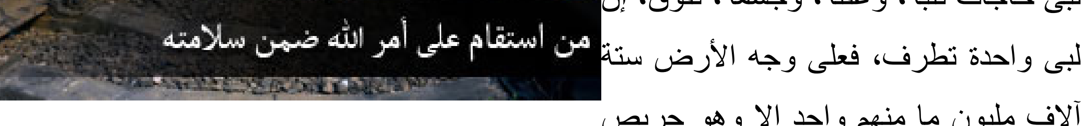
(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء]

والإنسان هو المخلوق المكلف:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56))

[سورة الذاريات]



العبادة طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية.

أستاذ راضي، الإنسان عقل يدرك، وقلب يحب، وجسم يتحرك، غذاء العقل العلم، وغذاء الجسم الطعام والشراب، الإنسان إذا لبى حاجات قلبه، وعقله، وجسمه، تفوق، إن لبى واحدة تطرف، فعلى وجه الأرض ستة آلاف مليون ما منهم واحد إلا وهو حريص على سلامة وجوده، وكمال وجوده، واستمرار وجوده، سلامة وجوده بتطبيق تعليمات الصانع، لأنه

أعقد آلة في الكون تعقيد إعجاز لا تعقيد عجز، وصانعه رب العالمين، ولهذا الصانع العظيم تعليمات التشغيل والصيانة، هي القرآن الكريم والسنة، فإذا طبق هذا الإنسان تعليمات خالقه سلم من كل عطب، اختار امرأة صالحة كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: "تسره إذا نظر إليها، تحفظه إذا غاب عنها، تطيعه إن أمرها". اختار دخلاً حلالاً، ربى أولاده تربية صحيحة، فحينما يستقيم على أمر الله يضمن سلامته.

العباد على اختلاف مللهم و نحلهم زمرتان لا ثالث لهما :

بالمناسبة الستة آلاف مليون على اختلاف مللهم، ونحلهم، وانتماءاتهم، وأعراقهم، وأنسابهم، وطوائفهم، يحرصون على سلامتهم وسعادتهم، هذه حقيقة دقيقة جداً، الله عز وجل يقول:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

[سورة الليل]



كل إنسان في رأسه هدف يسعى إليه، ولكن الله عز وجل أنزل كل هذه الحركات في حقلين فقط، البشر يقسمون في قيمهم التي ابتدعوها هم إلى آلاف التقسيمات، دول الشمال، دول الجنوب، العرق الآري، الأنجلو سكسوني، السامي، المستغِلون، المستغَلون، إلى آخره لكن الله قسم عباده في حقلين فقط قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل الآيات : 5-6]

صدَّق أنه مخلوق للجنة، بعد هذا التصديق اتقى أن يعصي الله، وبنى حياته على العطاء، والثاني :

(فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل]

كذب بالحسنى، كذب أنه مخلوق للجنة، آمن بالدنيا، مع هذا الإيمان استغنى عن طاعة الله، بنى حياته على الأخذ، لذلك يمكن أنن ترى أنه على رأس الهرم البشري زمرتان هم الأقوياء والأنبياء، الأقوياء أخذوا ولم يعطوا، الأنبياء أعطوا ولم يأخذوا، الأقوياء ملكوا الرقاب، والأنبياء ملكوا القلوب، الأقوياء

يمدحون في حضرتهم، والأنبياء يمدحون في غيبتهم، الأقوياء عاش الناس لهم، الأنبياء عاشوا للناس، كل البشر تبع لقوي أو نبي، بطولة الأقوياء أن يتخلقوا بأخلاق الأنبياء.

الإنسان عقل يدرك وقلب يحب وجسم يتحرك :

إذاً الإنسان هو عقل يدرك، وقلب يحب، وجسم يتحرك، والإنسان جُبل على حبّ سلامة وجوده، سلامة وجوده في تطبيق تعليمات خالقه، أي الإنسان إذا انطلق ـ سامحني بهذه الكلمة ـ من أنانية مفرطة ينبغي أن يطيع الله، لو انطلق من أنانيته، من حبه لذاته، هو آلة معقدة جداً سلامتها بتطبيق تعليمات الصانع، الآن وقد جبل الإنسان على حبّ كمال وجوده، كمال وجوده بالتقرب من ربه، الله عز وجل صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى كل من اتصل به جاءته هذه النفحات، قال الله عز وجل:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

[سورة العنكبوت الآية : 45]

قال علماء التفسير: "ذكر الله أكبر ما فيها"، لقوله تعالى :

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه الآية :14]

لكن الإمام ابن عباس الصحابي الجليل قال: "ذكر الله لك أيها المصلي وأنت في الصلاة أكبر من ذكرك له"، بمعنى أن الله إذا ذكرك منحك الحكمة، ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، أنت بالحكمة تسعد بزوجة من الدرجة الخامسة، ومن دون حكمة تشقى بزوجة من الدرجة الأولى، أنت بالحكمة تتدبر أمرك بالمال القليل، ومن دون حكمة تبدد المال الكثير، أنت بالحكمة تجعل العدو صديقاً، ومن دون حكمة تجعل الصديق عدواً.

أكبر عطاء إلهي للمصلي الحكمة والأمن والنصر والتأييد :

لذلك يكاد يكون أكبر عطاء إلهي للمصلي أنه منحه الحكمة، ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، لأن الله يذكر هذا المصلي، ذكر الله للمصلي أكبر من ذكر المصلي له، المصلي إذا ذكر الله أدى واجب العبودية، لكن الله إذا ذكرك منحك الحكمة، منحك الأمن:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام الآيات :81-82]

إذا ذكرك الله في الصلاة يمنحك التوفيق في أعمالك، والآية الوحيدة:

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ)

[سورة هود الآية : 88]

لا يحقق شيء في الأرض إلا بتوفيق الله، منحك الرضا ترضى عن نفسك، ترضى عن من حولك، حال الرضا حال رائع جداً، الرضا، والتوفيق، والنصر، والتأييد، والحكمة، والأمن، هذه كلها تأتي من أن الله ذكرك في الصلاة.

إذاً الإنسان مجبول على حبّ وجوده، وعلى حبّ سلامة وجوده، وعلى حبّ كمال وجوده، وعلى حبّ استمرار وجوده، الإنسان لو بلغ أعلى منصب في الأرض، وجمع أكبر ثروة في الأرض، واعتلى إلى أعلى مقام في الأرض، ولم يكن ابنه كما يتمنى فهو أشقى الناس، المؤمن يستمر وجوده بتربية أولاده، لذلك أنا أقول كلمة دقيقة: أولادنا اليوم هم الورقة الرابحة الوحيدة في أيدينا، أولادنا هم المستقبل. إذاً: الإنسان عقل يدرك، وقلب يحب، وجسم يتحرك، وقد جُبل على سلامة وجوده، وكمال وجوده، واستمرار وجوده، هذه المقدمة لموضوع مقومات التكليف، سألتني عن الكون.

الأستاذ راضي :

لو أذنت لي نعود إلى الكون هذه، بعد هذه المقدمة الجميلة حول العبادة ومقوماتها، أسأل فضيلتك ما دخل الكون؟ كيف يكون الكون أحد مقومات التكليف؟

مقومات التكليف :

1 - الكون :

الدكتور راتب :

الكون قرآن صامت، والقرآن كون ناطق، والنبي قرآن يمشي، الكون قرآن صامت لأن أسماء الله الحسنى تجدها في الكون، في الكون حكمة، رحمة، إبداع، جمال، غنى، قوة، الكون مظهر لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، الكون تجسيد لأسماء الله الحسنى، لذلك الله عز وجل قال:



(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق الآية : 12]

والملمح الدقيق في هذه الآية أن الله ذكر من أسمائه اسمين القدرة والعلم، أنت حينما توقن أن الله يعلم، وسيحاسب، وسيعاقب، لا يمكن أن تعصيه، مثل من واقع الحياة، أنت مواطن تركب مركبة في النهار؛ الإشارة حمراء والشرطي واقف، و هناك شرطي على دراجة نارية، وهناك ضابط مرور في السيارة، وأنت مواطن عادي، هل يعقل أن تمشي؟ مستحيل، لأن علم واضع القانون يطولك من خلال هذا الشرطي، وقدرته تطولك، أنت في قبضته لا يمكن أن تعصيه، هذا الكون مظهر لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى.

دوران الأرض حول الشمس في مدار إهليلجي من آيات الله :

مثلاً أستاذ راضي، الأرض تدور حول الشمس في مسار إهليلجي ـ أي بيضوي ـ وهذا الشكل له قطر أصغر وقطر أطول، الآن الأرض تتحرك من القطر الطويل إلى القطر الأصغر، حينما تقل المسافة بينها وبين الشمس بحسب قانون الجاذبية تزداد الجاذبية، الذي يحكم الجاذبية الكتلة والمسافة، فإذا قلت المسافة ازدادت الجاذبية، هناك احتمال أن تنجذب الأرض إلى الشمس، فإذا جُذبت إليها تبخرت في ثانية واحدة، والأرض مادة صلبة غير عاقلة، الله عز وجل يرفع سرعة الأرض، فتنشأ قوة نابذة تكافئ القوة الجاذبة، فتبقى في مسارها:



(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

[سورة فاطر الآية : 41]

أن تخرج عن مسارها، قدرة قدير، علم عليم، حكمة حكيم، تجعل الأرض ثابتة على مسارها:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

[سورة فاطر الآية : 41]

هنا الانحراف، فإذا وصلت إلى القطر الأطول، الآن هناك حالة أخرى، المسافة زادت بين الأرض والشمس، وبحسب قانون التجاذب مع ازدياد المسافة تضعف الجاذبية، فلئلا تتفلت من جاذبية الشمس، وتنتهي الحياة كلياً، لأن الحرارة تصبح مئتين وسبعين تحت الصفر، تنخفض سرعتها.

دوران الأرض آية من آيات الله الدالة على عظمته :

إذاً: الحياة تنتهي مرتين مرة إذا انجذبت إلى الشمس، ومرة إذا بعدت عنها، من الذي أمرها أن ترفع سرعتها حينما تقترب من القطر الأصغر؟ ومن الذي أمرها أن تقلل سرعتها إذا اقتربت من القطر الأطول؟ إنه الله فلذلك :

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

[سورة فاطر الآية : 41]

قال بعض العلماء: لو أنها تفلتت، وأردنا أن نعيدها إلى الشمس، لاحتجنا إلى مليون مليون حبل فولاذي من الفولاذ المضفور، وهذا أمتن عنصر في الأرض، الحبل قطره خمسة أمتار، والحبل الذي قطره خمسة أمتار يحمل مليوني طن، أي الأرض مرتبطة بالشمس بقوة جذب تساوي مليون مليون ضرب مليوني طن، من أجل أن تحرفها ثلاثة ميلي كل ثانية، حتى ينشأ مسار مغلق تسير عليه الأرض في دورتها حول الشمس، لولا هذه الجاذبية لكان المسار مستقيماً فالأرض تخرج من جاذبية الشمس، يد من؟ رحمة من؟ قدرة من؟ لذلك قال تعالى :



(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة يونس الآية : 101]

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

[سورة آل عمران الآيات : 190-191]

أي الأرض ترفع سرعتها حينما تقترب من القطر الأصغر، و تخفض سرعتها إذا اقتربت من القطر الأطول، يد من؟ حكمة من ؟ إنها قدرة الله عز وجل، الكون قرآن صامت، والقرآن كون ناطق، والنبي قرآن يمشي، والعالم الإسلامي اليوم بحاجة إلى مسلم يمشي، مسلم يرى الناس صدقه، وأمانته، وعفته، المبادئ الأخلاقية لا تعيش بالكتب، تعيش بالمثل الحية، لذلك نبي واحد غيّر مجرى الحياة في ربع قرن، وآلاف الدعاة إن لم يطبقوا ما يقولون لا يؤثرون، حال واحد في ألف أبلغ من قول ألف في واحد.

الأستاذ راضي :

دكتور نأتي إلى نقطة أخرى العقل، ما دخل العقل في العبادة والتكليف؟

2 ـ العقل :

الدكتور راتب :

الحقيقة العقل جهاز أودعه الله فينا، يمكن للإنسان أن يعرف الله عن طريق الكون، لأن الكون مظهر لأسماء الله الحسنى، فإذا أعملنا عقولنا في خلق السماوات والأرض عرفنا قدرة الله، وعرفنا حكمته، وعرفنا رحمته، هذا الصوص وهو في البيضة ينمو له نتوء مؤنف على منقاره، يكسر بهذا النتوء قشرة البيضة، فإذا خرج هذا النتوء ضمر وعاد إلى ما كان عليه، يد من؟ منقار الصوص وهو في البيضة كيف يخرج؟

الأرض ممتلئة بالآيات الدالة على عظمة الله:

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

[سورة الذاريات الآية : 20]


من مبادئ العقل عدم التناقض

العقل بمبدأ السببية، والغائية، وعدم التناقض يكشف عظمة الله عز وجل، لذلك في حلقة سابقة ذكرت أنا وإياك أن الآيات التي تتحدث عن العقل، وتوابعه، وفروعه، تقترب من ألف آية، فالعقل مهمته أن تتعرف على الله، لأن الله عز وجل لا تدركه الأبصار، ولكن العقول تصل إليه ولا تحيط به، العقول تصل إلى الله من خلال خلقه، المسير نعرفه من التسيير، والحكيم نعرفه

من الحكمة، والقوي نعرفه من قوته، كل أسماء الله الحسنى نراها في الكون، إذاً الكون مظهر لأسماء الله الحسنى، والعقل بمبدأ السببية والغائية وعدم التناقض، يتعرف على الله عز وجل، لذلك قال تعالى:

(أَفَلا تَعْقِلُونَ)

[سورة يونس]

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ*وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ*وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ*وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ*فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ*لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ)

[سورة الغاشية الآيات : 17-22]

فالعقل أداة معرفة الله.

العقل أداة معرفة الله :



لكن هذا العقل شيء ثمين في هذا العصر استخدمه الإنسان لرفاهيته فقط، فإذا مات الإنسان ضيّع أثمن جهاز منحه الله إياه، كأن الله أعطانا هذا العقل كي نعرفه:

((ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))

[تفسير ابن كثير]

((إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي، خيري إلى العباد نازل، وشرهم إلي صاعد، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم، ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي، من أقبل عليّ منهم تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب، أهل ذكري، أهل مودتي، أهل شكري، أهل زيادتي أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها))

[رواه البيهقي والحاكم عن معاذ، والديلمي وابن عساكر عن أبي الدرداء]

للتقريب إنسان معه بجيبه اليمنى جهاز يكشف له العملة المزورة، العملة الأصلية فيها معدن، إذا وضعت هذه الورقة النقدية على هذا الجهاز كان هناك لوناً معيناً، هذا اللون يؤكد أن العملة أصلية، فإذا اختفى هذا اللون أي العملة مزورة، فإنسان معه جهاز في الجيب اليمين، وفي الجيب اليسار العملات

المزورة، وباع بيته بمبلغ فلكي، وقبض بعملة أجنبية، فإذا هي مزورة، لم يستخدم هذا الجهاز؛ أي لم يستخدم عقله، ولم يستخدم الشرع؛ أرقام العملات المزورة، فالإنسان عندما لا يُعمل عقله في الكون، ولا يهتدي بمنهج الله عز وجل، يقع في شر عمله، فالعقل أداة معرفة الله لأن مبادئه السببية والغائية وعدم التناقض، متوافقة تماماً مع قوانين الكون.

الأستاذ راضي :

ننتقل إلى الفطرة، فطرة الله التي فطر،

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)

قيمة الفطرة في حياة الإنسان؟

3 ـ الفطرة :

الدكتور راتب :

إذا كان العقل مقياساً علمياً:

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ*أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ)

[سورة الغاشية الآيات : 17-22]

إذا كان العقل مقياساً علمياً، فالفطرة مقياس نفسي، إذا كان العقل بخصائصه أحد أكبر الوسائل لمعرفة الله، فالفطرة أحد أكبر الوسائل لمعرفة خطأ الإنسان، في بعض الفنادق بألمانيا كتب على السرير: إذا لم تنم هذه الليلة فالعلة ليست في فراشنا إنها وثيرة، ولكن العلة في ذنوبك إنها كثيرة.

من اصطلح مع الله واستقام على أمره شعر بسعادة لا تقدر بثمن :

آيات الفطرة:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

[سورة الشمس]

أي النفس من دون توجيه خارجي، من دون إعلام خارجي، من دون دعوة خارجية، من دون داعية، من دون إلقاء خطبة، من دون قراءة كتاب، النفس تكشف خطأها ذاتياً وهذه نعمة كبيرة، الإثم ما حاك

في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس، الفطرة شيء رائع جداً:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)

[سورة الروم الآية : 30]

الإنسان مبرمج، أو مولف، أو مجبول، أو مفطور، كلها أسماء لمسمى واحد وفق منهج الله، فأي أمر أمرك الله به برمجك عليه، لذلك الإنسان عندما يستقيم على أمر الله يشعر بأن هموم كالجبال أزيحت عنه، هذه السعادة التي تتأتى للمؤمن بعد التوبة ما سببها؟ أنه اصطلح مع فطرته، سيارة من أرقى أنواع السيارات، وأحدث موديل مشينا فيها في طريق وعر، أصوات، وتكسير، وآلام، أما إذا مشينا فيها على طريق معبد، هي مصممة للطريق المعبد، فالإنسان إذا اصطلح مع الله واستقام على أمره، شعر بالسعادة، السعادة التي يحيا بها الإنسان لا تقدر بثمن، إن الله يعطي الصحة، والذكاء، والمال، والجمال، للكثيرين من خَلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين، أنت بالسكينة تسعد بها ولو فقدت كل شيء وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء، هؤلاء المؤمنين أكرمهم الله بالسكينة، القلب ممتلئ محبة لله، ممتلئ توازناً، ممتلئ رضا، ممتلئ شعوراً بالأمن، هذه المشاعر لا تقدر بثمن.

الفطرة مقياس نفسي و العقل مقياس علمي :

لذلك الفطرة مبرمجة، بشكل أنك لو ـ لا سمح الله ـ عصيت ربك لشعرت بالضيق، أنا أذكر أن هناك إنسان دهس طفلاً في بيروت، أهله من أقربائي، هذا الإنسان دهسه الساعة الثانية ليلاً، أرسله والده ليجلب له حاجة من البقالية في الصيف، فدهسه وتابع سيره، بقي أربعين يوماً لا ينام الليل، التقى بطبيب نفسي قال له: لا بد من أن تؤدي الدية لأهل هذا الطفل كي تنام، أنت مبرمج على أنك لا سمح الله ولا قدر إذا أخطأت تحاسب نفسك، هذه الفطرة السليمة، لكن المعاصي تلو المعاصي، والانحراف تلو الانحراف، يطمس الفطرة، أما بالأساس الإنسان يملك مقياساً نفسياً يكشف به الخطأ من الصواب، هل يستطيع بائع أن يغش البضاعة أمام الشاري؟ بفطرته يكشف حتى الحيوان، لو أن الهرة خطفت قطعة لحم تأكلها بعيداً، أما لو أطعمتها تأكل أمامك، الفطرة مقياس نفسي، هذه الفطرة مقياس نفسي العقل مقياس علمي، الله عز وجل قال :

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ*أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ)

[سورة الغاشية الآيات : 17-22]

أعطاك كوناً ينطق بكل جزئياته بوجود الله، ووحدانيته، وكماله، أعطاك عقلاً تتعرف به إلى الله من خلال قوانينه، أعطاك فطرة تكشف لك الخطأ ذاتياً.

الأستاذ راضي :

دكتور نأتي إلى الشهوة كيف تكون الشهوة دافعاً إلى الله؟

4 ـ الشهوة :

الدكتور راتب :

يتوهم الناس أن هذه الشهوات هي سبب بعدنا عن الله عز وجل، والحقيقة هي العكس، لولا الشهوات التي أودعها الله فينا لما ارتقينا إلى رب الأرض والسماوات، الشهوة كالوقود السائل في المركبة إن وضع في المستودع المحكم، وسار في الأنابيب المحكمة، وانفجر في الوقت المناسب، ولّد حركة نافعة، أقلتك إلى الإسكندرية في الصيف، فما الذي يجري في السيارة؟ انفجارات لكنها منضبطة، أما إذا صبّ هذا الوقود على المركبة، وأصابته شرارة، أحرق المركبة ومن فيها، فالشهوات حيادية يمكن أن تكون سلماً نرقى بها، أو دركات نهوي بها، الشهوة حيادية بحسب استخدامها، ولكن أنا أخاطب الشباب، ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل قناة نظيفة تسري خلالها، ليس في الإسلام حرمان، والدليل:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ)

[سورة القصص الآية : 50]

المعنى المخالف، الذي يتبع هواه وفق هدى الله لا شيء عليه، اشتهى المرأة فتزوج، اشتهى المال فعمل عملاً مشروعاً، ليس في الإسلام حرمان في الإسلام تنظيم، ما من شهوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل قناة نظيفة تسري خلالها. فالشهوات قوة دافعة أو قوة مدمرة، هي حيادية بحسب طريقة استخدامها، لو إنسان سأل هل المال نعمة أم نقمة؟ نقول: ليس نعمة وليس نقمة، موقوف على طريقة كسبه وإنفاقه، لأن الإنسان يميل ميلاً فطرياً للمال، قال تعالى :

منهج الله لم يحرم اتباع الهوى بل حدده

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ)

[سورة آل عمران الآية : 14]

فهذا المال إذا كسبته حلالاً وأنفقته حلالاً، كان نعمة من أكبر النعم، أما إذا كسبه الإنسان حراماً، وأنفقه في الحرام كان نقمة كبيرة، أنا أذكر عالماً جليلاً هو جار لي في دمشق، زرته مرة وصل عمره إلى المئة، قال لي: عندي ثمانية وثلاثون حفيداً، معظمهم من حفاظ القرآن الكريم، وأطباء، أنا خرجت من عنده قلت: هذا الإنسان تزوج امرأة أنجب أولاداً، والأولاد جلبوا له الكنائن، والبنات جلبوا له الأصهار، الأولاد والبنات والأصهار والكنائن أنجبوا ثمانية وثلاثين حفيداً، هذا الكم الكبير ما سبب هذا الجمع الغفير الهرم؟ لكنه أنجب هرماً من المتفوقين في الحياة، فالشهوة حيادية، سلم نرقى بها، أو دركات نهوي بها.

الأستاذ راضي :

دكتور نعود إلى الشرع، الشرع مرجع للعقل إذا ضلّ وللفطرة إذا انطمست كيف يكون ذلك؟

5 - الشرع :

الدكتور راتب :

هناك موازين عند الباعة لو إنسان غيّر في هذا الوزن أشعل ناراً تحته وأخذ شيئاً من الرصاص الذي فيه، فصار الوزن غير صحيح، أين المرجع؟ في البلدية وزن نموذجي، فدائماً العقل قد يضل، والشهوة قد تنحرف، المرجع الثابت الدائم للإنسان عندما يضل عقله، لأن كيف أن هذه العين لا يمكن أن ترى إلا في الضوء، وكذلك العقل لا يمكن أن يصل لهدفه إلا بالوحي، علاقة الضوء بالعين كعلاقة الوحي بالعقل، فالعقل من دون وحي يضل، الآن العقل يتحرك حركة من دون وحي في العالم، حروب، واجتياحات، ونهب ثروات، ونهب، وقتل، هذه كلها من حركة العقل من دون وحي السماء، فالعقل يحتاج إلى وحي، والعين تحتاج إلى ضوء، الذي أتمنى أن يكون واضحاً تماماً أن الشيء الذي ينبغي أن نشرحه هو أن العقل والفطرة قد تضلا، ما المرجع الثابت الذي لا يخطئ؟ هو الشرع، قالوا: الحسن ما حسنه الشرع، والقبيح ما قبحه الشرع، كأستاذ رياضيات أعطاك مسألة قال لك : هذا هو الجواب، فإذا حللت وفق هذا الجواب فأنت مصيب وإلا فأنت مخطئ، الشرع هو المقياس الثابت عندما يضل العقل، أو تنحرف الفطرة.

الأستاذ راضي :

حقيقة الوقت في حياة الإنسان.

6 ـ الوقت :

الدكتور راتب :

والله ما سمعت تعريفاً للإنسان أدق من هذا التعريف: بِضْعَةُ أيام، كلما انقضى يومٌ انقضى بِضْعٌ منه.

قال تعالى:

(وَالْعَصْرِ)

[سورة العصر الآية : 1]

أقسم الله بمطلق الزمن، بهذا المخلوق الأول الذي هو في حقيقته زمن، قال له :

(و العصر* إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ)

[سورة العصر الآيات : 1-2]



الوقت وعاء العمل

جواب القسم أيها الإنسان أنت خاسر، لماذا يا رب؟ قال: لأن مضي الزمن يستهلكه، بِضْعَةُ أيام، كلما انقضى يومٌ انقضى بِضْعٌ منه. أو رأسماله هو الزمن، أو أثمن شيء يملكه هو الزمن، الآن هذا الزمن إما أن ينفق إنفاقاً استهلاكياً كحال أهل الأرض؛ يأكلون، ويشربون، ويتمتعون، ثم يفاجؤون بالموت، بينما المؤمن ينفق هذا الوقت إنفاقاً استثمارياً أي يفعل في الوقت الذي سينقضي عملاً ينفعه بعد مضي الوقت، يعمل عملاً ينفعه في الآخرة، فهذا الوقت إما أن يكون إنفاقاً استهلاكياً أو إنفاقاً استثمارياً، الله عز وجل قال:

(إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

[سورة العصر الآية : 3]

أي ما لم تبحث عن الحقيقة، وما لم تعمل وفقها، وما لم تدعُ إليها، وما لم تصبر على البحث عنها، والعمل بها، والدعوة إليها فأنت خاسر، والخسارة محققة لأن الإنسان بِضْعَةُ أيام، كلما انقضى يومٌ انقضى بِضْعٌ منه، فالوقت وعاء العمل، والوقت هو أثمن شيء في المعيار الاقتصادي، إذاً الإنسان بِضْعَةُ أيام، كلما انقضى يومٌ انقضى بِضْعٌ منه، والوقت وعاء عمله، وهو في حقيقته حقيقة الإنسان نفسه.

الأستاذ راضي :

دكتور العالم الإسلامي يحتاج إلى مسلم يمشي ما دلالة هذا الكلام؟

الإنسان حينما يعرف سرّ وجوده وغاية وجوده يسلم ويسعد في الدنيا والآخرة :

الدكتور راتب :

لأن القيم لا تعيش في الكتب، القيم تعيش في الواقع، أنت حينما ترى إنساناً أمامك، يتعرض للإغراءات كلها، يتعرض للضغوط كلها، يعيش معك في ظروف صعبة، في ضغوط، في مغريات، في صوارف، في عقبات، انتصر على نفسه، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام بشر، ولولا أن النبي بشر، تجري عليه كل خصائص البشر، وانتصر على بشريته، لما كان سيد البشر.

فالإنسان الذي تراه بعينك إنسان مستقيم، صادق، أمين، دخله حلال، ربى أولاده، وهناك ضغوط في الحياة، وانحرافات، وضلالات، و طروحات سيئة، نجا منها كلها، الإنسان حينما يعرف سرّ وجوده، وغاية وجوده، وحينما يعرف ربه، عندئذ يسلم ويسعد في الدنيا والآخرة.

الأستاذ راضي :

دكتور لم يبقَ لنا إلا دقائق معدودة نصيحة توجه إلى السادة المشاهدين، كيف نصل إلى ود الرحمن؟

خيار الناس مع الإيمان خيار وقت فقط :

الدكتور راتب :

أستاذ راضي أودع الله في الإنسان قوة إدراكية، والإنسان ما لم يتعرف إلى الله وما لم يتعرف على منهجه، وما لم يحمل نفسه على طاعته، وما لم يتقرب إليه، هبط عن مستوى إنسانيته إلى مستوى لا يليق به، الإنسان هو المخلوق الأول، فحينما يعرف ربه، ويعرف منهج ربه، ويحمل نفسه على طاعة الله، يسلم ويسعد في الدنيا والآخرة، والحقيقة الإنسان عند الموت تكشف له الحقائق:

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

[سورة ق الآية : 22]

وأنا مؤمن وموقن أن كل البشر عند الموت تكشف لهم الحقائق التي عاشها الأنبياء، لذلك الإنسان خياره مع مليون موضوع خيار قبول أو رفض، إلا مع الإيمان خيار وقت، يختار هذا البيت يشتريه أو لا يشتريه، هذه الوظيفة يقبل بها أو لا يقبل، هذه الفتاة يقبلها زوجة أو لا يقبل، خيار الإنسان مع مليون شيء خيار قبول أو رفض، إلا مع الإيمان خيار وقت، لأن أكفر كفار الأرض فرعون الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

[سورة النازعات الآية : 24]

والذي قال :

(مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

[سورة القصص الآية : 38]

فرعون عندما أدركه الغرق قال :

(آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

[سورة يونس الآية : 90]

إذاً خيار الناس مع الإيمان خيار وقت، فالبطولة أن أعرف الحقائق قبل فوات الأوان، طالب بعدما خرج من الامتحان وأخذ صفراً، فتح الكتاب، قرأ الإجابة الصحيحة، لكن ما قيمة هذه القراءة الآن بعد الامتحان؟ نحن نهتم بمعرفة الله ونحن أحياء في الدنيا، أما عند الموت حتى أكفر كفار الأرض يعرف الحقيقة التي جاء بها الأنبياء .

والحمد لله رب العالمين

الفهرس